



كتاب دوري يصدر عن
الإدارة العامة للدراسات والمؤتمرات
برابطة العالم الإسلامي

الإشراف العام
أ.د. عبد الله بن عبد المحسن التركي
أمين عام رابطة العالم الإسلامي

أ. رحمة الله بن عناية الله أحمد
مدير عام الدراسات والمؤتمرات

د. غسان بن علي محمد الرمال
مدير إدارة الدراسات والبحوث

التحرير
د. صالح بن جمال بدوي
المستشار الثقافي

«كتاب يُعنى بالبحوث والدراسات العلمية في
شؤون العالم الإسلامي وقضايا المعاصرة،
والدراسات المقارنة والتاريخية وحضارة
الشعوب الإسلامية وتراثها»

*“This book focuses on scholarly studies and
researches pertaining to current affairs as
well as contemporary issues of the Muslim
world and comparative studies as well as his-
torical studies of the heritage of Muslim peo-
ples”*

الإخراج الفني
ثروت عبد السلام النحاس
عنوان المراسلة
ص.ب. ٥٣٧ مكة المكرمة
الإدارة العامة للدراسات والمؤتمرات
موقع الرابطة على الانترنت
www.themwl.org

الأفكار الواردة في البحوث المنشورة تمثل رأي أصحابها الباحثين وقد لا تمثل رأي الرابطة

Views expressed in this book belong to the researchers, and may not represent Rabita's views

ظهر الغلاف الخارجي



الغلاف الداخلي

(ح) رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رابطة العالم الإسلامي

دراسات في الشأن الإسلامي / رابطة العالم الإسلامي.

الرياض، ١٤٢٨هـ

٥٠٠ ص ؛ ٢٥ سم

ردمك : ٧ - ١٩ - ٦٩٦ - ٩٩٦٠

١- الاقتصاد الإسلامي ٢- الإسلام والمجتمع ٣- المسلمون في العالم أ.العنوان

١٤٢٨/١٠١٩

ديوي ٢١٩

رقم الإيداع : ١٤٢٨/١٠١٩

ردمك : ٧ - ١٩ - ٦٩٦ - ٩٩٦٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الإفتتاحية

بقلم

أ.د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي

هذا الكتاب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن تطورات العصر وتسارع أحداثه ومتغيراته بوتائر متصاعدة، ما فتئت تلقي بمعضلاتها المعقدة على كاهل الإنسانية بعامه والأمة الإسلامية بخاصة، وأصبحت الحاجة حثيثة ومتزايدة إلى المسارعة في متابعة تلك المتغيرات، والعمل بجد ومنهجية في سبر أغوارها وصفاً وتحليلاً ومقارنة، واستنتاج قواعد التعامل معها، ولا سيما ما كان منها مؤثراً تأثيراً مباشراً وحاسماً في الهوية والاستقلالية والخصائص الثقافية للأمم والشعوب.

وقد أصبح يحذر بهذه الأمة خطر جديد يهدف إلى استلاب ثقافي بل حضاري، من جراء الاستجابة الانسياقية للعولمة الثقافية التي تسعى إلى فرض النموذج الغربي للشخصية فكراً وسلوكاً، يروج له تيار عارم من المعلومات الحرة والموجهة، التي تنفذ إلى الناس ليلاً ونهاراً عبر وسائل الاتصال المتنوعة، وفي ذات الوقت يروج لمحاربة كل ما يقف في طريقه من فكر وقيم ومبادئ، بفنون من الدعاية الكاذبة المغرضة التي تستتر أحياناً وراء مسح من العلم والتجرد في البحث والنقد، لكنها سرعان ما تبرز ما يقطع بتجانفها، لاستهداف الأمة الإسلامية بالتشويه في شخصيتها ودينها وحضارتها.

ورابطة العالم الإسلامي، وهي تعمل في كل وجه، دائبة في سعيها لنصرة الشعوب المسلمة في قضاياها، والإسهام في النهوض بها من ضعفها، تقوم

دراسات في الشاه الإسلامي

بالعديد من المشاريع الدراسية والبحوث العلمية، المتصلة بالواقع الإسلامي في ظل المتغيرات العالمية، فإن فقه هذه المتغيرات، والغوص في أعماقها ببحوث نوعية ارتيادية، منضبطة بمنهج علمي في استقصاء المعطيات، وتناولها في التركيب والتحليل والمقارنة، ضرورة من ضرورات الوضوح في الرؤية، والدقة في الحكم، والتوازن في الموقف، والإمساك بميزان الاعتدال في تمييز الصحيح من السقيم، والنافع الصالح الذي يجب عضده وتكثير صلاحه، من الضار الفاسد الذي يجب الحذر منه وتقليل شره ودفع ضرره...

وقد سخرت الرابطة ما تهيأ لها من الوسائل والإمكانات، لخدمة أهدافها في هذا المجال، عن طريق ما تنظمه وتشارك فيه من مؤتمرات وندوات ومناسبات، أمانتها العامة والهيئات والمجالس التابعة لها، وفي ضوء ما تصدره من كتب ودوريات، فاستطاعت بذلك- وبفضل الله قبل ذلك- أن تصل إلى مشاركة لها تأثير على مشاهد الأحداث ومستجدات الوقائع.

وهذا الكتاب الدوري الذي نضعه بين يدي القراء، مشتملاً على جملة من الدراسات في موضوعات حيوية، جادت بها قرائح ثلة من الباحثين المتميزين من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، هو واحد من المشاريع البحثية الارتيادية، أمل أن يسهم في التبصير والتوعية بقضايا لها نطاق واسع من الاهتمام في الأوساط الإسلامية، وأن يستجلب مزيداً من الباحثين والعلماء من أبناء الأمة، للمشاركة بواسطة أطر توجه الطاقات الفكرية نحو أهداف الأمة، في دراسة قضاياها والدلالة على السبل الراشدة في التعامل مع المستجدات والتكيف الصحيح مع المتغيرات.

وبالله التوفيق، وهو المستعان وعليه التكلان.

الأمين العام

لرابطة العالم الإسلامي

الثقافة الإسلامية والعولمة

د. كمال الصادق عمران

(أستاذ الحضارة العربية الإسلامية - تونس)



دراسات في الشأن الإسلامي

المدخل

تحمل المصطلحات والمفاهيم رؤى حضارية تمكّن الباحثين من تبيين وجوه العلاقة بين مستوى المعرفة ومستوى الممارسة الاجتماعية، وقد لا يدرك لهذه العلاقة كنه ما لم تحلل الصلة العضوية بين البيئة من ناحية - تاريخياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً - ومواد التفكير من ناحية ثانية، ولا مطمح في هذا السياق إلى الإغضاء عن السببية القائمة بين التفكير وطرائق التعبير وهي تتمثل في اللغة، وقد تدفقت في العصر الحديث مصطلحات معبرة عن تضاريس جديدة تفصح عن المواقف التي فرضت سلطاناً لها كبيراً على العالم، وقد أفلحت في أن تغيّر وجه التاريخ (أو كادت) أمام العرب والمسلمين بعد أن غزا الجنرال الفرنسي بونابرت أرض مصر سنة ١٧٩٨م. وأعلن منطلقاً ليس له نظير في تاريخ الأحداث وتاريخ الأفكار وتاريخ الذهنيات عند المسلمين.

اتسم المنطق الجديد بقلب في الموازين شديد، وكأنّ المعادلات القديمة قد بارت ولم يبق لها في وجودها من علة، وآية ذلك الانتقال من السيادة العربية الإسلامية التالدة إلى السلطان الأوروبي الطارف في مرحلة أولى (والمرجعية فيه محددة بالإطار الجغرافي، حيث نشأت الحداثة انطلاقاً من إيطاليا ثم فرنسا وألمانيا وانجلترا وسائر البلدان الأوروبية التي أخذت بأسباب التطور)، وإلى الهيمنة الغربية في مرحلة ثانية (وهو محدد إيديولوجي : فكراً واقتصادياً وتكنولوجياً، ويدخل في هذا الإطار اليابان وهي من أقصى الشرق)، ولم تتغيّر العلاقات ولم تختلّ الموازين فحسب، بل تغيّرت القيم وتبدلت معايير التعامل، ويجدر أن نطرح سؤالاً في هذا السياق، وقد يكون السؤال محورياً حاملاً لإشكالية النهضة المنسوبة إلى الثقافة العربية الإسلامية في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي: هل ارتقت القيم

دراسات في الشأه الإسلامى

الإنسانىة فى ظلّ الحضارة الأوروبىة - وهى المحفوفة بالعلم والمعرفة وبقدر
كبىر من المكشفات الخارقة - إلى ما فىه النفع المادى والروحى؟ وهل رافق
انحسار المدّ الحضارى الإسلامى شحّ قىمى واضع؟ وهل الحاجة إلى القىم
فى إطار الحدائة ضرورىة أم السلطان للمادة فحسب؟

١. تحديد المفاهيم

نحتاج إلى تحديد المفاهيم لتيسير التعامل مع الأفكار والقضايا المتشعبة المتصلة بالثقافة وهي ترجع إلى العولمة كما تعود بالنظر إلى الرؤى الإسلامية وهما يمثلان الموضوع المطروح في هذا العمل، ولن نخرج فيه عن زاوية الطرح المعاصر في إطار الفكر العربي الإسلامي، وما يقتضيه من الحذر الشديد من السقوط في مجازاة الأخذ عن الغرب على مستوى المناهج و المواقف. و التساؤل هنا عن الثقافة الإسلامية أكيد، فهل جفَّ معينها عن العطاء وتوفير الآليات الضرورية للبحث العلمي؟ وإلا كيف نفسر لجوء عدد من الباحثين إلى تبني المقاربات الأوروبية، وكأنَّها الطريقة المثلى في البحث والدرس والتمحيص؟ فهل تكلس العقل عند المسلمين أو أصابه بعض من الكسل الذهني الفظيع؟ والمسألة متصلة بالعلوم الثقافية المحتضنة لهذه الإشكاليات، وهذه العلوم، إنما هي علم ناشيء فوجب الوقوف عند مفهوم الثقافة أولاً .

١.أ - مفهوم الثقافة :

يتواتر مفهوم للثقافة شامل هو من قبيل التحديد المنهجي الناجم عن دراسة مخبرية صدرت عن إدوارد تايلور Edward B. Tylor في كتابه الموسوم بـ Primitive culture وقد أرجع فيه الثقافة إلى "الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والتقاليد وأي قدرات وعادات أخرى يتعلمها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"، وقد تبنت دائرة معارف العلوم الاجتماعية هذا التحديد، وبوَّأته منزلة التعريف التأسيسي، ووقف عنده الباحث رالف لينتن وجعل له منزلة المرجع في تحديد مفهوم الثقافة (١).

وإنَّ التَّعرض لتعريف دقيق شامل للثقافة مغامرة لا تؤتمن عواقبها، نظراً

دراسات في الشاه الإسلامي

إلى تشعب المعنى و تعدد الفروع الناجمة عنه، فحسبنا أن نكتفي بالمرجعيات المهمة الملازمة له :

المرجعية الأولى لغوية والرجوع إلى لسان العرب لابن منظور يحيل إلى المعنى البدوي الأصيل ومجمله أن " ثقف " يفيد الحذق وسرعة التعلم والظفر بالشيء قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَنْتَفِنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ (الأنفال: ٥٧) ... والثقاف والثقافة العمل بالسيف^(٢)، ومهما اجتهدنا في النهل من المعين اللغوي فإنه لا سبيل إلى إشباع الغاية إذ إن المصطلح يتأبى عن الحد اللغوي داخل في العرف الفلسفي، والثقافة في الفلسفة هي - إجمالاً - كل ما يضاف إلى الطبيعة .

المرجعية الثانية اجتماعية أناسية (انثربولوجية)، وهي تجعل الثقافة جماع النشاط المادي والذهني الذي يتوارثه الأفراد عن المجموعات، وميزة هذا التعريف أنه شامل يرصد الثقافة من الجانب النظري والجانب العملي، ويقلص من الهوة الفاصلة بين مفهومي الثقافة والحضارة^(٣).

المرجعية الثالثة بيولوجية ورقمية، والصلة بين البيولوجي والافتراضي أو بين علم الأجنة وعلم المعلومات، مستجدة وهي من المواد الخام في الدراسات المخبرية، لقد أصبح الكلام على التوازي بين القانون (العلمي) البيولوجي والقانون (داخل العلوم الإنسانية) الثقافي من فرضيات البحث العلمي، وللتوازي بين الظاهرتين أبعاد قد تبطن مزيداً من الهيمنة ومن التمايز بين المجتمعات المحظوظة بالقوة والمجتمعات المحرومة المستضعفة، على أن للمناهج المتبعة في هذا الإطار دوراً في الارتقاء بالظاهرة إلى السيادة المعرفية، وقد أضحت الثقافة - والخصوصية الثقافية على وجه الخصوص - العلامة على التمايز والأمانة على الغزو الفكري، بل أضحت مطية للتفسير توقفاً إلى المزيد من الهيمنة، وقد أجمت وسائل الاتصال من هذا الطموح وذللت أمام أصحابه المقتدرين كل الصعاب وزينت لهم أن الغزو الثقافي معلن بالنصر الحضاري المبين^(٤).

دراسات في الشأن الإسلامي

١. ب - مفهوم العولمة

يبدو المفهوم عصياً هو الآخر، وقد التبس بأطر معرفية متباينة تسمح للباحث أن يخوض في المعنى بطرق مختلفة قد تكون متناقضة، ووجه التناقض موكول إلى السياق التاريخي، فهل العولمة قديمة في الزمان؟ وهل ظهرت للناس في نهايات القرن العشرين بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بأنفس جديدة؟ وهل تخلو من رواسب الخلافات القديمة بين الحضارات والثقافات؟ تؤدي هذه الأسئلة إلى التعامل مع المفهوم - رغم المتناقضات التي ذكرنا - خلال ثلاث رؤى :

الرؤية الأولى: تراعي هذه الرؤية منطلق أصحاب العولمة، وهم يبصرون فيها معقولية تاريخية تبيح لأهل القوة أن يبسطوا سلطاناً شاملاً على العالم تحت راية الاقتصاد والاعتقاد والثقافة، لقد استتدت العولمة في البداية إلى الاقتصاد ولعبت الشركات العابرة للقارات دوراً جسيماً في تحويل المعاملات من منطلق علم الاقتصاد إلى هيمنة المال على النسيج الاقتصادي، وقد اشتد عود هذه الآليات الجديدة بانتشار طموح ملخصه أن العولمة تبشر بنمط من الحياة رفيع رغيد يمس كل البشر دونما استثناء، والسبيل إلى ذلك ما تنعم به الشركات العملاقة من القوة المالية، وما توحى به من قيم تحلم بالمساواة والعدل والشعاع المرفوع هو أن يكون الاقتصاد في خدمة المال. ثم اكتسحت العولمة جل مجالات الحياة الإنسانية "فتعولمت" حقول الحياة كالسياسة والفكر والثقافة، وأوشك القضاء على أن ينزلق في الاتجاه نفسه و"تعولم" الإعلام إن عنوة أو صلحاً، ولم تشذ عن غاية الاكتساح القيم والأخلاق وأنماط السلوك الاجتماعية... والله أعلم بما سيكون.

إجمالي الكلام على هذه الرؤية هو أن العولمة وعد بالإنصاف تتمثل في درء مفسد الفقر والفاقة والتفاوت بين الإنسان والإنسان أو بين المجتمعات والمجتمعات^(٥).

داسات في الشاه الإسلامي

الرؤية الثانية: تتقل هذه الرؤية موقف المناهضين للعولة و يتسنى تلخيص المناهضة في نقاط : منها "أمركة" العولة، ومنها توجيه المنافع - النظرية - العامة إلى منافع خاصة، ومنها توجس الخيفة من انهيار الخصوصيات الثقافية، وتوجيهها نحو الإذعان لمنطق الهيمنة وللنظام العالمي الوحيد، وللباحث المصري جلال أمين كتاب وسمه بـ "العولة" صب فيه جام رفضه على هذه الظاهرة، وقد قلب النظر في جوانب منها كثيرة كالصلة بين العولة والهوية الثقافية، والعولة وثورة المعلومات، والعولة والمجتمع الاستهلاكي، والعولة وحضارة السوق.

وقد يلخص الكتاب كله كلاماً للمؤلف ورد في شكل سؤال وهو: هل العولة حتمية؟ يقول: "إن اعتبار ظاهرة العولة حتمية قد لا يكون في الحقيقة أكثر من اعتراف المرء بأنه لم يعد لديه طاقة باقية للمقاومة، أي إنه قد نفذ جهده وأصبح مستعداً للتسليم^(٦).

الرؤية الثالثة: وهي الحل الممكن والممتع في آن واحد، وهي من جهة أخرى مستوحاة من باطن الفكر الوسطي الممتليء طموحاً إلى امتلاك ناصية الحلول بدل اليأس والرضا بالمفروض، ومؤدى هذه الرؤية أن العولة - بما فيها من مزايا ومن عيوب - فرصة لا يجدر أن تتبخر، ولا يخرج مدلول الفرصة عن المتاح عبر الثقافة الرقمية وما يتصل بها من الكون السيبرنتيكي Cybernétique وهي من الجهد اليسير الذي قد لا يحتاج إلا إلى العزيمة والقرار، وهي أقرب إلى ما تكون متصلة بالمستوى الذهني منها إلى المستوى المادي المتعلق بتوفير الإمكانيات، وبمعنى آخر يقتضي النهل من الثقافة الرقمية إرادة قوية لأن أمرها موكل إلى حصاد التطور التكنولوجي وهو ناجم عن التعاضد بين الحضارات وعن التكامل بينها، فيتميز النشاط الثقافي بناء على قاعدة التفاعل والنجاعة. وليس من سبيل إلى أن تتفرد ثقافة واحدة بمآثر الجهد البشري، وإن كان ذلك تحت ضغط الهيمنة

داسات في الشاه الإسلامي

والقدرة المادية الهائلة. فهي وإن نجحت في فرض المعايير المؤدية إلى الحفاظ على المكتسبات بكل الطرق (٧) فإنها لا تقدر على الإقناع العقلي أو العاطفي لأن المجد متمحض لها دون غيرها من الثقافات، وتتضاف إلى هذه النتيجة ملاحظة مهمة نطقت بها تجربة الإنسان عبر التاريخ، وهي أن القوة الذهنية/ الروحية قادرة على أن تعتق العقول، وأن تفضي إلى التغيير الذاتي، ولعل أبرز الفرص التي تعرض لها الباحثون تكمن في المساحة الديمغرافية، وفي الموقع الجغرافي " ففرص الديمغرافيا هي تلك التي توفرها تركيبة السكان ومؤهلاتهم وقدرتهم على التجاوب مع مناخ العمل الجديد، الذي يتطلب النظر إلى آفاق أرحب تفرضها العولمة والتحررية في كل ما يخص تنافسية الإنتاج، وحجم العمل، وحذق أنماطه الجديدة، والقدرة على التمييز، وعلى الإبداع" (٨). ويتبع البعد الديمغرافي الصرف، الآفاق التي يجدر أن تكون أوسع داخل معاملات وتكتلات تؤدي إلى استثمار الفرصة لتحويل العولمة إلى ما يفيد أصحاب الثقافة العربية الإسلامية. ويضاف إلى العامل الديمغرافي، المجال الجغرافي وللموقع في هذا السياق أهمية ذات بال قد تكون سبيلا إلى استثمار عدد من العناصر المفيدة من العولمة (٩).

١- ج. الثقافة الإسلامية :

ماذا يضيف نعت الإسلامية إلى مفهوم الثقافة ؟ سنكتفي في هذا الصدد بعدد من الملاحظات لنجيب عن السؤال :

- الإسلام بمعنى الرسالة المحمدية هو الجامع للأديان الصالح لكل زمان ولكل مكان وهو المميز للثقافة التي فيها من الشمول ما يسمح بالإحالة إلى مظهرين: أولهما الشمول بالمعنى الجغرافي والتاريخي والحضاري، ويتأسس المعنى على طبيعة الدين الإسلامي الضامنة بتوفير الحلول العقديّة والتشريعية لكل البشر، وثانيهما الترابط بين الثوابت من جهة والمتحوّل من جهة أخرى ترابطا ييسر التطبيق العملي لمستلزمات التدين دون حرج يصدم

دراسات في الشاه الإسلامي

المسلم إزاء التطور التاريخي، ولعل من أبرز العلامات على الإعجاز القرآني خارج المجال البلاغي والمجال العلمي، أن ما جاء فيه من المعاني مهما كان نوعها يهدي للتي هي أقوم، ويورث في النفس التوازن والطمأنينة، وهو معنى لا يقتضي الإطناب في النظري من التفكير بل يستدعي الممارسة والتجربة وبتعبير آخر إن الميسم الجوهرية للثقافة الإسلامية في هذا السياق يكمن في كون نتائج التطبيق تدرك في مستوى المعيش ماديا وذهنيا ونفسيا .

- الإسلام دين وحضارة وثقافة، وليس من وجه للفصل بينها، فقد صنع الدين حضارة، وبشّرت الحضارة بثقافة، وهي إلهية المصدر، بشرية في الاستخلاف، إنسانية في الممارسة، وقد جعل الإنسان المقصد الأسنى للشريعة، ولعل من أوجه الطرافة أن أكبر فلاسفة الإلحاد في العصر الحديث الألماني نيتشة هو الذي نبّه في كتاب له عنوانه "المسيح الدجال" إلى أن قساوسة أسبانيا قد حرّموا أوروبا من حصاد الثقافة الإسلامية، تلك الثقافة حسب تعبير الفيلسوف التي تراعي الإنسان، وتعتبره اعتباراً كبيراً^(١٠) ويدخل هذا المعنى في نسق لافت مؤداه أن التلازم بين البعد الإلهي والبعد البشري من جوهر الثقافة الإسلامية، وأنّ الإنسان كلما أخلص في العبادة لله ازداد عزّة وتمكينا، وهو ما يحصل بالتجربة كما ذكرنا .

- للثقافة الإسلامية مساحتان: تتمثل المساحة الأولى في النصوص المؤسسة للعلوم الشرعية ولا محيد فيها عن التخصّص بل التعمق في الاختصاص، لأنّ العلم الشرعي ضمن علوم القرآن وعلوم الحديث وعلم الفقه، والعلوم الأخرى الراجعة إليها، علم دقيق عزيز المنال يشترط لبلوغ الغاية منه عددا من المرتكزات الضرورية، وفيها جانب كبير معرفي وجانب كبير لا يقل أهمية عنه، وهو سلوكي عملي، والصورة النموذجية للتكامل والالتحام والتناغم بين الجانبين، ما أنجزه النبي ﷺ في سيرته العطرة كلها، فقد كان خلقه القرآن كما قالت عائشة - رضي الله عنها - وعلى قدر اقتراب المسلمين عبر الأحقاب التاريخية المتلاحقة أو

دراسات في الشأن الإسلامي

ابتعادهم عن السنة تتحدّد درجة التقوى والفلاح بالنسبة إليهم. ولقد نطق الواقع التاريخي فعلاً عن تضاريس أبانت عن التفاوت في تعامل المسلمين مع دينهم، وهي مجالات بحث ضرورية، وهي إن اتخذت مسلك الدراسات المخبرية - على طريقة العلوم الصحيحة والطبيعية أو بما يقترب منها - فستغيّر من منطق التفكير، وستفتح منافذ إلى النقد الذاتي الكفيل، بأن يسهّل على المسلمين الفهم العميق لمرتكزات الإسلام ومقاصده العظمى، وكل ذلك من صميم المباحث الثقافية في المقاربات المعاصرة.

المنعطفات الثقافية بين المسلمين وغيرهم

نسعى إلى أن نقلّب النظّر في العلاقات الثقافية بين المسلمين وغيرهم انطلاقاً من معادلات تلخّص أبرز المراحل، وتحيل إلى النسق الثقافي عند المسلمين بين الحركة والسكون، وقد وضعنا المعادلات داخل جدول يبين عن الإشكاليات الحافّة بالثقافة الإسلامية من طور النشأة إلى طور الاصطدام بالعوالم .

أهل الإسلام	أهل الملل الأخرى
(١) ١- المعادلة التاريخية الأولى : أمة الإجابة	أمة الدعوة
٢- المعادلة التاريخية الثانية: أ - دار الإيمان	دار الجهاد
ب - دار الإسلام	دار الحرب
ج - دار الإسلام	دار الصلح
(٢) ١- المعادلة التاريخية الثالثة: دار الوهن	دار القوة
٢- المعادلة التاريخية الرابعة: أ- المحيط/الهامش	المركز
ب - العالم الثالث	العالم المتقدم

دراسات في الشاه الإسلامي

ج - البلدان النامية — البلدان المتقدمة

(٣) - المعادلة التاريخية الخامسة : **المعولمة**

القوى العظمى الوحيدة (١١)

القوى الإقليمية المهمة

القوى الإقليمية الثانوية

الآخرون (١٢)

قد يكون جدول المعادلات التي اقترحناه مجحفاً بعض الإجحاف، إذ إنّه من اليسير تعقّب كلّ المراحل التاريخية بالدقّة اللازمة والتّحري الضّروري، بيد أننا نقنع بما يهدي السبيل إلى الرؤية المنهجية، عسانا أن نمسك بظاهر التحولات، ونقف عند المنعطفات المتّصلة بالثقافة الإسلامية في علاقتها بكل ما يتغير في المحيط العالمي، وسنقتصر على إبداء عدد من الملاحظات:

١- المعادلة الأولى :

تنطق المعادلة الأولى عن الذّهنية المؤسّسة للثقافة الإسلامية في أصولها النقيّة، وقد تواتر عند المؤرخين وأصحاب الطبقات والإخباريين في مرحلة التدوين المبكرة استعمال المصطلحين اللذين حددناهما آنفاً، فأمة الإجابة هي أمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وهي أمة التوحيد والقرآن وصفاتها في الكتاب العزيز تلخصها الآيات من سورة الفرقان : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

داسات في الشاه الإسلامي

وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿الآيات من ٦٣ إلى ٧٤﴾ .

لقد انتشرت في القرآن صفات المؤمنين، وتوزعت بمقتضى ما يسميه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره الموسوم بـ "التحرير والتنوير" إحكام النظم، وقد وقفنا عند الصفات المذكورة في سورة الفرقان لأسباب منها: أن السورة الكريمة تفصل بين الحق والباطل وبين الخير والشر وبين الهداية والغواية، وبين عباد الرحمان والجاهلين، وهي خلاصة المنهجية التي بنى عليها الإسلام التنشئة الثقافية للأفراد وللجماعات وقوامها على التمييز بين النجدين نجد الهداية ونجد الغواية، وإذا تأملنا المقابلة بين عباد الرحمان والجاهلين فإننا ننتهي إلى استنتاج لطيف مؤداه أن الصفات تؤخذ بالتضاد، وأن رموز الدلالات فيها تدرك بالنقيض، وبه تتجلى، فنحن إزاء أطروحة ونقيض لها، يكمن مناط الأطروحة في صفات المؤمنين، وقد عرجت بهم تقوهم إلى استحقاق منزلة فيها من التشريف ما يعادل السعادة الحق، وهي أن يرتقوا إلى درجة الانتساب إلى صفة الرحمة، وللرحمة، مفهوم، دلالات ناطقة عن فضل من الخالق تؤديه صيغة فعلان في عبارة "رحمان" وفيها معاني المبالغة (الرحمة التي لا حدود لها)، ومعاني الملائمة (تنزل الرحمة في الحال التي ينبغي، متى ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي، حكمة لا يعلم سرها إلا الله).

ليس لنا من طاقة على استخراج المعاني التي تطفح بها هذه الآيات،

داسات في الشاه الإسلامي

والقرآن لا تتقضي عجائبه، فحسبنا أن نتأمل معنى جوهريا يكمن في الأبعاد التي تتطوي عليها المقابلة بين عباد الرحمان والجاهليين، وأن نسائل المعنى من جهة البعد الثقافي، ألسنا إزاء ثقافتين متنافرتين جعل لهما القرآن الكريم مجالا رمزيا قوي الدلالة ؟ للثقافة الأولى مرجعية سماوية تؤسس لقيم الرحمة، وتوصلها في مساحة التجربة البشرية، وللثقافة الثانية مرجعية بشرية خاضعة للنوازع الشهوية فلا يمكن أن تشرع إلا لقيم القوة والجور.

أ - الرحمة: ليس للرحمة المعنى العاطفي السطحي المكتفي بالانفعال السريع، فتكون قيمة عارضة وسلوكا متصلا بالظروف التي تملئها، إن القرآن الكريم وحي سماوي نزل على النبي الخاتم ﷺ وأسس لدين صالح لكل زمان ولكل مكان والرحمة فيه عامة، وفي الآيات الكريمات من سورة الفرقان بصفة خاصة تتجلى الرحمة في إهاب منظومة متناغمة متكاملة لا تقنع بالدعوة إلى القيم من حيث هي دلالات ومبادئ وأخلاق فحسب، بل إن لها منطلقات وأركاناً ودعائم أيضاً، وهي تنطق عن كونها بناء متلاحم العناصر، ويجوز أن نشير إلى البناء بإشارات دقيقة .

المنطلقات: وقوامها على الإسلام والإيمان والإحسان، وهو المعنى الذي يدرك من حديث جبريل (١٣) ، فليس من وجه للتخمين في المنطلقات لأنها لا تتحقق إلا بما جاءت به السنة الصحيحة الشريفة ولا سبيل إلا إلى تنفيذ موقف يركبه بعض الواهمين ومؤداه أن تحقيق القيم دون الالتزام بشروط العبادة يكفي ويغني (١٤) . **وكلما تحقق التدرج من الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان بالمعنى الذي أداه حديث جبريل تمكنت الرحمة من المشاعر والأحاسيس.**

الأركان : وتتمثل في التلازم بين الإيمان والعمل الصالح، ولا محيد عن استعادة جوهر هذا التلازم عبر التدبر الفاعل في السيرة النبوية الشريفة بوصفها التطبيق الأمثل للقرآن (١٥). وكل قراءة تحترم هذه الحقيقة وتجعله

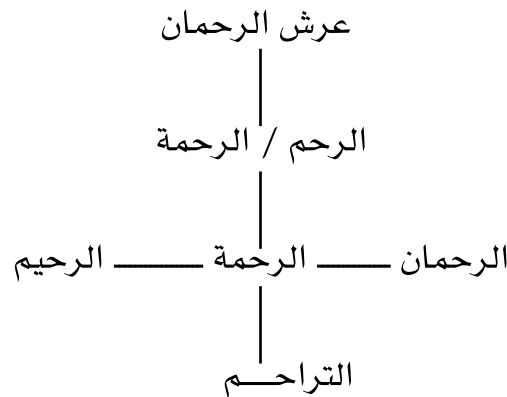
داسات في الشاه الإسلامي

النبراس في تحقيق المناط الحضاري والثقافي هي القراءة الجامعة جمع تناغم وإنشاء بيسر التأكيد على أن الثقافة الإسلامية اعتباراً لأصولها الصافية تحمل عمقا إنسانيا أثيرا يتجلى في شكلين: أولهما نظري كامن في الشريعة الإسلامية، والثاني عملي ويتمثل في الاستقامة والعلامة عليها الحديث الشريف «قل آمنت بالله ثم استقم»^(١٦). وكلما ثبت التلازم بين الإيمان والعمل تأكدت الرحمة في العقول والأفهام.

الدعائم : وتتعكس في القانون الثقافي، ونعتبره سننا جديرا بأن ينظر إليه من زاوية التوارث والتواصل أي من جهة ما يؤخذ من الموروث وما يجدر أن تقدمه الأجيال المتلاحقة، وكلما أخلص اللاحقون للسابقين كان القانون الثقافي أمتن وأقوى إذ هو يضمن التوازن بين الأصول الثابتة من جهة وما يترتب عليها مما يطراً على الناس عبر التطور التاريخي من جهة أخرى، فتكون سمة التعلق بالموروث القدرة عند الأجيال المتعاقبة على إثراء العلم بحسن الفهم والتخريج ، وربط العروة الوثقى بين علم السلف ومعرفة الخلف. وكلما تواصل المتأخرون مع المتقدمين أزهرت الرحمة في القلوب وفي الوجدان.

ألا نصل إلى نتيجة ذات بال نعبر عنها بطريقتين :

أولاهما نقتصر فيها على شكل يلخص عناصر منظومة الرحمة الجوهرية:



داسات في الشاه الإسلامي

يصوغ هذا الشكل إطاراً لمنظومة الرحمة في سياق قراءة ثقافية نستجلي خلالها مقومات الثقافة الإسلامية في خطوطها الكبرى، والمنطلق في القراءة الآية الكريمة وفيها خطاب رباني موجه إلى الرسول الكريم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، الرحمة في هذا الشكل نواة ومركز تعود إليهما الاعتقادات والعبادات والمعاملات : الرحمة وسط بين الرحمان من ناحية - ونسبة العباد للرحمان كما جاء في الآية من سورة الفرقان، تشریف دافع إلى نسج السلوك على منوال الرحمة، وفي صيغة فعلان في الرحمان ما يوحي بفهم يجعل الرحمة لأمة الرسول الكريم تفضلاً من الخالق، آناً يتردد ويعاد زمانياً يؤدي معنى خلاصته ما يمن به تبارك وتعالى على الأمة الإسلامية وهي أمة «بسم الله الرحمن الرحيم» من الرحمة في اللحظة التي تحتاج إليها فيها - وبين الرحيم من ناحية ثانية. وصيغة فعيل تؤدي مظهر الاستمرارية في رحمة الله بكل عباده فالمعنى يفيد دلالة الزمانية وهي التواصل الذي لا ينقطع في الزمان. ولا يخفى أنه يكمل معنى الآنية التي أشرنا إليها في "الرحمان"، وفي الالتقاء بينهما علامة أخرى على التكامل في المنظومة. وللرحمة بوصفها جماع الثقافة الإسلامية صلة بما فوق، أي بالرحم وهي مجال الدربة على ممارسة الرحمة بين الأقربين، وهو ما تمليه الفطرة بعفو البديهة، نظراً إلى الاستعداد للإحسان لذوي القربى، وإنّ الرحم معلقة بعرش الرحمان ومنوطة بسلوكين، فإمّا باهتداء الإنسان إلى عقد الصلة لكي تبرم على التقوى، أو بالزيغ وبتر الصلة بالرحم، وهو يفضي إلى ما يغضب الرحمان غضباً شديداً. وللرحمة صلة بما تحت وهي العلاقات داخل الكيان الاجتماعي، وبها تكتمل المنظومة من حيث البناء، وبها تتطور من حيث الفاعلية، وهي منسوجة في الثقافة الإسلامية على التراحم بالمعنى المبني على المشاركة، واستحثاث الناس على نشر قيم الرحمة، ولعله يجوز أن نقول إنها ثقافة الرحمة؛ وهي في الثقافة الإسلامية بعيدة عن الخيال نابذة للشعارات تستدعي الممارسة والتطبيق، ونكاد نجزم أنّ للثقافة

داسات في الشاه الإسلامي

الإسلامية أساً جوهرياً يعتلي المرتبة الأولى وهو الرحمة بوصفها منظومة..
والنتيجة الثانية هي الممارسة ذاتها وقوامها على الاستقامة كما أسلفنا،
ونحسب أن الاستقامة هي العلامة المميزة للثقافة الإسلامية وهي تقترن
بقيمة العدالة، وهي في الثقافة الإسلامية جامعة لكل الفضائل (الحكمة،
وهي فضيلة النفس الناطقة والشجاعة، وهي فضيلة النفس الغضبية والعفة،
وهي فضيلة النفس الشهوية)(١٧). وليس غريباً أن نعد الاستقامة الأس
الثاني للثقافة الإسلامية. وتنشأ عن الرحمة والاستقامة كل الخصائص
الثقافية وهي متى حرصنا على الإيجاز :

- الفطرة نظاماً شاملاً لما يصدر عن الإنسان المسلم كما حددتها الآية
الكريمة من سورة الروم ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم:
٣٠)(١٨) وهي ترسم الإطار المرجعي العام (بالتركيز على الخصوصية
الثقافية الإسلامية، وهذا يعني أن لفطرة مجالات مختلفة في الأديان
الأخرى وفي الفلسفات المختلفة...) وكما حدد وظيفتها التربوية الهادفة إلى
حسن التنشئة الحديث الشريف " يولد المولود على الفطرة وأبواه يهودانه أو
ينصرانه أو يمجسانه(١٩). وكما ثبتت مصدراً رقيقاً للتفقه في الدين وبلوغ
الغاية من مقاصد الشريعة الإسلامية(٢٠).

- الشمول المعبر عن اكتمال الدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣)(٢١)، ومن المعاني العميقة
للشمول فضلاً عما يتصل بالشريعة لمّ الشمل المتعلق ببني آدم، مهما كان
لونهم أو عرقهم أو مكانهم أو زمانهم، فالثقافة الإسلامية مبنية على المساواة
والعدالة والإنصاف، وهي للشمول بعد تشريعي وآخر اجتماعي وآخر ثقافي
إذ إن للثقافة الإسلامية سمة جامعة لكل الأجناس لا تلغي ما في الثقافات
الخاصة للمسلمين من المرتكزات المتسمة بالصالح والخير، بل تعطيها نسيجاً
يزكي فكرة التكامل، ويجعل التعدد مرقاة إلى التماسك وإلى إثراء الثقافة،

دراسات في الشاه الإسلامي

وفي هذا الدليل على أن مفهوم الثقافة في السياق الإسلامي ذو حركة رأس المال الرمزي فيها الجهد الذي يبذله اللاحقون درءاً للسقوط في التقليد بوصفه كما عرفه الشوكاني: "الأخذ عن الرجال دون حجة أو دليل من القرآن والسنة" (٢٢)، فلا ينضب لإنتاج المعرفة عندهم معين، ولا يفتر لديهم العزم على الاستمسك بالعروة الوثقى، كما قدمها السلف للخلف تمثلاً عميقاً للثوابت كلها.

- **العدل** وهو القسطاس المؤدي لمعنى الفضيلة وحسن التدبير والسلوك وقد نصت الآية الكريمة من سورة النحل على القانون الثقافي الجامع بتصيصة فيه من الرموز ما يستدعي الجهد الكبير لبلوغ مرتبة الفهم والتحليل، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠) (٢٣). أليس من الوجاهة العلمية أن نتدبر أبعاد المقابلة بين العدل/الفحشاء، وما يتفرع عليها من مقابلة بين الإحسان/ المنكر، وبين إيتاء ذي القربى/ البغي ؟ وقد ذهب الرازي قديماً إلى أن هذه الآية الكريمة جمعت "ما يتصل بالتكليف فرضاً ونظراً وما يتصل بالأخلاق والآداب عموماً وخصوصاً" (٢٤)، وإذا اكتفينا بالعدل نفهم منه أنه اسم جامع للتوسط بين الإفراط والتفريط (٢٥)، ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في العدل في الآية نفسها " هو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات، إذ أن المسلم مأمور بالعدل في ذاته، قال تعالى ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥)، ومأمور بالعدل في المعاملة، وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه، ومعاملته مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائلية والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢)، وقال ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

وإذ كانت الثقافة في تعريفها الأنثروبولوجي نشاطاً مادياً وذهنياً في آن،

داسات في الشاه الإسلامي

فإنه لا سبيل إلى الاكتفاء في كل العناصر التي أشرنا إليها بما هو نظري ولن نجانب الصواب إن أكدنا أن من الأسباب الفظيعة التي أسرعت بأصحاب الثقافة الإسلامية إلى الوهن الفصل بين القول، والفعل وتجزئة العلاقة بين الإيمان - وهو المنظومة المنطلقة من الجانب النظري - والعمل - وهو المنظومة القائمة على الممارسة والتطبيق - وليس لنا من كلام على الثقافة في هذا البحث إلا من زاوية التلازم بين المادي/ السلوكي والذهني/ الفكري، فلا وجه لفطرة وللشمول وللعدل إلا داخل هذا التلازم، والتفريط في جانب من الجانبين تفريط في المنظومة كلها .

ب - الجهل : للجذر ج/ه/ل في اللغة العربية حقلان دلاليان ، يفيد الحقل الأول المعنى المباشر وهو عدم المعرفة، ويحيل المعنى الثاني على القوة والبطش، وقد يغيب هذا المعنى ويستعصي على الانتباه في حين أنه المعنى العميق، وهو الأقرب إلى سجل الكلام الوارد في الآية من سورة الفرقان. والمتدبر للمعنى اللغوي سيجد علاقة عضوية بين المعجم اللغوي والمعجم القرآني، وهي بحاجة إلى التأنى في استخراج الوشائج بين انعدام المعرفة والبطش. ولاسبيل إلى فهم ذلك إلا بالتفطن إلى ما أسس له السياق القرآني من سجلات في الكلام جديدة كسر بها ما كان ذائعا في الجاهلية. مثل الجهل في الفترة السابقة للإسلام، وهو عند أهله قيمة عدت من الخصال الحميدة فكانت مصدر مفاخرة على النحو الذي ورد في معلقة عمرو بن كلثوم، وهو يتغنى بأمجاد قبيلته :

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

وكان عمرو بن هشام يكنى أبا الحكم وينعت بالحكمة وهي خلاصة الفضائل الناجمة عن أعمال العقل، وكان قومه يشهدون له بالتمكن نظراً إلى ما حظي به من صفات البطش والقدرة على سفك الدماء استجابة للقيم الجاهلية المنتشرة، فلم يكتف بكونه سيداً في قومه، بل ارتقى إلى الرمز فهو الجامع لصفات الفتوة كلها المحمود فعاله عند العرب، بما ظنوا أنه القيم الأصيلة.

دراسات في الشأه الإسلامي

ثم جاء الإسلام فعدّل من قيم الجاهلية، وتعامل مع بعض منها، وأنكر عدداً آخر، ونهى عن كثير منها، فاستجدّ معجماً جديداً لعل من أبرز ما فيه حمل معنى جهل من خصلة القوة رمز التمكّن، على معنى الجور والظلم، ظلم النفس، وظلم الآخر، وظلم من في الأرض كلهم. ولا عجب أن يلقب النبي ﷺ أبا الحكم بمنطوق إسلامي معبر فأضحى عمرو بن هشام أبا جهل. وليس من شكّ في أنّ هذه الشخصية رمز للبطش والضلال، وأن من يقتدي بأبي جهل أخذ بناصية الرمز مهما تغيّرت الظروف وتوّعت. وليس من ريب في أنّ قوة المعجم القرآني كامنة في التأليف البليغ، فهو ينشئ من الصور المختلفة في الزمان والمكان المتفقة في الأفعال والأقوال والأحوال رموزاً، هي نماذج بشرية تتكرر عبر التاريخ، وفيها في حالات الانحراف، من العبرة لمن يروم الاستقامة ما يدفع إلى المقاطعة والرفض. وقد أشار الشيخ ابن عاشور في تفسيره إلى أنّ السلام الوارد في الآية الكريمة إنما هو سلام متاركة يقتضي النفور نفوراً متوسلاً بالأداب اللطيفة التي يحث عليها الإسلام. فمن الثقافة الإسلامية الإعراض عن الباطل بكل وجوهه دونما شدة أو بطش، وإلا اختلط عمل المسلم بشوائب من عمل الجاهلية، والتبست معاني الرحمة ببعض من معاني العنف وانقلبت القوة في الحالات التي تكون فيها ضرورية - وهي في الثقافة الإسلامية شديدة في الحق عامة، وشديدة في حال مواجهة الإنسان نفسه، ليّنة العريكة في حال مواجهة الإنسان غيره بصفة خاصة - إلى ذهان (بضمّ الذال) القوة وهي حالة مرضية شديدة.

العلاقة بين الخصال التي رفعت لواءها الثقافة الإسلامية وهي في المنطق الداخلي الإسلامي صالحة في الأولى، منجية في الآخرة من ناحية، والسّمات التي تشبّثت بها الثقافة المناقضة، وهي ثقافة الجاهلية التي لم ترسب في حدود الزمان الأرضي، هي الأخرى من ناحية ثانية. وإنّ لها الطاقة على أن تتوسع وأن تكتسح وأن تبسط سلطاناً على نفوس المستعدين للضلال أو الراسخة أقدامهم في الغوايات. ولن نجانب الصواب إن ذهبنا

داسات في الشاه الإسلامي

إلى أن الثقافة الإسلامية على مدار التاريخ، وبناء على الاجتهاد الخاضع للشروط الموضوعية له استطاعت أن تؤسس لعالمية الصلاح والخير، وأن هذين العنصرين وجدا معينا لا ينضب له الرحيق الزكي، ما يبقي على السنة المسطرة لسبل الفلاح. وليس من وجه لتصون هذه الثقافة الخصوصية المميزة لها إن لم يرتق أهلها إلى مستوى المحافظة عليها فعليا، وبناءً على قاعدة الممارسة . وبهذا المنهج يتسنى أن نحدد قانونا ثقافيا مؤداه أن الخلل في تعامل المسلمين مع مرتكزات ثقافتهم، راجع إلى الوهن الذي أصابهم. وينضاف إلى هذا القانون الأول، قانون ثان ملخصه أن الثقافة الإسلامية متحركة على قاعدة الثوابت المتأسسة على دعامتي الصلاح والخير، وهما من العناصر التي تدعم "الرحمة" نظرياً وعملياً. فإذا طرأ طارئ لا يستجيب لهذا القانون نكبت الثقافة عن أن تذعن لأهلها وأعرضت عن السلوك الثقافي الذي ينتهجونه. إننا إزاء قوانين هي كالضوابط المفاتيح. للوقوف عند تاريخ الأفكار في الثقافة الإسلامية. وعلى هذا الأساس نفهم الانزياح الذي هجم على أهل الثقافة الإسلامية، ودفعهم إلى الانتقال من مرتكزات ثقافة الاجتهاد والإتباع إلى منطلقات ثقافة التقليد. وهو ما يفسر استبدال المعادلة الأولى، وهي أمة الإجابة تجاه أمة الدعوة والنسبة بين المنتسبين فيها قائمة على البعد البشري، بمعادلة دار الإسلام ودار الحرب وهي تتخذ من المكان سبباً للتباين الدافع، مع استتباب الجهل، إلى الكراهية والعداوة.

٢- المعادلة الثانية

لعله من المنهجي أن نتعقب التحولات الطارئة في هذه المعادلة برصد المفاهيم المفاتيح وتدبر ما فيها من الأبعاد.

سادت في المرحلة الأولى من هذه المعادلة عبارات من قبيل "العجب" و"العجيب" و"العقل" و"فضائل العلوم" ... ونجد في وصف للمؤرخ المصري عبد الرحمان الجبرتي (ت ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م) في مصنفه "عجائب الآثار

دراسات في الشاه الإسلامي

في التراجم والأخبار " ما يلخص المعجم السائد في بدايات القرن ١٣ هجرياً / ١٩ ميلادياً. يقول في كلام على بونابرت " رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين " (٢٧) ولعلنا بهذا التعبير أقرب ما نكون إلى فكرة "الإنسان الكامل" في الثقافة الإسلامية ، ولعلنا نتساءل ألا تطلق هذه الأوصاف على رجالات الإسلام كأبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي وقس عليهم خيار الصحابة من المنتمين إلى خير القرون؟ هل تبدلت المعايير إلى درجة نكاد نقول فيها إنها قد قلبت على غير أصلها؟ وكيف نفهم هذا الموقف وكيف نتعامل معه وقد أصبح الآخر هو المثال الذي يحتذى؟

أليس التغيّر العنيف في الواقع هو الذي أدّى إلى هذه المواقف، وأي مواقف هي لقد أدرجت المعجم الذي أكدنا أنه من صميم الثقافة الإسلامية وأن صياغته من جوهر المرتكزات الثقافية الجديدة التي بشر بها الإسلام ضمن سياق جديد، فأضحت الرحمة من ميزات بونابرت وأصبح المسلمون يتوقون إلى الشفقة من غير الرحم الإسلامية، إذ تجسّدت الكمالات في رجل ينتمي إلى الدار التي عدت في السابق من أهل الحرب. أليس التحول من تقسيم عدائي فيه دار الإسلام تترصد دار الحرب وفيه أهل الصليب يكيدون كيذا لأهل الهلال، إلى تقسيم نهض على التفاوت في العلوم والمعارف والمهارات قلباً لمنطق تاريخي امتد عبر القرون الطوال، فهوت المركزية الراجعة إلى الثقافة الإسلامية وانبج طور جديد للثقافة الأوروبية، وهي التي ستصبح الثقافة الغربية بعد حين، ولم يستثن من هذا التغيّر مفكر أو وضع عربي وأنّى الخلاص من الطامة التي ذهبت بالقدرة على امتلاك ناصية الفعل الصالح في الكون، واعتاضت عنها بالخموم الموهم بلذة الانتظار لنصر لا تنهياً له أسبابه الشرعية، ألم يزيّن الواقع المفروض لضعاف العقل وفقراء المعرفة والزاهدين في العلوم من المسلمين أن الدنيا لـ " لكفار وأن الآخرة للمسلمين بالتوسل بـ"الأولياء الصالحين"؟

وللمؤرخ الإخباري التونسي أحمد بن أبي الضياف (ت ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م)

داسات في الشاه الإسلامي

صاحب كتاب "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" فقرة تفصح عن رؤية لم تعهد في النصوص العربية من حيث الإعجاب بفرنسا والانبهار بما رآه من مظاهر التقدم، يقول عندما وطئت قدماه أرض باريس: "باريس وما أدراك ما باريس؟ هي الغانية الحسنة الباسم ثغرها في وجوه القادمين، مشحونة بأعاجيب الدنيا، جامعة لأشتات المحاسن، ينطق لسان عمرانها الزاخر بقوله " كم ترك الأول للآخر" ما شئت من علوم وصنائع، وثروة وسياسة، وظرف وحضارة، وعدل تزكو أثماره وتسطع أنواره. تموج شوارعها بالساكن في مراكز الأمن ومضاجع العافية، يقودهم الأمل ويسوقهم الحرص على العمل"^(٢٨). وهي رؤية على طرفي نقيض مع ما رآه الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤ م) في كتابه البدر الطالع وقد استعمل من العبارات ما ينطق عن موقف واضح من الفرنسيين، فقد جاء على لسانه متعرضاً لدولة الفرنسيين "دولة كفرية" وأضاف "رأي الفرنسيين اللعين" و" أعداء الدين" و "الملة الباغية"...^(٢٩) فهل للموقع الجغرافي في تلك الفترة أثر في التباعد بين آراء العلماء والشوكاني زيدي يماني وابن أبي الضياف زيتوني تونسي، أم للموقع السياسي دور في التباين في المواقف، وقد كان الشيخ الزيتوني وزير قلم في دولة المشير الأول أحمد باشا باي (١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م - ١٢٧١ هـ / ١٨٥٥ م) و كان الشوكاني وزيراً للإمام المهدي عبد الله (١٢٣١ هـ / ١٨١٦ م - ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م) وكأن باي تونس كان مستعداً لطلب أسباب التمدن الأوروبي وكأن اليمن كانت في منعة من الظاهرة الاستعمارية^(٣٠)؟

وسادت في المرحلة الثانية من هذه المعادلة عبارات لعل أهمها المعجم المتصل بـ"التمدن" وهو معجم مضعم بالمعاني المؤدية لمظاهر الحضارة الأوروبية، كما تجلت في منتصف القرن ١٩ م، وهي تنبيء بالآلات البخارية وما شابها من الصناعات التي ستغير العلاقات على مستوى الجغرافيا والتاريخ، وكان التمدن مطلباً نادى به رفاة الطهطاوي (ت ١٢٩٠هـ /

دراسات في الشاه الإسلامي

١٨٧٣م) وخير الدين التونسي (ت ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م) وجمال الدين الأفغاني (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٨م) ومحمد عبده (ت ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م) ولهذا الشيخ الأزهري مقالات في هذا الغرض تحتاج إلى التأمل، منها مقالة نشرتها جريدة الوقائع المصرية في ١٩ صفر ١٢٩٨هـ / ٢٠ يناير ١٨٨١ عنونها "التمدن" بسط فيها آراءه إزاء الظاهرة وشنع بتقليد المسلمين لمباحج التمدن الظاهرة، يقول "ومما يسوؤنا أن نراهم في بلادنا - أهذا ما حسبه تمدناً؟ وزعموه نعيماً مقيماً؟ بل إنه الشقاء الأبدي، الجالب للفقر المدقع والعذاب الأليم" (٣١). لماذا لم تفض صيحات الفزع للمصلحين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي إلى حلول تنبه أصحاب الثقافة الإسلامية إلى ضرورة الإصلاح على المنهج الذي نشأ فعلاً على يدي مرتضى الزبيدي والصنعاني والشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ؟ أي الإصلاح من داخل المنظومة الثقافية الإسلامية، إنها الفترة التي كان فيها التدارك ممكناً والمراجعة ناجعة وللحاق بالآخر المتعم بأسباب التمدن غير عصي. وهي الفترة التي كان فيها الاستبداد السياسي منتشراً (٣٢)، والجهل بحقيقة التدين ذائعاً والقيود عن العمل النجيع ملذوذاً، والفقر المدقع حقيقة لا تتكر. فهل نفسر الجواب بالنفي عن السؤال المطروح بما ساد من الرذائل وتمكن؟

وسادت في مرحلة ثالثة من هذه المعادلة وقد كانت توازي المرحلة السابقة عبارة الترقى، ولعل عبدالرحمان الكواكبي (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م) هو من استعمل هذه العبارة في كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (١٣٠٨هـ / ١٩٩٠م).

وسادت في مرحلة رابعة من هذه المعادلة عبارة التقدم، وهي التي ستجد المجال الواسع في الاستعمال المتواتر عند المصلحين بداية من الربع الأول من القرن الرابع عشر هجرياً / فجر القرن العشرين ميلادياً - بصفة خاصة -

داسات في الشاه الإسلامي

وقد درس فهمي جدعان المفهوم وحل أفكار مستعمليه في بحث جامع عنوانه أسس التقدم عند مفكري الإسلام، واستخرج من النتائج ما يدفع إلى النظر في المسألة نظرة نقدية جديدة (٣٣).

٣- المعادلة الثالثة : العولمة/ العالمية

ستكون السنوات القادمة حاسمة للإنسانية كلها، فإما أن تكتسح العولمة كل شيء، أو أن تستجد لنفسها سبيلا تؤدي إلى علاقات جديدة بين البشر، وليس المجال للمواربة أو الحذر المشط، إنه المجال للمصارحة والمواجهة، وليس من وجه في هذا السياق إلا توخي الطرق العلمية والمناهج الموضوعية للوصول إلى الحلول العملية المقنعة. ولنا اليقين كله أن الإسلام الحق لا يتوخى إلا هذه الطريق . لقد أشار صموئيل هنتجتون في كتابه الأخير إلى أزمة قر العزم منه على أن يفتعلها، وهو ينحت الملامح للهوية الأمريكية أزمة صاغها على اتجاهين، اتجاه من الداخل قابل فيه بين الجذور الثقافية اللاتينية الكاثوليكية (الإسبانية اللسان)، والجذور الأنجلوسكسونية البروتستانتية (انجليزية اللسان)، واتجاه من الخارج رأى أن الإسلام من جهة والكونفشيكية من جهة الثانية هما العدوان الباعثان على الانتباه الذي لا ينقطع لصياغة الهوية للأفراد والجماعات في الولايات المتحدة الأمريكية (٣٤)، ونحن أميل إلى تصور مواجهة - لا نستعمل فيها مصطلح الصراع- بين التيارات والخيارات من قبيل ما افترضنا من علاقة سباق بين الثقافة الإسلامية وثقافة العولمة. أليس حقيقا أن نبدي عددا من الملاحظات في هذا الشأن، نسعى إلى أن نقرر عدداً من القوانين الثقافية على الطريقة التي توخينا أنفا؟

١ - العولمة في الإصطلاح الجاري متسارعة حادة، تستخدم التكنولوجيات في المبادلات وفي الإنتاج، وقد أذابت الفوارق الراجعة إلى المكان والزمان،

دراسات في الشأه الإسلامي

وهي تزعم أنها الحل الكامل للإنسانية كلها، وإن تحت راية القوة الوحيدة الفاعلة^(٣٥)، وهي بهذه الصفات استراتيجية ناجمة عن المخططات والفكر النازع نحو الهيمنة ضمانا للمصالح الخادمة لأهل القوة والنفوذ^(٣٦). أمّا الإسلام فإنه يحمل راية العالمية، ويكفي أن نشير إلى عدد من الآيات المؤسسة لهذه الظاهرة ومنها

- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨).

- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ (آل عمران: ٦٤).

لقد تأسست عالمية الإسلام على قاعدة مختلفة هي الفطرة، وكنا أشرنا إليها آنفاً، ونحيل في هذا المقام إلى الأسس الملازمة لها، ومن أبرز مرتكزات الفطرة في هذا السياق الكوني الإعمار والإصلاح والاستكمال، الإعمار مقترن بالبعد الحضاري في الإسلام، والإصلاح مبني على الدعائم الأخلاقية العملية البعيدة عن المثل التي تتأبى عن تحقيق الغايات بشكل متوازن، والاستكمال عنوان الحركة في الإسلام النابذة للسكون وللجمود وللخمول. وكلامنا على هذه المرتكزات كلام من جهة المبحث الثقافي بالدرجة الأولى ومجراه على التعريف الأنثروبولوجي الجامع بين النشاط المادي والنشاط الذهني، وهذا يعني أن غياب نشاط من النشاطين يعني الإخلال بالمعنى وبالمنهج في آن واحد، ألا ترتبط هذه المرتكزات بمعنى كلمة الرحمة في الآية الأولى وبمعنى كافة في الآية الثانية، وبمعنى الكلمة سواء في الآية الثالثة وما يحكم الربط بينها جميعاً، أنها الخطوط الواسعة للمشروع الثقافي الإسلامي الذي لا يأتيه الخلل من بين يديه ولا من خلفه.

٢- من أخطر المشكلات التي أثارها العولمة ما يتعلق بالخصوصية الثقافية، فالعولمة هدف يبسر للقوة المهيمنة مزيداً من التمكين، وهو استتساخ الثقافات على المنوال الذي يخدم الغاية المرجوة سياسية كانت أم اقتصادية أم إعلامية^(٣٧).

دراسات في الشأن الإسلامي

ومن أهم المناهج التي أقرها القرآن الكريم ما بشرت به الآية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) وفيها معنى الاختلاف الثقافي الذي يهمننا وهو الاستفادة من المعجم الوارد في الآية: الشعوب والقبائل والتعارف وليس من وجه للتعارف إلا في حالات الاختلاف والتنوع والجهل السابق للتعارف، وليس في الآية من دلالات الإقصاء أو الرفض أو الاستثناء بل فيها معاني التقارب والتفاعل القائم على معيار أخلاقي عملي هو التفاضل في التقوى.

٣- لم ترتض العولمة للمثاقفة طريقاً، وهي التي عملت كما أشرنا على دحض العامل الثقافي في المعاملات والمبادلات، ولم تتستر الجهات الفاعلة في العولمة على فرض مثاقفة أقامت على التمايز الداعي إلى فرض النمط الذي ترتضيه، بوصفه عنصراً من العناصر المؤدية إلى إحكام الطوق على أية محاولة لاكتساب نصيب من الربح الذي تدر به العولمة على أصحابها، وعلى هذا النحو لا تبيح العولمة لغير أهلها التمكن من العلوم فلا تسمح إلا بالفئات التي تستغني عنه بعد أن تستنفد أغراضها منه. وقس على العلوم التكنولوجيات المتطورة وقس عليهما الشراسة التي تواجه بها العولمة كل جهة قد تجتهد في الاكتشافات أو في تطوير الآليات المهددة - حقاً أو باطلاً - مشاريع المسكين بأسباب العولمة.

ومن أبرز الآفاق التي فتحتها عالمية الإسلام المثاقفة على قاعدة التكافؤ، وتاريخ الأفكار يشهد للمسلمين عندما كانت ثقافتهم متشعبة بالعلامات التي تعرضنا إليها آنفاً، بأن العلوم والمعرفة لا يخضعان للعرق أو للاعتقاد، وإنما يخضعان للقيم التي نسجت الثقافة الإسلامية، ولم تقص من يخالفها في الدين ما دامت الغاية واضحة تحدها الثقافة الإسلامية، وتضمن لها العالمية الضرورية الصالحة للبشرية قاطبة. ويتسنى أن نعد المثاقفة تحت راية المسلمين ابتداء من الخطوة التي بادر إليها خالد بن يزيد بن معاوية

دراسات في الشأه الإسلامى

الأموى ومرورا ببىء الحكمة على عهد المأمون العباسى؁ ووصولاً إلى الفتوحات العلمىة ببلاد الأندلس . وإنّ فى تدارس هذه الظاهرة دليلاً على أنّ الإسلام صاغ ثقافة عملىة أكد آثارها التاريخ؁ وهو الذى شهد بالتجربة التى حققتها أيضاً . وحسبنا أن نقول إن الثقافة الإسلامىة هى التى طورت الرياضىات باختراع الصفر وإنّ فضله مازال قائم الذات حتى مع المكتشفات الرقمىة المعاصرة؁ والمحقق من الباحثىن يدرك أنّ اختراع الصفر إنما نشأ عن عقىة التوحىد(٣٨).

الخلاصة

تدخل المقارنة بين الثقافة الإسلامية والعولمة في القراءة التي اقترحنا ضمن الدراسات المستقبلية، ونروم أن نختم البحث بتفائل حذر، وملخصه أن المستقبل في ضوء الدرس الموضوعي لا يمكن أن يخرج عن الثقافة الحاملة للقيم الأصيلة، إذ إن الإنسانية، وهي تشهد فظاعات الهيمنة، وعلامات الجور، والعمل بالمكيالين تتوق كأشد ما يكون التوق إلى الأفضل.

وللثقافة الإسلامية في هذا السياق مادة عظيمة، على أن الإشكال الأكبر كامن في سؤال عات، هل يقدر المسلمون اليوم على أن يتحملوا مسؤولية هذه الثقافة؟ وهي التي لا تقبل الشعارات وترفض رفضا كلياً المساومة في الثوابت لأن الأصل فيها يقوم على الإيمان المؤدي إلى النجاة، وكما بدأ الإسلام تجريبية وممارسة فإن المستقبل القريب لن يقبل بديلاً عن ممارسة الثقافة الإسلامية بناء على شرطين: الشرط الأول هو التمسك بالإسلام، التمسك الواعي العالم الناجع، والشرط الثاني هو الفعل بمقتضى الثقافة الإسلامية في الواقع المعاصر.

دراسات في الشّاه الإسلامي

الهوامش

- (١) انظر دراسة مهمة تعرّضت للمفاهيم التي نروم الإشارة إليها: رالف لينتون الأساس الثقافي للشخصية: , Ralph Linton , Le Fondement culturel de la personnalité , Traduit par A,Lyotard- Dunod ,Paris 1965 .
- (٢) انظر تعريف ابن منظور للثقافة وهو تعريف يوحي بالدلالة التي عرفها العرب واللغة نظرة للعالم وتصور لمنزلة الإنسان فيه، لسان العرب ، المجلد ٩ ، دار صادر ، بيروت د.ت ص ١٩- ، ٢٠ .
- (٣) من الدراسات المهمة في هذا الحقل بحث لباحث أمريكي من أصل ألماني وقد ترجمنا العمل مع ثلة من الزملاء بكلية الآداب بتونس وصدر بعنوان "القرص المقدس" تونس، مركز النشر الجامعي ٢٠٠١ والعنوان الأصلي - Peter Berger ; La Religion Dans La Con- science Moderne ,Essai d'Analyse culturelle , Centurion ,Paris , 1973.
- (٤) انظر : ب.ف.سكينر، تكنولوجيا السلوك الإنساني، ترجمة عبد القاهر يوسف، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٠، ص ١٢٨- ١٨١
- (٥) انظر آلان توران : نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث ، منشورات المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٨ ص ٤١٧ وما بعد .
- (٦) جلال أمين : العولمة، سلسلة اقرأ دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٨٩ ص ٣٨
- (٧) صموئيل هنتكتون S,Huntington مقالة صدرت بعنوان "القوة العظمى الوحيدة" بمجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs يوم ٢٨ مارس ١٩٩٩
- (٨) انظر: عبد الهادي بوطالب : العالم ليس سلعة ، في نقد العولمة، منشورات الزمن الدار البيضاء ، المغرب سنة ٢٠٠١ ، ص ٣٧ وما بعد .
- (٩) الصادق شعبان ، نهاية الجغرافيا وعودة التاريخ ، نحن والعولمة، مؤسسات باباي ، تونس ١٩٩٩ ص ٨-١٠ .
- (١٠) نيتشة ، المسيح الدجال
- (١١) مهدي المنجرة، عولمة العولمة ، منشورات الزمن الدار البيضاء ، المغرب سنة ٢٠٠٠ ، ص ١٠-٣٤
- (١٢) نفسه ص ١٠-١١ .
- (١٣) انظر في تحليل هذا الحديث الشريف في كتاب : لأبي الحسن القاسمي ، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، الشركة التونسية للنشر ١٩٨٦، ٥٩-٧٠ .
- (١٤) وهو المعنى الذي تعرض له أبو الحسن العامري في كتابه الإعلام بمناقب الإسلام، القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- (١٥) تكفي الإشارة إلى حديث عائشة وفيه كلاما على الرسول ﷺ قالت " كان خلقه القرآن".
- (١٦) انظر تفسير الرازي ، التفسير الكبير ، المجلد ٢٢ ص ١٩٩-٢٠٠ .
- (١٧) مسكويه ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.

داسات في الشاه الإسلامي

- (١٨) نفسه في الكلام على الفطرة، المجلد ١٢، ص ١٢٠-١٢١ .
- (١٩) الحديث صحيح رواه أصحاب الصحاح وهو مؤسس لمنهج تربوي أثير .
- (٢٠) انظر ما يقوله الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : عن محمد الحبيب ابن الخوجة :
محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية ، طبعة وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية ، دولة قطر ، ١٤٣٥ / ، ٢٠٠٤ المجلد الأول ص ١٢٣ .
- (٢١) انظر الرازي . التفسير الكبير، المجلد ١٢ ص ١١٠-١١١ .
- (٢٢) الشوكاني ، القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد ، دار القلم الكويت ٦ ١٩٧ ، ص ١٣-٤٣ .
- (٢٣) فخر الدين الرازي التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت الطبعة
الأولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، المجلد ٢٠ ص ٨١ .
- (٢٤) نفسه ص ٨٢ .
- (٢٥) نفسه ص ٨٣ .
- (٢٦) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء ١٣، الدار التونسية للنشر ، تونس
١٩٨٤ ، ص ٢٥٤-٢٥٥
- (٢٧) عبدالرحمان الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، المطبعة الشرقية ، مصر
١٣٢٢ هـ ، ج ٣ ، ص ٢٧ .
- (٢٨) أحمد ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الدار
التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٩ ، الجزء الرابع ص ١١١-١١٢ .
- (٢٩) الشوكاني البدر الطالع بمحاسن القرن السابع، دارالمعرفة للطباعة والنشر بيروت
١٣٤٨ هـ، الجزء الثاني من ص ٢ إلى ص ٢٤
- (٣٠) عبد الغني قاسم غالب الشرجي : الإمام الشوكاني حياته وفكره ، ص ٢٣١
- (٣١) محمد عبده ، الأعمال الكاملة ، حققها وقدم لها محمد عمارة ، الجزء الثاني ، الكتابات
الاجتماعية ، مقال التمدن ، الوقائع المصرية العدد ١٠١٧ ص ٤٠ ت ٤٣ ، والشاهد ص ٤٣
- (٣٢) ابن أبي الضياف الإتحاف ، الجزء الأول ، المقدمات .
- (٣٣) فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ط ٣ ، دار الشروق للنشر والتوزيع ،
عمان ، الأردن ١٩٨٨ .
- (٣٤) صامويل هنتجتون: من نحن؟ IDEN- Qui Sommes - Nous ? Samuel P, Huntington ,
TITE NATIONALE ET CHOC DES CULTURES, Odile Jacob Paris 2004.
- (٣٥) زكي العايدي : Zaki Laïdi , Malaise dans la Mondialisation, Paris, 1997.
- (٣٦) انظر : هانس بيتر مارتن : هل العولمة خدعة. ضمن كتاب أصدرته اليونسكو، وترجم
تحت عنوان: مفاتيح القرن الحادي والعشرين ، منشورات بيت الحكمة، المجمع التونسي
للعلوم والآداب والفنون ، تونس ، ٢٠٠ ص ٦١٤-٦١٩ .
- (٣٧) انظر حسن أوريد : الإسلام والغرب والعولمة. منشورات الزمن ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٩٩
- (٣٨) انظر : محمد السويسي ، لغة الرياضيات عند العرب ، منشورات بيت الحكمة، تونس
قرطاج ١٩٩٩ .



دراسات في الشأن الإسلامي

الاقتصاد الإسلامي والعولمة: مدخل علمي

الدكتور مستعين علي عبد الحميد

كبير المستشارين في بنك البلاد - الرياض



دراسات في الشأن الإسلامي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه ،
﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا
قَوْلِي﴾ (طه: ٢٥-٢٨) وبعد .

فقد كانت خلاصة التحولات الكبرى التي حفل بها القرن العشرون
المنصرم طروء تغير جوهري في طبيعة النظام الدولي. ففي نصفه الأول
اندلعت حربان عالميتان، وانفجرت ثورتان عظيمتان (الروسية والصينية)،
وانهارت خمس إمبراطوريات (العثمانية والألمانية والايطالية واليابانية،
والنمساوية المجرية)، وحدث تراجع كبير لأهم اثنين من القوى الاستعمارية
العالمية (البريطانية و الفرنسية).

ولم يلبث غبار الحروب والصراعات أن انكشف في نصفه الثاني عن تبلور
نظام دولي ثنائي القطبية، ورث نظام التعددية القطبية القديم، وقد تمثل في
انتقال القوة النسبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي
السابق بنظامين اقتصاديين مختلفين، لكل منهما قيّم و أنماط معيشية
مختلفة، يمكن تلخيصها في الحرية الاقتصادية و نظام السوق في الجانب
الرأسمالي، وفي نظام التخطيط المركزي الشامل في الجانب الآخر
الاشتراكي.

وبعد فترة من الغموض والتردد اندلع الصراع الذي عرف بالحرب الباردة،
وقد تمثلت أبرز ميادين هذه الحرب في سباق تسلح، وغزو الفضاء،
والتجسس، وحروب الاستنزاف المحدودة.

ولكن الحرب الباردة انتهت نهاية مدوية بانهيار الاتحاد السوفييتي
وانفراط عقد المعسكر الاشتراكي، وتحول توازن القوى النسبي ليصبح في
صالح الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي مرحلة بارزة في مسيرة العولمة .

داسات في الشاه الإسلامي

ومن ثم فإن النتائج والدروس والعبر التي خلفتها الحرب الكونية الثانية والحرب الباردة ذات المضامين الاقتصادية تعد محطة مهمة في تبلور ظاهرة العولمة ، فقد بدا واضحاً أن الهيمنة الحقيقية لا تكون فقط سياسية وعسكرية ، وإنما ثقافية وحضارية واقتصادية ، فعندما أعلن غورباتشوف عن قيام ثورة التغيير وإعادة البناء ، كان ذلك يعني في الحقيقة انهيار الأسس الفكرية و الأيديولوجية التي يقوم عليها النظام الاشتراكي الذي حاول إلغاء نظام السوق والملكية الخاصة وإدارة الحياة الاقتصادية عن طريق مركزية متطرفة من حيث التخطيط والتنفيذ، وإحلال تفضيلات المخططين المركزيين محل تفضيلات أفراد المجتمع والقضاء على الحوافز الفطرية للعمل والإنتاج والمبادرة الفردية. فأدى ذلك إلى تبديد واضح في استخدام الموارد الاقتصادية المتاحة، وإلى انخفاض في رفاهية الأفراد وذلك لعدم توافق المنتجات مع رغبات المستهلكين من ناحية، ولردائها من ناحية أخرى ، ولعدم قدرة المخططين المركزيين على التحديد الدقيق لاحتياجات أفراد المجتمع، وذلك بخلاف نظام السوق الذي يعد ظاهرة ووسيلة فنية ملازمة للوجود الإنساني ومرتبطة بالطبيعة البشرية، وأنه مهما تعددت محاولات إلغاء دوره في الحياة الاقتصادية فإنها تمنى بالفشل، وتزيد مشكلات المجتمع الاقتصادية تعقيداً.

وقد كان هذا بالنظر العميق نتيجة للإعراض عن سنن الله التي تحكم كل ظاهرة من ظواهر الوجود، وتفرض اتجاهات تطورها، والغفلة عن قواعد اللعبة الاقتصادية ومعاكسة سنن الفطرة . بينما بدت الرأسمالية في بداية التسعينات في الجانب الآخر وكأنها النظام الاقتصادي الأنسب للبشرية.

وقد كان ذلك يمثل نصراً خاصاً للولايات المتحدة الأمريكية التي بذلت جهوداً كبيرة في دعم الرأسمالية العالمية، واستطاعت إقامة مؤسسات اقتصادية رأسمالية على نطاق عالمي مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي واتفاقية الجات، وأخيراً منظمة التجارة العالمية ، ترفدها هيمنة على

دراسات في الشأن الإسلامي

المؤسسات السياسية والأمنية الدولية التي تمثل الآليات السياسية والاقتصادية للعولمة .

ومن ثم فهذه الدراسة هي محاولة لمساعدة القارئ على فهم الاقتصاد الإسلامي في عصر العولمة، أو بعبارة أخرى محاولة لفهم وتفسير ظاهرة العولمة من وجهة الاقتصادى على ضوء مفاهيم ومسلمات الاقتصاد الإسلامي المستمدة من الكتاب والسنة، وخاصة في جانبه الوصفى الذي - رغم أهميته التحليلية البالغة - أهمل طويلاً، وهو يصلح في نظري برغم إهمالنا له، لفهم وتفسير التطورات الحضارية والاستراتيجية العالمية الراهنة المتمثلة في ظاهرة العولمة و الأفكار والمؤسسات المرتبطة بها والعوامل التي ساهمت في ظهورها وتطورها كما سوف نرى.

ولا سبيل للوصول إلى إنجاح هذا المسعى إلا بإدامة النظر والتفكر في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية مستعينين بكل ما يمكن أن يساعدنا على فهم، واستنباط المقولات الاقتصادية الوصفية الكامنة خلفها بهدف بناء نموذج واقعي للاقتصاد الإسلامي، ومن ثم استخدامه في فهم وتفسير ظاهرة العولمة .

وعليه فان هذه الدراسة سوف تكون في ضوء المحاور الآتية:

المحور الأول : تحديد مفهوم الاقتصاد الإسلامي .

المحور الثاني : ظاهرة العولمة فلسفتها وآلياتها .

المحور الثالث : الاقتصاد الإسلامي و السنن الاقتصادية .

المحور الرابع : الاقتصاد الإسلامي والعولمة.

المحور الأول

تحديد مفهوم الاقتصاد الإسلامي

يقدم الإسلام نظاماً اقتصادياً مبنياً على الشريعة، يتكون من أحكام قيمية عما ينبغي أن تكون عليه حياة المجتمع الاقتصادية، لكنه لا يقف عند هذا الحد، بل يلفت أنظارنا في القرآن الكريم والسنة النبوية، وما استتبط منهما من علوم ومعارف إلى مسلمات ومقولات اقتصادية وصفية ينبغي لنا أن نأخذ بها في تحليلنا وتفسيرنا لما هو كائن في واقع الحياة، علاوة على ما تدلنا عليه التجارب البشرية من علوم ومعارف.

فالقسم الأول من العلم هو ما يعرف بالمذهب أو النظام الاقتصادي الإسلامي، ويغلب عليه طابع القيم، ويهتم بما يجب أن تكون عليه الحياة الاقتصادية وفق شريعة الإسلام وموضوعه، وهو دراسة الأحكام الشرعية المتعددة لكشف القواعد الاقتصادية الكلية أو الجزئية واستتباط الحكم الاقتصادية لبعض الأحكام الشرعية، وهو يستعين في مهمته تلك، بالقسم الثاني من العلم، وهو التحليل الاقتصادي الإسلامي الذي يهتم بكشف المسلمات والمقولات الوصفية الاقتصادية التي تدل عليها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وما تحتوي عليه الأحكام الشرعية المستمدة منهما^(١).

وهذه المسلمات والمقولات يمكن للباحث المتخصص الوصول إليها بدراسة النصوص والأحكام الشرعية والاطلاع على تفاسير القرآن الكريم وشروح السنة النبوية المطهرة ذات الصلة بالظواهر الاقتصادية.

فالإسلام دين هداية هدفه الأول الإخبار عن الله تعالى والإرشاد إلى القضايا المختلف فيها، وأولها قضية العقيدة التي هي محل اهتمام علم التوحيد، وتزويد البشرية بالقيم والأحكام القيمية المتمثلة في الأوامر

داسات في الشاه الإسلامي

والنواهي، التي هي محل اهتمام علم الفقه من واجب ومستحب ومباح ومكروه وحرام ونحو ذلك ، وليس هدفه تزويد البشر بالحقائق والوقائع التي هي تحت سمعهم وبصرهم مما يمكن مشاهدته وجمعه ودراسته ووصفه وتصنيفه واستخراج سننه المطردة التي هي محل اهتمام العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، ولكنه في الوقت ذاته قد وجه الإنسان إلى النظر في الكون والتفكر فيما فيه من ظواهر ليستخرج هو بنفسه سنن الله التي تحكم هذه الظواهر، ولكن مع هذه الحقيقة الكبيرة نجد أن الإسلام قدم للبشرية في مصدره الأصيلين الكتاب والسنة عن طريق الأخبار (بصفة خاصة القرآن المكي) مساعدات فكرية قيمة في مجال جميع العلوم ، وزود الإنسان بالكثير من المقولات الوصفية التي تعمل على تبصيره بالواقع الذي يحيط به ، لتمكينه من التعرف عليه والتحكم فيه .

وبالرغم من ذلك نلاحظ أن المقولات الوصفية والمسلمات الإسلامية في مجال علم الاقتصاد الإسلامي وغيره من العلوم الاجتماعية والإنسانية لم تبذل بعد جهوداً تذكر نحو كشفها والإفادة منها حتى وقت قريب مع استثناءات قليلة ونادرة (منها على سبيل المثال : محمد المبارك، نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع)(٢).

المقولات الوصفية، والمقولات القيمية :

والفرق بين المقولات الوصفية والمقولات القيمية هو أن المقولات الوصفية تصف واقعا معيناً كقولنا على سبيل المثال: إذا ارتفع سعر الزيد فإن المستهلكين يشترون كميات أقل، أو إذا زاد عرض النقود فإن المستوى العام للأسعار سوف يرتفع، ولا يخفى أنه يمكننا إحصائياً أن نبحت ونقدر العلاقة بين أسعار وكمية مبيعات الزيد، أو بين عرض النقود والمستوى العام للأسعار، وتسمى أيضاً عبارات خبرية لأنها تخبر عما هو كائن، وهو ما يشار إليه عادة على أنه الاقتصاد الوضعي ، الذي يفترض

دراسات في الشاه الإسلامي

وجود علاقة يمكن بحثها وتحليلها .

ويقابل هذا النوع من المقولات الوصفية نوع آخر من المقولات هي المقولات القيمية التي تعبر عما يجب أن يكون، وهي مقولات ما يعرف بالاقتصاد المعياري الذي يستخدم الأحكام القيمية، كما يستخدم المعلومات التي يكشف عنها الاقتصاد الوضعي لتأييد سياسة معينة من بين عدة سياسات بديلة .

وعلى ذلك فالالاقتصاد المعياري يبحث عما يجب أن يكون في ضوء الآراء الفلسفية المؤيدة، وعلى عكس الاقتصاد الوضعي ، فان قضايا الاقتصاد المعياري ومقولاته ومسلماته لا يمكن اختبارها واثبات زيفها (أو تأكيد صحتها)، أي اختبارها علميا ما دامت صحتها تستند إلى أحكام قيمية أو تقديرية، وذلك بسبب أنها لا تصف واقعا معينا بل تعبر عن تفضيل ، ولهذا السبب فإنها لا تحتمل مطابقة الواقع أو مخالفته، ولكنها تحتمل القبول أو الرفض تبعا للقيم والمبادئ التي نؤمن بها ونتبناها . ومن أمثلة المقولات المعيارية أو القيمية : الحرية أفضل من وضع القيود على العمل الاقتصادي .

القرآن المكي وعلم الاقتصاد الإسلامي :

وإذا شئنا أن ننزل القاعدة العامة المذكورة آنفا على الاقتصاد الإسلامي نجد أن أغلب المقولات الوصفية التي هي محل اهتمام التحليل الاقتصادي أو علم الاقتصاد، لا توجد في الأحكام الأمرة في الشريعة الإسلامية التي نزل أغلبها في المدينة إبان تكون المجتمع الإسلامي الأول ، بل وجدت وتوجد بصورة ملفتة وكثيفة في القرآن المكي ، مما يعني أنها أشبه بالأصول الكلية التي لا تتغير بتغير المكان والزمان، وليست من الفروع، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية " فالدين أول ما يبنى من أصوله، ويكمل بفروعه، كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد، والأمثال التي هي المقاييس العقلية، والقصص والوعد و الوعيد، ثم أنزل بالمدينة لما صار له قوة، وفروعه الظاهرة، من الجمعة والجماعة والأذان والإقامة والجهاد والصيام وتحريم الخمر والزنا

داسات في الشاه الإسلامي

والميسر، وغير ذلك من واجباته ومحرماته، فأصوله تمد فروعه وتثبتها، وفروعه تكمل أصوله وتحفظها(٣).

كما أشار الإمام الشاطبي إلى أن عامة الأحكام التي نزلت بالمدينة تدرج ضمن الأصول الكلية التي نزلت بمكة وتتفرع عنها(٤)

ويقول الإمام ابن كثير عن ابن جرير الطبري في تفسير الآية رقم (١٠٦) من سورة البقرة: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخُهَا...﴾. أن النسخ لا يكون إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ(٥).

وهذا يعني أن العبارات الخبرية الوصفية الواردة في القرآن الكريم ذات المضامين الاجتماعية والاقتصادية ونحوها تعد من المحكم الذي لا يتبدل ولا يتغير، وذلك بسبب أنها من الأخبار التي تتحدث عما هو كائن، وليست من الأحكام القيمية التي تتحدث عما ينبغي أن يكون، وبالرغم من هذه الحقيقة المهمة نجد أن أكثر الكتابات الاقتصادية الإسلامية المعاصرة تهتم فقط بالجانب القيمي الذي نزلت أكثر أحكامه في المدينة، بينما تتجاهل للأسف الجانب الوصفي الإخباري الذي يوجد أكثره في القرآن الكريم الذي نزل بمكة، وترى أن الوظيفة العلمية للاقتصاد الإسلامي (أو الجانب الوصفي منه) يأتي دورها بعد تطبيق الإسلام في المجتمع تطبيقاً كاملاً ليكشف عن قوانين الاقتصاد الإسلامي . فالإقتصاد الإسلامي - وفق هذه النظرة - يتمثل في كونه عملية تغيير للواقع لا عملية تفسير له(٦).

والحقيقة أن الاقتصاد الإسلامي - كما سنرى - هو عملية تفسير وتغيير للواقع معاً، فمن لا يملك التفسير الصحيح للواقع وثوابته ومشكلاته، قلما ينجح في التأثير على ذلك الواقع و تغييره، ومن ثم لن يكتب النجاح لأي سياسة اقتصادية تستهدف تغيير الواقع إلى ما ينبغي أن يكون إلا إذا قامت على الفهم الدقيق لما هو كائن في ذلك الواقع، والاقتصاد الإسلامي لن يأتي

دراسات في الشأه الإسلامى

بقوانين جديدة لتحكم الواقع الاجتماعى والاقتصادى للإنسان لم تكن موجودة من قبل، ومهمته مثل غيره من العلوم تكمن فى اكتشاف السنن والقوانين التى أودعها الخالق تبارك وتعالى منذ بدأ الخليقة لتحكم وتضبط سير الحوادث والظواهر نحو الوجهة التى اقتضاها علمه وحكمته، ومن ثم فإن قصر وظيفة علم الاقتصاد الإسلامى على التجربة الواقعية لمجتمع مسلم حتى يتسنى كشف قوانينه الخاصة به، ربما كانت السبب فى إفساح المجال للانحراف والتخبط الكبير فى مسيرة المعرفة الاقتصادية الإسلامية التى نشطت فى العقود الأخيرة التى برزت فيها ظاهرة العولمة، وفاجأت الكثيرين بمؤسساتها وآلياتها، وأحوجتنا إلى مرجعية ناجعة نتطلع إليها لتسعفنا فى تفسير وفهم ومواجهة هذه الظاهرة .

المحور الثاني ظاهرة العولمة : فلسفتها وآلياتها

ما هي العولمة ؟ التأسيس اللغوي والاصطلاحي للعولمة:

العولمة حسب تأصيل اشتقاق هذا اللفظ مصدر من مصادر الفعل الرباعي المجرد كما تشير إلى ذلك كتب الصرف . فوزن (فوعل) الملحق بالمجرد الرباعي، وزن له أهمية خاصة، إذ استعمله العرب في معان كثيرة، ونحن نحتاج إليه في عصرنا الحاضر عند استعمالنا أفعالاً من أفاضل الحضارة مثل لفظ (العولمة).

ومن المعاني التي يستعمل فيها هذا الوزن (فوعل) معنى الصيرورة، مثل: سودنه، أي جعله سودانياً أو صيَّره سودانياً ، وأمركه، أي صيَّره أمريكياً، وعولمه، أي صيَّره عالمياً بعد أن كان محلياً أو قومياً^(٧).

وإذا تبين أن الوزن (فعلل) من معانيه الصيرورة ، فعلى هذا يمكن حمل لفظ (عَوْلَمَه) أي صيره عالمياً بعد أن كان ذلك محلياً أو قومياً، والصيرورة لا تكون إلا بفعل فاعل. فنقول مثلاً عولمة الاقتصاد إذا صار الاقتصاد عالمياً، وعولمة الثقافة إذا صارت الثقافة عالمية بعد أن كانت محلية وقومية وهكذا. والعولمة بهذا المعنى لا تكون عالمية من تلقاء نفسها، بل بفعل فاعل يقف خلفها.

ويرى بعض الباحثين أن الكلمة مشتقة من الصيغة الصرفية فوعلة ، وهي تدل على تحويل الشيء إلى وضعية أخرى، مثل قولبة ، أي وضع الشيء في قالب، ومن ثم يأخذ شكله. وبهذا المعنى يكون معنى عولمة وضع هذا الشيء على مستوى العالم، ومن ثم يرى هذا الفريق أن هذه الصيغة تعني عالمية الشيء من غير فرض ولا قسر ولا قهر^(٨).

دراسات في الشاه الإسلامي

وبناء على هذا التأسيس اللغوي لمفهوم العولمة ، كان يمكن أن نتوقف لنذكر بعض التعريفات التي ربما تصلح لتقريب المفاهيم المتعلقة بطبيعة العولمة وعملياتها، ولكن بسبب تعدد الزوايا التي ينظر من خلالها الباحثون ، وبسبب تنوع إدراكهم لهذه الظاهرة وانطباعاتهم عنها، وفقدان النظرة الحيادية لها، سنكتفي ببعض الدراسات التي نجحت - فيما أرى - في تحديد مفهوم دقيق لهذه الظاهرة الجديدة التي لا تاريخ لها . و كما يقول بعض الفلاسفة إن كل ما ليس له تاريخ لا يمكن تعريفه تعريفاً مفيداً^(٩).

و مهما تكن أهمية التعريفات والتوصيفات التي يمكن أن تقدم للعولمة وتحاول أن تضع النقاط على الحروف في كل ما يخص هذه الظاهرة ، فلن تكون في أهمية تلك الدراسات الاستراتيجية التي وضعت جدول أعمال العولمة إذا صح التعبير. ولعل أبرز دراستين من تلك الدراسات هما :

نهاية التاريخ لفوكوياما، و صدام الحضارات لصموئيل هنتجتون، باعتبارهما تمثلان الفلسفة التي تقوم عليها حركة العولمة، والأساس الأخلاقي لقيادة الأمم نحو العولمة وفق مسارات النموذج الليبرالي الغربي الذي ينبغي أن ينصاع له الآخرون كما يرى أصحابها . ومن ثم فالاستعراض الموجز لأطروحات منظري وفلاسفة العولمة سوف يغنينا كثيراً عن التعرض لأدبيات تعريف العولمة الشائعة التي لا تخلو من التجوز والمبالغة، كما أنها تعد صدقاً لمقررات وأطروحات المبشرين بالعولمة، ولا سيما نظرية صموئيل هنتجتون في صدام الحضارات.

وفي هذا المحور سوف نلخص أهم مقررات ومحتويات نظرية صموئيل هنتجتون باعتبارها في نظري أهم وأصدق مدونة تحضيرية لمشروع العولمة، وذلك في عدد من القضايا والمسائل أو الفروض والرؤى التي وردت في هذه المدونة ويندرج تحتها عدد كبير من الأفكار والتحليلات التفصيلية لما ستكون عليه السياسات الدولية في السنوات المقبلة.

داسات في الشاه الإسلامي

القضية الأولى

النمط المقبل للنزاع في العالم الجديد لن يكون مصدره سياسياً أو اقتصادياً (أيديولوجياً) في المحل الأول ، بل ثقافياً وحضارياً^(١٠).
خلال الحرب الباردة كان العالم منقسماً إلى العالم الأول والثاني والثالث، وهذه الانقسامات ليس لها أي معنى ، والأجدى حالياً ليس تجميع البلدان من حيث نظمها السياسية أو الاقتصادية ، أو من حيث مستوى تطورها الاقتصادي، بل تجميعها من حيث ثقافتها وحضارتها. فما الذي نعنيه عندما نتحدث عن الحضارة ؟ إن الحضارة هي كيان ثقافي، وتتحدد بكل العناصر الموضوعية المشتركة مثل التاريخ واللغة والثقافة والعادات والتقاليد والمؤسسات ، والأهم من ذلك الدين .

القضية الثانية

لماذا تتصادم الحضارات

إن الهوية الثقافية ستكون مهمة بدرجة متزايدة في المستقبل ، وسيشكل العالم بقدر كبير نتيجة للتفاعل بين سبع أو ثماني حضارات كبيرة ، تشمل الحضارة الغربية والكونفوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندية والسلافية الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية وربما الإفريقية، وستحدث أهم المنازعات في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى^(١١).

إن أسباب النزاع هي ما يلي :

(أولاً): الفروق بين الحضارات ليست فروقاً حقيقية فحسب، بل هي فروق أساسية وجوهرية، فالحضارات تتميز الواحدة منها عن الأخرى بالعناصر المشتركة المذكورة آنفاً وأهمها الدين . وهي أكبر من الاختلافات

دراسات في الشاه الإسلامي

بين الآراء السياسية والاقتصادية. وهي لا تعني النزاع بالضرورة، ولكنها على مر القرون ولدت أطول المنازعات وأكثرها عنفاً.

(ثانياً) : بسبب التقارب الحادث في العالم ، أخذت التفاعلات بين شعوب الحضارات المختلفة في التزايد ، وهو ما يزيد وعي الحضارات بنفسها، وإدراكها للفروق بينها وبين الحضارات الأخرى، مما يعزز بدوره الاختلافات والعداوات التي تعود للوراء عميقاً في التاريخ.

(ثالثاً) : مع ضعف الدولة و الأمة كمصدر للهوية، تحرك الدين ليملاً هذه الفجوة في شكل حركات توصف بالأصولية ، وبروز ظاهرة نزع الطابع العلماني عن العالم كأحد حقائق الحياة في أواخر القرن العشرين. الأمر الذي يوفر أساساً للهوية والالتزام بتجاوز الحدود الوطنية.

(رابعاً) : أن غرباً في أوج قوته يواجه كيانات ليست غربية حاولت وتحاول أن تكون حديثة بدون أن تكون غربية ، وترغب في تشكيل العالم بطرق غير غربية ولديها الإرادة والإمكانات . ومن أمثلتها الترويس مقابل التغريب في روسيا ، ونهاية ميراث نهرو وإضفاء طابع هندوسي في الهند، وفشل الأفكار الغربية والقومية ومن ثم إعادة الأسلمة في الشرق الأوسط ، ومن ثم انتكاس أوضاع الصفوة في المجتمعات غير الغربية التي كانت تدعو للتغريب عما كان عليه الأمر في الماضي .

(خامساً) : أن الخصائص والفروق الثقافية للشعوب أقل قابلية للتبديل ومن ثم أقل قابلية للحلول الوسط والتسويات من نظيرتها السياسية والاقتصادية، ففي الاتحاد السوفيتي السابق يمكن للشيوعيين أن يصبحوا ديمقراطيين ، ويمكن أن يصبح الأغنياء فقراء، والفقراء أغنياء، لكن الروس لا يمكن أن يصبحوا أستونيين، ولا الأذربيجانيين يمكن أن يصبحوا أرمن.

(وأخيراً) : فإن النزعة الإقليمية الاقتصادية آخذة في الزيادة ، ومن المرجح أن تستمر في الزيادة أهمية الكتل الاقتصادية الإقليمية في المستقبل،

داسات في الشاه الإسلامي

فمن ناحية، فإن النزعة الإقليمية الاقتصادية الناجحة ستدعم الوعي بالحضارة. ومن ناحية أخرى، فإن النزعة الإقليمية الاقتصادية قد تتجح فقط عندما تضرب بجذورها في حضارة مشتركة، فالجماعة الأوروبية تقوم على أساس مشترك للثقافة الأوروبية المسيحية الغربية، وعلى النقيض من ذلك، تواجه اليابان صعوبات في إقامة كيان اقتصادي مماثل في شرق آسيا، لأن اليابان مجتمع وحضارة بذاتها.

وتتطبق المقولة نفسها على العلاقات المتزايدة الصعوبة بين اليابان والولايات المتحدة ليس بسبب النفور العنصري بل الثقافي.

القضية الثالثة

خطوط التقسيم بين الحضارات وحلول الستار المخملي للثقافة محل الستار الحديدي للأيديولوجية، وإخلاء الاعتبارات السياسية والاقتصادية الساحة للاعتبارات الدينية(١٢).

أخذت خطوط التقسيم بين الحضارات تحل محل الحدود السياسية والأيديولوجية للحرب الباردة باعتبارها إشارات وميض للأزمات والمذابح. فقد بدأت الحرب الباردة عندما قسم الستار الحديدي أوروبا سياسياً وأيديولوجياً. وانتهت الحرب الباردة مع انتهاء الستار الحديدي، ومع اختفاء الانقسام الأيديولوجي لأوروبا، فإن الانقسام الثقافي لأوروبا بين المسيحية الغربية من ناحية والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام من جانب آخر قد عاود الظهور.

وقد حل الستار المخملي للثقافة محل الستار الحديدي للأيديولوجية باعتباره أهم خط للتقسيم في أوروبا ومثلما أوضحت الأحداث في يوغوسلافيا، فإنه ليس خط اختلاف فحسب، بل إنه يكون أحياناً خط نزاع دموي أيضاً.

دراسات في الشاه الإسلامي

ويقارن المسلمون أعمال الغرب ضد العراق بتقاعسه عن حماية البوسنيين من الصرب وعدم فرض عقوبات على إسرائيل لانتهاك قرارات الأمم المتحدة. ويدعون أن الغرب يكيل بمكيالين بيد أنه من المحتم أن يكون عالم الحضارات المتصادمة هو عالم الكيل بمكيالين : فالناس يكيلون بمكيال للبلدان الأقرباء لهم وبمكيال مختلف للآخرين.

وظهرت " أعراض البلدان الأقرباء " أيضاً في المنازعات في الاتحاد السوفييتي السابق . فقد حفزت نجاحات أرمينيا في ١٩٩٢ و١٩٩٣م حكومات تركيا وإيران لأن تزيد مساندتها لأشقائها في الدين والعنصر واللغة في أذربيجان .

وكانت الحكومة السوفيتية في سنواتها الأخيرة قد ساندت أذربيجان ، لأن حكومتها كان يسيطر عليها الشيوعيون السابقون، بيد أنه مع انتهاء الاتحاد السوفيتي، أخذت الاعتبارات السياسية الساحة للاعتبارات الدينية. وحاربت القوات الروسية إلى جانب الأرمن، واتهمت أذربيجان الحكومة الروسية بأنها استدارت ١٨٠ درجة نحو تأييد أرمينيا المسيحية.

القضية الرابعة

هيمنة الغرب على المؤسسات السياسية والاقتصادية والأمنية الدولية واستغلال آلياتها لإضفاء مشروعية عالمية على الأعمال التي تعكس مصالحه، والتركيز على الأمم المعادية للغرب فعلاً أو احتمالاً^(١٣).

ما عدا اليابان : فإن الغرب لا يواجه أي تحدٍ اقتصادي ، وهو يهيمن على المؤسسات السياسية والأمنية الدولية ، ويهيمن مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية الدولية . وتتم تسوية القضايا السياسية والأمنية العالمية بطريقة فعالة بواسطة مجلس إدارة مكون من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان . وجميعها ترتبط ببعضها البعض بعلاقات وسيطة بصورة غير

دراسات في الشأن الإسلامي

عادية بما يستبعد البلدان الأقل قوة وغير الغربية أساساً ، إن القرارات التي يتخذها مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي التي تعكس مصالح الغرب: تقدم للعالم باعتبارها قرارات تعكس رغبات المجتمع الدولي ، بل إن تعبير "المجتمع الدولي" نفسه أصبح اسماً جماعياً ملطفاً يحل محل "العالم الحر" لإضفاء مشروعية عالمية على الأعمال التي تعكس مصالح الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى، ويدعم الغرب من خلال صندوق النقد الدولي والمؤسسات الاقتصادية الدولية الأخرى. مصالحه الاقتصادية، ويفرض على الأمم الأخرى سياسات اقتصادية يرى أنها مناسبة. وفي أي استطلاع لرأي الشعوب غير الغربية، في صندوق النقد الدولي أو منظمة التجارة العالمية، فإن الغالبية الساحقة لن يكون تقديرها لهما موافقاً.

المحور الثالث الاقتصاد الإسلامي والسنن الاقتصادية

مدخل علمي:

ونحن نلج معمعة الحديث عن الاقتصاد الإسلامي والعولمة لا بد أن نعترف أننا لم نتمكن ربما حتى وقت قريب من بلورة نموذج يقوم على مداخل سننية تعرف أن لله - جل وعلا - سنناً في كل ظواهر الوجود، كما في الظواهر والحوادث الطبيعية، أيضاً في الظواهر والحوادث الاجتماعية، والاقتصادية على وجه الخصوص.

ومن ثم نجهل السنن التي تحكم وتفسر هذه الظواهر، وتفرض اتجاهات تطورها، وهذا الجانب العلمي أو السنني هو ما أسميناه في المحور الأول من هذه الدراسة بالجانب الوصفي من الاقتصاد الإسلامي المستمد من مسلمات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وأفضل ما قيل في تعريف السنن الإلهية أنها: طريقة الله في معاملة خلقه^(١٤)، وطريقة الله في معاملة خلقه تختلف باختلاف الخلق، فهناك خلق لله تعالى جبرهم وقسرهم على سلوك معين وليس أمامهم خيار سواه، وسنته تعالى في هذا النوع أنه أخضعهم لقوانين ثابتة وعامة لا تتخلف، وذلك مثل حوادث الطبيعة، وبجانب هذا الخلق الذي قسر على سلوك معين، هنالك خلق لله تعالى قد منح حرية الاختيار، ولم يقسر على سلوك معين، وهو الخلق الذي حمل أمانة التكليف، ومن هذا الخلق النوع الإنساني، وطريقة الله تعالى في معاملة هذا النوع الإنساني، أو سنته فيهم؛ هي إخضاع سلوكهم لقوانين مطردة ثابتة أيضاً، ولكن بعض هذه السنن والقوانين تعمل من خلال السلوك الإنساني نفسه، أي أنه كيفما يكون سلوك الإنسان

داسات في الشاه الإسلامي

وموقفه من سنن الله تعالى، واستجابته الموجبة أو السالبة لهديه، تكون طريقته تعالى في معاملته.

وفي الجملة يشير القرآن الكريم - وكذلك الحديث - إلى ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض ارتباطاً مطرداً منتظماً، وذلك بتتابع حادثين، سابق (جرت العادة أن يسمى سبباً)، ولاحق (جرت العادة أن يسمى مسبباً أو نتيجة) تتابعاً مطرداً باستمرار كنزول المطر ونمو النبات، يشير كذلك إلى ارتباط الحوادث الاجتماعية مثل هذا الارتباط المطرد الذي يسميه علماء الطبيعة وعلماء الاجتماع قانوناً^(١٥).

ويتكرر باستمرار في القرآن الكريم مثلاً حصول الهلاك بعد ظهور الظلم، مثل قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: ٥٢)، بل إن هذا الارتباط له قانون زمني كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (الكهف: ٥٩). وإذا كان القرآن الكريم - وكذلك الحديث - يشير إلى ارتباط ظاهرتين اجتماعيتين ارتباطاً مطرداً فمعنى ذلك أنه يشير إلى قوانين الظواهر الاجتماعية، أو سنة الله وقوانينه في المجتمع الإنساني، إذ ليس القانون الاجتماعي إلا الترابط المطرد بطريقة ما بين ظاهرتين أو ظواهر اجتماعية، بل إن القرآن الكريم يذكر صراحة أن لله سنناً في الأمم والأقوام والجماعات ويدعو إلى التعرف عليها واكتشافها والإفادة منها، ويلفت النظر إلى أنها صارمة ودقيقة كسننه في الطبيعة^(١٦).

وتتفاوت أساليب وطرائق الإرشاد إلى السنن الإلهية كالتصريح بها بلفظ السنة، كما في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢)، أو الإشارة إليها عن طريق الارتباط المطرد المشار إليه، أو بأسلوب القضية الشرطية التي يتم فيها الربط بين الشرط والجزاء المترتب عليه كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾

داسات في الشاه الإسلامي

(الأنفال: ٢٩)، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣). وأحياناً يهدي الله لسننه بإيرادها في شكل قضية فعلية منجزة، محققة الوقوع، في شكل عبارة خبرية وصفية أو مسلّمة، وذلك مثل الصفات التي جبل عليها الإنسان، أو ما يعرف بفطرة الإنسان وطبيعته وحوافزه، وهي الطريقة التي يغلب على طبع الإنسان أن يتصرف بها عادةً مع خضوع ذلك التصرف لبعض الاستثناءات، والعبرة تكون للغالب، فإن الغالب الأكثرى معتبر في الشريعة اعتبار العام القطعي لأن المتخلفات الجزئية لا ينتظم منها كلى يعارض هذا الكلى الثابت (١٧). وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨). ويلاحظ أن هذه السنن تغلب عليها الصيغة العامة المجردة عن التفصيلات الشخصية والحوادث التاريخية مما يعني أنها أقرب إلى صيغ العلوم الاجتماعية والاقتصادية منها إلى التاريخ، كما أنها تبدو مترابطة إلى درجة أنك لا تستطيع التحدث عن واحدة منها دون أن تضطر للكلام عن سنن أخرى ذات صلة وثيقة بحيث تشكل منظومة متماسكة يصعب فصمها تؤلف في النهاية نظاماً متكاملًا.

والسؤال الجوهرى هنا: ما هي هذه السنن؟ وما هي علاقتها بالاقتصاد الإسلامي؟

أولا : الفطرة وسنة التمايز بين الناس في الأديان

معنى الفطرة :

الفَطْرُ الابتداء والاختراع والفِطْرَةُ منه الحالة كالجلسة والركبة، وكلُّ مولودٍ يُؤلَدُ على الفِطْرَةِ يعني أنه يُؤلَدُ على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد مثل أولاد اليهود والنصارى في

داسات في الشاه الإسلامي

اتباعهم لأبائهم والميل إلى أديانهم عن مقتضى الفطرة السليمة^(١٨).

وهذا المعنى يتوافق مع المعنى الشرعي للفطرة الذي هو مذهب جمهور السلف ، ولأن البعض يقول إن المشرك لم يفطر على الإسلام، قال الشوكاني: (قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل : والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعاً مفطورون على ذلك، لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح فكل فرد من أفراد الناس مفطور، أي مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيين، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين، وهو: الحق^(١٩)).

وبناء على هذا المفهوم الشرعي يتبين أن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في النفس البشرية، فطرة أودعها الخالق فيها وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها، وبحكم ما تشعر به في أعماقها من هذه الحقيقة (الإسلام الفطري). أما الرسائل فتذكير وتحذير وتصحيح لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير (الإسلام بالمعنى الشرعي) وهي الكلمة التي يصير بها العبد مسلماً وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم - ٣٠). فهنا ربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة الدين، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾. (فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردّها إليها إلا الدين المتناسق مع الفطرة)^(٢٠).

وهنا لا بد من تقرير حقيقة جوهرية ومركزية في المباحث التي تتناولها هذه الدراسة، ألا وهي استواء جميع الناس في الفطرة الأصلية مسلمهم وكافرهم ، فهم لا يتفاوتون في الإيمان والإسلام الفطريين بل في الإيمان

دراسات في الشاه الإسلامي

والإسلام الشرعيين اللذين يأتيان في مرحلة لاحقة أي بعد سن التمييز والعقل، والتكليف الذي تأتي به الرسالات والأنبياء والكتب للبيان وإقامة الحججة على الخلق، أما في أصل الفطرة فالجميع متساوون غير متفاوتين باتفاق أهل التأويل الذي نقلناه آنفاً، وأنهم جميعاً مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم من آفات البشر فيختارون الكفر فيبقون بسببها على الكفر (وهم من فسدت فطرتهم) أو يختارون الإيمان فيبقون بذلك على أصل الإيمان (من بقي منهم على أصل فطرته) كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الثابت في الصحيح، هذا عن معنى الفطرة التي هي الطبع المتهيئ لقبول الدين باعتبار الملة الإبراهيمية والتي لو ترك عليها الإنسان لاستمر على لزومها ولم يفارقها.

وهناك الفطرة بمعنى الطبع والجبلة التي تخلق في الإنسان بمعنى الاستعداد الفطري للإتيان بالأفعال، وذلك مثل طبع الهلع والجزع والعجلة والضعف وحب الشهوة وحب المال والشح والبخل والمنع واليأس والقنوط والفرح والفخر وكفر النعمة ونحوها، فهذه طبائع موجودة موزعة في جميع الناس بأصل الخلقة والفطرة، يقول الإمام الرازي في توضيح هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ (المعارج : ١٩) نظير لقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء : ٣٧). واعلم أن الهلع لفظ واقع على أمرين : أحدهما : الحالة النفسانية التي لأجلها يقدم الإنسان على إظهار الجزع والتضرع، والثاني : تلك الأفعال الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالة النفسانية، أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنها تحدث بخلق الله تعالى، لأن من خلقت نفسه على تلك الحالة لا يمكنه إزالة تلك الحالة من نفسه، ومن خلق شجاعاً بطلاً لا يمكنه إزالة تلك الحالة عن نفسه بل الأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام عليها فهي أمور اختيارية ، أما الحالة النفسانية التي هي الهلع في الحقيقة فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار (٢١).

داسات في الشاه الإسلامي

ولو استقصينا القرآن والسنة لوجدنا أن هذه الخصال والطبائع التي بمعنى الحالة النفسانية المشار إليه مشتركة بين جميع الناس ، المؤمن والكافر في ذلك سواء، فالمؤمنون والكفار يتمايزون أو يمتازون فيما بينهم في المقام الأول بالعقيدة أي بالإيمان أو الكفر، ولكنهم لا يتمايزون في الحالة النفسانية المخلوقة على سبيل الاضطرار فهذه قطعا لا يحدث فيها تفاوت (مثلما لا يحدث التفاوت في الإيمان و الإسلام الفطريين). وأما الأفعال الظاهرة الاختيارية، فهذه التي يحدث فيها التفاوت بسبب اختلاف الناس في العزائم (مثل ما يحدث التفاوت في الإيمان و الإسلام الشرعيين). ولكن هذا التفاوت بين الناس في الأفعال الظاهرة ضعيف ، وذلك بسبب أن الذين يجاهدون أنفسهم حتى من أهل الإيمان في ترك المذموم من الأفعال الظاهرة ويفوزون هم أقل من القليل كما سوف نرى. ولهذا نجد التمايز بين الناس في نظر الشرع الإسلامي وفي جميع الشرائع المنزلة من عند الله يكون بالأديان وليس بالأموال . فالتفاوت بين الناس في الأموال والأرزاق سنة من سنن الله في الاجتماع البشري تكمن وراءه حكم ومصالح للخلق ولانتظام الحياة الدنيا وللابتلاء كذلك ، ولا يكون بسبب محبة الله للعبد ولا كرامته عنده، ولا بسبب بغض الله له وهوانه عنده. بينما التفاوت بين الناس في الأديان يكون قطعا بسبب محبة الله وتكريمه لأهل الأيمان وبغضه وإهانته لأهل الكفر والشرك. والخلاصة أن سنن التفاوت في الأمرين تخضع لمعايير مختلفة. والنصوص الشرعية تبين هذا المعنى أكثر:

١. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (الفجر: ١٥ - ١٧).

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ

دراسات في الشاهد الإسلامي

أَضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ١٢٦﴾.

ومعنى الآية : تنبيه إبراهيم عليه السلام أن الرزق رحمة دنيوية لا تخص المؤمن بخلاف الإمامة التي ذكرت في الآيات التي قبلها (البقرة : ١٢٤)(٢٢)، وفي عبارة الرازي: أن الله تعالى أعلمه الفرق بين النبوة ورزق الدنيا، لأن منصب النبوة والإمامة لا يليق بالفاسقين أما الرزق فلا يقبح إيصاله إلى المطيع والكافر والصادق والمنافق(٢٣)،

٣ - وفي الحديث المرفوع عن ابن مسعود - رضي الله عنه: "إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم أرزاقكم وإن الله يعطي المال من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب"(٢٤).

٤- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ) قَالَ التِّرْمِذِيُّ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ (الترمذي) ، وفي المستدرك على الصحيحين للحاكم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٢٥).

ثانياً : الفطرة والحوافز الاقتصادية الفطرية

هل السلوك الاقتصادي للإنسان أناني أم إيثاري ؟

تبدل منذ عقود جهود فكرية حثيثة للبحث عن نظرية اقتصادية إسلامية، أو ما أطلقنا عليه في المحور الأول من هذه الدراسة مصطلح (التحليل الاقتصادي الإسلامي)، وتسير هذه الجهود في هذا الطريق بدعوى أن النظرية الاقتصادية التقليدية أو المعاصرة التي تهتم أساساً بما هو كائن، متحاملة على القيم الإسلامية ومن ثم فإن معظم هذه الجهود تنتقد النظرية الاقتصادية التقليدية على شدة اهتمامها بدراسة وتحليل السلوك الاقتصادي الأناني للإنسان (أو السلوك الفعلي للإنسان). وعدم اكتراثها بدراسة وتحليل السلوك الاقتصادي المدفوع بالإيثار والحوافز الأخلاقية(٢٦).

داسات في الشاه الإسلامي

والموقف الصحيح الذي يظهر لي وتؤيده مسلّمات الكتاب والسنة هو أن الافتراضات التي ينطلق منها علم الاقتصاد التقليدي (التحليل الاقتصادي) وتسمّى الفروض الأساسية، هي نفسها الفروض التي تحكم السلوك الاقتصادي للإنسان في المفهوم الإسلامي، وسنجد أن هذه "الفروض" وإن كنا نسميها فروضاً جرياً على عادة الاقتصاديين إلا إنها في الاقتصاد الإسلامي ليست بالمعنى نفسه الذي يستخدم في علم الاقتصاد التقليدي.

وهذه الفروض هي: فرض الرشد المالي والاقتصادي، وفرض تعظيم المنفعة للمستهلك، وفرض تعظيم الربح للمنتج، وفرض الندرة، وبالرغم من وجود فروض أخرى، إلا أننا سنكتفي بهذه الفروض الأساسية في علم الاقتصاد، وأما الحافز الأصلي للإنسان الذي لا يعدل عنه فهو مصلحته الخاصة، حتى لو تضاربت مع المصلحة العامة، فهذه المصلحة هي في النهاية المحرك الأساسي لنشاطه الاقتصادي.

والآن ما هو موقف الاقتصاد الإسلامي من هذه المسلّمات التي يسمونها فروضاً وأنا أسميها مسلّمات وقواعد أو حقائق تحكمها سنن ثابتة مطردة؟
أستطيع القول ابتداءً إننا لو تأملنا هذه المسلّمات: أو الفروض وهي فرض الرشد المالي والاقتصادي الذي يسمّى أحياناً مبدأ الحساب الاقتصادي الرشيد، وفرض تعظيم المنفعة للمستهلك، وفرض تعظيم الربح للمنتج نجد أنها ترجع إلى شيء واحد، وهو ما أطلق عليه العلماء المسلمون العمل وفق موجب العقل وعكسه السفه الذي عرفوه بأنه: خفة تعتري الإنسان فتبعته على العمل بخلاف موجب العقل(٢٧).

وعرّف بعضهم الرشد الاقتصادي والمالي بقوله: الرشيد هو الضابط لماله ولا يشترط صلاحه في دينه(٢٨).

وبناءً على هذه التعريفات نجد أن مبدأ الرشد الاقتصادي في تأويل العلماء هو إصلاح المال وإنماؤه وعدم تبذيره، ولا يراعى في ذلك عدالة أو

دراسات في الشأه الإسلامي

فسق في الدين، فإذا بلغ الإنسان على هذه الصفة سلّم إليه ماله، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرشد يشمل إصلاح المال وصلاح الدين (٢٩). وإن كنت لا أرجح هذا المذهب الأخير لأسباب سيأتي بيانها.

والرشد الاقتصادي صفة تلازم الإنسان الطبيعي أو العادي منذ بلوغه السن الذي يكتمل فيها عقله وإدراكه وهو ما أصطُح على تسميته بـ"سن الرشد". وهي صفة طبيعية مفترضة في الإنسان السليم وهي الأصل في الإنسان الصحيح؛ ومسلّمات القرآن الكريم تؤيد ذلك وتؤصله، كما في الدعوة إلى ابتلاء اليتامى واختبارهم للتأكد من وجود هذه الصفة فيهم قبل تسليمهم أموالهم، والتي وردت في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ...﴾ (النساء: ٦). فالمفترض في الإنسان هو الرشد إلا إذا ثبت عكس ذلك وهو السفه أو الجنون أو الخبل... الخ. الصفات الطارئة المعروفة.

وبعد هذا التأصيل التمهيدي الموجز يحسن بنا الشروع في بيان سنن الله في السلوك الإنساني وحوافزه التي أطلقنا عليها سنن الفطرة وكيفية عملها في الاقتصاد.

الغالب في الإنسان السلوك الأناني وليس الإيثاري !

إن ما يغلب على طبع الإنسان هو السلوك الأناني وليس الإيثاري، وسوف تتبين لنا فيما يلي هذه الحقيقة التي قد لا تروق لبعض الناس. ذلك أن علم الاقتصاد لا يحاول التنبؤ بسلوك شخص ما بذاته ولا سلوك مجموعة محدودة من الناس، ولكنه يركز على السلوك العام لمجموعة كبيرة من الناس. وسنجد أن السلوك العام حتى في المجتمع المسلم في الظروف العادية لا يخرج مما ذكرنا وأن ما يحفزه هو مصلحته الخاصة حتى لو تعارضت مع المصلحة العامة أو مصالح الآخرين، ويتبين ذلك من الآتي:

داسات في الشاه الإسلامي

١- قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ (آل عمران: ١٤).

يقول الإمام الرازي إن الآية تدل: على أمور مرتبة أولها: أنه يشتهي أنواع المشتهايات وثانيها: أنه يحب شهوته لها، وثالثها: أنه يعتقد أن تلك المحبة حسنة وفضيلة، ولما اجتمعت في القضية الدرجات الثلاثة بلغت الغاية القصوى في الشدة والقوة، ولا يكاد ينحل إلا بتوفيق عظيم من الله تعالى، ثم إنه تعالى أضاف ذلك إلى الناس، وهو لفظ عام دخله حرف التعريف فيفيد الاستغراق، فظاهر اللفظ يقتضي أن هذا المعنى حاصل لجميع الناس، والعقل أيضاً يدل عليه (٣٠).

٢- وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧)، وقال أيضاً: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦)، قال الإمام الرازي: إن الله جل جلاله جعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ركب في الطباع الميل إلى اللذات وحب الشهوات لا على سبيل الإلجاء الذي لا يمكن تركه، بل على سبيل التحبيب الذي تميل إليه النفس مع إمكان ردها عنه ليتم بذلك الامتحان، وليجاهد المؤمن هواه فيقصر نفسه على المباح ويكفها عن الحرام (٣١).

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٦ - ٨).

أصل الكنود منع الحق والخير والكنود الذي يمنع ما عليه، و للمفسرين عبارات، منها: هو الكفور، العاصي، الشديد البخيل الممسك، تقول: هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقاً له ضابطاً، اللوام لربه يعد المصائب، وينسى النعم، فإن حملناه على الكل كان المعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه من ذلك، وهو أحد

دراسات في الشاه الإسلامي

الأقوال في تفسير الآية، وهي من الأمور التي أقسم الله عليها)(٣٢).

٤ - وقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ٢).
والتكاثر التباهي بكثرة المال والجاه، والتكاثر تفاعل عن الكثرة والتفاعل
يحتمل أن يكون بين اثنين فيكون مفاعله، ويحتمل تكلف الفعل فإن الحريص
يتكلف جميع عمره تكثير ماله، ويدخل فيه التكاثر بكل ما يكون من الدنيا
ولذاتها وشهواتها. وهو لا يختص بمرحلة واحدة من عمر الإنسان بل يكون
ذلك طول حياته إلى أن يموت(٣٣).

٥ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما يقول سمعت النبي ﷺ يقول: "لو
كان لابن آدم واديان من مال لا يتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب
ويتوب الله على من تاب"(٣٤).

وفيه : أنهم كانوا يرون هذا من القرآن حتى نزلت ألهاكم التكاثر.

٦ - وقال تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتُ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨)، وقال: ﴿وَمَنْ
يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن: ١٦، الحشر: ٩).

والمراد أحضر الله تعالى الأنفس الشح وهو البخل مع الحرص، ويجوز أن
يكون الشح جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً، أو إنها جعلت حاضرة له
مطبوعة عليه، ولعل المراد أنه البخل المتناهي بحيث يبخل المتصف به بمال
غيره، أي لا يودُّ جود الغير به وتتقبض نفسه منه ويسعى في أن لا يكون، أو
بحيث يبلغ به الحرص إلى أن يأكل مال أخيه ظلماً أو تطمح عينه إلى ما
ليس له، ولا تسمح نفسه بأن يكون لغيره، أيضاً: الشح اللؤم وهو أن تكون
النفس كزة حريصة على المنع، وأضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها وأما
البخل فهو المنع نفسه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن الشح الذي ذكره
الله تعالى أن تأكل مال أخيك ظلماً(٣٥).

٧ - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ

داسات في الشاه الإسلامي

الْخَيْرُ مَنْوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿المعارج : الآيات ١٩ - ٢٤﴾.

يقول الرازي: (قال بعضهم: المراد بالإنسان ههنا الكافر، وقال آخرون: بل هو على عمومه، بدليل أنه استثنى منه (إلا المصلين). والهلع: هو شدة الحرص وقلة الصبر، وقد فسرهُ الله، ولا تفسير أبين من تفسيره، هو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل ومنعه الناس) وقد سبق أن نقلنا تعريف الرازي له بأنه واقع على أمرين: أحدهما: الحالة النفسانية المخلوقة على سبيل الاضطرار والثاني: الأفعال الظاهرة الاختيارية الدالة على الحالة النفسانية، والمراد من الشر والخير الفقر والغنى أو المرض والصحة، فالمعنى أنه إذا صار فقيراً أو مريضاً أخذ في الجزع والشكاية، وإذا صار غنياً أو صحيحاً أخذ في منع المعروف وشح بماله ولم يلتفت إلى الناس. واستثنى من هذه الحالة المذكورة المذمومة من كان موصوفاً بثمانية أشياء: ١- المصلين، ٢- الذين في أموالهم حق معلوم، ٣- الذين يصدقون بيوم الدين ٤- الذين هم من عذاب ربهم مشفقون ٥- الذين هم لفروجهم حافظون ٦- الذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون ٧- الذين هم بشاهداتهم قائمون ٨- الذين هم على صلاتهم يحافظون. (٣٦).

٨- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر: ٣٢).

اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفينا هم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم وأخبر بدخولهم الجنة. وكلمة (ثم أورثنا) أيضاً تدل عليه، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: (فمنهم ظالم لنفسه) وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. (ومنهم مقتصد) وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات، (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) وهو: الفاعل

دراسات في الشاه الإسلامي

للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات(٣٧).

يقول الرازي: فإن قال قائل كيف قال في حق من ذكر في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع، فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"(٣٨).

٩- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (هود: ٩ - ١١).

يقول الرازي: (لفظ (الإنسان) في هذه الآية فيه قولان:

القول الأول: أن المراد منه مطلق الإنسان ويدل عليه أنه تعالى استثنى منه قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر، وذلك يدل على ما قلناه)، يعني أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لما ورد في سورة المعارج (الآيات: ١٩ - ٢١) كما أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز.

والقول الثاني: أن المراد منه الكافر، ولفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجوده أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان(٣٩).

وقال الفراء؛ هو استثناء من لئن أذقناه: أي من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس: يشمل الكافر والمؤمن، فهو استثناء متصل(٤٠).

١٠- وقال تعالى: ﴿لَا يَسَاءُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكُفُّهُ قَنُوطٌ وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضُرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي

داسات في الشاه الإسلامي

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ
 الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٤٩﴾
 (فصلت: ٤٩ - ٥١).

يقول الشوكاني: (ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان، فقال: (لا يسمئ
 الإنسان من دعاء الخير) أي: لا يمل من دعاء الخير لنفسه، وجلبه إليه، والخير
 هنا: المال، والصحة، والسلطان، والرفعة. قال السدي: والإنسان هنا يراد به
 الكافر. والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خلص
 العباد، ثم استطرد الشوكاني في القول فقال: إن الصفات الواردة في الآيات
 هي من صنيع الكافرين، ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين، ثم رجع
 سبحانه في نهاية الآيات إلى مخاطبة الكفار، وم حاجتهم) (٤١).

١١- قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا
 فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٢).

اختلفوا في (الإنسان) في قوله: (وإذا مس الإنسان الضر) فقال بعضهم:
 إنه الكافر، ومنهم من بالغ وقال: كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الإنسان،
 فالمراد هو الكافر، وهذا باطل، لأن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ
 رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ فَاَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (الانشقاق: ٦ - ٧)، لا
 شبهة في أن المؤمن داخل فيه، وغيره، كثير في القرآن. فالذي قالوه بعيد، بل
 الحق أن نقول: اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام حكمه أنه إذا حصل هناك
 معهود سابق انصرف إليه، وإن لم يحصل هناك معهود سابق وجب حمله
 على الاستغراق صوتاً له عن الإجمال والتعطيل ولفظ (الإنسان) ههنا لائق
 بالكافر، لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم ألبتة (٤٢).

دراسات في الشاه الإسلامي

صورة مبسطة للكيفية التي يمكن أن يعمل بها الاقتصاد الإسلامي القائم
على قوانين الاقتصاد الفطرية :

يعتبر النظام الاقتصادي الإسلامي نظاماً طبعياً يستجيب للخصائص
الطبيعية والفطرية الموجودة في النفس البشرية، من حب للتملك، وتفضيل
الحرية، والسعي نحو المصلحة الشخصية، فهو طبعي من حيث كونه يشبع
في الإنسان هذه الرغبات، ولا يحرمه من ثمرة جهوده، ولا يجعل الدولة
تتدخل في نشاطه بدون مبرر شرعي ومعقول.

فالإنتاج في هذا الاقتصاد يتقرر طبقاً لرغبات المستهلكين عن طريق ما
يدفعونه من أثمان للمنتجين بواسطة جهاز الثمن، الذي يوصل بدوره هذه
الرغبات إلى المنتجين فيعملون بمقتضاها، وبسبب وجود التنافس بين هؤلاء
المنتجين، فإن هذه المنافسة تحول دون تجاوز أثرتهم وحبهم لذواتهم حدودها
المعقولة في الاقتصاد القائم على الحرية، فتقيم بذلك بينهم الاتزان
والاعتدال، فيتعين لقيمة السلع وسائر البضائع معياراً مناسباً لأجل المنافسة
بينهم وهم كثير، فلا تتجاوز المنفعة العائدة عليهم حدودها المعروفة، ولا تقل
عنها أيضاً إلا في بعض الأحوال الطارئة المؤقتة، فينتفع بذلك المستهلكون.

ويصدق الأمر نفسه في أسواق عوامل الإنتاج، أي أسواق أرباب العمل
ومنظمي المشاريع، وأرباب الأراضي والأموال، وأسواق العمل وأسواق منافع
رؤوس الأموال، ولا يزال الفريقان من الطالبين والعارضين لمنافع هذه
العوامل يقيمون بأنفسهم لقاء ما يملكون من هذه المنافع معياراً متزناً
لأثمانها بفضل المنافسة بينهم. ومن ثم فإن الأجرة والريع و الجعالات في
أسواق كل من الأراضي والأموال وقوة العمل، والأرباح في أسواق رأس المال
ومنظمي المشاريع وأرباب الأعمال لا تزيد ولا تنقص إلا وفق القانون الفطري
الذي به تتخفف أو ترتفع قيمة سائر السلع والبضائع في أسواقها . هذه
هي الطريقة التي يعمل بها الاقتصاد الذي يعتمد على الحرية، ويمكن أن

داسات في الشاه الإسلامي

نطلق عليها قوانين الاقتصاد الفطرية . والحقيقة أن هذه القوانين التي حاولت المدرسة الكلاسيكية الرأسمالية أن تجعل منها كشافاً جديداً، ما كان فيها من شيء جديد كما يقول العلامة المودودي، وإنما هي مما لم يزل يجري عليه نظام الاقتصاد البشري منذ أول أمره (٤٣).

ثالثاً : سنة الله في دفع الناس بعضهم ببعض .

لم يكن من بد لحركة البشرية من سنن ونواميس وقوانين تضبط إيقاعها، وتنظم توجهاتها ، وترشد مسيرتها نحو الغايات التي بعث الله هذه الحركة لأجلها، وهي سنن ونواميس وقوانين لها من الدقة والمرونة والإحكام والملائمة لطبيعة الحياة الإنسانية ما يدل دلالة عظيمة على قدرة الخالق و حكمته . وقد اقتضت تلك الحكمة في الاجتماع البشري أن يقوم - ضمن سنن أخرى - على سنة دفع الناس بعضهم ببعض . قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١). وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ (الحج : ٤٠).

ذكر الإمام الرازي أن المدفوع عنه غير مذكور في الآية ويحتمل خمسة أشياء، أربعة منها: أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدين ويحتمل أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدنيا، ويحتمل أن يكون مجموعهما، وقال إن أحد احتمالاتها: ولولا دفع الله بعض الناس عن الهرج والمرج وإثارة الفتن في الدنيا بسبب البعض، بواسطة الأنبياء عليهم السلام، ثم الأئمة والملوك الذابون عن شرائعهم، ثم قال: وتقريره: أن الإنسان الواحد لا يمكنه أن يعيش وحده، لأنه ما لم يخبز هذا لذلك ولا يطحن ذاك لهذا، ولا يبني هذا لذلك، ولا ينسج ذاك لهذا، لا تتم مصلحة الإنسان الواحد، ولا تتم إلا عند اجتماع جمع في موضع واحد، فلهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، ثم إن الاجتماع يسبب المنازعة المفضية إلى المخاصمة أولاً، والمقاتلة ثانياً، فلا بد في الحكمة الإلهية من وضع شريعة بين الخلق. وقال أخيراً بعد استطراد:

دراسات في الشاه الإسلامي

إن هذا التأويل يشهد له آيات كثيرة ذكر منها آية سورة الحج. والاحتمال الخامس: أن يكون اللفظ محمولاً على الكل، لأن بين هذه الأقسام قدراً مشتركاً وهو دفع المفسدة، فإذا حملنا اللفظ عليه دخلت الأقسام بأسرها فيه. (٤٤).

ويتبين من الآيات أن التدافع هو حراك اجتماعي وسياسي وثقافي وحضاري واقتصادي، وهو سنة لا تتبدل ولا تتحول في الشعوب والقبائل والأمم، وفي الألسن والألوان والأفهام والقوميات، وفي الشرائع والأديان والمناهج والثقافات والأفكار والأرزاق، ويتم هذا الحراك بين هذه القوى مع بقاء تعددية الفرقاء المتميزين فيحصل التوازن بينهم، وهذا القانون هو الذي يحفظ التوازن بين القوى المتدافعة، والتدافع لا يعني بالضرورة صرع الآخر وإلغاءه من الوجود عن طريق القتال الذي هو بلا شك أحد صورته، بل في كثير من الأحيان تحويل موقفه وموقعه، أو الوصول معه لحل وسط وموازنته وتبادل المنافع معه وهكذا، وهذا التدافع يقوم على سنة أخرى هي التعددية والتباين والاختلاف بين القوى بالضرورة، فلا واحدة إلا لله وحده.

قال تعالى: ﴿..... لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ (المائدة: ٤٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾، (هود). وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٣).

قال الرازي (في تفسير آية سورة هود): المراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال. واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضوع، حتى أرباب الشرائع والأديان، وهم المسلمون والنصارى واليهود

داسات في الشاه الإسلامي

والمجوس، تجد في كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا حد لها ولا حصر. وأمة واحدة أي جماعة متفقة على شريعة واحدة، أو ذوي أمة واحدة، أي دين واحد لا اختلاف فيه.

رابعا : سنة الله في الندرة النسبية (المشكلة الاقتصادية)

عندما يقال إن الموارد الاقتصادية نادرة ، ليس المقصود الندرة المطلقة بل النسبية ، أي بالنسبة للمطلوب منها لإشباع الحاجات الإنسانية غير المحدودة التي تتجدد باستمرار وتتطور مع تطور الأفراد والمجتمعات، ويدخل فيها ما يحتاجه الإنسان فعلا وما لا يحتاجه في حقيقة الأمر. وينظر لهذه الحاجات بمنظار الواقع وبما هو كائن، لا بمنظار ما ينبغي أن يكون في معيار الدين أو الأخلاق.

بالرغم من وضوح مشكلة الندرة النسبية التي تسمى بالمشكلة الاقتصادية نجد الكثير من المفكرين وبعض الاقتصاديين المسلمين من يشكك أو ينكر الندرة النسبية، وذلك منذ أكثر من أربعين عاماً وحتى الآن (٤٥)، ومنهم من ينسب وجود المشكلة للإنسان . ويحدث أحيانا خلط بين المشكلة وحلها، فيتكلمون عن إمكانية زيادة الموارد أو تقليل الحاجات، فيقع الوهم بأنهم يتحدثون عن المشكلة بينما هم في الحقيقة يتحدثون عن حلها ، كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين. وما يستغرب له هو استدلال الكثيرين منهم على رأيهم بالكتاب والسنة . ولكن المحاولة الجدية لاستعراض دلالات النصوص الشرعية تثبت وجود المشكلة بكلا بعديها في الموارد الاقتصادية المحدودة و الحاجات الإنسانية غير المحدودة، وفيما يلي بعض الأمثلة:

١. قال تعالى : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ (طه: ١١٧-١١٩) .

داسات في الشاه الإسلامي

وقال تعالى: ﴿.. فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٣ - ١٢٤) .
ويتبين من الآيات أن الشقاء الاقتصادي ملازم لمن يعيش على الأرض في مقابل عيشة الوفرة المطلقة في الجنة ، كما أن الآيات قد عدت الحاجات الإنسانية تنبياً على الحاجات الأصلية والحاجات التكميلية على الترتيب في تنسيق المذكورات الأربعة. وأما معيشة عدم الشقاء الموعود بها المتبع للهدى فهي معيشة الآخرة وليس معيشة الدنيا، وعكسها معيشة الضنك الموعود بها من أعرض عن الذكر، فهي معيشة الآخرة وليس الدنيا كما يظن بعض الناس ، و من ثم يستدلون بالآيات في غير محلها . والخلاصة أن الشقاء الاقتصادي في الأرض هو قدر مشترك بين الجميع المتبع للهدى والمعرض عنه(٤٦).

وتتكرر هذه المعاني كثيراً في القرآن كلما جاء ذكر قصة الخروج من الجنة حيث اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة ، والنزول إلى الأرض حيث عيشة المتاع إلى حين ، (مثلا الآيات من ٣٥ إلى ٣٩ من البقرة).

٢- قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

يقول الرازي: إن اللفظ في الآية للعموم ويتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل ، و تخصيصها بشيء معين تحكم محض من غير دليل، وأنه تعالى وإن كانت مقدراته غير متناهية إلا أن الذي يخرجها منها إلى الوجود يجب أن يكون متاهياً ، فقله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ إشارة إلى كون مقدراته غير متناهية وقوله: ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ إشارة إلى أن كل ما يدخل منها في الوجود فهو متناه(٤٧) .

٣- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى - ٢٧) .

دراسات في الشاه الإسلامي

وقد استدل الرازي على معنى الآية بالقرآن والعقل، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾ (العلق: ٦ ، ٧) تعطي حكماً مطلقاً بأن حصول الغنى سبب في حصول الطغيان. وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والأدوات كان الشر أقل، وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان(٤٨).

ويقول الزمخشري: إن البعض قد يقول: (قد نرى الناس يبغى بعضهم على بعض ، ومنهم مبسوط لهم، ومنهم مقبوض عنهم؛ فإن كان المبسوط لهم يبغون، فلم بسط لهم؛ وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط، فلم شرطه؟ قلت: لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن)(٤٩).

ولا شك أن هذه النصوص تدل على أن عدم بسط الرزق ظاهرة عامة لا تختص بفئة المبسوط لهم أو المقبوض عنهم، ولا بفئة المؤمنين أو بفئة الكافرين، (كلمة عباده تعني الكل).

فإذا كان هذا حال الموارد الاقتصادية وقد ثبت من الأدلة أنها محدودة ونادرة نسبياً، فماذا عن الحاجات الإنسانية التي نقول أنها غير محدودة؟

٤ . سبق القول إن الحاجات الإنسانية متعددة ومتجددة وغير محدود في واقع الأمر إذا نظرنا إليها نظرة واقعية موضوعية ، و من منظار ما هو كائن وليس من منظار ما ينبغي أن يكون ، بحيث تدخل فيها الحاجات الضرورية والحاجية والتحسينية ، بل تدخل فيها الشهوات والأطماع والإسراف والتبذير، وعلى ذلك فالأدلة متوافرة من القرآن الكريم والسنة النبوية على هذه الحقيقة الأساسية في الحياة ، وهي كما يلي:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات ٨) قال تعالى: ﴿رِيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ (آل عمران: ١٤). وقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى

دراسات في الشاهد الإسلامي

زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ ﴿ (التكاثر: ١ - ٢) ، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ (فصلت: ٤٩) ، ويقول النبي ﷺ: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب" (٥٠).

يقول الماوردي : إنَّ شَهَوَاتِ النَّفْسِ غَيْرُ مُتَّاهِيَةٍ فَإِذَا أُعْطَاهَا الْإِنْسَانُ الْمُرَادَ مِنْ شَهَوَاتٍ وَقَتَّهَا تَعَدَّتْهَا إِلَى شَهَوَاتٍ قَدْ اسْتَحْدَثَتْهَا ، فَيَصِيرُ الْإِنْسَانُ أَسِيرَ شَهَوَاتٍ لَا تَتَّقِضِي ، وَعَبْدَ هَوَى لَا يَنْتَهِي ، وَلَيْسَ لِلشَّهَوَاتِ حَدٌّ مُتَّاهٍ فَيَصِيرُ ذَلِكَ ذَرْبَةً إِلَى أَنْ مَا يَطْلُبُهُ مِنَ الزِّيَادَةِ غَيْرُ مُتَّاهٍ (٥١).

٥- ويمكن قول كلمة أخيرة جامعة عن الاقتصاد الإسلامي بأنه ليس اقتصاداً كمياً، بل نوعياً في المقام الأول مع كونه كمياً، وأعني بذلك اقتصاد البركات التي ينزلها الله سبحانه في كل شيء تحسن فيه النية المتوجهة إليه، وهو الذي يسهم مع شروط أخرى في حل المشكلة الاقتصادية، والأدلة على هذا المعنى متكاثرة. منها قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ (هود: ٤٨)، وقوله جل من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف ٩٦). وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠) وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (المائدة . ٦٦) .

٧- إن الاقتصاد الإسلامي ليس اقتصاداً مثالياً، أو خيالياً، بل اقتصاد واقعي، يجري فيه وينطبق عليه ما يجري في الاقتصاد البشري التقليدي إذا نظرنا إليه النظرة الواقعية (في جانبه الوصفي ، وما هو كائن)، أما وجه الاختلاف الحقيقي بينهما فيكمن في جانب السياسة الاقتصادية التي تتدخل وتهدف للتأثير على الواقع الاقتصادي (لِلوصول إلى ما ينبغي أن يكون). فهي إجمالاً تحاول التأثير في طرفي المشكلة التي شرحناها، عن

داسات في الشاه الإسلامي

طريق تكثير الموارد النادرة بشتى الوسائل الممكنة وضبط وتقليل الحاجات غير المحدودة التي يمكن إشباعها. فيمكن مثلا أن تعمل على زيادة الأغذية وإنقاص المساكن أو العكس، أو تزيد الأدوية و تنقص وسائل النقل وهكذا. ولا بد أن تكون السياسات الحكومية مكملة للنظام الطبيعي المتمثل في نظام السوق ، وليس معاكسة ومحاربة له .

٨ . إن المشكلة الاقتصادية . بالتعريف والتوصيف الذي ذكرناه . قد تخف حدتها ولكن لا يتأتى حلها بسبب خضوعها لسنة لا تتبدل ولقانون لا يتغير، وهي جزء من سنة الابتلاء التي أرادها الله جلت قدرته للإنسان ما دام في الحياة الدنيا باعتبارها دارا للابتلاء والامتحان، وليست دارا للجزاء .

خامسا : سنن الاختلاف والتمايز بين الناس في الأرزاق وسنة التسخير

سبق أن قلنا إن التدافع يقوم على سنة أخرى هي التعددية والتباين والاختلاف بين القوى المتباينة، وأنه لا واحدة إلا لله وحده. ومن وراء هذا التباين والاختلاف الذي هو سنة من سنن الله في الاجتماع البشري تكمن حكم جليلة ومصالح عظيمة. ولعل من أبرزها في هذا المبحث الذي نحن فيه هو: التعاون اللإرادي بين الناس، وتنسيق القرارات التي تكون في كثير من الأحيان متعارضة، ولكنها ليست بالضرورة كذلك، وإنما تبدو في الظاهر كذلك . فعلى سبيل المثال تبدو مصلحة المشتري (بترخيص الثمن) متعارضة مع مصلحة البائع (بزيادة الثمن) وإذا تقابل الأمران وجب تمكين الفريقين من الاجتهاد لأنفسهم، فيجتهد المشتري في الاسترخاء، والبائع في زيادة أرباحه . والسياسة العامة للدولة (في الظروف العادية) ليس نظرها لمصلحة المشتري بأولى من نظرها لمصلحة البائع. وسعي كل فريق لمصلحته الخاصة يتضمن تحقيق المصلحة العامة (وهو ما يطلق عليه في علم الاقتصاد فكرة اليد الخفية وهي فكرة معروفة من قديم عند علماء المسلمين، وأشار إليها القرآن الكريم وكذلك السنة(٥٢).

دراسات في الشاه الإسلامي

ومهما تكن المسميات فإن ظاهرة هذا التعاون الاجتماعي والاقتصادي التي تقوم على ظاهرة التخصص وتقسيم العمل ونظام السوق تحكمها سنن مطردة نذكر بعض النصوص الشرعية التي تشير إليها في عجالة :

١- قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (الزخرف: ٣٢).

٢- الحديث الصحيح الذي رواه أصحاب السنن : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ الْمُسَعِّرُ) (٥٣).

٣- ورد التفضيل في الرزق وبسطه وقدره في العشرات من المواضع في القرآن الكريم، منها: (انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٢١).

المحور الرابع

الاقتصاد الإسلامي والعولمة

الموقف الصحيح من أطروحات العولمة (فروض نظرية هنتجتون):

على خلاف الاستقبال الغاضب والرافض الذي استقبلت به أطروحات العولمة (نهاية التاريخ وصدام الحضارات وغيرها) كان الأولى في نظر الكثير من العقلاء^(٥٤) أن نتأملها جيداً، وأن ننظر إليها باعتبارها إعلاناً صريحاً وصادقاً عن واقع وموقف الحضارة الغربية من الأمم والحضارات غير الغربية. ومن ثم فإن لصموئيل هنتجتون وأمثاله فضل الإعلان عن هذا الموقف الصريح، لأن الواقع التاريخي والحاضر الذي نعيشه يومياً يصدق ما تحدث عنه هنتجتون، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتداعياتها فيما يسمى الحرب على الإرهاب، وأنفق تماماً مع البعض في أن الأفكار التي انطوت عليها أطروحة هنتجتون بصفة خاصة تتسم بالموضوعية والصواب إلى حد بعيد، بالرغم من أن هنتجتون لم يستطع أن يصمد حتى النهاية في موضوعيته.

وانطلاقاً من ذلك أقول إن نقاط الاتفاق بين الاقتصاد الإسلامي و مقررات الأطروحة في رأيي تتمثل إجمالاً في معظم المسائل ، وهي المسائل التي فيها من الصواب والحقيقة والموضوعية بحيث تتماشى تماماً مع أغلب الخطوط العامة والمسلمات الأساسية للاقتصاد الإسلامي إلى درجة تدعو للدهشة والاستغراب. ولعلنا نجد تبريراً أو تفسيراً لاستغرابنا ودهشتنا في العبارة التي وردت في الفقرة الأخيرة من هذه الأطروحة العجيبة عندما تحدثت عن التدابير الواجب اتخاذها للمواجهة في المدى الأطول بين الغرب والبقية، حيث يقول: (بيد أنه سيقضي أيضاً أن يطور الغرب فهماً أعمق

دراسات في الشاهد الإسلامي

للفروض الدينية والفلسفية الأساسية الكامنة وراء الحضارات الأخرى ..
والطريقة التي ترى بها شعوب هذه الحضارات مصالحتها .. . ومن ثم أقول
ربما يكون الانطباع الذي خرجت به بعد قراءة هذه الأطروحة ومضاهاة
مقرراتها بفلسفة الاقتصاد الإسلامي ومسلماته يرجع في قدر كبير منه إلى
هذا التطوير للفهم الأعمق للفروض الدينية والفلسفية الكامنة وراء
الحضارات الأخرى كما ينادي هنتجتون. خاصة إذا تذكرنا تركيز الرجل في
رؤاه في مجمل الأطروحة على أن البؤرة المركزية للنزاع في المستقبل
المباشر: ستكون بين الغرب وعدة دول إسلامية وكونفوشيوسية . ولهذا قلت
وما زلت أقول إن معظم ما جاء في هذه الأطروحة لا يمكن أن يكون محل
خلاف. بالرغم من أن الحق الذي جاء فيها هو للأسف من نوع الحق الذي
يراد به باطل، وهذا الباطل تحديدا هو التآمر على الحضارت الأخرى
المعادية للغرب فعلاً أو حتى احتمالاً والتحريض عليها لرميها في محرقة
العولمة. وذلك عوضاً عن توظيف المفارقات الحضارية للتفاعل والايجابية.
ومهما يكن من أمر اتفاقنا أم اختلافنا معه، فقد كان هنتجتون واقعياً في
مجمل صياغته وتحليلاته، ولعل من أولى مهام هذه الدراسة هو تحديد
مجالات الاتفاق والاختلاف بين الاقتصاد الإسلامي والعولمة ممثلة في هذه
الدراسة الإستراتيجية، والتي اعتبرتها أخطر وأصدق مدونة تحضيرية
لمشروع العولمة، وذلك في القضايا والمسائل التي صنفناها في الخمسة
الأساسية، ولكن نظراً للتداخل الكبير بين الرؤى ورجوعها في النهاية لقضية
واحدة أساسية أو قضيتين مع اختلاف الوسائل التي يستخدمها هنتجتون
للتعبير عن هذه الرؤى والأفكار ، سوف يحس القارئ الكريم ربما بشيء من
التكرار في العرض، والحقيقة أن الأطروحة تدور حول فكرة واحدة معبر
عنها بأساليب وأمثلة متعددة. ولهذا السبب وتسهيلاً للعرض والتعليق سوف
نركز على الأفكار الجوهرية بصرف النظر عن العناوين والمسميات مع

داسات في الشاه الإسلامي

استعمال بعض الأمثلة التي وردت في الأطروحة كما هي للتذكير بما ورد في المحور الثاني الذي خصصناه للكلام عن العوالة، وربما نلجأ لدمج بعض الرؤى المكررة في مسألة واحدة، وذلك على النحو الآتي:

القضيتان الأولى والثانية

مصدر النزاع في العالم الجديد سيكون ثقافياً وحضارياً وليس سياسياً أو اقتصادياً (أيديولوجياً)، ومن ثم فإن الأجدى هو تجميع البلدان وتصنيفها من حيث ثقافتها وحضارتها، وليس حسب نظمها السياسية والاقتصادية، وأن الحضارة هي الكيان الذي تحدده العناصر الموضوعية المشتركة مثل التاريخ واللغة والثقافة والعادات والتقاليد والمؤسسات والأهم من ذلك الدين، وأن الفروق الثقافية ستكون مهمة بدرجة متزايدة في المستقبل، وهي ليست حقيقية فحسب بل أساسية وجوهرية، وهي أكبر من الاختلافات بين الآراء السياسية والاقتصادية.

وتعليقنا على الأفكار الأساسية الواردة في هاتين القضيتين يمكن أن نقول بتوفيق الله:

١- في مداولات الفكر الإنساني في القديم والحديث ليس ثمة جدل وخلافات مثارة حول تعريف وتوصيف لمفهوم ما بقدر ما هو مثار حول إشكالية المصطلح الحضاري، وإذا يممنا شطر علماء الحضارة وأهل الاختصاص نجد أن لهم فيه تعاريف متعددة وتصاريف متشعبة، وأحياناً خلطاً في المفاهيم بين الحضارة والثقافة والمدنية... إلخ. وهي في معظمها تعد معايير نسبية قد لا تعبر عن كافة الظواهر الفاعلة في حركة العمران والاجتماع البشري، ومهما يكن من أمر فإن ما نلاحظه في الجملة أن مصطلح الحضارة فضلاً عن بعده المادي فإن له تميزاً روحياً ووجدانياً فريداً، ولعل ذلك هو ما حدا بأحد علماء الحضارة وهو أشفيتسر أن

داسات في الشاه الإسلامي

يعرفها: بأنها التقدم الروحي للأفراد والجماهير ، وما عدا ذلك من المعارف والقوي المادية ونحوها فليس إلا ظروفًا مصاحبة للحضارة ولا شأن لها بجوهرها^(٥٥). ونجد هذا المعنى المشترك عند الكثير ممن تعرض لتعريف مصطلح الحضارة مثل مالك بن نبي وغيره، ولعل هذا القدر المشترك المشار إليه فيمن تصدى لمصطلح الحضارة هو ما عناه العلامة بن خلدون في عبارته الشهيرة: إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك.. هو خلق التوحش ولوازمه من الغلظة والأنفة والمنافسة في الرئاسة.... فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان فيهم الدين يذهب عنهم خلق التكبر والمنافسة ومذمومات الأخلاق.... ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق فيتم اجتماعهم ويحصل لهم التغلب و الملك..^(٥٦). وله در ابن خلدون ما أفقحه فإن هذا المعنى أشار إليه القرآن الكريم عند اختلاف الصحابة على غنائم بدر وهم خير أهل الأرض في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣). وهذه الآية نفسها لأكبر دليل على أن الجانب الروحي هو جوهر الحضارة وسر حياتها، وأن الوسائل المادية مهما عظمت (إنفاقاً ما في الأرض جميعاً) ليست هي ما يؤلف أو يبني الحضارات بل الوسائل الروحية (ولكن الله ألف بينهم). وأن الدين والحضارة كليهما ظاهرتان متآلفتان من حيث كونهما ذاتي معاملاً واحد ومنطلق واحد هو الفطرة، وهو معنى أشار إليه أيضاً العلامة ابن خلدون في عبارته المشار إليها عندما ربط بين الدين وحصول الملك وسلامة طباع العرب و خلق التوحش المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى التي يولد عليها كل مولود.

٢- سبق أن قلنا في الكلام عن سنن الله الاجتماعية والاقتصادية إن الاختلاف مهما تباينت الرؤى وتعددت الأطروحات حول مفهوم الحضارة، فإن خصوم حضارتنا لا يعنون إلا الحضارة: الدين، وليس الحضارة: اللغة أو

داسات في الشاه الإسلامي

العرق أو الأيديولوجية السياسية والاقتصادية، ولعل هذا ما بدا للنبيه من أول وهلة من قراءتهم في أدبيات العولمة التي ترى في النزاعات الاقتصادية الطبقية والسياسية أن السؤال الأساسي كان هو: ((إلى أي جانب تقف؟)) وكان في مقدور الناس أن يختاروا الجانب الذي يقفون إلى جواره وقد فعلوا ذلك، أما في النزاعات الحضارية فإن السؤال هو: من أنت؟ وتلك مسلمة لا يمكن تغييرها، وقد علمتنا دروس البوسنة والهرسك أن الإجابة الخطأ كانت تعني رصاصة في الرأس.

وقد رأينا في فلسفة الاقتصاد الإسلامي أن الأرزاق والنواحي الاقتصادية هي رحمة دنيوية عامة لا تخص المؤمن، ولا يقبح في سنن الله الدنيوية إيصالها إلى المطيع والكافر والصادق والمنافق، بخلاف الإمامة والنبوة والدين التي لا تليق بالفاسقين، وذلك وفق سنن الله التي تحكم الحياة الدنيا وما فيها من النعم الاقتصادية أو الشقاء الاقتصادي، التي ليست إلا داراً للامتحان والاختبار وليست داراً للجزاء حتى يخص بها المؤمنين، وفي هذا الجانب تصدق أدبيات العولمة من حيث المبدأ في عدم قابلية الفروق الثقافية للشعوب للتبديل والحلول الوسط والتسويات بخلاف نظرياتهم السياسية والاقتصادية التي هي أقل حدة وأقل درجة في إثارة الخلاف، للجانب السنني الذي أشرنا له، و لهذا السبب يمكن للشيعوعيين أن يصبحوا ديمقراطيين، ويمكن أن يصبح الفقراء أغنياء، والأغنياء فقراء، ولكن الروس (أرثوذكس) لا يمكن أن يصبحوا أستونيين (كاثوليك)، ولا الأذربيجانيين (مسلمين) يمكن أن يصبحوا أرمن (مسيحيين).

القضيتان الثالثة والرابعة

خطوط التقسيم بين الحضارات وحلول الستار المخملي للثقافة محل الستار الحديدي للأيديولوجية، وإخلاء الاعتبار السياسية والاقتصادية الساحة للاعتبارات الدينية، وهيمنة الغرب على المؤسسات السياسية والاقتصادية

دراسات في الشاه الإسلامي

والأمنية الدولية واستغلال آلياتها لإضفاء مشروعية عالمية على الأعمال التي تعكس مصالحه، والتركيز على الأمم المعادية للغرب فعلاً أو احتمالاً. يمكن التعليق على هذه القضايا والأفكار التي وردت تحتها في ضوء النقاط التالية :

١- ينظر هنتجتون لمنطق الثورية الحضارية بمداد العقائد والأفكار الدينية، مقررًا أن التاريخ لم ينته بعد وأن هنالك قوى نخبوية وشعبية في الحضارات الأخرى تتزاحم خلف الستار، و تحاول أن تصبح حديثة بدون أن تكون غربية، وقد ضرب بعض الأمثلة من أبرزها ظاهرة الأسلمة والأصولية في الشرق الأوسط ، ومن ثم يستحث الجهود الغربية المؤسسية لتعويق هذه الحركات والظواهر بحسبانها الخطر الحقيقي الذي يهدد فلسفة النظام العالمي الجديد الذي لبس الآن ثوب العولمة، ويعلن خيبة أملهم في النخب التغريبية التي عجزت عن مواصلة دورها التقليدي في تخدير الوعي الحضاري للأمة، والغريب في أمر هؤلاء هو استدعاء الإسلام قسراً لمسرح الأحداث وإثارة هالة من الترهيب حوله باعتباره (العدو البديل) الخطر الأخضر الذي حل محل الخطر الأحمر (الشيوعية) ، بالرغم من علمهم عن إقصائه عن الفعل حتى في معظم بلدان العالم الإسلامي بحكوماتها ذات النهج الليبرالي والعلماني بتشجيعهم ودعمهم ، ولكن إسلام الشعوب هو المراد، ولكن هيهات: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٢-٣٣) .

٢- ثم يتحدث هنتجتون عن ظاهرة المعايير المزدوجة في العلاقات الدولية والمؤسسات الأمنية والسياسية والاقتصادية الدولية و الكيل بمكيالين وظاهرة التطفيف الحديثة في تقاعس الغرب عن حماية البوسنيين من الصرب ، وتقاعسه عن فرض عقوبات ضد إسرائيل لانتهاكها قرارات الأمم

داسات في الشاه الإسلامي

المتحدة مقارنة بحزمه مع العراق وليبيا وغيرها من الدول المعادية أو حتى غير المعادية فعلاً أو احتمالاً (ولا نقول قرارات مجلس الأمن ضد إسرائيل لعدم وجودها أصلاً بفعل الفيتو الأمريكي، أصرخ نموذج في لظاهرة المعايير المزدوجة في عصر العولمة). والحقيقة أن ظاهرة التطفيف ظاهرة قديمة كان تصدي القرآن الكريم لها في سورة مكية في مسألة من مسائل الأخلاق والمعاملات، وهو لما يستلم مقاليد الحياة الاجتماعية بعد، مسألة ملفتة تدل على طبيعة هذا الدين وشمول منهجه ، وأن من يزاول أسلوب المعايير المزدوجة لا بد أن يكون من الكبراء (الدول الكبرى ذات المقعد الدائم في مجلس الأمن) أو الأغنياء (الدول الغنية صاحبة الحصص الكبيرة في صندوق النقد الدولي)، وذلك وفق سنة وقانون الطفيان ، وهو أول سنة اجتماعية ذات بعد اقتصادي تنزل في القرآن : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ . أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى﴾ (العلق ٧.٦) .

٣- وأخيراً يتحدث عن ظاهرة البلدان الأقرباء في الدين : مساندة تركيا لأذربيجان المسلمة ضد أرمينيا المسيحية ، ومحاربة القوات الروسية إلى جانب الأرمن بعد زوال سيطرة الشيوعيين السابقين الذين كانوا يساندون أذربيجان الاشتراكية، وذلك دليلاً على إخلاء الاعتبار السياسية والاقتصادية الساحة للاعتبارات الدينية والثقافية، وحلول الستار المخملي للثقافة محل الستار الحديدي للأيديولوجية، وهذه طبعاً حقيقة لا ينكرها عاقل، وهي قد حدثت بالفعل تاريخياً عند تفكك المنظومة الاشتراكية. والعجيب في الأمر أن هذه الظاهرة قد حدثت في التاريخ وسجلها القرآن المكي أيضاً في سورة الروم، التي نزلت الآيات الأولى منها بمناسبة معينة، ذلك حين غلبت فارس الروم. وكان ذلك في إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة والمشركون. ولما كان الروم في ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية، وكان الفرس غير موحدين

داسات في الشاه الإسلامي

ديانتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وفألاً بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان .

ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين .

﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بَنَصَرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ١-٦).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الهوامش

- (١) د. محمد أنس الزرقا ، تحقيق إسلامية علم الاقتصاد ، ص ٣٠ .
- (٢) د. محمد أنس الزرقا ، تحقيق إسلامية علم الاقتصاد .
- (٣) (الفتاوى : المصدر : <http://www.al-islam.com>)
- (٤) (الموافقات ٤٦/٣ - ٥٠) .
- (٥) تفسير القرآن العظيم ، المصدر : (www.qurancomplex.com)
- (٦) (باقر الصدر : اقتصادنا ، ص ٣٣١)
- (٧) (عبد الرأجي - التطبيق المصرفي ، ص ٢٨ - ٢٩) .
- (٨) (فصلية آفاق عبر الإنترنت ، ص ٢) .
- (٩) د. عبدالكريم بكار، العولمة ، ص ١١) .
- (١٠) (المصدر : www.alamut.com)
- (١١) (المصدر : www.alamut.com)
- (١٢) (المصدر : www.alamut.com)
- (١٣) (المصدر : www.alamut.com)
- (١٤) د. عبدالكريم زيدان، السنن الإلهية، ص ١٣)
- (١٥) (محمد المبارك، نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع، ص ٣٣ - ٣٥)
- (١٦) (محمد المبارك، نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع، ص ٣٥) .
- (١٧) (الشاطبي، الموافقات، ج ٢، ص ٣٥)
- (١٨) (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة فطر) .
- (١٩) (فتح القدير، المصدر : <http://www.altafsir.com> .)
- (٢٠) (سيد قطب ، في ظلال القرآن ، المصدر : <http://www.altafsir.com>)
- (٢١) (مفاتيح الغيب ، المصدر : <http://www.altafsir.com> .)
- (٢٢) (الألوسي، روح المعاني : المصدر : <http://www.altafsir.com>)
- (٢٣) (مفاتيح الغيب ، المصدر : <http://www.altafsir.com>)
- (٢٤) (مسند الإمام أحمد ، حديث رقم : ٣٤٩٠ ، المصدر : <http://www.al-islam.com>)
- (٢٥) (المستدرک ، موقع جامع الحديث ، <http://www.alsunnah.com>)
- (٢٦) (شأبرا، ما هو الاقتصاد الإسلامي، ص ٤٣ ، ٦٤، محمد أنس الزرقا، تحقيق إسلامية علم الاقتصاد، ص ٩)
- (٢٧) (صدر الشريعة، التوضيح ج ٢، ص ١٩١) .
- (٢٨) (ابن جزئي، القوانين الفقهية، ص ٢١١) . وعرفت مجلة الأحكام العدلية الرشيد بأنه:

دراسات في الشأه الإسلامي

- الذي يتقيّد بحفظ ماله، ويتجنّب الإسراف والتبذير (المادة ٩٤٧).
- (٢٩) (انظر هذه المذاهب: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٥، ص ٣٧ - ٣٨).
- (٣٠) (مفاتيح الغيب، مصدره: موقع التفاسير. <http://www.altafsir.com>).
- (٣١) (مفاتيح الغيب، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٣٢) (مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق. <http://www.altafsir.com>).
- (٣٣) (الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق. <http://www.altafsir.com>).
- (٣٤) (الحديث رقم: ٥٩٥٦ - صحيح البخاري، كتاب الرقاق: مصدر الكتاب: موقع الإسلام <http://www.altafsir.com>).
- (٣٥) (الألوسي، روح المعاني، المصدر. <http://www.altafsir.com>).
- (٣٦) (مفاتيح الغيب، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٣٧) (ابن كثير - تفسير القرآن العظيم، المصدر. www.qurancomplex.com).
- (٣٨) (مفاتيح الغيب، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٣٩) (مفاتيح الغيب، الرازي، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٤٠) (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المصدر: www.qurncomplex.com).
- (٤١) (فتح القدير، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٤٢) (الرازي، مفاتيح الغيب، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٤٣) (أسس الاقتصاد ، ص ٤٠)
- (٤٤) (مفاتيح الغيب ، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٤٥) (محمد باقر الصدر ، اقتصادنا ، ص ٣٤٧)
- (٤٦) (الألوسي، روح المعاني، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٤٧) (مفاتيح الغيب ، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٤٨) (مفاتيح الغيب ، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٤٩) (الكشاف، المصدر: <http://www.altafsir.com>).
- (٥٠) (الحديث رقم: ٥٩٥٦ - صحيح البخاري) .
- (٥١) (أدب الدنيا والدين ، المصدر: <http://www.al-islam.com>).
- (٥٢) (د. رفيق المصري ، إسهامات الفقهاء ، ص ٤٤) .
- (٥٣) (مسند الإمام أحمد - المصدر: موقع الإسلام ، <http://www.al-islam.com>).
- (٥٤) (د . محمد عمارة ، د . عبد الرحمن الزنيدي ، عطية الويشي: حوار الحضارات ، العولمة الغربية والصحة الإسلامية على التوالي)
- (٥٥) (نقلاً عن : عطية الويشي ، حوار الحضارات ، ص ٢٨)
- (٥٦) (بتصرف من المقدمة ، ص ١٥١)

قائمة المراجع والمصادر

- ١- محمد عمر شابرا، ماهو الاقتصاد الإسلامي، سلسلة محاضرات العلماء البارزين الفائزين بجائزة البنك رقم (٨). المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية الطبعة الأولى: ١٤١٧/١٩٩٦ .
- ٢- عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر بدون تاريخ النشر.
- ٣- السيد محمد باقر الصدر، اقتصادنا، المجمع العلمي الثقافي للشهيد الصدر، الطبعة الثانية: محرم ١٤٠٨هـ.
- ٤- أبو الأعلى المودودي، أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ترجمة محمد عاصم الحداد، ١٩٨٨/١٤٠٨ .
- ٥- د. عبد الرحمن الزبيدي، العولمة الغربية والصحة الإسلامية (الموقف الرشيد) دار أشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٢١/٢٠٠٠ .
- ٦- عطية فتحي الويشي، حوار الحضارات، إشكالية التصادم وآفاق الحوار- حقائق ومفاهيم لا ينبغي أن تغيب- مكتبة المنار الإسلامية الكويت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢/٢٠٠١ .
- ٧- د. عبدالكريم بكار، العولمة طبيعتها مسألها تحدياتها - التعامل معها- مكتبة دار البيان الحديثة، دار الأعلام للنشر، الطبعة الثانية: ١٤٢٢/٢٠٠١ .
- ٨- د. عبدالكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة: ١٤١٩/١٩٩٨ .
- ٩- د. سيف الدين إبراهيم تاج الدين، ماهو الاقتصاد الإسلامي، مجلة بحوث الاقتصاد الإسلامي، مجلة الجمعية الدولية للاقتصاد الإسلامي، المجلد (٣) العدد (٢) ١٤١٥/١٩٩٤ . ص ٩٧-١٠ .
- ١٠- د. محمد أنس الزرقا، تحقيق إسلامية علم الاقتصاد: المفهوم والمنهج، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز للاقتصاد الإسلامي، المجلد (٢) - ١٤١٠ - ١٩٩٠- مركز النشر العلمي بالجامعة.
- ١١- د. محمد المبارك، نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة ١٣٩٧-١٩٧٧، منشور في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢) ١٩٧٧، ص ١٥-٤٤ .
- ١٢- د. رفيق يونس المصري، إسهامات الفقهاء في الفروض الأساسية لعلم الاقتصاد، سلسلة محاضرات العلماء الفائزين بجائزة البنك رقم (١٤)، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب - البنك الإسلامي للتنمية، الطبعة الثانية: ١٤٢٢/٢٠٠١ .
- ١٣- الإمام أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي الشهير بالشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ .

دراسات في الشأه الإسلامى

مواقع على شبكة الأنترنٲ

<http://www.qurancomplex.com>

<http://www.alamut.com>

<http://www.altafsir.com>

<http://www.alsunnah.com>

<http://www.al-islam.com>

العولمة الأدبية والخصوصية العربية الإسلامية

الدكتور محمد أحمد عبد الله الزهيري

أستاذ بكلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة أب - اليمن



دراسات في الشأن الإسلامي

ما هيّة العولمة:

لا يوجد مضمون أو ماهية واحدة لها، ولا بد من الاعتراف مقدماً أن هناك صعوبة في تحديد المعنى الوصفي الدقيق لظاهرة العولمة، وتعود مشقة تحديد العولمة إلى تأثر التعريفات المختلفة لها بالمواقف الأيديولوجية منها. فهي في مفهوم المفكرين العرب تكاد تدور حول الهيمنة الاستعمارية الأمريكية السياسية والثقافية والاجتماعية على العالم، وهي الصورة الجديدة للإخبطوط الاستعماري ومحاولة سافرة من الأقوى لابتلاع الآخر الأضعف^(١) وهي أيديولوجياً تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته، حتى عد البعض (الأمركة) الاسم الحركي للعولمة، وسنحاول أن نلم ببعض تعريفاتها لتكتمل الصورة وإن كنا نرى أن تعريفاً مبسطاً كالذي نورد هنا ابتداءً يمكنه أن يقود إلى الهدف، يتمثل هذا التعريف فيما تمثله العولمة من هذا التداخل الكثيف في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين مختلف دول العالم، والذي أصبح من المستحيل ضبط تأثيراته والتحكم فيه بالإجراءات التقليدية كإغلاق الحدود وقطع العلاقات الدبلوماسية مثلاً^(٢).

وهناك تعريفات أخرى لظاهرة العولمة منها على سبيل المثال أنها: سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع والأموال والأفكار بين مختلف الدول على نطاق الكرة الأرضية^(٣) أو هي: أي العولمة - فعل اغتصاب ثقافي وعدواني رمزي على سائر الثقافات، أو السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات بواسطة استثمار مكتسبات العلوم الثقافية في ميدان الاتصالات. أو هي كما يعرفها (برهان غليون) تتجسد في نشوء شبكة اتصال عالمية تربط جميع اقتصاديات البلدان، أو هي الأمركة في صورتها الجديدة، أو الليبرالية

دراسات في الشأه الإسلامي

المتطورة، وغير ذلك من تعريفات، تجمع كلها على الأثر غير العادي على العالم بأسره سواءً كان هذا الأثر سلباً أو إيجاباً، والكل متفق على قدرة الظاهرة على التأثير على أكثر من صعيد وفي أكثر من منطقة، إنها تشمل الأرض بما رحبت.

هذا البحث يهدف إلى تناول العولمة الأدبية كجزء من العولمة العامة التي تعني تمييط العالم وصهر الخصوصيات الثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية في نمط واحد وثقافة واحدة هي (الثقافة الغالبة)، والمشروع الاستعماري الغربي الذي يعمل على إشاعة (قيمه الخاصة) من خلال الثقافة، فهو يعي أهمية الثقافة ويعمل من خلالها، مدركاً أنه متى ما تحققت التبعية الثقافية، فإن التبعية السياسية لا تعود أكثر من تحصيل حاصل. والخطر اليوم، في هذا الجانب، هو خطر الثقافة الأمريكية، لأنها ثقافة سطح، وثقافة غرائز، وليست ثقافة أعماق، إنها ثقافة استلاب للشخصية الإنسانية والحضارية، وليست ثقافة تنمية لها بأي من هذه الاتجاهات.. إنها ثقافة تعمل على فتح أبواب العالم أمامها لسحق الذاتيات الثقافية لحساب أفكار تأتينا بها أو يتم تصديرها إلى العالم في صيغة (مشروعات) أو (أنظمة) مستقبلية، هدفها الهيمنة وإلغاء (الأخر غير الأمريكي) ومن هنا فنحن نواجه (إمبريالية ثقافية متوحشة) تهدف إلى تحقيق الهيمنة الأمريكية الإعلامية والثقافية بعد أن فرضت في السابق هيمنتها الاقتصادية^(٤)، إن استهلاكنا لحدائث الغرب أيضاً هو في حقيقة الأمر اختراق إمبريالي لثقافتنا القومية^(٥).

العولمة الأدبية لا تبتعد كثيراً عن محاولة فرض (ثقافة الغالب) ولها امتداد موغل في القدم، إذ كانت الثقافة اليونانية مثلاً يحتذى ويتقمص في العالم القديم، بل وفي العصور الإسلامية كان لفلسفة أفلاطون وأرسطو أثرها على النقد العربي وعلى الفكر والثقافة أيضاً في مختلف العصور،

دراسات في الشأن الإسلامي

حتى النقد الحديث فإنه يقوم على نظرية المحاكاة للمعلم الأول^(٦) ثم ظهر التنافس الروماني الفارسي في السيطرة وفرض الثقافة الخاصة بكل منهما، وقد رأينا امتداد الأثر الفارسي على الحياة والأدب العربيين في العصور المختلفة.

كان للحضارة العربية الإسلامية الغالبة خلال ثلاثة عشر قرناً تأثير طوعي كبير على ثقافة العالم وأدبه، إذ كانت الحواضر الإسلامية تمثل كعبة العلماء والطلاب يؤمنونها من مختلف أنحاء العالم، وقد ذابت حضارات وشعوب كثيرة في الحضارة العربية الإسلامية، وكتبت بحروفها ستة وثلاثون لغة، وتتأدى المتعصبون من اليهود والنصارى وغيرهم للتحذير من الثقافة والأدب العربيين، وانبهار مثقفهم بهما، وتقليدهم لهما، وقد بهرت الحضارة الإسلامية هؤلاء المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين في الأندلس، فأخذوا من هذه الحضارة ومن أصحابها الشيء الكثير، فقلدوا المسلمين في لغتهم وتعلموا ثقافتهم، بل لبسوا ملابسهم وعاشوا إلى حد كبير على نمط حضارتهم، ولذلك سموهم بالمستعربين (Mozarabes)^(٧) هذا الانبهار والتقليد لثقافة الغالب وصل حداً يهدد الوجود المستقل والشخصية المميزة مما جعل كبراءهم يشكون ويحذرون من هذا الخطر، يقول: «أحد قساوستهم ألفارو القرطبي (Alvaro cordobes): إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً، وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين، وآثار الأنبياء والرسول، وباللحسرة! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالاً طائلة في

دراسات في الشاه الإسلامي

جمع كتبها، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب، فإذا حدثهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم يا للألم! لقد أنسي النصارى حتى لغتهم فلا تكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً^(٨) إن فكرة العولمة لا تعود إلى عصر النهضة الأوروبية إنها أقدم بكثير فهي قد تبلورت، حسب رأي سمير أمين، على خمس مراحل متتالية هي: الهيلينية، المسيحية، الإسلامية، عصر فلسفة التنوير ثم عصرنا المعاصر^(٩).

العولمة الأدبية التي هي فرض وتعميم مقاييس ومعايير وقواعد وقوانين ثقافة محدودة على العالم كله، تعني اليوم فرض مقاييس ومعايير وأحكام وقوانين وقواعد النقد الغربية على آداب الأمم الأخرى، ومنها الأدب العربي الإسلامي على الرغم من التفاوت الكبير بين فهمنا التقليدي لمعنى الأدب وفنونه وفهم الغربيين له^(١٠) وبين الأدب الغربي، لكنهم يريدون أن يكون أدبنا تابعاً لأدبهم، وشعرنا تابعاً لشعرهم^(١١)، وقد نحت العولمة في العصر الحديث منحى خطيراً، حينما أصبحت أمراً موجهاً يسير حسب خطط مدروسة، وبرامج متبعة تصل إلى حد الإكراه والجبر، واستعمال القوة العسكرية، كما حصل في الأندلس والفلبين والبلقان وسائر الدول الآسيوية والإفريقية وبعض الدول الأوروبية التي خضعت لسيطرة الشيوعية، وكما حصل في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية حينما دخلت القوات الأمريكية وعملت على صبغ الحياة اليابانية بالصبغة الأمريكية حتى وصل الأمر حد تغيير الدستور، وكما يحصل مع أفغانستان والعراق بعد غزو التحالف الصليبي لهما.

داسات في الشأن الإسلامي

وما يراد من البلدان العربية والإسلامية فيما يسمى بالإصلاح في هذه البلدان والشرق الأوسط الكبير وخارطة الطريق ونقد آيات وأحاديث الجهاد والنصوص القرآنية والنبوية الإسلامية التي تتعرض لليهود والنصارى، بلغ قمته في محاولة تغيير المناهج ورسم السياسات الإعلامية والاقتصادية والعسكرية، وحرب العمل الإسلامي والمؤسسات الخيرية، إن صدمة الحضارة وردة الفعل قسمت الأدباء العرب إلى ثلاثة تيارات هي:

١ - تيار الانجراف

يضم هذا التيار طائفة من المثقفين المبتعثين للدراسة في الغرب أو من تلامذتهم ذابت ثقافتهم في الثقافة الغربية، فعادوا بعقلية جديدة إلى بلادهم، فعملوا في المدارس وعملوا في المصالح وترجموا وألفوا وخططوا، وبهذا وضعوا أساس الحركة الثقافية والأدبية الحديثة، كما بدأوا في تطوير اللغة بما ترجموا إليها من علوم حديثة، وبما زودوها به من مصطلحات جديدة ثم بما عبروا عنه من أفكار وموضوعات متنوعة، أكثرها يتصل بالحياة، ويرتبط بموكب الثقافة الإنسانية المتطورة^(١٢)، أي الثقافة الغربية. وقد تحالف هؤلاء مع الحاكم السياسي الذي كان مفتوناً بالغرب وثقافته، فقد كان الخديوي إسماعيل يحاول الظهور بالسلوك الأوروبي ويدعي السعي لجعل مصر قطعةً من أوروبا^(١٣). وحرص المستعمرون بوسائل كثيرة على أن يعملوا على إيجاد جيل مثقف بثقافتهم ويرى رأيهم، وقد نجحوا فقد وجد جيل اندمج فيها حداً بلغ أوجه في الدعوة إلى اعتناق الحضارة الغربية حلوها ومرها، خيرها وشرها، ونظرت لكل ما هو غربي نظرة إكبار وإجلالٍ عبر (مرايا محدبة) ونظرت لكل ما هو عربي إسلامي نظرة إزدراء واحتقارٍ وتهوين (مرايا مقعرة) لا يستحق أن يقرأ ويدرس ويطور، ولا أدل على الحال الذي وصلت إليه هذه الطائفة أن تعزو كل خير للعدو، وتجعل غزوه بداية النهضة والتجديد، كما تتسبب سبب النهضة إلى الغزو الفرنسي لمصر، وإن كانت آثار الحملة الفرنسية والواضحة تتمثل في استعادة المصريين الثقة

دراسات في الشاه الإسلامي

بأنفسهم نسبياً، ومطالبتهم المماليك والأتراك العثمانيين بسماع صوتهم، تمثل ذلك بالانتفاضة الشعبية بقيادة السيد: عمر مكرم، وقد أدت جهود العلماء الفرنسيين إلى أثر واضح في علاقة مصر بفرنسا فكرياً وثقافياً، وكان لتوجيه محمد علي بعثاته إلى فرنسا واستفادته من علمائها لبناء جيشه ومرافق دولته أثر من هذه الآثار^(١٤)، ويتخرج جيل يقتنع أن دين الأمة عدوها، وأنه سبب مآسيها، فألصقت كل عيب ونقيصة بالمرحلة السابقة التي يعدها البعض عصر انحطاط، مع أنها تمثل نصف تاريخنا العربي الإسلامي تقريباً من (٦٥٦ - ١٢٠٠هـ) هذا التيار جهد في التخلص من آثار عهد الانحطاط، والاتصال بموجة الغرب، ومن هنا عمل على أن يقتبس من الغرب إلى الحد الذي لا يستطيع المحيط في ذلك العصر تمثله، فظهرت بيئة ثقافية تنكرت لماضيها وصلاتها بأصول الثقافة العربية التقليدية، ومشت سراعاً وراء الثقافة الغربية تحاول أن تقيمها في عالم الشرق الأوسط^(١٥).

٢ - تيارات الانهزامية

هذا التيار حاول الدفاع عن الثقافة والأدب العربيين الإسلاميين لكن بمنطق المهزوم الذي تأثر بالشبه المعادية فأوردها نقداً ورد عليها نسيئة. وغاية دوره هو أن يورد النظريات الغربية ويحاول البحث عن ما يوافقها في التراث العربي، كما رأينا في ربطهم بين نظرية النظم والدراسات اللغوية الحديثة وبين البلاغة والأسلوبية، أو يبرر عدم سبق العرب. ويعترف بقصور الدراسات العربية الإسلامية تارة.

٣ - تيار الانتقاء والاستفادة

هذا التيار يتعامل مع الحضارة الغربية تعامل واع فيستفيد من الإيجابيات ويرفض السلبيات منطلقاً من الذائقة العربية الإسلامية، لأن التزام الثقافة المحلية لا يعني أنه أدب منغلق على ذاته، يسد نوافذه وأبوابه في وجه

دراسات في الشأن الإسلامي

الجديد ولو كان صالحاً؛ فالالتزام بالخصوصية الثقافية المحلية والدعوة إلى تطوير نظرية نقدية عربية بديلة لا تعني الدعوة للعزلة أو رفض الآخر الثقافي^(١٦). كما لا يعني ذلك أن تكون كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمل حتى لا يراها الصياد، وجسمها أمامه كالجبل، إنه أدب متفتح مجدد، وهو أدب محدث، متطور، نام متحرك، وإنه ليرى في التجديد ضرورة، من ضرورات الحياة، ولونا من ألوان النظر والتأمل في الكون،^(١٧) لكنها دعوة لتطوير ما أسماه العقاد في سنوات نضجه بـ (الهوية الواقية)^(١٨)، لأن التحديث قدرنا، وهو قدر يحتمه الظرف التاريخي للحضارة العربية، لكن كون التحديث قدراً شيئاً، وتحول التحديث إلى حادثة غريبة شيء آخر). لأننا بالقطع نرفض السقوط في أحضان الحداثة الغربية^(١٩)، (إن معظم المفكرين العرب على مختلف اتجاهاتهم متفقون على أن الدين هو موضوعاً أحد الثوابت في تكوين شخصية الأفراد والجماعات في المجتمع العربي)^(٢٠)، بل إن أدونيس يعترف بأن سبب فشل حداثته هو العمق الديني، وأعظم إنجازات دانتلي التي جعلته بمثابة نبي إيطاليا الحديث، هي نظرة دينية ناتجة عن التصور المسيحي الإنجيلي، ولم يمنع صدور هذا العمل عن ثقافة خاصة من الذبوع والخلود، بل إن المحلية هي الطريق إلى العالمية، وإلا فستكون الأعمال المقلدة للآخر إلى جانب سحقها للشخصية الخاصة، وتذويبها في الآخر المقلد، من باب - بضاعتنا ردت إلينا-، ومن أجل الحفاظ على بقاء الأمة ووجودها واستمرارها ينبغي إبراز أوجه الاختلاف والافتراق والتميز لا أوجه الالتقاء والاتفاق والتشابه، لأن ذلك يعني القضاء على الأمة ووجودها من خلال تمييع عناصر شخصيتها، ومقومات ثقافتها، لأن الأمم لا تفنى جسدياً مهما بلغت عنف التصفيات والعنف، إنما تفنى حينما تتخلى عن عناصر شخصيتها الخاصة المميزة لها، وتعتنق عناصر ثقافة الآخر فتذوب فيه.

دراسات في الشأه الإسلامى

مظاهر العولمة الأدبىة

- تهوىن التراث العربى الإسلامى ونتاج العقلىة العربىة الإسلامىة والنظر إىله عبر (مراىا مقعرة) .، وتهوىل التراث الغربى ونتاج العقلىة الغربىة، والنظر إىله عبر (مراىا محدبة) . كل ذلك كان نىةة الإنهزامىة أمام الثقافه الغربىة وقوانىنها، إذ حاول البعض إخضاع تراثنا لهذه القوانىن والقواعد، مع أنها نبتت فى أرض غىر أرضنا، وتحت شمس غىر شمسنا، وصدرت عن أنفاس غىر أنفاسنا، وأذواق غىر أذواقنا، إن لأدابنا العربىة شخسىتها المستقلة، وإن النقد الذى يصلح لشعرننا بىختلف بالضرورة عن النقد الأوروبى، ولا بد لنا أن نستقرىء نحن القواعد من شعرننا ومن أدبنا.. وكىف ىتاح لنا أن نطبق أسس ذلك النقد الأجنبى على شعرننا الذى ىتدفق من قلوب غىر تلك القلوب وعصور غىر تلك العصور(٢١)، لأن المناهج النقدىة الغربىة هى نتاج قراءة لأدبهم وشعركهم، وإخضاع نتاجنا لها، مما أدى وبصورة فجة إلى احتقار تراثنا فى جمىع عصوره، وهنا ىجد الباحث نفسه مضطراً لذكر نموزج واحد فقط على الرغم من توفر العشرات منها، لواحد من كبار من ىوصف بالتجدىد فى مجال الشعر العربى مما ىتعلق بنظرة صاحبه إلى التراث بعامة، ىقول أدونىس: إن الحداثه ظاهره تتمثل فى تجاوز القدىم وتصهره فى قدىم أشمل ىونانى مسىحى كونى، فماذا ىعنى ىونانى مسىحى كونى(٢٢)! ولماذا لا ىكون (عربى إسلامى) فالخبث والحقد ىتجهان إلى ما هو إسلامى فقط، وهذا ىفسر حشو الشعر العربى الحدىث بالرموز والأساطىر الوثنىة والرومانىة أو المسىحىة الصلىبىة وإلاً ما معنى قول الشاعر العربى المسلم:

اشتهى أن أكون صِفْصَافَةً قُرب الكنىسة
أو صَلىباً من الذَّهبِ على صدرِ عذراء
تَحْمَلُ السمك لُحبىبها العائد من المقهى(٢٣)

داسات في الشاه الإسلامي

ولماذا لا تكون النخلة بدل الصفصافة، والكعبة بدل الكنيسة والمصحف بدل الصليب، ونتيجة رابعة لذلك تمثلت في التقليد الأعمى وغير الواعي الذي أصاب أدباءنا ونقادنا، ذلك التقليد أدخلنا في تيه له بداية ولا تظهر له نهاية، ذلك التقليد الأعمى للآخر، ولكل ما عند الآخر خيره وشره حلوه ومره ما نحب وما نكره وما يحمد وما يعاب حتى نلحق بأولئك على حد قول المقلدين^(٢٤) وذلك التقليد الذي يجعلنا نجلد أنفسنا ونسلخ جلودنا ونتبرأ من تراثنا، بل ونتهمه بالظلمة والجمود، ونصفه بأنه عفن الدروب والتواريخ والأشياء والكلمات، ذلك التقليد أيضاً الذي وضع نقادنا وأدباءنا في تناقض صارخ، فمرة يقولون عن تراثنا إنه عفن التاريخ والدروب الخ. ومرة أخرى نفاخر بأن أدبنا قد اكتشف القصة والرواية ومعايير النقد الأسلوبي، ذلك التقليد الذي جعلنا (ريشة في مهب الريح) تتقلب ظهراً لبطن يمناً ويسرة وجعلت أدبنا مجرد أصداء لما عند الآخر، فمرة (كلاسيكيون) ، وأخرى (رومانسيون) وثالثة واقعيون، حتى إذا ظهرت الحداثة ثم ماتت قلنا إننا حداثيون، وهكذا يفعل التقليد غير الواعي بأصحابه، وهو موقف حددته ثنائية متكررة تكرر النمط، وهي الإنبهار بإنجازات العقل الغربي واحتقار إنجازات العقل العربي^(٢٥)، فلم تعد العولمة تطالب الأديب بتأليف نص يحدد ملامحه الشخصية ورؤيته للحياة بقدر ما هو مطالب بإنشاء نص وفق نمط نموذجي يصمم حسب مقاس متلقين عديدين وكأن الشاعر (خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام)^(٢٦)، ثم إن هذه المناهج النقدية الحديثة مناهج نصية وصفية ترفض المعيارية القيمية، وتدرس النصوص حسب بنيتها الداخلية وليس مهمتها الحكم على أن هذا جيد وهذا رديء! وحكمت بموت المؤلف (الناص) في البنيوية، ويموت المؤلف (النص) في نظرية التأويل (القرآنية)، وأبعدت الناقد عن مهمته بأن يكون وسيطاً بين النص والمتلقي^(٢٧)، وهذا التصور يعني أن النصوص الشعرية في التراث الأدبي تتميز بنوع من المشاعية، لأنها لا ترتد على ذوات بعينها، وإنما هي نتاج أدبي

دراسات في الشاه الإسلامي

متعدد المنابع والأصول. وفي ذلك إشارة إلى أن هذه النصوص تتجسب سفاحاً لا أبا لها ، وأنها أشبه بلغة مية فيها مجموعة من الاقتباسات، لتكون في الأخير نسيجاً من العلامات الصماء التي لا تحمل مقصدية ذاتية أو رؤية أو معتقداً، لأنها عبارة عن كتابة آلية مما يجعل نسبتها إلى عدد من المؤلفين أمراً سهلاً، وبذلك تغدو شبيهة بتلك النصوص التي لا يعرف مؤلفها على الإطلاق حيث تنسب على السواء لـ(س) أو (ص) أو (ع) من الناس(٢٨)، مما أفقد النص سلطته، لأن سلطة النص الأدبي تقوم على تحقيق معنى ما، يتمتع بقدر من الالتزام ويقبل التثبيت، ولو بصورة مؤقتة، في مواجهة فوضى القراءات الجديدة التفسيرية للنص الأدبي التي انتهت عند أتباع نظرية التلقي والتفكيك إلى إلغاء سلطة النص، بل إلى التشكيك في وجوده أصلاً(٢٩).

هذه التبعية أوجدت تيهها مركباً، تيهها أوصلتنا إليه التبعية الثقافية العمياء، والنقل السلبي عن الآخر الثقافي لسنوات طويلة - وهو بهذا تيهه أضيف إليه تيهه وصلت إليه الثقافة الغربية، التي ظلت تضيف سنوات وسنوات إلى دروب المتاهة وتداخلاتها، حتى أوصلتها إلى مرحلة الرعب الحالية(٣٠)، إن المرايا المتشظية التي تحدث عنها ناقد عربي، شوهدت الذات، ولم تغير صورتنا فحسب؛ بل غيرت حقيقتنا ذاتها، وأزمة الانفصال بين عالمين تلاحقنا في جميع الاتجاهات الماضي والحاضر، الشرق والغرب، الذات والآخر(٣١)، لأن الاقتصار على سيادة العقل والعلم أوصل هذه الحضارة إلى طريق مسدود، أبرز علاماته كبت الذات التي قام المشروع التنويري لتحريرها أصلاً، بالإضافة إلى سيادة القيم المادية، قيم السوق ورأس المال، والتفتت والتشردم والتراجع المؤسي للقيم الروحية(٣٢).

التعسف في تقسيم الأدب العربي في تأريخه الطويل إلى عصور (جاهلي، إسلامي، أموي، عباسي، مملوكي، عثماني، حديث ومعاصر) وهي محاولات تعسفية لإيجاد تقسيمات في الأدب العربي تناظر التقسيمات الغربية، حتى

داسات في الشاه الإسلامي

إذا كانت العصور الوسطى عصور انحطاط وظلام وتخلف عندهم، عملنا على تقليدهم في وصم العصرين المملوكي والعثماني، بأنهما عصرا إنحطاط وظلام وتخلف، حتى وإن كانا عصري ازدهار وتطور، عرف العرب فيهما أعلاماً كباراً في مختلف المجالات الدينية والأدبية واللغوية والتاريخية والجغرافية والطبيعية والطبية، ولم توصف هذه العصور بعصور الانحطاط والظلام إلا تقليداً لهم، لأنهم وصفوا أو اتصفت عصورهم بهذه الأوصاف، وأخيراً ذلك التقليد الناتج عن عقدة الشعور بالنقص تجاه الآخر والناتج عن ولع المغلوب بتقليد الغرب وتسمية العصر الحديث بعصر النهضة مع أننا في ذيل القائمة، لينطبق علينا ما فعله أحد زعماء الحزب الشيوعي الكندي حينما خرج وفي يده مظلة فسئل عن ذلك فقال إنها تمطر في موسكو.

- التعسف في تقسيم الفنون الأدبية في الأدب العربي إلى مدارس (الكلاسيكية - الرومانسية - الرمزية - الواقعية - البالزاقية - الطبيعية الزولوية - بخاصة) تقليداً للغرب، وواضح أن ذلك ضرب من التأثير المباشر بالمدارس الأوروبية بعامة^(٣٣)، وتسميتها بأسمائها الغربية، على الرغم من أن هذه المدارس تمثل طبقات اجتماعية ومدارس فكرية ليست موجودة في العالم العربي (الإقطاعية - الرأسمالية - البروليتاريا وغيرها). إن المدارس والمذاهب والاتجاهات الشعرية التي يسمونها بالكلاسيكية والرومانسية والرمزية والواقعية إنما ظهرت في الغرب نتيجة عوامل فكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية خاصة بهم لا تنطبق على الشرق إذ لا توجد هذه العوامل.

فضلاً عن ذلك لا توجد هذه التقسيمات والعوامل في الأدب العربي، فالشاعر العربي قد تكون له امتدادات على كل هذه المدارس وأكثر، فلا يوجد شاعر عربي يمكن أن تعده كلاسيكياً، أو رومانسياً، أو واقعياً حقاً، بل لا يوجد شعر عربي يمكن أن تقول: إنه سيطر عليه العقل، كما يقال في

دراسات في الشاه الإسلامي

الكلاسيكية، إذ إنه من البداهة أن الشعر العربي كله باستثناء (المنظومات) هو شعر غنائي ذاتي، وليس هناك شعر هروبي سلبي تسيطر عليه العاطفة كما توصف به الرومانسية، إنما كان من يوصمون بالرومانسية في العالم العربي في قمة الإيجابية مع قضايا أمتهم، وخير مثال لذلك أبو القاسم الشابي، حتى في الشعر والخطابة نبحت عن تعريفهما وقواعدهما وتقسيماتهما عند الغير، مع أنهما الفنان اللذان يتميز بهما العرب منذ الجاهلية، ولم توجد أمة تفوقت في هذين الفنين الأديبين مثل العرب، أما الشعر فهو ديوان العرب وسجل أحداثهم ومفاخرهم وعلم قوم لم يكن لهم علم غيره يحنون إليه حنين الإبل في أعطانها، يهنئ بعضهم بعضاً إذا بزغ شاعر ولم يكونوا يهنئون بعضهم بعضاً، إلا في ثلاثة أشياء: شاعر يبزغ أو مولود يولد أو فرس ينتج «البيت الشعري عندهم يرفع قوماً ويحط آخرين. يردده الجميع حتى النساء والأطفال، وفي قصة بني نمير إحدى جمرات العرب الثلاث أطفأ جمرتهم بيت واحد لجريير هو:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْباً بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابَا

فقبل رجوعهم من غزوتهم الفاشلة، خرجت النساء تضرب وجوههم وتقول: فضحتمونا فضحككم الله. وقد هجا المرقش بني تغلب فقال:

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدةً قالها عمرو بن كلثوم

يروونها منذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مستوم

كان ذلك بسبب ارتباط الأدب منذ العصر الجاهلي بالمجتمع والبيئة، خاصة في القول الشعري الذي لا يقوم في المعبر عنه، بل في طريقة التعبير، خصوصاً أن الشاعر الجاهلي كان يقول، إجمالاً، ما يعرفه السامع مسبقاً: عاداته وتقاليده، وحروبه ومآثره، وانتصاراته وانهزماته، وفي هذا ما يوضح كيف أن فرادة الشاعر لم تكن فيما يفصح عنه بل في طريقة إفصاحه^(٣٤). أما الخطابة التي ارتبطت عند العرب المسلمين بالدين والدنيا، وارتبطت

داسات في الشاه الإسلامي

بشعائر العبادات كصلاة الجمعة والعديد والحج ويخطب بها في كل جمعة آلاف الخطباء في جميع أنحاء العالم الإسلامي إن لم تكن بالملايين، فيهمل كل هذا التراث الضخم ويبحث الدارسون عن نماذج رديئة لا تعبر عن الاتجاه العام للخطابة وإنما تعبر عن ما يريدون إلصاقه بالأدب العربي من ركافة ، لا سيما في العصور المتتابعة، فترات الأئمة الفحول يطوى ويختفي على حين تتشر في كل مكان آثار المؤلفين من الدرجة الثالثة فمن تحتهم.. ويقصي عنه إقصاء المعري وأبو تمام والمتنبي وأضرابهم. إن ذلك يعطيك صورة للثقافة الإسلامية بعد أن يحذف منها (ابن القيم) ، (ابن الجوزي) و(ابن حزم)^(٣٥) والجيد والرديء موجودان في كل العصور وعند الكبار وينقلون هذا التراث كنماذج للأدب العربي، حتى أن القاريء للبحوث والدراسات الأدبية الحديثة تأخذ الحيرة وهو يراها تنسب كل نقيصة للأدب العربي، وكل إيجابية للأدب والتراث الغربي.

التجني على الأدب العربي بأنه لم يعرف الأجناس الأدبية المختلفة غير الشعر الغنائي كالشعر الملحمي والتمثيلي، أو القصة أو المسرح، وإنما ينسب ظهورها في العصر الحديث إلى الأثر الغربي، إذ لا يجوز أن نزع أن الأدب العربي عرف الأجناس الأدبية الأخرى والتي تشيع في الآداب الإنسانية الكبرى المعاصرة التي لم تكن كما قررنا إلا ثمرة من ثمرات التواصل الحضاري بين الأمم^(٣٦)، فضلاً عن ذلك نسبة هذا الشاعر أو القاص إلى هذا أو ذلك من الأدباء الأوروبيين.

والقصة والمسرحية تدرس على أنها فنون حديثة جاءتنا من الغرب وينظر لها حسب قوانين ومعايير غربية مع إغفال حقيقة أن القصة مرتبطة بالفطرة والذات وهي عريقة في التاريخ العربي والإسلامي وقصص القرآن تعد أنموذجاً للذوق والمعايير العربية، ثم كانت القصص والسير الشعبية التي مثلت طوراً من أطوار التطور المهمة لهذا الفن بلغ نضجه في المقامات ذلك الفن العربي الخالص الذي مثل قمة النضج للقصة حسب الذائقة العربية،

دراسات في الشاه الإسلامي

والتي أهملت في العصر الحديث ولا أخالها أهملت إلا لهذا السبب أي أنه لا نظير لها في الآداب الغربية مع أنها تمثل تراثاً ضخماً يوازي مكتبة كاملة وألف فيها ما يقرب من ١٢٠ عالماً.

- استعمال المناهج والنظريات النقدية الغربية الحديثة كالمناهج النفسي والفني والانطباعي والبنوي والتفكيكي والقرائي في دراسة الأدب العربي قديمه وحديثه، وهي مذاهب فكرية فلسفية، أفقدت النص أهم عناصره، وهي العاطفة والانفعال والتأثير لأن النص كمؤلفه تماماً يملك هو الآخر قلباً وباطناً ويكون محشواً بالخبايا والأسرار، وفيه تعلق المقاصد والنوايا (٣٧) مع أن أساس النقد الأدبي مهما قلبنا أوجهه لا يمكن إلا أن يكون التجربة الشخصية وكل نقد أدبي لا بد أن يبدأ بالتأثر، وذلك لأنك لا تستغني عن الذوق الشخصي والتجربة المباشرة لإدراك حقيقته إدراكاً صحيحاً (٣٨).

وإهمال الجهود النقدية العربية ومهاجمتها كنظرية عمود الشعر والسرقات وجهود البلاغيين العرب، وهذه الإنهزامية سولت للفكر النقدي أنه لكي ينقض الأوضاع الأدبية التي جمدها عليها أدباء القرون المظلمة، عليه أن يستمد من الغرب، يعبر عن نفسه من خلاله (٣٩) بينما تختزل الجهود النقدية العربية بالجهود البلاغية التي ماتت في نظرهم منذ زمن بعيد أو بعض اللفتات إلى بعض النقاد ونظرياتهم إذ وجد في مناهج النقد الحديث ما يؤكد لها.

- جعل الغربيين أصلاً في الاستدلال على صحة ما جاء به العرب، فإن كانت نتائج الغربيين تؤيد ما ذهب إليه العرب ذهبنا إلى تأكيد صحته كما حصل مع نظرية النظم لعبدالقاهر الجرجاني، فقد حصل الاعتداد بها لأن الدراسات الأسلوبية واللغوية عند سوسير وتشومسكي وغيرهما ذهبت المذهب نفسه، ومثلها الوحدة العضوية أو الموضوعية التي تغنى بها النقد الحديث، تناولها الناقد العربي في إطار عام كما نجد عند ناقدنا القديم

داسات في الشاه الإسلامي

محمد بن الحسن الحاتمي (٣٨٨هـ) إذ يقول: إن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر، أو باينه في صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنة وبعض معالم جماله^(٤٠)، أليس هذا أقوى من وصف الوحدة العضوية بأنها كالتمثال بأجزائه التي ظهرت في العصر الحديث، ومن النقد الغربي.

- إغفال الكثير مما جاء به العرب قديماً ونسبته إلى الغربيين كالوحدة العضوية التي أشرنا إليها آنفاً، وإهمال جنس عربي أدبي كان له شأن كبير كالمقامات، لأنه لا نظير له في الآداب الغربية مع أنه أعظم الأجناس الأدبية النثرية في الأدب العربي شأنًا، وأطولُه عمرًا، وأقدره على القيام في وجه الدهر على مدى قريب من عشرة قرون.. وعلى ما أصاب نصوصها من تلف وضياع في الشرق والغرب جميعاً، فقد احتفظ لنا الزمن بكثير من تلك النصوص التي تُعدُّ كثيرةً كُثرةً نسبيةً على الأقل، وقد ظل جنس المقامة قائماً بتقاليده الأدبية وأصوله الفنية، من لدن بديع الزمان الهمداني إلى المويلحي، بل إلى حافظ إبراهيم، بل إلى محمد البشير الإبراهيمي، وإذا تأملت هذا الجنس الأدبي العربي القح ألفيته هو الجنس الأدبي النثري الوحيد الذي يمثل وجه الإبداع الراقي في العربية بحق، أو الإبداع المعترف بأدبيته أكثر بين أدباء العربية الغابرين على الأقل، فكان هو الفن النثري الذي يعادل الشعر العربي في رأينا على الأقل، إنما هو نثر المقامة، وليس مطلق النثر، فالمقامة هي الجنس الأدبي المعادل، في ميزان تاريخ الأدب العربي، لجنس الشعر^(٤١)، فلماذا اندثرت مع جمالها وفنيتها وقربها من روح الأدب، بينما تقلد الملاحم التي لا أصل لها في تراثنا، وهي أبعد ما تكون عن الأدب وجمالياته فهي عبارة عن سرد شعري لأحداث تاريخية أشبه ما تكون بالسير الشعبية، فإذا كانت الصنعة اللغوية والمحسنات البديعية واللفظية هي التي بررت رفض المقامات والإهمال لها، فلماذا لم تطور وتجدد كفن عربي خالص، ولماذا لا تدرس كمرحلة مهمة في تأريخنا بمقاييس وذوق الزمن

دراسات في الشاه الإسلامي

والمكان، كما تدرس الملاحم اليونانية والرومانية.

وهل من المنهج العلمي محاكمة عصر أو نتاج إلى غير مقاييس عصره وظروف زمانه وذائقة مجتمعه. إذ لا ينبغي أن تقوم أثر هذه الحركة بمفهومنا الحديث لطبيعة الشعر وأهدافه، ذلك لأن الحكم على حركة أدبية سابقة لا يمكن أن يخضع بحال لمفاهيم وأحكام معاصرة، وإنما ينبغي أن تقوم هذه الحركة من خلال العصور التي سبقتنا (٤٢). وهل الأدب إلا مظهر من مظاهر المجتمع والثقافة.. وشكل من أشكال التعبير الاجتماعي (٤٣). فليس من الصواب أن نصب لومنا على السلف ونطلب منهم أكثر من الذي قالوه وكتبوه.. (٤٤). ونصدر التعميمات ونهمل قانون التطور الأدبي، وأكبر دليل على ارتباط الأدب بمجتمعه وبيئته وعصره أن الدارسين قد يجدون في الأدب عن المجتمع وأوضاعه والتاريخ وأحداثه ما لا يجدونه في التاريخ العام. فلا بد من الحكم على العمل في إطاره الزمني والمكاني، ومراعاة ظروف عصره وذوق مجتمعه، ولولا ذلك لما اختلفت نظرة طه حسين عن نظرة زكي نجيب محفوظ، ولما اختلفت نظرة الأخير عن نظر الجيل اللاحق له، ولما اختلفت الأنظار داخل الجيل الواحد من المفكرين كل بحسب موقعه في الحاضر وكل بحسب موقعه الآتي (٤٥).

- تقليد الغربيين في نتاجاتهم تقليداً فحماً لم يقتصر على تقسيم العصور والمدارس وتطبيق المناهج النقدية، إنما وصل إلى حد تقليدهم في أفضاهم وصورهم ورموزهم وأساليبهم وإيقاعاتهم، ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن أكثر ما كان يقدم لجمهور القراء في عصر النهضة هو من قبيل الترجمة والاقتباس (٤٦)، وأن النسخة الأولى من الحداثة (Modernism) وما بعد الحداثة (Postmodernism) نسخة غربية في المقام الأول (٤٧)، لأن محاولة الحداثيين العرب منذ أوائل السبعينيات مباشرة، أي في السنوات التي تلت النكسة وسقوط الحلم العربي، كانت لتقديم نسخة عربية لحداثة تتعامل مع

داسات في الشاه الإسلامي

واقع الحضارة الغربية^(٤٨)، وفرض النموذج الحضاري والثقافي الغربي، باعتباره النموذج الأمثل الذي انتهى إليه التطور البشري. والنقل الكامل عن الحداثة الغربية، بعد أن خلطنا بين التحديث والحداثة، كان تمهيداً للتبعية الثقافية وترسيخاً لها، لأنه بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، كانت كل الدلائل تشير إلى اتجاه ثقافة مهيمنة بدلاً من ثقافة عالمية^(٤٩)، ولم يكن هذا التقليد تجديداً، لأن التجديد الحقيقي لا يكون من خارج التراث، بل نابعاً من صميمه وهو امتداد تاريخي وفني له، وأن القصيدة الحديثة هي بنت القصيدة القديمة على جدة وعصرية^(٥٠). وقد سئل أحد المستشرقين الفرنسيين (شارل بيلا) في بيروت أنقرأ الأدب العربي القديم أم الحديث؟ قال: القديم قيل له: لماذا؟ قال: لأن الأدب العربي الحديث أدب أوروبي كتب بلغة عربية^(٥١)، فالتجديد الحداثي هو تقليد الغربيين، وقلما نجد شاعراً محدثاً إلا وقد تأثر وأعجب ببعض شعراء الغرب، أو بواحد أو اثنين منهم، وفي لبنان خاصة فإن قائمة الذين تأثروا بالغرب وأعجبوا بشعرائه تكاد تشمل جل شعرائه^(٥٢). وقد كانت بعض الفئات المثقفة ثقافة غربية، تدعو إلى الاقتداء بالحضارة الغربية اقتداء تاماً في مناحي الحياة المختلفة في الفكر والسياسة والأدب والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك^(٥٣).

الخصوصية العربية والإسلامية:

الأمة العربية الإسلامية ليست نكرة مُنبَتةً ليس لها جذور أو ماض حضاري، إنما هي أمة سادت العالم سياسياً وعسكرياً وثقافياً واجتماعياً قرونًا طويلةً، وليس لها طريق للعزة والمجد والحضارة والسؤدد إلاً طريقاً واحداً، هو طريق الإسلام الذي كان سبب عز السلف، لأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. ونحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أدلنا الله.. وهذا الطريق طريق مجرب كلما تمسك به المسلمون نهضوا، وكلما تنكبوه ذلوا وضعفوا.

دراسات في الشاه الإسلامي

الالتزام في الأدب بمعناه الواسع موجود منذ وجود الشعر، بل منذ وجدت الكلمة منظومة كانت أو منثورة والمسرح اليوناني القديم كله قد نشأ أصلاً في كنف الدين^(٥٤). وأعظم الروائع والأعمال الخالدة هي التي انطلقت من منطلق ثقافي محلي كالكوميديا الإلهية، والأدب العربي ارتبط بالمجتمع وثقافته ودينه وعقيدته، منذ صدر الإسلام إلى اليوم. فقد خاض الأدب العربي في صدر الإسلام معركة دعوية شرسة إلى جانب السنن يدافع عن الإسلام ونبيه وذلك ما دفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما في الصحيح إلى أن يقول لحسان أهجهم وروح القدس معك، ويقول له «لشعرك أشد عليهم من وقع النبل» وشارك الشعر في الدفاع عن الإسلام أمام الشعوبيين والزنادقة وغيرها من الفرق الضالة، كما شارك في كل مواقع المسلمين وقضاياهم، وشعر رثاء المدن سواء في سقوط بغداد بيد التتار أو سقوط الأندلس بيد الصليبيين، وشعر الجهاد والمقاومة أيام الحروب الصليبية تعكس التلاحم بين الأدب والمجتمع وثقافته، وقد أدرك شعراء الإحياء في العصر الحديث هذه العلاقة، وأن الشعر إنما هو تفاعل ثقافة الشاعر مع ظروف مجتمعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. «فالشاعر هو الذي يعبر عما هو موجود حينما يتحدث هذا الموجود عن طريق التجربة^(٥٥). والشاعر الإحيائي أراد أن يخضع ما يسمع وما يقرأ وما يشاهد في حله وترحاله، إلى الأوزان والقوافي، وظن أن فيهما تكمن معادلات حلول مشكلات هذا العالم المثقل بإرادة التغيير^(٥٦) وقد كانت قوة إقناع الشاعر بقدرته على التغيير بالكلمة على مستوى قوة الظرف نفسه. حتى أننا نجد شاعر اليمن التاريخي الشاعر محمد محمود الزبيري يقول: كنت أحس إحساساً أسطورياً بأنني قادر بالأدب وحده على أن أقوض ألف عام من الفساد والطغيان^(٥٧) وفي ذلك يقول شعراً:

داسات في الشأن الإسلامي

فَرَحْتُ أَشْعَلُ بِالْقِيثَارِ مَقْبَرَةَ (م) الموتى وَأَنْفِضُ أَغْلَالَ وَأَكْفَانًا
أصبو إلى أمتي حبا وأبعثها بعثا وأبني لها بالشعر بنيانا
أصوغ للعلمي منه أعينا نُرْعَتُ عنهم وَأَنْسِجُهُ لِّلصَّمِّ آذَانًا
وما حَمَلْتُ يِرَاعِي خَالِقًا بِيَدِي إِلَّا لِيَصْنَعَ أَجِيالًا وَأَوْطَانًا
يَخَالُهُ الْمَلِكُ السَّفَاحُ مَقْصَلَةً في عُنُقِهِ وَيِرَاهُ الشَّعْبُ مِيزَانًا (٥٨)

فالشاعر الجاهلي المدافع عن عرض القبيلة ومحارمها والرافع صوتها غالباً في المجالس والمنتديات، والناطق باسمها، والمسجل لمواقف شجعائها وحكامها ما هو إلا شاعر ملتزم بشكل من الأشكال.. وجاء الإسلام فأكد مبدأ الالتزام الأدبي والأخلاقي، ورفع من شأن الكلمة وفتح أمام الشاعر أبواب الالتزام نحو الجماعة بدلاً من الأفراد، ونحو الأمة بدلاً من القبيلة، وقد كانت الحركة الإصلاحية أكثر وعياً حينما استندت في فهمها إلى عصور الفطرة والنقاء في تاريخ الإسلام، عقيدة وسلوكاً - فكانت الدعوة حارة إلى بعث التراث في عصور النقاء والازدهار... (٥٩)، وثقاقتنا جديرة بالاعتزاز والفخر لما تتمتع به من خصائص مميزة وفريدة، أثرت الحضارة الإنسانية وأثرت فيها، ومن يقرأ كتاب (الكلاسيكيون الروس والأدب العربي) سيجد أن أدباء روسيا ينظرون للإسلام ونبيه والمسلمين والعرب نظرة إعجاب وإجلال فقد ألف عنه الكثير منهم (بوشكين ليومانوف - غوغول - تورغينيف - دوستوفيسكي - تولستوي - تشيخوف) فهذا مثال لبوشكين يعبر فيه عن إعجابه بشخصية النبي ﷺ واحترامه الكبير لها، كذلك حبه للحضارة العربية وآدابها - فقصيدته (محاكاة القرآن) نقل بها بعض المواضيع الانشائية العظيمة التي يزخر بها القرآن الكريم ليطرحها شعراً على أبناء قومه بلغتهم الأصلية وبأسلوب أدبي شيق وسهل.. (٦٠) لو تصفحنا مجموعة مؤلفات بوشكين الشعرية لوجدنا أنه يشير إلى الإسلام والمسلمين باحترام في العديد من قصائده ومنها على سبيل المثال (الطلسم - إلى الفتاة

دراسات في الشاه الإسلامي

الكاليتشكا - النبي - مخيم عند الفرات - الدون).

فالأديب لا يمكن أن ينفصل عن عصره إنفصالاً حاداً، لأن طبيعة التطور والتغيير ترفض منطق القفزة الحاسمة غير المبررة بالظروف الاجتماعية والحضارية التي يعيشها الناس^(٦١) حين تحاول الذات القومية أن تعي ذاتها وأن تبحث عنها، لا كمعطي تاريخي مر وانطفأ ، بل كحضور يتشكل على الدوام وتقبل الاندراج في صيرورة المستقبل، فإن بحثها ومحاولتها معرفة ما ستكونه لا يخولها حق التقاضي عن ما كانته ذات يوم - فالمجتمع في لقطاته الثلاث: الماضي والراهن والقابل، يشكل توأماً لا يقبل التقاطع، إذ الماضي مقوس في الراهن والراهن بذرة المستقبل، والتاريخ يشكل وحدة استمرارية (continium) تتناغم على الدوام^(٦٢). إن الشاعر العربي، مهما يأخذ بأسباب المعاصرة، ومهما يخاطب ويحاوّر النماذج الأوروبية الأكثر سيطرة وشيوعاً، لن يكون بملكه الانشقاق عن الجذور العربية التقليدية التي تكون البرهة الجاهلية نواتها، إذا أراد أن يحافظ على أصالته ومحليته وصلته بالشعب لأن كل اشتطاط عن الأرومات ضياع محقق، وليس من الصواب أن تضحي بالمحلية من أجل العالمية وبالقديم من أجل الجديد، بل ينبغي أن يُلطف هذا بذلك. وفي يقيني أن الجماهير ستظل تحجم عن التفاعل مع شعر يحقق الإطلاقية في القطيعة التي يقيمها بينه وبين التراث التقليدي للأمة^(٦٣). إن الشعر العربي يتطور اليوم بخطوات المردة، ولكنه للأسف لا ينمو نمواً داخلياً، بل يستورد تحولاته من الخارج، ولهذا قاطعت الجماهير، معنى ذلك أنه حين كان النمو الذي أحرزه الشعر العربي في النصف الأول من القرن العشرين دليل فداثة وعبقرية أصيلة، لأنه جاء تطويراً داخلياً للموروث، مع تطعيمه بالمعاصرة تطعيماً استطاع أن يتمثله وأن يحيله إلى طبيعته ونسيجه، بحيث بدت حركة الشعر مواكبة تماماً لحركة الثقافة والنمو الاجتماعي في طريق النهوض، فلم تكن العودة إلى التراث حدثاً لا يمكن تبريره ، ذلك لأن حركة التطور لا بد أن تأخذ مسارها الطبيعي والمعقول، ولا بد أن تكون للنتائج

داسات في الشأن الإسلامي

مقدمات تبررها، ولم يكن من المعقول أن يخضع بعض المتطرفين من مهاجري الشام البيئة الثقافية المصرية لأرائهم المتطرفة في ذلك الوقت.. (٦٤) ولعل طبيعة الأعمال الشعرية المطبوعة في القرن التاسع عشر تحملنا على الاعتقاد بأن الناشرين في الأغلب الأعم، كانوا يراعون أذواق الفئات المتقنية للشعر، وأن طباعة الدواوين القديمة لا تعني الاهتمام بالجانب الأدبي - أو اللغوي أو الجانبين كليهما - وإنما قد تعني الاهتمام بالثقافة السائدة (٦٥)، ولهذا الأسباب ذاتها وجد جمال الدين الأفغاني تربة صالحة لبذور أفكاره وبخاصة عند المثقفين المستتيرين، فقد انطلق من أصل مسلم به هو الدين، ثم أخذ يفرغ أفكاره التقدمية الجريئة مستنداً إلى هذا الأصل، محاولاً أن يربط بين المواضيع التقدمية في الحكم والسياسة والحضارة والاجتماع التي يبثها الغرب، والألية المسلمة التي لا يناقش في سلامتها أحد وهي الدين... (٦٦)، الشعر اليوم يفتقر إلى الأصالة والتحول من الداخل، أنه يتجاوز وعي الجماهير بشروط طويل... (٦٧) فالشعراء يخاطبون جمهوراً غير أوروبي بأساليب أوروبية، والحقيقة أن مجتمعنا ينمو نمواً خارجياً... (٦٨)، ومثل هذه الحال هي ما أبعد عن الشعر جماهيريته وأحاله إلى شعر للنخبة، للخاصة لا للكافة، أن شعراءنا لا يدركون أننا لسنا أوروبا، فهم يخاطبوننا بالطريقة التي يخاطب الشاعر الأوروبي جمهوره دون أن تكون لنا ثقافة ذلك الجمهور الأوروبي (٦٩)، وتحول الشعراء إلى نخب يخاطب بعضهم بعضاً.

لقد غدونا أحوج ما نكون إلى تطعيم حركة الشعر المعاصرة بتقاليدنا الشعرية التراثية ، لأن مثل هذا التطعيم سيعيد إلى الشعر العربي جماهيريته ، ويبني جسراً بين الشاعر والناس.. (٧٠)، بقدر حاجتنا إلى الفن الإسلامي بمعناه الأصيل الذي أتينا على بعض جوانبه.. كي تكون لنا شخصية فنية متميزة تصدر عن حضارة أصيلة غير متغربة وتصور شامل لا خلل فيه واعتزاز نفسي لا هزيمة في طباعه (٧١). يقول محي الدين إسماعيل

دراسات في الشاه الإسلامي

في رده على سؤال: ما هي طروحات المفكر أو المثقف العربي بعامة في مواجهة العولمة؟ فيرد: العولمة ليست مشروعاً اقتصادياً عالمياً وليست مشروعاً من مشاريع الاستعمار التقليدية، بل هي مشروع أبعد عمقاً وأماداً.. إن العولمة موجهة بدءاً ضد هويتنا الحضارية العربية الإسلامية.

وقد أعرب دهاقنة العولمة من أمثال (هنتنغتون) في (صراع الحضارات)، و(برجنسكي) وفي (رقعة الشطرنج الكبرى). عن السمات الأساسية للعولمة. وإذا ما أردنا مواجهة مشروع العولمة الذي يهدد هويتنا الحضارية فعلياً أولاً أن نتعامل مع تراثنا وتاريخنا تعاملاً حياً وعلى مستوى التحديث الحضاري.. وهذا يعني بالتالي احتدام ثورة ثقافية عربية شاملة^(٧٢). تتكئ على ثقافة الأمة، وتتطلق منها لكن الحداثة العربية التي دعت إلى قطيعة مع التراث وهاجمته، وقعت في محظورين خطيرين كفيلين بنقض دعوها في التجديد أولهما: خرقها هذه الدعوات الداعية إلى القطيعة المعرفية مع التراث العربي إذا كان الأمر يتعلق بالقديم الشاذ الذي يتصادم مع ثوابت الأمة واتجاهها العام، يظهر ذلك في الانتصار للشواذ والمنحرفين من الشعراء الذين لا يذكرون أو الفرق المنحرفة عن اتجاه الأمة كالصعاليك والشعوبية وكالباطنية وأخوان الصفا والقرامطة لأن في اتجاه هؤلاء الشعراء ما يزلزل القيم الموروثة سواء أكانت دينية أم اجتماعية، ويشارك في إقامة نظام جديد من القيم^(٧٣). يقول أدونيس: أصف النص الشعري عند أبي نواس والتفري والمعري بأنه نص فكري تخيلي: فكري لأنه يخترق حقول المعرفة في عصورهم، وينتج القلق المعرفي - إزاء الدين والقيم والأخلاق، الله والغيب، الحياة والموت، وإزاء مختلف المشكلات الأخرى التي يواجهها الإنسان^(٧٤). ويزيد الأمر وضوحاً حينما يقول عن المعري: إن المعرفة التي يزخر بها نصه نقيض للمعرفة التي تقوم على حقائق نهائية، وبخاصة المعرفة الدينية، ومن هنا يكشف عن المكبوت في عصره، ويدعو إلى التفكير في ما لا يتاح ببسر، التفكير فيه، إنه ركن للخروج من المذهبيات، واليقينيات من أية جهة أتت،

دراسات في الشأن الإسلامي

هكذا يبدو شعره يقذف بالقاريء في مناخ الضياع، أو لنقل العدمية بوصفها جوهر العالم^(٧٥). ثانيهما: وقوعها في تقليد القديم الغربي أي (تقليد التقليد)، لأن الحداثة العربية رفضت تقليد الموروث العربي فوقعت في تقليد الحداثة الغربية التي هي تقليد لتراثها القديم، كما يعترف بذلك الناقد الأمريكي (جوناثان كاللر) الذي يعد من ألمع نقاد التفكيك: (إن ما يقدم في الواقع ويعد تصفيته من المفردات النقدية الجديدة وفصله عن الصخب الذي يثير في القاريء احساساً بالرهبة والإحباط ليس إلا نبیذاً قديماً في قوارير جديدة) لقد كشف (كاللر) وهو من أصحاب اللعبة ما استحق سخط أقرانه من نقاد التفكيك.

الأدب ينتج عن شعور الكاتب وانفعاله ويثير شعور القاريء، ويسجل أدب الحياة وأعماقها...^(٧٦)، وتوفيق الحكيم على حق حين قال: إن أدباء عصرنا قد أصبحوا يفضلون الأوراق الخضراء على الأوراق الصفراء، أي يفضلون التجارب المستقاة من واقع الحياة الاجتماعية المعاصرة الحية على التجارب المستمدة من الأساطير القديمة أو صحف التاريخ، وبالفعل يمكن القول بأن الأدب والفن قد أصبحت لهما الآن وظائف اجتماعية لا يستطيعان أداءها إلاً باختيار موضوعاتها وتجاوبها من واقع الحياة المعاصر في مجتمع كل منهما، فهذا هو ما يعطي التجارب الواقعية الاجتماعية أهميتها الخاصة في الأدب الحديث كله^(٧٧)، إن وظيفة الأدب هي الكشف عن هذا وتصويره وإبرازه أمام الأبصار...^(٧٨)، وقد ظل الأدباء العرب أوفياء لأمتهم وقضاياها ملتصقين بالبيئة وظروفها والمجتمع ومشكلاته، لأنهم أدركوا أن مهامهم ليست قول الشعر المزخرف الذي يسقط وهاد الشكلية العقيمة - أو الغامض الذي يعيش في أبراج عاجية، حولت الشعراء إلى نخب يخاطب بعضها بعضاً، وإنما هي مهمة مقدسة تستنهض الهمم، لنفض غبار الكسل، ولسع ظهور المستبدين بسياط القوافي التي يخافها المتسلطون والمتعسفون وفي ذلك يقول الرصافي: -

دراسات في الشاه الإسلامي

وما يَنْفَعُ الشَّعْرُ الَّذِي أَنَا قَائِلٌ إذا لم أكن للقوم في النفع ساعياً
ولست على شعري أروم مَثُوبَةً ولكن نُصَحَ الْقَوْمَ جَلُّ مَرَامِيَاً
وما الشَّعْرُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَصِيحَةً تَنْشُطُ كَسَلَانَا وَتُنْهَضُ ثَاوِيَاً
وليس سريُّ القومِ مَنْ كَانَ شَاعِراً ولكن سريُّ القومِ مَنْ كَانَ هَادِيَاً
فَعَلَّمَهُمْ كَيْفَ التَّقَدُّمُ فِي الْعُلَى ومن أي طرقٍ يبتغون المعاليَاً(٧٩)

قلما نجد لشعرائنا الجادين أشعاراً في غير معركة الشعب، فما أقل شعر الوصف والغزل والرسميات في قصائدهم من عهد النهضة إلى اليوم(٨٠).

صلب الدراسة الحالية يقوم على تأكيد امتلاك التراث اللغوي البلاغي والنقدي العربي لمقومات نظرية عربية، كان يمكن أن تكون كما قال العقاد هي (الهوية الواقية) القادرة على حماية الثقافة العربية من أي تؤول إلى فناء المغلوب في الغالب(٨١)، وإلقاء الضوء على جوانب تلك الحداثة العربية التي أنتجوها، حداثة النقل والترجمة والإيثار وسوء الفهم، وأخيراً حداثة الزيف التي تبتعد عن الحقيقة الأولى خطوة مع كل جيل حدائي جديد(٨٢)، إن تراثنا العربي من الثراء والتنوع، بل والمعاصرة بحيث يكفي لرفض القطيعة المعرفية معه، وأنا لو وصلنا ما انقطع معه فسوف نصبح قادرين على تطوير نظرية لغوية ونقدية عربية، تأخذ من التراث أفضل ما فيه، ومن الآخر خير ما يقدمه وما يتفق مع ذلك التراث الخاص، وإذا لم نفع ذلك فسوف ينتهي الأمر عاجلاً قبل أجل إلى تبعية ثقافية قد يصعب الانعتاق منها فيما بعد(٨٣)، فقد أصبحت الحاجة إلى نظرية عربية بديلة ضرورة للبقاء في عصر تهدد فيه الثقافة المهيمنة بابتلاع الثقافات القومية، ويزيد في أهمية البحث عن نظرية قومية بديلة أنه في غيبة رد فعل سياسي عربي فعال لمحاولات إعادة تشكيل خريطة المنطقة العربية تصبح الثقافة، في رأينا حصن المقاومة العربية الأخير(٨٤)، إذا كانت البلاغة العربية قد قدمت ضفيريّتين قويتين كان يمكن تطويرهما إلى نظريّتين متكاملتين في اللغة

داسات في الشاه الإسلامي

والأدب، فماذا حدث بعد؟ حدث أننا في انبهارنا بإنجازات العقل الغربي الحديث، أدركنا ظهورنا بالكلية، أو بدرجات متفاوتة لتراث البلاغة العربية، وكنا حينما نعود إلى تلك البلاغة في أفضل الحالات نضل ذلك من منطلق الدراسة الأكاديمية التي تنتهي فوق أرفف المكتبات ثم حينما نتحول إلى الممارسات النقدية نلجأ إلى المصطلحات والمفاهيم المستوردة، كان التراث بالنسبة لكثير من الحداثيين العرب أمراً من شؤون الماضي، الماضي الذي يجب أن نحقق معه قطيعة معرفية، أليس هذا هو أبرز شروط الحداثة الغربية؟ بهذا وضعنا تراثنا البلاغي أمام مرايا مقعرة صغرت من حجمه وقللت من شأن إنجازات العقل العربي^(٨٥).

لسنا الوحيدين الذين نرفض العولمة؛ بل الثقافة الحية ترفض العولمة

إن الأمل يراود جميع دول العالم ومنظماتها الدولية بالأمن الجماعي من السيطرة الأمريكية، وهو الركيزة التي تقوم عليها الجهود النضالية بين الشعوب المختلفة التواقفة إلى نظام عالمي أكثر إنسانية ومساواة وعدالة في الشراكة^(٨٦). وقد سيطر الخوف من هيمنة الثقافة الأمريكية على جميع أمم وشعوب العالم، وليس على العرب والمسلمين فحسب، وأدى سبب هذا الخوف إلى تعالي الدعوات من جميع أنحاء العالم، ومنها دعوات على لسان زعماء وباحثين ومهتمين غربيين، كانت دولهم إلى وقت قريب دول استعمارية كألمانيا وفرنسا تتزعم التغريب وفرض ثقافتها على العالم، فيما يعرف بالنازية ومحاولة فرضها، أو بالفرنسية ونشر مبادئ الثورة الفرنسية باسم (العدل - الثورة - المساواة - الحرية - الإخاء - الديمقراطية). أخذت اليوم تحذر من العولمة وتعد (العولمة خطراً على الثقافات المحلية). يقول (بطرس غالي) الأمين العام السابق للأمم المتحدة: (إن حقوق الإنسان كمرجع، تشكل اللغة المشتركة للإنسانية، التي بفضلها تستطيع كل الشعوب في الوقت نفسه أن تفهم الآخرين وتكتب تاريخها الذاتي)^(٨٧). ويقول في مؤتمر الدول

دراسات في الشأه الإسلامى

الفرانكفونية: إن هدفنا هو الدفاع عن التعددية الثقافية والتعددية اللغوية، فلو سيطرت لغة واحدة على المجتمع الدولي فإن ذلك سيؤدى إلى إضعاف اللغات الأخرى، وهذا خطأ كبير، فاللغات - في رأيي - بمثابة التراث الإنساني، وثورته قائم على ذلك التعدد، وكما أن هناك منظمات دولية أنشئت للدفاع عن البيئة وعن بعض النباتات وعن بعض الحيوانات، يجب الدفاع عن الحضارات وعن الثقافات، وعن التعددية الثقافية والحضارية.. (٨٨) وأطلق رئيس وزراء فرنسا الأسبق (ليونيل جوسبان) شعاره في هذا الخصوص (نعم لحرية السوق لا لثقافة السوق)، كما أن الرئيس الفرنسي الراحل (فرانسوا ميتران) خاطب ممثلي الدول الفرانكفونية بقوله: سنصبح فقراء جداً وغير قادرين على الدفاع عن أنفسنا لو أنكم لم تقفوا إلى جانبنا، من الذي يمكنه أن يتعامى عن التهديد الذي يواجهه العالم الذي تغزوه بالتدرج ثقافة واحدة انجلوا - سكسونية، أما وزير الثقافة الفرنسي (جاك لانغ) فيرى أن العولمة لا تحتل الأراضي بالقوة العسكرية ولكنها تصدر الضمائر ومناهج التفكير وطرق العيش. وأياً كانت مبادئ العلمنة، فإن منتجات العقل لا يمكن مقارنتها بسلع عادية أو بضائع رخيصة (٨٩). واعتداد الفرنسيين بثقافتهم يظهر من خلال رفضهم التحدث باللغة الانجليزية. وهذا الخوف الفرنسي على الرغم من التقارب الثقافي والعرقى والسياسي يجعلنا ندرك أنه لم يندع بشعاراتهم منذ الثورة الفرنسية إلى العولمة الأمريكية اليوم إلا نحن. وأنا بحاجة لمواجهة خطر العولمة، إلى تجارب ثقافية معها.. حرب سلاحها الثقافة.. وسلاحنا الثقافي فيها هو هويتنا القومية التي ينبغي توضيح معالمها، متمثلة في ذاتيتنا - الثقافية والحضارية التي علينا ترصينها (٩٠).

ربما يكون قد تكشف لنا مما سبق أن المواجهة ليست خياراً اختيارياً، إنما هي ضرورة لا بد من اللجوء إليها اللهم إلا الرضى بالتبعية والدخول في طائفة الإمعات، وإعادة إنتاج تخلفنا بأشكال حديثة. العولمة ليست حتمية ولكن المواجهة حتمية والأمثلة كثيرة جداً، فقد حكم

داسات في الشاه الإسلامي

المسلمون أسبانيا ثمانمئة سنة، لكن الأسباب مع تسامح المسلمين خرجوا أكثر قوة واستطاعوا استرداد الأندلس بعد هذه المدة الطويلة والقضاء على أي أثر إسلامي هناك، وسيطر الروس القياصرة ثم الروس الشيوعيون على الشيشان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى أكثر من أربعمئة سنة وحاولوا بكل الوسائل طمس هويتها الإسلامية، فجاءت النتيجة عكسية تماماً إذ خرج الشيشانيون أكثر صلابة وتمسكاً بالإسلام واعتزازاً بدينهم وهويتهم. وتعرض الشعب الجزائري للفرنسة ومحاولة طمس هويته العربية الإسلامية طيلة مائة وثلاثين عاماً فخرج أشد تمسكاً واعتزازاً بدينه ولغته ووطنه، وصدح حاديه ولسانه المعبر عنه رئيس جمعية علماء الجزائر الشيخ عبدالحميد بن باديس بقوله:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ وَإِلَى الْعَرَبِيَّةِ يَنْتَسِبُ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ (٩١)

وكان ذلك شعار الجزائريين قبل التحرير، وسقط في سبيله مليون ونصف مليون من الشهداء، وظل شعارهم بعد التحرير وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أفراد الجاليات الإسلامية في الغرب أشد تمسكاً بهويتهم ودينهم من المسلمين الذين يعيشون في البلاد الإسلامية، وصار دمجهم في هذه المجتمعات مشكلة هذه الدول.

إن الشعوب تعود إلى خصوصياتها ورموزها الأصلية خصوصاً وقت الشدائد والمحن، فاليابان وهي تتعامل مع علم الغرب وتخضع لاستعمارين عسكري وثقافي، لم تتخل عن شخصيتها وأصالتها بل بقيت محافظة على سائر مقومات شخصيتها القومية من فنون بسائر أشكالها، إلى طريق الأكل والملبس حتى فن العمارة، إلى التنظيم الاجتماعي، أهم عنصر حافظت عليه هو اللغة اليابانية التي تعد المقوم الأساس للنهضة اليابانية مع أنها تعاني من تخلف كبير لا يقارن أبداً بوضع لغتنا العربية، يكفي أن يعلم الباحث أن عدد حروف اللغة اليابانية يصل إلى عشرة آلاف حرف (٩٢)، ومع ذلك أصرت

دراسات في الشاه الإسلامي

على أن يكون التعليم في مختلف المراحل والتخصصات باللغة اليابانية، فيما يعرف بـ (اليابننة). وقل مثل ذلك أو أكثر منه عن الصين التي رفضت التغريب والتبعية وأصرت على الاتكاء على عناصرها الثقافية والأدبية، مع أن لغتها القومية تتكون حروفها من (٤٤٤٤٤) حرفاً كانت تمثل لغة بكين فقط. وقد مثل الموقف الشعبي والرسمي الراض من رواية (طفلة شنغهاي) الذي وصل إلى أعلى سلطة لأنها حملت مفاهيم غربية، إصراراً قوياً على رفض العولمة، وحرصاً على الحفاظ على الخصوصية الثقافية المحلية.

ويظهر هذا الرفض للعولمة عند كل الشعوب الحية والواعية. والأدب مفهوم متغير عبر الزمن، ولذلك فضل غوستاف لانسون أن يدرس تلامذة المدارس النصوص الحية بدلاً من الأصناف المجردة والعقائدية والخاطئة غالباً، لأنه كان يريد صورة أوسع لتاريخ فرنسا الأدبي. (٩٣). والعرب مع اهتمامهم وعنايتهم بعلوم اليونان وسواهم لم يعنوا بتصوراتهم الفنية أو يأبهوا لأدابهم اللغوية، فبقي الأدب العربي منعزلاً منطوياً على ما نشأ عليه قلما يرى شيئاً خارج بيئته (٩٤). والتنظير للشفوية الشعرية الجاهلية، عمل قام به العرب في بدايات التفاعل بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافات الأخرى (اليونانية والفارسية والهندية)، وكان يهدف إلى التوكيد على أن للشعر العربي خصوصية بيانية وموسيقية، تميزه عن شعر الأمم الأخرى، وإلى التوكيد على صيانة هذه الخصوصية وممارستها في الصناعة الشعرية، تمييزاً للهوية الشعرية العربية، ولهوية الشاعر العربي. فقد كان الحرص على التمييز والخصوصية هو أساس النشاط العقلي العربي، إبان تلك المرحلة من التمازج الاجتماعي والثقافي بين العرب وغيرهم (٩٥). ويعترف أدونيس في حديثه عن العلاقة بين الشفوية الشعرية والسماع فيقول: إن هذه العلاقة جعلت النقد الشعري يتأسس محورياً على مبدأ السماع. وعلى مستوى الصلة بين الشعر وسامعيه. لم يكن الشاعر الجاهلي من هذا المنظور ينشئ الشعر لنفسه، بل لغيره - لمن يسمعه، لكي يتأثر به، ومن هنا كانت تقاس

دراسات في الشأن الإسلامي

شاعرية الشاعر بقدرته على الابتكار الذي يؤثر في نفس السامع، وهذا جعل الشاعر مسكوناً بهاجس أساسي، وهو أن يكون ما يقوله هو الذي يحدد مستوى بيانه الشعري، لكن هذا الذي في نفس السامع ليس إلا الشيء المشترك العام وليس فهمه إلا انعكاساً للذوق الشائع العام^(٩٦).

ونختم بمثال على هذا الرفض الحاد من روسيا. وصاحبته هي الناقدة المعاصرة الدكتورة (س.ل. ا. يفاتوفا) التي تتماهى في هجاء هذا النوع من العولمة الأدبية والشعرية مستخدمة الألفاظ الجادة نفسها التي يرددها بعض الشعراء وبعض النقاد العرب الراضين للتهديد، وهذه نماذج من أقوالها: وفي اعتقادي أن هذه التقليعة القادمة من الغرب كالعادة، إنما هي صفة في وجه الذوق الشعري والذائقة الجمالية الفنية، وإلا فما هي الحاجة الملحة إلى قطع الجسور مع المنطق والزمان والمكان؟.. إننا نقول لمفلسفي (قصيدة النثر) وطارحيها في الساحة الأدبية إن (قصيدتكم) هذه ليست نثراً وليست شعراً، إنها ساق خشبية لنثر يحاول أن يكون جميلاً ضبابياً مبهماً، وإذا كنتم ترفضون الشعر جملة وتفصيلاً، وترفضون قواعده التي تواضع عليها النقاد والشعراء والمفكرون الجماليون في شرق الأرض ومغربها، فلماذا تسمون تقليعتكم (قصيدة) لأن للشعر سحره، وللقصيدة جاذبيتها؟ إذن لماذا تتمسحون بالشعر وبالقصيدة وأنتم براء منه مثلما هو براء منكم؟.. نعتقد أن هذه التقليعة التي تحطم المنطق والزمان والمكان، أو تحاول ذلك وتتجاهل الضوابط جميعاً، والخصوصيات في الاقتباس والأنواع الأدبية كافة، إنما هي ضرب من الهذيان ولكنه هذيان مفبرك، يحاول غزو عقول الشبيبة والاستحواذ على أرواح وأذهان ناشئة الأدب. باسم الشعر وباسم القصيدة، أي أنه تخريب من الداخل مدعوم خارجياً من قبل القوى التي تخرب جوهر الفن والفكر والأدب والفلسفة والمنطق، وتحاول قولبة الثقافة قولبة (كوزموبوليتية) معادية للقومية والتقاليد والأصالة. ولكن هذا التخريب الثقافي الفني لن يعيش لأنه ضد التاريخ وخارج التاريخ، ولأنه

دراسات في الشاه الإسلامي

ضد الفن، وخارج الفن، ولأنه - وهو الأهم - شيء مخترع اختراعاً ومفتعل افتعلاً بقصد واضح، هو التخريب الروحي، وإحداث الفوضى في عالم الشعر الجميل وعالم الفن الأصيل، إن الشعر الحق هو الذي يعيش! أما الهلوسة والتمرد الفردي الفوضوي فحاله حتماً الفشل والانتحار، طال به الزمن أم قصر^(٩٧). وهناك توافق يكاد يكون عاماً اليوم على أن تلقي النص مرهون بانتظارات المتلقين ونوعياتهم وخصائصهم^(٩٨)، والحادثة العربية أوجدت ذلك الفراغ الذي تحدث عنه بيرك حين قطعت جذورها بالتراث، لقد قوضت البناء الشكلي للقصيدة العربية، لكن الأمر لم يكن مجرد تحطيم المعمار الشكلي للقصيدة بل مس جوهر الثقافة العربية، وأحس الإنسان العربي أن عالمه الأليف يتداعى ليصبح حطاماً..^(٩٩).

وهكذا نرى الشاعر وجمهوره الحضور متماثلين في هويتهما المحددة، وكل منهما يكل الطرف الآخر، ويشارك أحدهما الثاني في مشاعره العامة وذكرياته وطموحاته المشتركة^(١٠٠)، قد تحولاً إلى طرفي نقيض، ويورد البروفيسور نوميسون مثلاً قصة مثيرة لشاعر عربي قديم، عُرف بانجذاب جمهوره إليه، بحيث يرتقي به إلى ذروة الحماس، حتى أن الملك نفسه الذي يجلس قبالة لا يمتلك حبس إحساساته فينطلق بالصراخ مع الجمهور ويلقي على الشاعر مئزره الحريري، النفيس، الفضفاض.. عطاءً له^(١٠١). لقد ظل الشاعر المتجول الغنائي.. ملتصقاً بجمهوره المحلي حتى فترة زمنية قريبة، هو وقصائده الغنائية^(١٠٢). ويعتقد البرفسور نوميسون بأن على الشعر أن يعود بطريقة أو بأخرى إلى البيئة التي قدم منها، ويعطي لذلك أسباباً رائعة تؤكد بأن صحة (المحيط الشعري الأول) تبقى المبدأ والجوهر لقضية^(١٠٣). ويؤكد مقولته بسرد تلك القصة المثيرة للشاعر العربي القديم. فلم تخلد إلا الأعمال التي ارتبطت بالبيئة والمجتمع وذائقته، فالكوميديا الإلهية عمل عبقرى إلى حد كبير، لكنه يستمد جزءاً من قوته من العالم الذي عاش فيه (دانتي)، العالم الذي امتحنه بفهم حاذق^(١٠٤).

الهوامش

- (١) بنية مفهوم العولمة في الخطاب العربي المعاصر (مراجعة نقدية) عبدالله محمد الحميد، شؤون اجتماعية، ع٨٣، س٢١، خريف ٢٠٠٤م، ص٩٥، ٩٦.
- (٢) العالم الإسلامي وتحديات العولمة، الحصين عصمة، مجلة الكلمة، عدد ١٩، السنة ٥، قبرص، ربيع ١٤١٩هـ، ص٧٥.
- (٣) العولمة ومستقبل العالم الإسلامي، فتحي يكن - رمز طنبور، بيروت، مؤسسة الرياض، ص١٠.
- (٤) محاولات الاختراق الإعلامي الأمريكي (الحرّة - سوا - هاي نموذجاً) باسل يوسف النيرب، البيان، ع٢٢٠، س ٢٠ ذو الحجة ١٤٢٦هـ - يناير ٢٠٠٦م، ص٩٤.
- (٥) المراهيا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية. د. عبدالعزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، ع٢٧٢، جمادى الآخرة ١٤٢٢ - أغسطس ٢٠٠١، ص٥٩.
- (٦) في الأدب والنقد، د. محمد مندور، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٣، ص١٠.
- (٧) الأدب الأندلسي، من الفتح إلى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٦، ص٣٨.
- (٨) الأدب الأندلسي، من الفتح حتى سقوط الخلافة، ص٤٠، وينظر مصدره.
- (٩) البعد الثقافي للتأريخ، هشام علي، الحكمة، ع٢٣٤، ٢٣٣، مارس - إيريل ٢٠٠٥م، ص١٦.
- (١٠) الأدب ومذاهبه. د. محمد مندور، القاهرة. دار نهضة مصر للطبع والنشر، ص٧.
- (١١) المسلمون والعولمة يوسف القرضاوي، القاهرة، مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص٤٩.
- (١٢) تطور الأدب الحديث في مصر، د. أحمد هيكل، القاهرة، دار المعارف، ط٦، ١٩٩٤، ص٢٧.
- (١٣) تطور الأدب الحديث في مصر، أحمد هيكل ص٤٥.
- (١٤) مدرسة الأحياء والتراث دراسة في أثر الشعر العربي القديم على مدرسة الأحياء في مصر. د، إبراهيم السعافين، بيروت دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠١م - ١٩٨١م - ص١٦.
- (١٥) المصدر السابق ص ٣٥.
- (١٦) الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، د. عبدالعزيز حمودة، عالم المعرفة، ع٢٩٨، رمضان ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٨.
- (١٧) التجديد في منظور الأدب الإسلامي. د. وليد القصاب، مجلة الأدب الإسلامي، ع٤٨،

دراسات في الشاه الإسلامي

- ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥، ص ٤.
- (١٨) المرجع السابق، ص ٢٧٦.
- (١٩) المرايا المقعرة ٤٨٢.
- (٢٠) الثقافة العربية بين وهمي التراث والحداثة، د. محمد خالد الشباب، الحكمة، ع ٢٣٣ - ٢٣٤ مارس - إبريل ٢٠٠٥، ص ٤٥.
- (٢١) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، بغداد، مكتبة النهضة، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م. ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
- (٢٢) صدمة الحداثة. أدونيس، بيروت، دار العودة، ط ١٩٨٣. ٣، ص ١٥٦.
- (٢٣) الآثار الكاملة، محمد الماغوط، بيروت، دار العودة، ط ٢، ١٩٨١، ص ٢٦.
- (٢٤) طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، محمود مهدي الاستنبولي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ١ ن ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ص ١٩٦.
- (٢٥) المرايا المقعرة ١٦٥.
- (٢٦) إنما النصوص بالنيات، د. حميد سمير المغرب، مجلة الأدب الإسلامي، ع ٤٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ١٠.
- (٢٧) المرايا المحدبة، د. عبدالعزيز حمودة، الكويت، سلسلة عالم المعرفة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص ٢٥.
- (٢٨) د. حميد سمير، مرجع سابق، ص ١٠، ١.
- (٢٩) الخروج من التيه، ص ١١.
- (٣٠) الخروج من التيه، ص ١٥.
- (٣١) الغنائية في الشعر والحياة، هشام علي، الثقافة، ع ٢٢. ٤، مارس/إبريل ١٩٩٦، ص ٣٥.
- (٣٢) المرايا المقعرة ٢٤٨.
- (٣٣) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات الرد. د. عبد الملك سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٥٠، شعبان ١٤١٩، ديسمبر كانون الأول ١٩٩٨م، ص ٣٨.
- (٣٤) الشعرية العربية، أدونيس، بيروت، دار الآداب، الطبعة الأولى، ص ١٩٨٥، ص ٦.
- (٣٥) ظلام من الغرب، محمد الغزالي، دار الاعتصام، ط ١٣٩٩، ١٩٧٩، ص ٢٧٢.
- (٣٦) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ص ٢٣.
- (٣٧) د. حميد سمير، مرجع سابق، ص ١٠.
- (٣٨) في الأدب والنقد، د. محمد مندور، ص ١٠.
- (٣٩) تطور الفكر النقدي الأدبي في العراق، بتول قاسم، بغداد دار الشؤون الثقافية، ط ٢٠٠٤، ص ٤٥٢.
- (٤٠) نظريات رائدة في تراشا النقدي، هلال ناجي، من كتابه بحوث في النقد التراثي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٤. ص ١٦.
- (٤١) في نظرية الرواية، ص ٢١.

داسات في الشأن الإسلامي

- (٤٢) د. إبراهيم السعافين، مرجع سابق، ص ٨٦.
- (٤٣) في نظرية الرواية، ص ٣٧.
- (٤٤) في النقد الإسلامي المعاصر، د. عماد الدين خليل، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٤ - ١٩٨٤، ص ١١.
- (٤٥) مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، جابر عصفور، د.م، المركز العربي للثقافات والعلوم ١٩٨٢، ص ١١.
- (٤٦) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، ط ٧، كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢، ص ٣٧١.
- (٤٧) المرايا المحدبة، ص ٢٦.
- (٤٨) المرايا المحدبة، ص ٢٧.
- (٤٩) الخروج من التيه، ص ٩.
- (٥٠) اللغة الشعرية، تلازم التراث والمعاصرة، محمد رضا مبارك، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٣م، ص ٢٣٨، ٢٣٩.
- (٥١) أدب الردة، جمال سلطان، برمنجهام، مركز الدراسات الإسلامية، ص ٨١.
- (٥٢) اللغة الشعرية، محمد رضا مبارك، ص ٢٢١.
- (٥٣) د. إبراهيم السعافين، مرجع سابق، ص ٤٠.
- (٥٤) الأدب وفنونه، محمد مندور، ص ٧٤.
- (٥٥) دراسات في الأدب اليمني الحديث، محمد عبدالله محمد، القاهرة، (د.ط) ديسمبر ١٩٧١، ص ١٥.
- (٥٦) الشعر العراقي الحديث مراحل وتطور، د. جلال الخياط، بيروت، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص ٥٨.
- (٥٧) ديوان الزبيري، بيروت، دار العودة، ١٩٨٦م، ص ٦١.
- (٥٨) ديوان الزبيري، ص ٢٣٢، ٢٣٣.
- (٥٩) د. إبراهيم السعافين، مرجع سابق، ص ٥٥.
- (٦٠) الكلاسيكيون الروس والأدب العربي، د. محمد يونس، سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار آفاق عربية، ع ٢، بغداد، شباط ١٩٨٥، ص ١١٠.
- (٦١) د. محمد يونس، مرجع سابق ص ٧٦.
- (٦٢) د. إبراهيم السعافين، مرجع سابق، ص ٧٦.
- (٦٣) مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، بيروت دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، تموز ١٩٨٠، ص ٥.
- (٦٤) يوسف اليوسف، مرجع سابق، ص ٥.
- (٦٥) د. إبراهيم السعافين، مرجع سابق، ص ٢٥.

دراسات في الشأه الإسلامي

- (٦٦) د. إبراهيم السعافين، مرجع سابق، ص ٤١.
- (٦٧) مدرسة الإحياء والتراث، ص ٢٦.
- (٦٨) مقالات في الشعر الجاهلي، ص ٦.
- (٦٩) مقالات في الشعر الجاهلي، ص ٩.
- (٧٠) مقالات في الشعر الجاهلي، ص ٨.
- (٧١) مقالات في الشعر الجاهلي، ص ١٠.
- (٧٢) في النقد الإسلامي، ص ٤٦.
- (٧٣) حوار مع محي الدين بن إسماعيل أجراه وارد بدر السالم الموقف الثقافي ع ٣٦ تشرين الثاني - كانون الأول س ٩ ، ٢٠٠١ ، ص ١١١.
- (٧٤) اللغة الشعرية تلازم التراث والمعاصرة، ص ٢٥٢.
- (٧٥) الشعرية العربية، أدونيس، بيروت ، دار الآداب، ١٩٨٤ ص ٦٩.
- (٧٦) المرجع السابق، ص ٦٨.
- (٧٧) فصول في النقد الأدبي وتأريخه، دراسة وتطبيقات. د. ضياء الصديق - د. عباس محجوب، المنصورة. دار الوفاء، ط ١، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ ، ص ٢١.
- (٧٨) الأدب وفنونه، ص ٨٢.
- (٧٩) المرجع السابق، ص ٨٢.
- (٨٠) ديوان الرصافي، شرح وتعليق مصطفى علي، بغداد، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٥ م ٢٢٩/٢.
- (٨١) رحلة في الشعر اليميني قديمه وحديثه، عبدالله البردوني، دمشق، دار الفكر، الطبعة الخامسة، ١٩٩٨ م، ص ٢٨٠.
- (٨٢) المرايا المقعرة، ص ١٨٦.
- (٨٣) المرجع السابق، ص ٨٦.
- (٨٤) المرجع السابق، ١٨٤.
- (٨٥) الخروج من التيه، ص ١١.
- (٨٦) المرايا المقعرة، ص ١٣.
- (٨٧) العولة والثقافة شراكة أم مواجهة، عبدالكافي الرحبي، الحكمة، ع ٢٣٣ - ٢٣٤. ص ٧٥.
- (٨٨) سادة العالم الجدد (العولة - النهابون - المرتزقة - الفجر) ترجمة محمد زكريا اسماعيل، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربي، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٣٠.
- (٨٩) هدف الفرانكفونية الدفاع عن التعددية الثقافية، باسم بطرس بطرس غالي، مجلة السياسة الدولية ، لقاء العدد، إعداد سوسن حسين، ع ١٢٣، ١٩٩٨، ص ١٤٥٠.
- (٩٠) العولة والتحدّي الثقافي. د. باسم علي خريسان، بيروت، دار الفكر العربي، ط ١، ٢٠٠١، ص ٤٩، ٥٠.

دراسات في الشأن الإسلامي

- (٩١) كلمات ساخنة على أرض من نار، ماجد السامرائي، الأعلام، ع ١، كانون الثاني/ شباط - س ٣٤، ١٩٩٩م، ص ٣.
- (٩٢) آثار بن باديس، أعدها وصنفها وقدم لها عمار الطالبي، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٦٨، ٤٨٢/٦.
- (٩٣) المأزق الثقافي، عثمان سعدي، نصوص ودراسات أدبية، د. أحمد نعيم الكراعين ود. محمد محمود رحومة وأ. محمد سعيد إسبر، منشورات جامعة صنعاء، ط ١٩٨٦ - ١٩٨٧، ص ٩٩.
- (٩٤) قضايا أدبية عامة، آفاق جديدة في نظرية الأدب، إيمانويل فريس برنار مور اليس، ترجمة د. لطيف زيتون، عالم المعرفة، ع ٣٠٠، فبراير ٢٠٠٤م، ٦٧.
- (٩٥) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ٣٦٨.
- (٩٦) الشعرية العربية، ١٤.
- (٩٧) المرجع السابق، ص ٣٢.
- (٩٨) من الجديد إلى الأجد (قراءة في تجربة الشعراء الشباب د. عبدالعزيز المقالح، أصوات، ع ١، خريف ١٩٩٣).
- (٩٩) قضايا أدبية عامة، ص ٧٤.
- (١٠٠) الغنائية في الشعر والحياة، ص ٣١.
- (١٠١) دراسات نقدية معاصرة سلسلة المائة كتاب، ترجمة وتعليق: علي الحلبي، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦، ص ١٧.
- (١٠٢) دراسات نقدية معاصرة، ص ١٧.
- (١٠٣) المرجع السابقة، ص ١٩.
- (١٠٤) المرجع السابق، ص ١٩، ٢٠.
- (١٠٥) المرجع السابق، ص ٢٨.



دراسات في الشأن الإسلامي

أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر تجاه العلم

دراسة في مفهوم "العالم" و"العالمية"

د. فريد الأنصاري

جامعة السلطان المولى إسماعيل - مكناس، المغرب



دراسات في الشأن الإسلامي

أهمية العلم والعلماء

لا أحد يماري في أهمية العلم والعلماء في حركة تجديد الدين، ومركزية إسهامهم في التوجيه والتأطير؛ تعليماً وتزكيةً، وما فساد أمر الدعوة في كثير من المواطن إلا بسبب غياب العلماء عن مواقع صناعة قرارها وتوجيهها، والنصوص القرآنية والحديثية في ذلك متضافرة مستفيضة، ومن هنا فلا أحد يماري في أن "الأزمة" الحقيقية الواقعة في الشأن الديني والدعوي اليوم إنما هي أزمة "علم" بما لكلمة (علم) من دلالة قرآنية شاملة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

والقضية أن معاهد تكوين العلماء في الأمة اليوم قد أُحيطَ بها مُحَاصِرَةً؛ مادةً ومنهاجا؛ فعجزت أن تُخَرِّجَ "العالم الوارث"، بما يتخرج على قول النبي ﷺ: (إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ) (١). فصار لا مناص من التوجه بالمجهود الحقيقي لكل عالم وطالب علم صادق، يُقَدَّرُ حاجات الأمة اليوم، ويعي ظروفها المعاصرة بدقة؛ إلى طلب حقيقة المفهوم الشرعي لكلمة "علم" ومعنى "عالم"؛ للإحاطة بمقاصد الدلالة المرادة من استعمال هذا اللفظ في الكتاب والسنة، وما يترتب عليه من مهمات ووظائف وخصائص.

ذلك أن مفهوم "العالمية" قد اُكْتَفَتْهُ في الأزمنة الأخيرة غموض شديد؛ حتى انتسب إلى العلماء من ليس منهم! والحال أن وظيفة العالم عظمة القدر، جليلة الوطر، خطيرة الأثر؛ فكان حال الأذعياء معها كمن تطبب وهو جاهل! وقاعدة الفقه المشهورة تقضي بأن (مَنْ تَطَبَّبَ وَهُوَ جَاهِلٌ فَعَلَيْهِ الضَّمَانُ!) (الضمان!)

هذا؛ وقد ثبت بالنصوص الشرعية الكثيرة - المتواترة المعنى - أن تجديد الدين إنما يبدأ بتجديد "العلم"، فوظيفة النذارة إنما هي منوطة بأهل العلم والفقه في الدين، وذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ

داسات في الشاه الإسلامي

لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿التوبة: ١٢٢﴾. وعلى هذا يفهم معنى (أمة): تلك المأمورة بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، فبمقتضى الأمر (بالتفقه في الدين) - الوارد في آية (التوبة) قبل بصريح قصد النذارة - يكون مصطلح (أمة) هنا دالا على معنى (أمة من أهل العلم)؛ للصلة الجامعة بين السياقين في القصد والوظيفة. ولذلك قال سبحانه في موطن آخر: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨) وقرئت: (تعلمون الكتاب) - كما هو معلوم - وهو أوضح لما نحن فيه.

ومن هنا كانت وظيفة الأنبياء التربوية والدعوية قائمة على العلم والتعليم. وآية (وظائف النبوة) الواردة في أكثر من سياق من كتاب الله دالة على هذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤). ولهذا لم يكن عبثاً أن يقرر الرسول ذلك بما يشبه الحصر، في قوله ﷺ: (إن الله لم يبعثني معتاً ولا متعتاً؛ ولكن بعثني معلماً ميسراً!) (٢) ولم يكن عبثاً أيضاً أن جعل سرِّ وراثته في خصوص (العلماء)، مما جاء في سياق تقرير مركزية العلم، من حديثه الصحيح المليح الذي سيأتي تفصيله قريباً بحول الله، وبهذا كان (العلم) هو بدء كل شيء في الدين، وهو أساس كل حركة في الدعوة إليه؛ تربيةً وتركيةً.

وعليه؛ ف(المجدد) المذكور في قوله ﷺ: (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) (٣) لا يكون إلا عالماً؛ ولكن بما سيتحدد لمفهوم (العلم) من معنى شمولي بهذا البحث. إن شاء الله.. ومن هنا آل أمر تجديد الدين إلى أمر تجديد (العلم)، كما قررناه ابتداءً. وهذا لا

داسات في الشاه الإسلامي

يكون إلا بعد ضبط مفهومه، وتحديد غايته ووظيفته؛ للتحقق من معنى (الإرث النبوي) في الحديث العظيم، المشار إليه آنفاً، من قوله ﷺ: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ؛ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ! وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ! وَالْحَيَاتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ! وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ! وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ! وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ! فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ!..(٤)).

فأى إرث هذا وأي علم؟ ولن نذهب في التساؤل بعيداً؛ فلأبي هريرة - رضي الله عنه - إشارة لطيفة في هذا السياق، من مبادرة تربوية عجيبة ذات طابع تعليمي، قام بها هو شخصياً؛ لتوجيه جيل التابعين، وذلك (أنه - رضي الله عنه - مر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق! ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذلك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يُقسَّم وأنتم ههنا! ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد. فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم؛ حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة، فقد أتينا فدخلنا فلم نر فيه شيئاً يُقسَّم! فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى! رأينا قوماً يصلُّون، وقوماً يقرؤون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام. فقال لهم أبو هريرة: ويحكم! فذاك ميراث محمد ﷺ! (٥) فكيف هو ذلك الميراث على التفصيل؟ وكيف العلم به؟ وكيف يكون تنزيل حقائقه في زماننا هذا تربوياً ودعواً؟ وعلى أي منهاج؟ وعلى أي صفة يكون العلم به مجدداً للدين؟ ثم ما المقدر الكافي منه لإضفاء صفة (العالمية) على حامله؟ تلك هي القضية إذن، وبيانها بحول الله هو كما يلي:

ف"العالمية": «هي صفة كسبية في معرفة أحكام الشريعة أصولها وفروعها، يكون المتحقق بها "إماماً" في الدين تعليماً وتزكية».

داسات في الشاه الإسلامي

وَالْعَالِمُ: «هُوَ الْفَقِيهُ الْمُجْتَهِدُ، الرَّبَّانِيُّ الْحَكِيمُ، الَّذِي تَحَقَّقَ بِالْعِلْمِ وَصَارَ لَهُ كَالْوَصْفِ الْمَجْبُولِ عَلَيْهِ، وَفَهُمَ عَنِ اللَّهِ مُرَادُهُ؛ فَصَارَ يُرَبِّي بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ» (٦).

فبمقتضى هذين التعريفين لمفهوم "العالم" و"العالمية" لا يكون العالم عالمًا على الحقيقة إلا بتوفر ماهية "عالميته" على ثلاثة أركان، هي:

الأركان الثلاثة للعلم

١- المَلَكََةُ الْفَقْهِيَّةُ: وهي غاية مراحل الطلب، وزبدة مسيرة العلم، وهي: الصفة الكسبية التي بها يكون العالم فقيهاً في أحكام الشريعة أصولها وفروعها، ولا يكون له ذلك إلا إذا تحقق بالعلم وصار له كَالْوَصْفِ الْمَجْبُولِ عَلَيْهِ، وَفَهُمَ عَنِ اللَّهِ مُرَادُهُ، ومعناه أنه تفرغ لاكتساب العلم وطلبه، وقطع كل أشواط الطلب حتى تحقق بالصفة؛ تحققاً لم يعد له فيها من كلفة! أي أنه صار متمكناً من المنهجية العلمية في البحث والتفكير؛ حتى صار يمارس ذلك بنوع من التلقائية، وهي المعبر عنها عند الفقهاء "بالمَلَكََةُ". وإنما هي: خِبرَةٌ مَنَهْجِيَّةٌ في معالجة النصوص الشرعية فهماً واستنباطاً، وتحقيق مناطاتها تنزيلاً. وهو معنى "الفقه في الدين" بمعناه الكلي فهماً وتطبيقاً، كما ورد في حديث الرسول ﷺ: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ!) (٧).

وفي ذلك يقول أبو إسحاق الشاطبي - رحمه الله -، إنَّ الْعَالِمَ هُوَ الَّذِي: (يَتَحَقَّقُ بِالْمَعَانِي الشَّرْعِيَّةِ مَنْزِلَةً عَلَى الْخُصُوصِيَّاتِ الْفُرْعِيَّةِ، بِحَيْثُ لَا يَصُدُّهُ التَّبَحُّرُ فِي الْإِسْتِبْصَارِ بِطَرْفٍ؛ عَنِ التَّبَحُّرِ فِي الْإِسْتِبْصَارِ بِالطَّرْفِ الْآخَرِ. فَلَا هُوَ يَجْرِي عَلَى عُمُومٍ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دُونَ أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَى الْآخَرِ. ثُمَّ يَلْتَفِتُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى تَنْزُلِ مَا تَلَخَّصَ لَهُ عَلَى مَا يَلِيْقُ فِي أفعالِ الْمُكَلَّفِينَ، وَهَذِهِ الرُّتْبَةُ لَا خِلَافَ فِي صِحَّةِ الْاجْتِهَادِ مِنْ صَاحِبِهَا، وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ مُتَمَكِّنٌ فِيهَا، حَاكِمٌ غَيْرٌ مَقْهُورٌ فِيهَا، وَكُلُّ رُتْبَةٍ حَكَمَتْ عَلَى صَاحِبِهَا دَلَّتْ عَلَى عَدَمِ رُسُوخِهِ فِيهَا!

داسات في الشاه الإسلامي

وإن كانت محكوماً عليها تحت نظره وفهره؛ فهو صاحب التمكن والرسوخ. فهو الذي يستحق الانتصاب للاجتهاد، والتعرض للاستتباط، ويسمى صاحب هذه المرتبة: الرباني، والحكيم، والرأسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل؛ لأنه يربي بصغار العلم قبل كبارهم، ويوفي كل أحد حقه حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده، ومن خاصته أمران، أحدهما: أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص، والثاني: أنه ناظر في المالات قبل الجواب عن السؤالات! (٨)

ودون ذلك مراحل من طلب العلم، وشروط في منهجية اكتسابه.

٢- الربانية الإيمانية: وهي مقاربة الكمال في مسلك التخلق بأخلاق القرآن، والتحقق من صفتي التقوى والورع، ولا يكون له ذلك إلا بما حصل من العلم بالله والتعرف إليه تعالى، وبما ترقى في مدارج التزكية الإيمانية، ومجاهدة النفس، عبر منازل التعب ومراتب الإخلاص؛ حتى يخرج خروجاً كلياً عن داعية هواه، ويكون عبداً خالصاً لله، وهو مقتضى قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨). قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: (يعني ب"العلماء": الذين يخافون قدرته، فمن علم أنه عز وجل قدير؛ أيقن بمعاقبته على المعصية، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، قال: "الذين علموا أن الله على كل شيء قدير!" وقال الربيع بن أنس: "من لم يخش الله تعالى فليس بعالم!" وقال مجاهد: "إنما العالم من خشي الله عز وجل". وعن ابن مسعود: "كفى بخشية الله تعالى علماً، وبالاغترار جهلاً!" وقيل لسعد بن إبراهيم: "من أفاقه أهل المدينة؟ قال: أتقاهم لربه عز وجل". وعن مجاهد قال: "إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل!" (٩).

وأخرج الإمام أبو عمر بن عبد البر عن مالك بن أنس - رحمه الله -، قال: (إن حقا على من يطلب الحديث أن يكون له وقار، وسكينة وخشية، وأن يكون

دراسات في الشاهد الإسلامي

مُتَّبِعاً لِآثَارِ مَنْ مَضَى قَبْلَهُ. (١٠) وأخرج الدارمي في سننه عن سفيان الثوري قال: (كان يقال: "العلماء ثلاثة: عالمٌ بالله يخشى الله، ليس بعالمٍ بأمرٍ الله. وعالمٌ بالله، عالمٌ بأمرٍ الله يخشى الله؛ فذاك العالمُ الكاملُ! وعالمٌ بأمرٍ الله، ليس بعالمٍ بالله لا يخشى الله؛ فذلك العالمُ الفاجرُ!") (١١) ف"العالمُ بأمرٍ الله": هو العالمُ بأحكام الشريعة وفقهها، و"العالمُ بالله": هو الخاشعُ لله الخاضعُ له؛ بما تزود من حقائق الإيمان ومعرفة الله تعالى. والعالم الحق إنما هو من جمع بينهما، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله: (كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في بصره، وتخشع فيه، ولسانه، ويده، وصلاته، وزهده!) (١٢).

وللخطيب البغدادي - رحمه الله - وصية لطيفة في هذا الشأن نقتطف منها ما يلي، قال: (إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يعدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً، وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقتة! وجاهل أخذ الناس بجهله؛ لنظرهم إلى عبادته، والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضل الله بالرحمة، وتمم على عبده النعمة. فأما المدافعة والإهمال، وحب الهوينى والاسترسال، وإيثار الخفض والدعة، والميل مع الراحة والسعة؛ فإن خواتم هذه الخصال ذميمة، وعقباًها كريهة وخيمة! والعلم يراد للعمل، كما العمل يراد للنجاة.) (١٣).

وأخرج الإمام الذهبي عن ابن سهم الأنطاكي قال: سمعت ابن المبارك ينشد:

فَكَيْفَ قَرَّتْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْيُنُهُمْ؟	أَوْ اسْتَلَذُّوا لَدَيْدَ النَّوْمِ أَوْ هَجَعُوا؟
وَالنَّارُ ضَاحِيَةٌ لَا بُدَّ مَوْرِدِهَا!	وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَنْ يَنْجُو وَمَنْ يَقَعُ..!
وَوَطَّارَتِ الصُّحُفِ فِي الْأَيْدِي مَنْشُورَةٌ	فِيهَا السَّرَائِرُ وَالْجَبَابُرُ مُطَّلَعٌ..!
إِمَّا نَعِيمٌ وَعَيْشٌ لَا انْقِضَاءَ لَهُ	أَوْ الْجَحِيمُ؛ فَلَا تَبْقَى وَلَا تَدْعُ..!

داسات في الشأن الإسلامي

تَهْوِي بِسَاكِنِهَا طَوْرًا وَتَرْفَعُهُمْ إِذَا رَجَوْا مَخْرَجًا مِنْ غَمِّهَا قُمْعُوا!..
لِيَنْفَعَ الْعِلْمُ قَبْلَ الْمَوْتِ عَالِمَهُ قَدْ سَأَلَ قَوْمٌ بِهَا الرَّجْعِي فَمَا رَجَعُوا (١٤)

وعليه؛ فإن العالم إذا تجرد عن أهوائه تجردا كاملا؛ صار محلا للاقتداء في قوله وفعله وإقراره؛ بما نال من سرِّ الربَّانيَّة؛ وبما قام في الأمة من مقام النبوة؛ خلافةً في التربيَّة وإمامةً في الدين؛ وبيان ذلك هو مقتضى الركن الثالث، وهو:

٣- القيادة التَّربويَّة الاجتَماعيَّة: وهي وظيفة العالم الإصلاحية، وحَقُّ العِلْم المتعلق بدمته! وإنما منطلقها صريح القرآن الكريم، قال الله جَلَّ جلاله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢). وهي راجعة إلى واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بحق النذارة. وأما الأحاديث في هذا المعنى فأكثر من أن تُحصَى! (١٥) ويكيفك منها قوله ﷺ: (مَنْ سَأَلَ عَنِّ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ!) (١٦).

والقيادة التَّربويَّة الاجتَماعيَّة: هي الانتصابُ لتربيَّة الخلق بما آتاه الله من عِلْمٍ وصلاحٍ في نفسه؛ وبما اكتسب في طريق ذلك كُله من بصيرةٍ قلبية، وخبرةٍ دعوية، وصناعةٍ تربوية؛ حتى انقذت في قلبه الحكمة وهي: نور يقذفه الله في قلب العبد؛ يكون بمقتضاه مبصراً بنور الله! يرأعي المناسبات الزمانية والمكانية والحالية، في تنزيل الأحكام الشرعية والتوجيهات الدينية؛ مما يؤهله للإمامة العلمية والقيادة التربوية، قديراً على توجيه المجتمع بعلمه وخلقه، واستيعاب سائر الناس، على مختلف مشاربهم، وطبقاتهم، وشرائعهم، واختصاصاتهم. وذلك هو الحكيم حقاً، والرباني صدقاً، ولا يكون العالمُ عالماً إلا به! وقد صح عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: (الْمُتَّقُونَ سَادَةٌ، وَالْفُقَهَاءُ قَادَةٌ، وَمُجَالَسَتُهُمْ زِيَادَةٌ!) (١٧). فالقيادة العلمية راجعة إلى البصيرة الحاصلة للعالم؛ بما جمع في قلبه من نور العلم

دراسات في الشاهد الإسلامي

والحكمة؛ مما يؤهله لتربية الخلق، وإرشادهم. وهو ضرب من الإرث النبوي، لما بينه القرآن الكريم من وظائف النبوة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

فمن ورث هذه الوظائف بشروطها الشرعية فهو العالم حقاً. وفي ذلك يقول الشاطبي رحمه الله: (الْمُفْتِي قَائِمٌ فِي الْأُمَّةِ مَقَامَ النَّبِيِّ ﷺ!) (الموافقات: ٤-٢٤٤)؛ ومن هنا وجب أن يتخلق بأخلاق النبوة، وأن يجاهد نفسه في الله حتى تكون أصفى وأطهر، وتكون محلاً حقيقياً للاقتداء والتأسي العام. يقول أبو إسحاق في تنمة كلامه السابق: (المفتي مُخْبِرٌ عَنِ اللَّهِ كَالنَّبِيِّ، وَمَوْقِعٌ لِلشَّرِيعَةِ عَلَى أفعالِ الْمُكَلَّفِينَ بِحَسَبِ نَظَرِهِ كَالنَّبِيِّ، وَنَافِذٌ أَمْرُهُ فِي الْأُمَّةِ بِمَنْشُورِ الْخِلَافَةِ كَالنَّبِيِّ؛ وَلِذَلِكَ سُمُّوا: "أُولِي الْأَمْرِ"، وَقُرِئَتْ طَاعَتُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩) والأدلة على هذا المعنى كثيرة. فإذا ثبت هذا؛ انبنى عليه معنى آخر: وذلك أن الفتوى من المفتي تحصل من جهة القول والفعل والإقرار! (١٨) ثم يقول: (وإذا كان كذلك؛ وثبت للمفتي أنه قائم مقام النبي ونائب منابه؛ لزم من ذلك أن أفعاله محل للاقتداء أيضاً! فما قصد بها البيان والإعلام فظاهر، وما لم يقصد به ذلك فالحكم فيه كذلك أيضاً من وجهين، أحدهما: أنه وارت، وقد كان المورث قُدوةً بقوله وفعله مُطلقاً؛ فكذلك الوارث، والألم لم يكن وارثاً على الحقيقة! فلا بد من أن تنتصب أفعاله مقتدى بها كما انتصبت أقواله! والثاني: أن التأسي بالأفعال بالنسبة إلى من يعظم في الناس سر مَبْتُوثٌ في طباع البشر، لا يقدرُونَ على الإنفكاكِ عَنْهُ بِوَجْهِ وَلَا بِحَالٍ! (١٩).

فإذا جمع المرء هذه الخصال الثلاثة تحقّق بمفهوم العالمية صفةً حقيقيّةً، وصدق عليه وصف "العالم" المقصود في قول الرسول ﷺ: (فضل العالم على

داسات في الشأن الإسلامي

العابِدِ كفضلي على أدناكم! إنَّ الله - عز وجل - وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها! وحتى الحوت! ليصلُّونَ على مُعلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ! (٢٠) لأنه تحقَّق بالإرث النبوي العالِي، وكان من أهله! وإنما ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد: ٢١). هذا؛ والناظر في النصوص الشرعية، وفي شتى أصناف علوم الدين، وكذا تاريخ العلوم الإسلامية جملة، ثم تجارب العلماء المُجدِّدين عبر التاريخ، سواء فيما يتعلق ببرامج تكوينهم، أو مجمل تراثهم وإنتاجهم، وما أثار عنهم من أمور منهجية؛ يدرك أن أصول العلم المطلوب في حركة تجديد الدين إنما هي أربعة:

الأصول الأربعة للعلوم الشرعية

الأصل الأول: نصوص الوحي:

أ- القرآن الكريم:

وفي ذلك نظر عام وخاص:

فأما العام: فهو أنه لا بد لطالب العلم الشرعي من جمع القرآن الكريم كله؛ إذ هو أصل العلوم كلها، وهو أساس التزكية والتربية وما يحتاجه المؤمن في السلوك إلى ربه، وطلب معرفته تعالى.

هذا مع دوام التلاوة لكل القرآن، والتدبر لسوره وآياته، أثناء الليل وأطراف النهار؛ حتى ترسخ حقائقه العلمية والإيمانية في النفس، فتصفو البصيرة في صلتها بالله؛ فلا بركة في عالم لا يرى بنور الله، ثم إنه لا نهضة ولا يقظة لهذه الأمة إلا بتجديد صلتها بالقرآن، وبإعادة الحياة إلى إيمانها به؛ وذلك بإحداث (تداولية قرآنية) واسعة خلال كل شرائحها الاجتماعية والثقافية. وهو أمر لن ينهض به غير العلماء. فكيف إذا كان هؤلاء أبعد الناس عن القرآن تلاوةً وتزكيةً؟ تلك يقينية علمية دعوية فصلناها في مواطن شتى، مما يسر الله تقييده في مثل هذا السياق (٢١).

وأما النظر الخاص: فهو الدراسة المتخصصة لآيات الأحكام، ومناهج استنباط فقها وفوائدها العلمية؛ مع ما يقتضي ذلك من التسليح بما يلزم من العلوم اللغوية، والأصولية، وقواعد الاستدلال، كما سيأتي بيانه بعد بحول الله.

والانطلاق من آيات الأحكام في فقه الدين ضروري؛ لأنها تتضمن الصيغ الكلية للأحكام الشرعية. وهي صيغٌ مُكْتَنَزَةٌ بالمقاصد التشريعية. وإهمالها أو الاستغناء عنها بأحاديث الأحكام - كما يفعله بعضهم - موقِعٌ في التجزيء

داسات في الشاه الإسلامي

الفهني، وإغفال قصد الشارع من التشريع؛ مما يؤدي إلى السطحية في الفهم، والانحراف في الاستنباط. فلا بد إذن من استحضار فقه القرآن أولاً؛ بدراسة آيات أحكامه.

ب- السنة النبوية:

وفيهما أيضاً نظران: عام وخاص

فأما العام: فهو التفقه في مجمل سنة المصطفى ﷺ، ومداومة النظر في كتبها؛ حتى يكون الطالب على علم بأحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم إجمالاً، بما هو مبلغ عن الله، ومبين لشريعته، ذلك أن الجهل بالسنة من أهم الأسباب المؤدية إلى التقليد، والزيغ عن جادة الصواب في أمور العبادات، والارتقاء في أحضان البدع والخرافات. فالقدرة على استحضار النصوص الشرعية - من الكتاب والسنة - في أمور الدين هو أول الخطوات في طريق العلم والعمل، فإنما الأمة الإسلامية حضارة نص!

وأما الخاص: فهو التضلع من أحاديث الأحكام وفقهها، وما يلزم لها من قواعد وعلوم، ذلك أن أحاديث الأحكام هي المفتاح الحقيقي لفقه آيات الأحكام، فالقرآن إنما جاء في الغالب بكليات الأحكام الشرعية بينما السنة جاءت بتفاصيلها وبيان هيئاتها، ولا مناص في الفقه من الجمع بين الكليات والجزئيات؛ لأن الاقتصار على إحدهما يؤدي إلى خلل في الفهم وانحراف في الاستنباط، فالكلي يتضمن المقاصد التشريعية التي بها يستتير المجتهد لضبط المراد؛ فلا تشغله تدقيقاته الجزئية في المساقات التفصيلية عن قصد الشارع الكلي، والجزئي يضمن له معرفة تفاصيل التنزيل وكيفيات التطبيق، ولا وصول إلى حقيقة الشريعة إلا بهما، ومن هنا فلا مناص من استحضار نصوص الكتاب والسنة معاً. فلا يجوز أن يكون أحدهما شاغلاً لطالب العلم الشرعي عن الآخر، وإلا اضطرب ميزان الفهم بين يديه وهو لا يدري. فيظن أنه قد علم وما هو على الحقيقة بعالم!

دراسات في الشأن الإسلامي

الأصل الثاني: العلوم الشرعية

والمقصود بالعلوم الشرعية: العلوم الإسلامية التي انطلقت تاريخياً منذ نشأتها من نصوص الشريعة: الكتاب والسنة، ودارت حول فلكها غايةً وخدمةً؛ بقصد تعويد مناهج الفهم والتطبيق لأحكامها، وهي ثلاثة أصناف: علوم القرآن والسنة، وعلوم الفقه وأصوله، وعلم التوحيد والتزكية.

أما الصنف الأول: أعني "علوم القرآن والسنة" فهو قسمان:

أ- علوم القرآن:

هي العلوم التي نشأت لخدمة القرآن الكريم وتيسير فهمه على الإجمال. وقد ألف العلماء في ذلك الكثير. ويدخل في ذلك المصنفات التي سميت بعلوم القرآن كالإتقان في علوم القرآن للسيوطي والبرهان في علوم القرآن للزركشي، وكتب غريب القرآن، وكتب معاني القرآن وما في معناها، كما يدخل في ذلك عندي كل كتب التفسير كتفسير الطبري وغيره؛ بما هي كتب غايتها خدمة القرآن فهما وتفسيراً، وإنما هي الوجه التطبيقي لكتب علوم القرآن ذات المنحى النظري.

فطالب العالمية لا بد له من الإحاطة بمجمل مقاصد هذه العلوم؛ بما هي قواعد تنظم مناهج الفهم للقرآن. والهدف التعليمي المتوجه إليه فيها ليس تفاصيلها، فهذه سيجدها في أي مكان، وسيجدها تُعَرَّضُ ضمن علوم شتى؛ لتداخل العلوم الإسلامية فيما بينها، كما هو الشأن في علم أصول الفقه مثلاً، بالنسبة إلى علوم القرآن. وإنما المقصود أن يضبط "منهج التعويد" المبتوث في مصنفات هذا العلم، الذي يعرضه أهله باعتباره ميزان الفهم عن الله. هذا هو الأساس، وذلك هو اللب من علوم القرآن والتفسير.

ب - علوم السنة:

وهي القسم الثاني من الصنف الأول. والمقصود بها هنا العلوم التي نشأت

داسات في الشأن الإسلامي

لخدمة السنة النبوية رواية ودراية.

وطالبُ الْعَالِمِيَّةِ يحتاج إلى معرفة صحيح السنة من ضعيفها، وثابتها من موضوعها؛ حتى لا يكون مثل عوام "المتفقهين" ممن لا دراية لهم بهذه الصناعة ولا اهتمام؛ يوردون من الأقوال الشاذة في الفقه والعبادة ما لا أصل له، ويستشهدون لذلك بما لم يصح عن رسول الله ﷺ، أو ربما بما كُذِبَ عليه!

وإذن؛ فلا بد للطالب من التمكن من علوم النقد الحديثي، سواءً في ذلك ما تعلق بنقد المتن أو نقد السند، والمعرفة بمراتب الجرح والتعديل وقواعدهما، ومراتب الرواية وما يثبت من ذلك وما يرد، وأحوال الأسانيد وعللها الخفية، مما يقدر في صحة السند، ويخرم حجيته. ثم ما يُرَقِّي الحديثَ إلى درجة أعلى وما لا يستقل بذلك! كارتقاء الضعيف إلى درجة الحسن، والحسن إلى درجة الصحيح.

وأقل ما يجب على طالب الْعَالِمِيَّةِ أن يتقنه من ذلك القدرة على ضبط مصطلحات القوم وقواعدهم؛ حتى يتمكن من الترجيح بين أحكامهم عند الاختلاف. ذلك أن علم الحديث قد أشبع درساً!

وأحسب أن الواجهة العلمية اليوم - بما يناسب حاجة الأمة الملحة في هذه الأزمنة - إنما هي طلب "الفقه" لا بمعناه التقليدي الاستظهارى، ولكن بمعناه الكلي الصناعي، أي بما هو صناعةٌ ومَلَكَةٌ يجب تحصيلها. وعلوم الحديث المنهجية إنما هي وسائل لهذه الغاية. فجمهور الطلبة يجب أن يتوجه لهذه الغاية. وإنما "العالمُ" من يفقه عن الله ورسوله.

الصنف الثاني: علم الفقه وأصوله

وإنما هو علم "الفقه". وما ذكّرنا لمصطلح "الأصول" مقرونا به؛ إلا جريا على عادة الفقهاء في التصنيف، وإلّا فلا "فقه" - على الحقيقة - بغير

دراسات في الشأه الإسلامى

"أصول". فذكر الأول متضمن للثانى ضرورة. ولذلك قال الباجى فى وصيته: (ثم يقرأ أصول الفقه؛ فيتفقه فى الكتاب والسنة، ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل من المسائل عن العلماء، ويَدْرَبُ فى طرق النظر، وتصحيح الأدلة والحجج، فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا!) (٢٢) فقلوه: (ثم يقرأ أصول الفقه؛ فيتفقه فى الكتاب والسنة!) دالٌّ على أن أصول الفقه - بصورته العلمية الحقيقية - هو عين التفقه فى الكتاب والسنة، أى: أن الفقه بمعناه المصدرى، بما هو حركة ذهنية استنباطية؛ إنما هو عملية أصولية محضة! وأما الفقه بمعناه الاسمى أى: بما هو أحكام شرعية مستنبطة؛ فذلك نتيجة الفقه بمعناه الأول، والأول هو "الفقه" على الحقيقة، وهو لا ينفك عن أصوله، إلا فى مناهج المُدرِّسين والمعلِّمين لقضاياها، لا فى نفس الأمر.

وأما ما جرت العادة بتسميته بـ"الفقه" من كتب الفروع؛ فليس بفقه على الحقيقة، وإنما هو "نقول فقهية". والعالمُ بها وحدها فقط ليس بـ"فقيه"، وإنما هو "ناقل للفقه". وإنما الفقيه: "مَنْ يفقه الأحكام الشرعية عن الله ورسوله". ولا يكون كذلك حتى يكون خبيراً بمناهج الاستنباط، قديراً على إيرادها مواردَها العلمية، فهماً، واستدلالاً، وتزويلاً. وذلك هو أصول الفقه بصورة مطبقة. فالفقه والأصول وجهان لعملة واحدة. وإنما أفسد العلم فصلُهما؛ حتى صار مَنْ يسمون بـ"الفقهاء" ممن لا دراية لهم بالأصول؛ جامدين على مقتضى المنقول من كتب المتأخرين، والمختصرات والمنظومات المُنْتَبِئَةُ لا يستطيع عنها فكاًكاً! فاحتلت هذه فى ذهنه منزلة الوحي من حيث لا يدري! وما بعد ذلك من فساد فى الفهم عن الله. وَمَنْ قَصَدَ تجديد الدين بالعلم فأول العملِ أمامه؛ إنما هو تجديد مفهوم "الفقه".

وأما الاشتغال بعلم "الأصول" معزولاً عن "الفقه" فهو ضرب من الخوض النظرى الذى يجعل صاحبه كـ"علماء الكلام" يفنون أعمارهم فى بحث قضايا "الإيمان" ولا يحصلون من الإيمان - على مستوى العمل - إلا قليلاً! وكفى

داسات في الشأن الإسلامي

بذلك مصيبة في الدين والعلم!

كَأَنِّي فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظُّمَاءُ وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولٌ!

وإنما الفقه: القدرة المنهجية على استتباط الحكم الشرعي، بقواعده وضوابطه الاستدلالية؛ فهماً وتنزيلاً. وإلا فلا فقه، وهذا لا يتأتى إلا بمعالجة النصوص الشرعية من آيات الأحكام وأحاديثها، والنظر في النوازل الفقهية وأحوالها، ومعرفة مذاهب الفقهاء المجتهدين، ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، وأسباب هذا وذاك، من الأدلة والفهوم، ومعرفة قواعد النظر الفقهي، مما استتبطه الفقهاء عبر التاريخ.

وإنما القصد من هذا التوجيه هو أن يعي طالبُ العالَمِيَّةِ أن التفقه هو الجمع بين الأمرين. فإذا اضطر إلى دراسة الفقه معزولاً عن أدلته ومناهج استتباطه، أو دراسة الأصول بما هي قواعد نظرية مجردة عن حقائقها الفقهية؛ نظراً لورود كثير من المصنفات على هذه الشاكلة، حتى صارت حقيقة تراثية لا انفكاك عنها؛ فإنه لا يجوز أن يغيب عن ذهنه أن الغاية إنما هي القدرة على توظيف هذه للوصول إلى تلك، أي التمكن من تخريج الأحكام الشرعية على موارد المناهج الأصولية، وذلك هو الفقه، فلا يجوز إذن؛ أن يشغله شيء من ذلك عن شيء، أو أن يتقن صنفاً منها على حساب الآخر. وإلا كان كالذي يبصر بعين واحدة: يرى؛ ولكنه لا يميز المسافات والمقادير!

هذا؛ وقد نبتت نابتةً في هذا العصر العصيب، من أصحاب المذاهب الحرفانية، تُبدعُ الاشتغال بعلم أصول الفقه، وتستهن بمصنفات الفقه وكتب الفروع؛ بدعوى الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن الغناء إنما هو فيهما! دون التمييز بين الطبيعة المصدرية والطبيعة المنهجية! فتجرات على النصوص الشرعية، بغير الرجوع إلى قواعد الفقه ومناهج الاستدلال الأصولية؛ فأحدثت بذلك فتناً وفوضى في مجال الدين؛ فهماً وتنزيلاً!

دراسات في الشأه الإسلامى

ولقد كنتُ أنظر إلى مشكلات الحياة الدعوية للحركات الإسلامية والتيارات الدعوية المختلفة - بما هي ضرب من "الفقه" للدين - وما يعترىها من اختلافات وتناقضات؛ أنها بالأساس قضية منهج، لكن الأخطر في هذا المجال أن التدافع فيه داخليا وخارجيا كان قائما على أسلحة الأحكام الشرعية من إيجاب وتحريم، وما يترتب على ذلك من مواقف خطيرة، قد تصل إلى حد القطيعة والتكفير وسفك الدماء!

كان لابد من التفكير في أصل القضية وأساس الإشكال!

عمَّ يصدر التحليل والتحريم إذن؟ وكيف يولد الحكم الشرعي ويتحقق مناطه؟ عند هؤلاء وأولئك؟

لقد بدا لي واضحا بعد نوع مراقبة ومراس في المجال الدعوي العام؛ أن كثيرا ممن يتصدر للفتوى وقيادة الجماهير لا يصدر عن منهج في فقهه للنص الشرعي أصلا! وأن منهم من يصدر عن منهج لكنه لا وعي له به البتة! وإنما هو فيه مقلد من المقلدين! وتلك هي أم الطامات وأساس المشكلات!

وقد علمتُ لدى أهل العلم بهذا الشأن أن منهج التفكير الفقهي مضمن في الدرس الأصولي مما حوته مصنفات علم أصول الفقه، بيد أن دراسة هذا العلم قد هجرت من لدن كثير ممن تعاطى للإفتاء والتوجيه الديني!

ثم إنه تبين لنا في مسيرتنا العلمية المتواضعة في صحبة هذا العلم، بحثا وتدرسا؛ أن كثيرا من المصنفات والدراسات المنجزة فيه إنما هي دراسات نظرية، تختلف بين هدفين في الغالب: الأول: يرجع إلى تحقيق إشكالات أكاديمية محضة على مستوى التأصيل. والثاني: يرجع إلى قصد العرض المدرسي التعليمي لقضايا هذا العلم ومسائله، كما هي طبيعة أغلب المصنفات الحديثة فيه.

وقد جرت في هذه وتلك أحكام تلقاها الناس تقليدا، كأنها من المسلمات

داسات في الشاه الإسلامي

والبدهييات في هذا الشأن. بيد أنها ليست كذلك على مستوى التدقيق والتحقيق، لو أتاحت المراجعة لأي عالم متحقق بهذه الصناعة. فما كان كثير منها ليستساغ إذا ما حاول الناظر تنزيلها على واقع الدرس الأصولي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى لم يكن كثير من هذه الكتب يعرض المنهجية الأصولية في صورتها العلمية التي تكسب الطالب والباحث فعلاً مَلَكَ الصنعة الفقهية. وهؤلاء الناس في مجال التدافع الديني بالمجتمع يعيشون الفوضى! وعليه؛ فلا بد لطالب العَالِمِيَّة من دراسة علم أصول الفقه دراسة متقنة جداً، وإنما الإتقان في هذا السياق: القدرة على استيعاب قواعده ومناهجه التطبيقية في سياق تصوراته الكلية النظرية! ولا يكون ذلك - بعد دراسة كتبه النظرية المعروفة - إلا بدراسة كتب آيات الأحكام وأحاديثها، وذلك ما أسميه بـ"أصول الفقه المطبَّق". وهو شيء لن تجده - على كماله - إلا ضمن ذلك النوع من الكتب والمصنفات، مع كتب علم الخلاف العالي.

ومما يساعد على إتقان أصول الفقه - بما ذكرنا لمفهوم "الإتقان" من معنى - دراسة القواعد الفقهية والأصولية، التي بها يتمكن الطالب من تقريب النظريات الأصولية من المقتضيات الواقعية التطبيقية، كما يتمكن من نظم الجزئيات الفقهية ضمن الكليات الأصولية، وكذا تفريعها عنها. وتلك والله درجة الإتقان العالي في الفقه. ولا يكون صاحب هذه المنزلة إلا مجتهداً بما للكلمة من معنى! وذلك هو "الفقيه" حقاً.

ثم لا بد من دراسة ملخصات المذاهب الفقهية؛ لأنها تشكل الخلفية الثقافية للتفكير الشعبي العام، في مجال الدين والتدين. وهذا المعنى من الدقة بمكان! بحيث لا يدركه إلا أهل الخبرة بطبيعة العمران البشري، والاجتماع الإنساني. ولا يلزم من ذلك أن يكون الناس كلهم علماء بالفقه، كلاً! وإنما القصد أن الفقه المتداول على مر العصور في مجتمع ما؛ يسهم

دراسات في الشأن الإسلامي

بصورة كبيرة جداً في تكوين النفسية الاجتماعية لذلك المجتمع! ومن أخطأ فهُمَ هذه الحقيقة أخطأ منهج التعامل مع الناس في تلك البيئة، ومن هنا فشل بعض الدعاة والمصلحين في تنزيل برامجهم الدعوية. فتأمل!

ثم بعد هذا وذاك؛ لا بد من دراسة علم الخلاف العالي أو ما يسمى بالفقه المقارن، بما هو يفتح بصيرة الطالب على مختلف الفهوم والاستدلالات العلمية، ويوسع من أفق نظره الاجتهادي؛ فينجو من التعصب المذهبي والانغلاق القاتل! وهو معنى قول الباجي الوارد قَبْلُ: (ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل من المسائل عن العلماء، وَيَدْرَبُ فِي طَرَقِ النَّظَرِ، وَتَصْحِيحِ الْأَدْلَةِ وَالْحُجْجِ. فَهَذِهِ الْغَايَةُ الْقَصْوَى وَالدرْجَةُ الْعُلْيَا!)

ومما يلزم لتعميق التكوين الفقهي لدى الطالب دراسة "علم النوازل الفقهية"؛ إذ هو علم يُدْرَبُ طَالِبَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَنَهْجِيَّةِ تَكْيِيفِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ؛ عَلَى حَسَبِ ظُرُوفِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. وَمِنْ نَقْصِهِ هَذَا فَقَدْ فَقَدَ الْمِيزَانَ الَّذِي بِهِ يَخَاطَبُ النَّاسَ بِالشَّرِيعَةِ؛ فَرَبِمَا صَارَ إِلَى عَكْسِ مَقَاصِدِهَا فِي الْخَلْقِ؛ فَضَلَّ وَأَضَلَّ!

كل هذا وما في معناه ضروري لطالب العالمية؛ قصد التمكن من المنهجية الأصولية والتحقق بالملكة الفقهية. وبهذا فقط يكون المرء "فقيهاً" أو لا يكون! وما وَصَفُ "العالمية" إذن؟ وما حقيقتها إذا كان صاحبها غير مُتَحَلِّ بِهَذِهِ الْحَلِيَّةِ الْمَنَهْجِيَّةِ الْعَالِيَّةِ؟ فَإِذَنْ تَكُونُ الصِّفَةُ عَلَى غَيْرِ مَوْصُوفٍ، وَيَكُونُ الْأَسْمَاءُ عَلَى غَيْرِ مَسْمُومٍ! فَإِنَّمَا "العالمية" في الحقيقة: "الفقه". نعم "الفقه" بمعناه الشمولي الكلي! وَلَا فِقْهَ بغير منهج، أي بغير قواعد وأصول.

ومن هنا كانت دراسة الفقه بأصوله ضرورة من الضرورات المنهجية والعلمية على السواء! والذي يرقب واقع الحركات الإسلامية والدعوات الدينية في هذا العصر، وما تعانيه من أزمات في التواصل والتدابير؛ يدرك أنها في غالب أمرها تعاني "أزمة فقه"! الفقه بما هو راجع إلى منهج في فهم

داسات في الشأن الإسلامي

النصوص الشرعية؛ ذلك أن اضطراب الفقه لدى أصحابه يدل على اضطراب المنهج عندهم واختلاله بالكلية! وتلك هي الفوضى الفكرية.

والدارس لعلم المناهج في مجال البحث العلمي؛ يدرك أن "فقه النصوص الشرعية" يساوي معنى "المنهج" في التعامل مع تلك النصوص: كتابا وسنة. وأن من لا فقه له - بمعنى لا ملكة فقهية له - هو بمثابة من لا منهج له في الفهم عن الله ورسوله! ولو كان يحفظ كل نصوص الكتاب والسنة! وعلى هذا يتخرج قول الرسول ﷺ: (رُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهِ! وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ!) (٢٣).

فمن أجل هذا وذاك؛ قلنا: إنه من الضروري أن يكون علم الفقه بخلفيته الأصولية - على ما شرحناه - هو العمود الفقري لبرنامج طالب العالمية، إذ به يبصر مقاصد النصوص، ومآلات الأحكام، وإلا كان في فقه الدين كحاطب ليل، لا يدري عما وقعت يده! وأي شيء بعد ذلك من فساد؟ وإنما الموفق من وفقه الله، والله المستعان!

الصنف الثالث: علم التوحيد والتزكية

علم التوحيد والتزكية: هو الصنف الثالث المقصود من التكوين العلمي لطالب العالمية. وهو في حقيقته غاية الغايات ونهاية المآلات في الدين. وإغفاله أو إهماله مهلكة كبرى في العلم والعمل!

إلا أن من أخطر المشكلات التي واجهها الناس اليوم - على المستوى المنهجي - في هذا الأمر التربوي الخطير؛ مشكلة "المفهوم"، أعني مفهوم: "التوحيد"؛ بما هو "تزكية" للنفس، لا بما هو مقولات كلامية وحسب! إذ إن "التوحيد" و"التزكية" إنما هما وجهان لعملة واحدة، وتجليان لحقيقة واحدة. وعدم فهم ذلك أدى ببعض الناس إلى كثير من الخلل في التعامل مع مفاهيم العقيدة الإسلامية.

ذلك أن العلماء قسموا حقائق التوحيد - بناءً على استقراء نصوص

دراسات في الشأه الإسلامى

الكتاب والسنة - إلى قسمين: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

فمدار توحيد الربوبية: هو التعريف بالله - جل جلاله - رباً للعالمين، وما ينبغي له وما لا ينبغي من أسماء وصفات، مما يتعلق بشؤون ربوبيته تعالى.

ومدار توحيد الألوهية: هو تفريده تعالى - وحده دون سواه - بالتوجه إليه بالطاعات والعبادات؛ خوفاً ورجاءً. وهذا ما ضمَّنه القرآن في مفهوم (الإخلاص) بصيغ شتى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ. أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٢-٣). كما ضمَّنه القسمين المذكورين معا في شعار التوحيد: (لا إله إلا الله). هذا مجمل ما قرروه في كتب العقائد.

إلا أن الإشكال هو في المنهج الذي عرضت به هذه المعارف والعلوم. حيث غلب على الكتب التي درست التوحيد اعتماد المنهج الكلامي الجدلي. حتى ولو كانت على منهج العقيدة السلفية؛ إلا قليلاً؛ وذلك نظراً للجدل التاريخي الذي أحاط بموضوع العقائد، وما تخلله من فرقٍ ومذهبيات، تتأرجح بين الغلو والاعتدال. وتلك قضية أخرى.

لكن نتج عن هذا كله مشكل على المستوى المنهجي، ألا وهو غياب المقاصد التربوية" من أغلب كتب العقائد! حيث فصلت في بيان القسمين المذكورين معاً؛ لكن بمنهج نظري جدلي، لا بمنهج تربوي، قائم على "قصد تزكية الأنفس" الذي هو غاية تعريف العباد بالله رباً وإلهاً؛ وأهمل هذا المعنى العظيم؛ لتتولاه كتب أخرى وفنون أخرى، وصفت أحياناً بكتب الرفاق، وأخرى بكتب الزهد، أو كتب السلوك، أو كتب التصوف، وبغض النظر عن مشكلة التسمية وما تثيره من جدل؛ فإن غاية ما سلم من هذه المصنفات إنما هو تزكية الأنفس؛ لتتحقق من مفهوم (الإخلاص). وذلك هو غاية التوحيد

داسات في الشاه الإسلامي

جملة، وأساس توحيد الألوهية خاصة، والناظر فيما صفا من هذه الكتب والمصنفات إنما يجدها تدور حول حقائق الإيمان بهذا المعنى.

ومن هنا لم تكن "التزكية" غير التربية على "التوحيد" بمعناه القرآني الشامل، وهو غاية وظائف الرسالة النبوية المذكورة في غير ما آية من كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وعليه؛ فقد وجب أن نستعيد المنهج القرآني في عرض المادة التوحيدية، أعني منهج التربية والتزكية؛ للبلوغ بالتوحيد إلى ثمرته المرجوة، ألا وهي: الإخلاص. ولا يكون ذلك إلا بعلم وعمل. فالعلم: إنما هو التلقي الصحيح والفهم السليم عن الله ورسوله؛ بناء على ما جاء في القرآن الكريم وما صح في السنة النبوية، من أمور العقائد، وقواعد الإيمان. ولا عمل إلا بعلم. والتنكب عن سواء هذا المنهج الأصيل أدى ببعض أبناء العمل الإسلامي المعاصر، وبعض القيادات الإسلامية؛ إلى الارتداء في مستنقع البدع العقديّة، والانحرافات التعبدية، وإلى التيه في ظلمات الضلال والخرافات! والسبب في ذلك إهمال أصل العلم في طريق معرفة الله تعالى! وليس عبثاً أن ترجم الإمام البخاري في "كتاب العلم" - من صحيحه - للمقولة الجامعة المانعة في الدين، ألا وهي: (بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ!) وما هلكت الأمة إلا بعد انحرافها عن هذا الأصل المتين! وصدق رسول الله ﷺ فيما وصف به حال المسلمين زمن الفتن حيث قال عليه الصلاة والسلام: (إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً؛ اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا...!) (٢٤) ولذلك كانت أولى خطوات تجديد الدين إنما هي تجديد العلم بالله!

دراسات في الشأه الإسلامي

وأما العمل: فإنما هو مجاهدة النفس في الله - في ضوء ذلك العلم - حتى تسلك بالعبد مدارج السالكين، ومنازل السائرين إلى رب العالمين، عبر التخلق بأخلاق الخشية والورع، والتخلي بتباريح الشوق والمحبة، والتخلي عن كل ما يخرم أدبها مع الله، ويثلم إخلاصها له وحده دون سواه؛ فيتحقق لها التوحيد خُلُقاً حَيّاً ينطق به العمل؛ لا مقولاتٍ مَيّتةً، يُرَمَى بها في مجالس التناظر والجدل!

والعلم الكفيل بتحقيق ذلك للنفس إنما هو علم التزكية؛ إذ هو الجانب التطبيقي للتوحيد، والترجمان العملي للإخلاص، ولكن ههنا إشكال: فنظراً لاضطراب المفاهيم والتصورات؛ وقف الناس إزاء هذا العلم بين إفراط وتفريط، فبما هو علمٌ لأَبَسُهُ - من حيث التسمية - مصطلح آخر هو "التصوف"؛ وبما كان حول هذا المصطلح من جدل في تاريخ الأمة، امتد إلى زماننا هذا؛ لأسباب شتى، ليس هذا محل ذكرها (٢٥)؛ فقد ضل في طريقه فريقان: فريق أنكر كل ما فيه؛ فأنكر كثيراً من المعلوم من الدين بالضرورة من حيث لا يدري! وفريق أخذ بكل ما فيه؛ فأخذ بكثير من الباطل والخرافات! وإنما الحق أخذ التربية بقواعد العلم ومناهجه. ولا يكون ذلك إلا بالتأصيل العلمي لكل مقولات التصوف وقواعده. وهذا أمر صنعه غير واحد من العلماء الريانيين؛ فأصاب بذلك خيراً كثيراً، واهتدى بكتبه وعلى يديه خلقٌ كثير، منهم الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي، والإمام أبو إسحاق الشاطبي الأندلسي، والشيخ أحمد زروق المالكي المغربي، والإمام ابن القيم الحنبلي، وغيرهم كثير.

ولا خير في الغلو كيفما كان! يستوي في ذلك أهل التصوف وأعداؤه! ورحم الله الإمام ابن القيم العالم الرياني المحقق، والناقد لمذاهب المتصوفة، البصير بمثالبها وبركاتها.. قال في هذا كلمات حقها أن تكتب بماء الذهب: (هذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس!)

داسات في الشأن الإسلامي

إحداهما: حُجِبَتْ بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأسأؤوا الظن بهم مطلقاً! وهذا عدوان وإسراف! فلو كان كل من أخطأ، أو غلط؛ تُرِكَ جملة، وأُهدِرَت محاسنُه؛ لفسدت العلوم والصناعات والحكَم، وتعطلت معالمها!

والطائفة الثانية: حُجِبُوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملتهم عن رؤية شطحاتهم، ونقصها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا حكم القبول والانتصار لها. واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: - وهم أهل الإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته! (٢٦).

والأساس من هذا كله فيما نحن فيه أن كثيراً من طلبة العلوم الشرعية بما أعرضوا عن التربية الروحية تخليةً وتحليةً؛ ساءت أخلاقهم، وفسدت نياتهم، وانحرفت أعمالهم؛ فما صلحوا لأنفسهم ولا لغيرهم! وإنما الغاية من طلب العلم نيل رضى الله جل علاه، فإذا أخطأ العبد فقد خاب وخسر! وكفى بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨) ضابطاً لقصد الشارع من العلم والتعلم. وقد فسر أهل العلم (العلماء) هنا بأنهم "العلماء بالله وبأمره".

فما عالمٌ ليست له خلواتٌ بجوف الليل الآخر، يتبتل فيها إلى الله ويدعوه رَغْباً ورَهْباً؟ وما عالمٌ ليست له أوقاتٌ مع ربه، يذْكُرُه فيها ويستغفره ويسبحه؟ وما عالمٌ ليست له أشواقٌ ولا أذواقٌ؟ ولا حياةٌ لوجدانه بمسالك المحبة الإيمانية، ولا معرفةٌ لقلبه بمدارج الخوف والرجاء؟ ماذا يرجى من ورائه لهذه الأمة؟ وماذا يمكن أن يفيد في تربية الخلق وفاقد الشيء لا يعطيه!؟ والعالم الذي ليس له عمقٌ روحي لا يمكن أن يفيد الأمة بشيء؛

دراسات في الشأه الإسلامى

دعوةً وتربيةً؛ إذ الدعوة إلى الله إنما هي قائمة على سقى ذوب الروح؛ للعطشى والمحرومين، ونثر مواجيد الرحمة والمحبة؛ للحيارى والمحزونين. فأنى لمن تخشَب قلبه أن يجد ذلك؟ بله أن يعطيه للناس! ألا وإن ذلك إنما يتأتى ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧) ذلك هو الحق، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ!﴾ (يونس: ٣٢). وإنما الموفق من وفقه الله.

فلا بد لطالب العالمية إذن من حمل النفس على مقتضى الأدب، في المعاملة مع الله والمعاملة مع خلقه. وإلا كان من الهالكين! وعليه؛ فليتخير لنفسه مقررأ دراسياً، تحت رعاية شيخ ربانى من أهل العلم - حاشأ الجهلة والدجاجلة - مقررأ ذا طابع تربوى، يجمع بين النظر والتطبيق على المستوى المنهجى، فيسلكه بقصد تهذيب النفس، وتخليصها من شوائب الهوى؛ عسى أن يخلص علمه وعمله لله الواحد القهار؛ فيبارك له في شأنه كله بإذن الله؛ ويجري الله على يديه خيراً كثيراً.

وأما الكتب التي عنيت بالتربية والتزكية فهي كتب التربية الروحية، المصنفة في علم الزهد والسلوك، مما ألف العدول الثقات من العلماء الربانيين المشهود لهم بالصلاح، الذين تخصصوا في معرفة أحوال النفس وتقلباتها، وتتبعوا مداخل الأهواء فيها، ومسارب الشيطان إليها، فكشفوها للأجيال وبينوا أخطارها، وتلك خاصة لا تكون إلا لعالم بالله، يرى بنور الله.

وأما الخوف من المقولات الزائفة والشطحات الباطلة؛ فإن لنا قواطع القرآن والسنة، من الكليات العقدية، والقواعد الشرعية، الكفيلة بإبطال كل قول سقيم! وما ضل من ضل إلا بهوى تمكن من نفسه! وإلا فإن الحق أبلج والباطل لجلج! وما التوفيق إلا بالله.

الأصل الثالث: فقه اللسان العربى

وهذا هو مفتاح الأصول كلها، وباب العلوم جميعها. وبغير إتقانه لا يكون بدء ولا يكون وصول! ولنا فيه ههنا بعض البيان والتفصيل؛ لما له من خطورة

داسات في الشاه الإسلامي

متعدية إلى غيره، ولما دخله من الدس والإفساد في العصر الحاضر؛ بقصد تقويض صروح التراث الإسلامي، وقطع صلة المسلمين به! وجهل كثير من طلبة العلوم الشرعية، وبعض "أهل العلم" بالشرعية؛ بخطورة ما نحن فيه من وضع لساني رهيب، وما يترتب عن ذلك يومياً من فساد في الدين، فهما وتزيلاً! فنقول:

المقصود بـ"اللسان العربي": اللغة العربية بما هي "لسان" لا بما هي مجرد "لغة"! بناءً على قول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥). وقوله سبحانه: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣).

ذلك أن اللغة في أصل دلالتها إنما هي كل ما يلغو به الإنسان من الألفاظ للتواصل مع غيره. أما اللسان: فهو المَلَكَةُ البيانية التي يعبر بها المتكلم عما يجده من معان وأحاسيس؛ بما يجعل المُتَلَقِّي يشعر بما شعر به المُلَقِّي! وذلك هو البيان بمعناه القرآني، الذي امتن الله به على الإنسان فقال: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٤). ولذلك سُمِّيَ الأداء اللغوي - بهذا المستوى - "لساناً": لِمَا للسان - بما هو عضو حي، وجارحة بشرية - من ارتباط بذات المتكلم أكثر من مصطلح اللغة! فاللسان أصدق وأدق من "اللغة" في الإفصاح والبيان عن المكون الذاتي للمتكلم، إن اللغة هي ذلك الرمز اللفظي المشترك، بينما اللسان هو ذلك المنتج الشخصي في اللغة، فاللغة قوالب ميتة لا تحيي إلا عند تحولها إلى لسان، ثم إن اللغة هي ما في الكتب والمعاجم والقواعد، بينما اللسان هو ما في الحياة الإنسانية من التداول الكلامي. ولذلك كان اللسان أكثر ارتباطاً من اللغة بالنفس الإنسانية، وبالوجدان البشري.

وعليه؛ فإنه من الممكن أن يكون المرء ناطقاً بلغة قوم، لكن قد لا يبلغ أن ينطق بلسانهم! فإتقان اللسان أعلى درجة من مجرد إتقان اللغة! ولذلك حاول اللغويون والمعجميون العرب أن يرتقوا في تعبيدهم للغة إلى درجة

دراسات في الشأن الإسلامي

تمكين المتلقي من "اللسان"، فجعلوا غايتهم من التأليف اللغوي (لسان العرب)، لا لغة العرب فحسب. والحقيقة أنما ذلك شعار! فاللسان لا تصنعه المعاجم ولا الكتب، وإنما يصنعه الاندماج النفسي في الانتاج اللغوي اليومي لتلك اللغة، فلا تكون القواعد آتئذ إلا مرحلة ضرورية لبدء كسب اللسان. ومن اقتصر على مجرد ضبط القواعد والأشكال اللغوية العامة لهذه اللغة أو تلك؛ بقي بعيداً عن إدراك مفهوم اللسان. ويكون شأنه كشأن العروضي الذي يتقن موازين الشعر العربي ويضبط قوافيه؛ ولكنه لا يستطيع إنتاج قصيدة! ذلك أن صناعة العروض - رغم ضرورتها الفنية - لا تصنع الشاعر! تلك هي قصة اللغة واللسان.

وعليه؛ فإن الواجب على طالب العالمية أن يتقن اللسان العربي لا اللغة العربية فقط! وإلا بقي بعيداً عن إدراك مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية. ولذلك اشترط غير واحد من الأصوليين على المجتهد في الفقه؛ أن يبلغ - أولاً - درجة الاجتهاد في اللغة. وما ذاك إلا معنى إتقان اللسان، وقد رأينا - من أهل العلم - من يتكلم في قواعد اللغة العربية ودقائق النحو؛ بما يعجب له المرء من قدرة فائقة على استحضار الجزئيات، وغرائب التفصيلات؛ ولكنه لا يحسن التعبير ولا التلقي للسان العربي! فيأتي لذلك بالطامات في الفهم والتعبير كلما عبر أو تكلم، وبالغرائب كلما حاول الاستنباط للأحكام الشرعية من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وسبب المعضلة أن برامج التكوين - في مجال اللسان - كانت وما تزال فاسدة، في كثير من الجامعات الإسلامية والاختصاصات الشرعية، في العالم العربي والإسلامي، إلا قليلاً!

ذلك أن اللغة في أصل دلالتها لا تؤخذ كما ذكرنا من كتب النحو والصرف، والقواعد والمعاجم، والبلاغة فقط؛ وإنما تؤخذ أساساً من مجال التفاعل اللغوي النفسي. وليس أقعد بهذا الهدف

داسات في الشأن الإسلامي

من كتب الأدب العربي شعره ونثره!

نعم قواعد العربية ضرورية، ولا كلام مع طالب الْعَالَمِيَّةِ قبل إتقان الحد الأدنى من ذلك؛ بما يمكنه من إقامة تعبيره وفهمه للخطاب العربي، شكلاً ومضموناً، على المستوى النحوي والصرفي والمعجمي والبلاغي جميعاً. هذه بدهيات!

ولكن لا بد له - بعد ذلك، وأثناء ذلك - من الاشتغال بتلقي اللسان العربي من كتب الأدب. إذ أن القواعد تعلمك اللغة، بينما الأدب يعلمك اللسان. وحاجة "العالم المجتهد" إنما هي إلى اللسان؛ إذ لا اجتهاد في الشريعة بغير لسان. كيف وهذا القرآن قد بلغ منتهى الغايات في التعبير والبيان؟ وهذا نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - قد أوتي جوامع الكلم، وكان أفصح العرب وإمامهم في إنتاج اللسان!؟

وليس عبثاً أن تواتر حض الصحابة للتابعين على تعلم أشعار العرب وحكمتهم، مما أثير عن عمر بن الخطاب وابن عباس وغيرهما، من التوجيهات والوصايا في هذا الشأن.

ولقد تطور الأدب العربي بعد ذلك؛ بسبب تأثره بأساليب القرآن الكريم، وبسبب تطور الحاجات العلمية والاجتماعية للمجتمع العربي الإسلامي، فازدهر النثر إلى جانب الشعر الذي كان فنَّ العربية الأول، فصار للأدبيات النثرية عند العرب مكانة كبرى، وتميز فن التعبير لديهم بما صار ينافس الشعر والشعراء، وطُلبَ الكَتَبَةُ للدواوين، وللتصنيف في مختلف الفنون والعلوم، فظهر كُتَّابُ العصر العباسي الكبار، كعبد الله بن المقفع (١٤٥هـ)، وأبي عثمان الجاحظ (٢٥٠هـ)، وابن قتيبة (٢٧٠هـ)، ثم من جاء بعدهم كابن العميد (٣٦٠هـ)، وغيرهم كثير.

ومن هنا صارت المصادر النثرية المتميزة في تاريخ الأدب العربي؛ من أهم المراجع المدرسية؛ لتكوين الأجيال في إتقان (اللسان) العربي، بما أصلناه له

دراسات في الشأن الإسلامي

من مفهوم؛ وذلك لِمَا للأدب من خاصية نفسية عميقة في مجال التواصل الفني، والتخاطب الوجداني، والتمكن من تذوق لغة العرب وإدراك مقاصدها؛ إلى درجة الاندماج المفهومي على المستوى اللغوي؛ مع سائر الإنتاج اللغوي العربي الأصيل، بما لا يتيح لك القواعد النحوية والصرفية والبلاغية. فذلك الاندماج المفهومي هو الذي يعطيك خاصية الفهم التلقائي (الأمي) للعربية. تماما كما كان الإنسان العربي - زمن الرسالة - يفهم الكلام. وذلك ما سميناه بمرتبة إتقان اللسان!

وإنما ذلك وحده أَعَدُّ بفهم لغة الوحي قرآناً وسنةً، وتذوق مساقاتها التعبيرية، ومقاصدها الدلالية، الأصلية منها والتبعية، على المستويين: اللغوي والاستعمالي. وإنما بَرَزَ الإمامُ الشافعي - رحمه الله - فيما وضع من قواعد أصولية في كتاب الرسالة؛ بسبب ما حصل - قبل ذلك - من اندماج مفهومي رفيع المستوى - كما هو معلوم من مسيرته العلمية - مع اللسان العربي! وكان اللحن آنئذ قد عمت بلواه سائر أنواع المخاطبات اللغوية؛ بسبب الهجنة الثقافية في جيل الموالي، والتلاقح اللغوي بين الشعوب العربية وغيرها، ممن دخل في الإسلام من العجم في وقت مبكر، كالفرس والقبط وغيرهما. فكان أن فطن أهل الصناعة اللغوية إلى خطر اللحن، على المستويين: الشكلي والاستعمالي؛ فبادروا إلى تأصيل العربية وأساليبها البيانية والتعبيرية، كل في مجال اختصاصه.

ذلك كان في زمانهم؛ والعهد قريب جداً بالأصل المعهود زمن الرسالة؛ من مقاصد الخطاب اللساني والتعبير البياني! فما بالك بزماننا هذا؟ وقد تردت العربية المحدثّة في شتى ضروب المسخ التعبيري والتحريف المفهومي! مما أفقد الألفاظ أصالتها، والأساليب صفاءها؛ حتى غدا كثير من الكتاب المُحَدِّثِينَ والمتأدبين المعاصرين يكتبون بعربية غير العربية. ففسدت لغة التخاطب بما جعل دلالات الألفاظ تتحرف عن مقاصدها الاستعمالية، وعم (اللحن المفهومي) كلُّ الكتب المدرسية والبرامج التعليمية، ثم عم كل وسائل

داسات في الشاه الإسلامي

الإعلام وسائر ضروب الإنتاج الفني المعاصر، من حوارات وإعلانات، وبرامج تلفزيونية وأفلام ومسلسلات، فأدى ذلك كله إلى إفساد اللسان العربي، على المستوى المفهومي.

و"اللعن المفهومي" هو أخطر أنواع اللحن فيما نحن فيه! لأن المتكلم يظن أنه مندمج في صميم التعبير العربي! ولكن المشكلة أنه يستعمل الكلمة أو التركيب اللغوي في غير مساقه العربي الفصيح؛ بسبب تأثره بالمفاهيم المترجمة من اللغات العالمية الأخرى، التي غلبت على الأمة اليوم، وسكنت لغتها العامية، ووجدانها الذوقي الاستهلاكي! فيكسب ذلك كله الألفاظ والتراكيب العربية معنىً محدثاً، لا أصل له في لغة العرب! ويتوهم بعد ذلك أنه عربي فصيح؛ لسلامته الشكلية نحواً وصرفاً؛ مما يؤدي إلى إسقاطه - في الفهم والاستنباط - على النص العربي القديم، قرآناً وسنة وتراثاً علمياً؛ فيأتي الدارس بعد ذلك بالطامات في الفهم أو في الفقه والاستنباط! وتلك حال غير واحد من المتصدرين للكتابة والتوجيه في المجال الديني والدعوي اليوم.

وليس عبثاً أن شكّل الاستعمار الثقافي الحديث فرقاً من المثقفين العرب في المجالين: الأدبي واللغوي، يفسدون اللسان العربي بوعي خطير، على المستويين: الشكلي والمفهومي؛ بما ينتجون من (إبداع) هجين، ودرس لساني أثيم، يحرفون فيه الكلم عن مواضعه، ويغيرون خلق الله في الطبيعة اللغوية والمفاهيم اللسانية؛ بما يضيع حقائق الحياة والأشياء. مما أنتج لغة (عربية) أخرى - في مجال التأليف والتعبير - لا تكاد تقارب العربية الأصيلة إلا في الاسم!

ولقد تأثر بعض المفكرين الإسلاميين - ضرورةً - بهذا الوضع اللغوي الفاسد! وكذلك بعض أهل "العلم" بالشريعة، ممن لم تتح لهم فرصة إتقان اللسان، وإن كانوا بارعين في قواعد النحو والصرف، وحفظ النصوص الشرعية، كما بينا، لقد كانوا هم أيضاً ضحية قرن كامل من التزوير اللغوي

دراسات في الشأن الإسلامي

والتحريف اللساني! حتى غدت المفاهيم القرآنية والنبوية بينهم - وهم أهل اختصاص مع الأسف - غريبةً دَلَالِيًّا؛ غربةً الدين نفسه بين الناس، في زمان الفتنة والضلال! فكيف بفهومٍ وفتاوى تصدر عنهم إلى الناس؟ تلك إذن من أعظم الفتن! والله المستعان!

ثم إنه لا بد - بعد إقامة اللسان - من إتقان فن الخطابة، بما هي صناعةٌ فنيةٌ ولغوية، وذلك تمام البيان الذي امتن الله به على الإنسان. ولقد تقرر بالتجارب والمشاهدات في أحوال الناس، من أهل المذاهب والدعوات، قديما وحديثا؛ الحقيقةُ الراسخةُ التالية، وهي: أنه لا دعوة لمن لا بيان له! نعم! لا دعوة لمن لا بيان له! فتدبر!

والخطابة بما هي فن من أهم فنون الإقناع، ومخاطبة الجماهير؛ صناعةٌ تؤخذ بالتعلم النظري والتطبيقي معا، لا غنى لأحدهما عن الآخر، أي لا بد من دراسة أدب الخطابة في مصادره النظرية، عند العرب والعجم، ثم لا بد من الدخول في ورشات تكوينية، تحت إشراف خبير أو عدة خبراء في هذا المجال، ثم الدخول العملي في ممارسة هذه الصناعة في الحياة، مع التتبع لكبار الخطباء في العالم، والحرص على حضور خطبهم ما أمكن، أو مشاهدتها على الأشرطة المرئية، وملاحظة كيفية أدائهم، شكلا ومضمونا. وإن في ذلك لمدرسة مهمة قلما يُنتبه إليها. لو دخلها المتعلم لجاء بحكم نادرة، بل عزيزة! لا تدرك بنظرية ولا بكتاب! وهو أمر شاهدناه بالممارسة والتجربة.

ومن هنا دعوتنا لطالب الْعَالَمِيَّةِ الحق إلى ضرورة إتقان اللسان العربي! إتقانه كما هو في مصادره الأصلية، والاحتكاك بكتب الأدب القديم؛ بما هي أقرب إلى عربية القرآن ولسان الوحي. وتلك هي أولى مراحل التكوين في هذا البرنامج، وأولى خطوات تجديد الدين في الآن نفسه. والله الموفق للخير والمعين عليه.

داسات في الشأن الإسلامي

الأصل الرابع: فقه الواقع

وهذا الأصل زلَّ فيه طرفان، كلاهما غالٍ في حكمه، مجافٍ للحق في نفسه.

فأما الطرف الأول: فقومٌ جعلوه أصل كل شيء، وبذلك حكّموه في كل شيء، وعلى كل شيء! فرَدُّوا به بعض أحكام الدين، وأبطلوا به بعض نصوصه الصريحة الصحيحة! فتراهم كلما واجهوا معضلة مما لم يوافق هواهم، أو لم تستوعبه عقولهم القاصرة، من مقتضيات النصوص الشرعية؛ قالوا: "هذا مخالفٌ لفقه الواقع"، أو استدركوا على الشرع الحكيم بمثل قولهم، بعد قول الحق المبين: "ولكن فقه الواقع يقتضي كذا وكذا..."; فيبطلون العمل بالنص الصريح، بلا قواعد ولا ضوابط، ولكن تحت تأثير مصلحة وهمية، أو مفسدة خيالية، من (فقه الواقع) زعموا!.. وما ذاك في الحقيقة بفقه للواقع، ولكنه ضرب من الاعتزال الجديد، ليس إلا!

وأما الطرف الثاني: فقومٌ جاء حكمهم مجرد ردِّ فعلٍ نفسيٍّ، في مقابلة غلُّ الطرف الأول؛ فصدروا عن حكم متسرع، بلا دراسة ولا روية؛ وقضوا بفساد تحكيم الواقع في فقه الدين، بل جعلوا مفهوم "فقه الدين" مناقضا لمفهوم "فقه الواقع". وقد قرأتُ لبعض أهل العلم الفضلاء - من المعاصرين - كلاما مفاده أن مسمى "فقه الواقع" أمرٌ طارئٌ في الأمة، وأنه من بدع العلم، وإنما قال الرسول ﷺ: (مَنْ يَرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ!) (٢٧). لا في الواقع! كذا!..!

والحقيقة أن مفهوم "فقه الواقع" قديمٌ في سلفِ الأمة، أصيلٌ أثيلٌ! وإنما التسمية هي الجديدة! وعليه كان المعول في تحقيق مناهج الأحكام الشرعية في النوازل والفتاوى الفقهية، فهو جزء لا يتجزأ من "فقه الدين"، وهو شرط صحة في الإفتاء، إذ لا تصح الفتوى إلا باعتبار معطياته! ولكن بقواعد وشروط، حددها علماء أصول الفقه، لا بالهوى السارب، أو التحكيم المطلق

دراسات في الشأه الإسلامى

للعقل المجرء، والفكر المتحلل من توجيه الشرع، ومن تسءىء الءىن وهءاءه. وإنما "فقه الواقع" علمٌ أشبه ما يكون بـ"شروط الصءة" فى النظر الفقهى، أو بقواعد "ما لا يتم الواجب إلا به" فى الاستنباط والاجتهاء، وبمُحكّمات العرف والعاءة فى فقه الشرىعة تحقىقاً وتنزىلاً، إلى غير ذلك مما سطره الفقهاء وقعدوه. وإنما التسمية الحاءة، والتلاعب العشوائى بالمصطلحات والمفاهيم، من قبل أهل الأهواء، ومن لا علم له مع الأسف - حاشأً فضلاء الءعاة من أهل العلم الأءقىاء - هو الذى أءى إلى رء الفعل هذا؛ بإنكار مسمى: "فقه الواقع". وما كان ينبغى لـ"حقٌ أرىء به باطلٌ" أن ىنكر من حيث هو حقٌ فى ذاته! . وإنما الأمر ىحتاج إلى شىء من التأصىل والتفصىل. ونورء بىان ذلك كما ىلى:

وهو أن ما اصطلح علیه الءعاة والعلماء المعاصرون "بفقه الواقع"؛ أو ما سمىناه (بأصول الفقه السىاسى) فى سىاق آءر(٢٨)؛ فهو ما عرفه الفقهاء قءىما فى سىاق ما ىلزم المءتهد من: (التفقه فى حال الزمان وأهله)، أو (معرفة أءوال الناس وأعرافهم)؛ لأن على ذلك كله تنبنى الثمرة المنهجىة للاجتهاء، ألا وهى (تحقىق مناط الأحكام الشرىعىة). فلكَ إذن؛ أن تسمى فقه الواقع (بفقه تحقىق المناط). وهو من الاجتهاء الذى لا ىنقطع إلى يوم القىامة، على حد تعبىر أبى إسحاق الشاطبى رحمه الله(٢٩)؛ لأنه لازم لكل عبء لله - على الأقل - فىما ىتعلق بشخصه هو من أحكام شرىعىة. ولا خلاف فىه بىن الأمة، قال أبو إسحاق: (الاجتهاء المتعلق بتحقىق المناط: وهو الذى لا خلاف بىن الأمة فى قبوله، ومعناه: أن ىثبت الحكم بمءركه الشرىعى؛ لكن بىقى النظر فى تعىىن محله). (٣٠).

والجهل به مؤء إلى الطامات فى الفهم والعمل، على كل المستوىات: الءىنىة والءعوىة سواءً؛ وذلك لما ىطبع الجاهل به - إذا تصءى للإفتاء، أو للإرشاء الءىنى والءعوى - من ارتجال وفوضى منهجىة، فى الحكم على الحقائق والأشىاء؛ بسبب عءم ضببب الأمور بموازىنها، وعءم معرفة

داسات في الشأن الإسلامي

مقاديرها؛ فينشأ عن ذلك فساد كبير، يتعدى إلى غيره من الأتباع والرعاع، ممن يعتقدون فيه الكمال والجلال! وذلك من أعظم الفتن! والله المستعان!

ولشيخ المقاصد أبي إسحاق الشاطبي - رحمه الله - كلمات في هذا؛ حقها أن تُكتب بماء الذهب! وذلك أنه ذكر أن من خواص العالم الرباني الحكيم: (أن لا يذُكر للمبتديء من العلم ما هو حظ المنتهي! بل يربي بصغار العلم قبل كباره. وقد فرض العلماء مسائل، مما لا يجوز الفتيا بها، وإن كانت صحيحة في نظر الفقه، وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها؛ فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله! فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة؛ فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم. وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ؛ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية!) (٣١).

والمقصود (بالقبول العقلي) ههنا: ما تلخص للعقل من موازين شرعية؛ بعد النظر في مقتضيات النص من العلل والْحَكَمِ التي شرع من أجلها، ومقتضيات الواقع من الشروط والموانع، ثم ينظر إلى المآل المتوقع من المقاصد التي شرع الحكم من أجلها؛ بناءً على تلك المعادلة الاجتهادية بشرروطها، وذلك بمعرفة فقه تنزيلها وتحقيق مناطها: إلى أي حد يكون خادماً لتلك المقاصد وجالباً لمصالحها؟ أم أنه مؤد إلى عكسها ونقيضها؟ فهذا العقل إنما هو (عقل شرعي) موجهٌ بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية، لا بأهواء الذوق والتوهم.

ألا رحمة الله عليك أبا إسحاق! أي تأصيل هذا وأي تحقيق! فذلك هو عين (فقه الواقع)، الذي هو ميزان العلم، ومعيار حكمته! ولقد تجاوزت كلماته - رحمه الله - بأصالتها العلمية - كما وردت بمجموعها في كتاب الموافقات - ما تحدث عنه المعاصرون في هذا الشأن وما دونوه! فتأمل!
هذا؛ وأول العلوم الضرورية لفقه الواقع "مادة السيرة النبوية"؛ بما هي

دراسات في الشأه الإسلامى

أساس علم الدعوة إلى الله، إذ منها يمكن استتباط فقه المراحل الدعوية، وقواعد ترتيب الأولويات الإصلاحية، لمخاطبة الناس على قدر ما يناسب الزمان وأهله، وحق السيرة أن تصنف ضمن العلوم الشرعية، وهي كذلك بالفعل، لكننا جعلناها هنا؛ لما لها من أهمية في التأصيل لفقه الواقع، وتقعيد قواعد فهمه، وموازين تقويمه. وتلك الخاصة هي - قبل ذلك - لنصوص الكتاب والسنة عموماً. فهذا حاضر في الحسبان؛ إذ قواعد فقه الواقع من السنن الاجتماعية والنفسية والتاريخية إنما من هنالك تؤخذ. وهذا أمر بدهيٌّ، فإنما حديثنا هنا مع أهل العلم بالكتاب والسنة. وكل نظر في الواقع إنما يجب أن يقع من خلالهما.

وأما تمييزنا لعلم السيرة في هذا السياق؛ فلكونه يمثل الصورة النموذجية لتطبيق تلك القواعد القرآنية، والموازين السننية؛ في الواقع البشري المتحرك، والدخول بها في معترك التدافع الإنساني الحي! ولذلك كان لزاماً على العالم الحق أن يكون خبيراً بفقه السيرة النبوية، دارساً لمراحلها، مدركاً لأسرار تطوراتها، وعلل قراراتها وخطواتها؛ بما يفيد في النظر إلى عصره وزمانه، وترتيب أولويات خطابه، وما يجب أن يبدأ به في ذلك من الأقوال والأعمال، وما يمكن أن يرجئه، ثم ما يجعله أساس دعوته، ومن ثوابتها المصيرية، وما يكفي أن يستتبعه ضمن اللواحق والتوابع. وذلك هو معنى الحكمة، التي هي زبدة العلم، وجوهر معدنه.

ثم لا بد أيضاً - بناء على العلة نفسها - من دراسة بعض العلوم الوضعية المعاصرة، التي لا غنى عنها في فهم الواقع وعلى رأسها القانون! وإنما يكفي في ذلك دراسة (مدخل عام) مختصر؛ لمعرفة مقاصده المعرفية، وأقسامه الكلية، ومصطلحاته التعبيرية. سواء في ذلك قسماً: العام والخاص، هذا على الإجمال، وأما على التفصيل فلا بد من الاهتمام بالقانون الدستوري على الخصوص، ودراسة مفصلة "لقانون الحريات العامة" بصفة أخص، ذلك أن القانون صار يشكل اليوم جزءاً من المكونات المعرفية للثقافة السياسية

خاتمة

والآن.. فهل بعد العلم إلا العمل؟ فإلى متى الانتظار وحتى متى؟ وما "كلُّ عِلْمٍ ليس تحته عَمَلٌ فهو باطلٌ!" كما قرره المقاصديون، فالأمة الآن أشد ما تكون حاجتها لِفِتْيَةٍ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزَادَهُمْ هُدًى، فَتِيَّةٍ يَنْذُرُونَ أَعْمَارَهُمْ - صادقين - لطلب العلم. ولقد تبين أن الأمة لن تستأنف مسيرتها، ولن تحقق إقلاعها الحضاري مرة أخرى؛ إلا بالعلم. فالعلم أول شروط الانطلاق. ولن يَفُكَّ عِقَالَهَا في هذا الاتجاه إلا العلماءُ المجددون، والحكماءُ الربانيون، الذين تحققوا من صفة العالمية بشروطها الشرعية الصحيحة. فركوب طريق الطلب إلى هذه المنزلة العالية؛ هو من أعظم الجهاد في زماننا هذا! وإن الاتصاف بهذه الحليَّةِ الغالية؛ ليس بالتمني الكسول، ولا بالادعاء الخامل المَلُول! ولكنه عزيمةٌ على دخول المدرسة النبوية بحقها؛ لتزكية النفس، وتعلم الكتاب والحكمة. وإنما الموفق من وفقه الله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما.

الهوامش

- (١) جزء من حديث، رواه أحمد، وابن حبان، وأصحاب السنن الأربعة، عن أبي الدراء. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير. رقم ٦٢٩٧.
- (٢) رواه مسلم عن عائشة مرفوعاً.
- (٣) رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة. وصححه الألباني، حديث رقم: ١٨٧٤ في صحيح الجامع.
- (٤) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان؛ عن أبي الدراء. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: ٦٢٩٧.
- (٥) رواه الطبراني في الأوسط. وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب: ١/ ٥٨، وأبو بكر الهيثمي في مجمع الزوائد: ١/ ١٢٤، كما حسنه الألباني في صحيح الترغيب رقم: ٨٣.
- (٦) هذان التعريفان مركبان من عبارات لأبي إسحاق الشاطبي كما سيأتي بيانه.
- (٧) متفق عليه.
- (٨) الموافقات: ٤-، ٢٣٢.
- (٩) الجامع لأحكام القرآن: ١٤-٣٤٣.
- (١٠) جامع بيان العلم وفضله: ٢٥/٢.
- (١١) سنن الدارمي.
- (١٢) سنن الدارمي.
- (١٣) اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي: ١٤-، ١٥، بتحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني. نشر المكتب الإسلامي بيروت. ط. الرابعة: ١٣٩٧هـ.
- (١٤) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٤٢٣.
- (١٥) لك أن تنظر ما استقريناه من ذلك في كتابنا: البيان الدعوي، وكذا كتابنا الفجور السياسي. وهو من الكليات القطعية في الدين والدعوة إليه.
- (١٦) رواه أصحاب السنن الأربعة، وأحمد، والحاكم، وابن عبد البر في جامع بيان العلم؛ عن أبي هريرة. كما روي عن عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: ٦٢٨٤.
- (١٧) رواه الطبراني في الكبير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون. كما رواه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه بلفظ: (العلماء) بدل (الفقهاء). وقال العجلوني في كشف الخفاء: رجاله ثقات. كما روى نحوه الديلمي عن علي كرم الله وجهه.
- (١٨) الموافقات: ٤-٢٤٥-، ٢٤٦.
- (١٩) الموافقات: ٤-، ٢٤٨.
- (٢٠) رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٤٢١٣.

دراسات في الشأن الإسلامي

- (٢١) للتوسع في هذا المعنى يمكن مطالعة كتبنا التالية: "بعثة التجديد المقبلة"، و"البيان الدعوي"، و"بلاغ الرسالة القرآنية"، و"مجالس القرآن".
- (٢٢) وصية الإمام الحافظ أبي الوليد الباجي لولديه، ص: ٧، اعتنى بها الأستاذ جلال علي الجهاني، نشر مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت.
- (٢٣) جزء حديث رُوِيَ عن عدد من الصحابة بأسانيد صحاح، فقد رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، والضياء؛ عن زيد بن ثابت، كما رواه الترمذي، وابن ماجه؛ عن ابن مسعود، ورواه أحمد، وابن ماجه؛ عن أنس بن مالك. ثم رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم؛ عن جبير ابن مطعم، كل ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ.
- (٢٤) متفق عليه.
- (٢٥) ذكرنا شيئاً من ذلك في كتابنا: جمالية الدين، وانتقدنا الغلو الحاصل من الطرفين.
- (٢٦) مدارج السالكين: ٣٩/٢، -٤٠،
- (٢٧) متفق عليه.
- (٢٨) في كتابنا: بعثة التجديد المقبلة.
- (٢٩) الموافقات: ٣/٨٩،
- (٣٠) الموافقات: ٣/٨٩، -٩٠،
- (٣١) الموافقات: ٤/١٩٠-١٩١،
- (٣٢) للتوسع في هذا المعنى يمكن النظر في كتابنا: "المصطلح الأصولي عند الشاطبي": (مصطلح المأل) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، بتحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني. نشر المكتب الإسلامي بيروت. ط. الرابعة: ١٣٩٧هـ.
- بلاغ الرسالة القرآنية، تأليف فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، تأليف فريد الأنصاري. منشورات ألوان مغربية، ط. دار النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط. الأولى: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي النمري، تحقيق الأستاذ فواز أحمد زمرلي، نشر مؤسسة الريان ودار ابن حزم، بيروت. ط. أولى: ١٤٢٤هـ.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
- جمالية الدين، تأليف فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية. ط. الأولى: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م..
- حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، نشر دار الكتاب العربي، بيروت. ط. الرابعة: ١٤٠٥هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للعلامة محمد ناصر الدين الألباني، نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد - الرياض، ط: الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦ م.
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، تحقيق أحمد شاکر وآخرين، نشر دار إحياء التراث العربي.
- سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله الدارمي، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، نشر دار الكتاب العربي بيروت، ط. الأولى: ١٤٠٧هـ.
- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين الذهبي، نشر دار الفكر، بيروت.
- شرح النووي على صحيح مسلم. نشر دار إحياء التراث العربي بيروت. ط. الثانية: ١٣٩٢هـ.
- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي. دار القلم بيروت. ط. الأولى: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- صحيح الجامع الصغير، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق، ط: الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث بالقاهرة. ط. الأولى: ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- ضعيف الجامع الصغير، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن حجر العسقلاني، نشر دار المعرفة بيروت:

دراسات في الشأن الإسلامي

- ١٣٧١هـ، بتحقيق الشيخين: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.
- الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب. دراسة في التدافع الاجتماعي. فريد الأنصاري. منشورات الفرقان الدار البيضاء. (سلسلة: اخترت لكم رقم: ٣) مطبعة النجاح الجديدة. ط. الأولى: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠.
- كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي. تحقيق أحمد القلاش، نشر مؤسسة الرسالة بيروت. ط. الرابعة: ١٤٠٥هـ.
- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت.
- مجالس القرآن، تأليف فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- مجمع الزوائد للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي نشر دار الريان للتراث/القاهرة، ودار الكتاب العربي/بيروت: ١٤٠٧هـ.
- مجموع فتاوى ابن تيمية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني. نشر دار عالم الكتب الرياض.
- مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، توزيع دار الرشد الحديثة - الدار البيضاء - المغرب.
- المسند للإمام أحمد بن حنبل بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط. نشر مؤسسة قرطبة القاهرة.
- المصطلح الأصولي عند الشاطبي، تأليف فريد الأنصاري، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأميركا، ومعهد الدراسات الإسلامية بفاس. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء.
- الموافقات للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، بشرح الشيخ عبد الله دراز. نشر دار المعرفة. بيروت. ط. الثانية: ١٣٩٥/، ١٩٧٥.
- الموطأ للإمام مالك بن أنس. بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء التراث العربي، مصر.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي. نشر دار الكتب العلمية بيروت، ط. أولى: ١٩٩٥.
- تحقيق الشيخين علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود.
- وصية الإمام الحافظ أبي الوليد الباجي لولديه. اعتنى بها الأستاذ جلال علي الجهاني، نشر مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت. ط. الأولى: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.



دراسات في الشأه الإسلامى

مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين المتذللين لعظمته وجبروته، المعترفين بوحدانيته وربوبية وألوهيته، وأشكره شكراً يليق بعظمته وجلاله على نعمه الوافرة ، ومن أعظمها نعمة الإسلام الذي أنعم الله به على البشرية وارتضاه لهم ديناً ، ولا يقبل منهم سواه ، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين نبينا وحبينا محمد الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣) وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد :

فإن المرء ليعجب كل العجب من حال البشرية اليوم ، بعد مرور هذه الآماد الطويلة منذ استخلافها على الأرض ، وهي تعيش الصراعات الطاحنة جيلاً بعد جيل ، وبين يديها هدي ربها الذي يدعوها إلى الأمن والسلام ، ويرشدها إلى ما فيه الخير والصلاح والحياة الطيبة ؛ غير أن هذا العجب من استمرار الصراعات وتأججها و اضطراب الأمور وفقدان الأمن - في أغلب الأحيان - يزول أمام ما يراه الإنسان من تنكُّب الناس عن الصراط المستقيم ، وإعراضها عن دين الله ، فذلك ما أدَّى بها إلى الشقاء ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤)

ولعل المسؤولية الأكبر في التحذير من تأجيج الصراع وإيقاد نار الحرب تقع على عاتق الحكماء وأهل العلم والمعرفة وأصحاب الفكر في العالم؛ لأن

دراسات في الشاهد الإسلامي

المواجهة مع دعاة صدام الحضارات والمنظرين للحروب تقتضي تغيير الأفكار التي تروج للعنف، إلى أفكار مسالمة تنزع للسلام والتعايش بين البشر في أمان، عن طريق نشر ثقافة السلم والتعايش والتعاون بين الأمم والشعوب.

ومن هذا المنطلق يأتي هذا البحث ليسهم في رسم استراتيجية إسلامية في التعامل مع الآخر مستقاة من الشريعة الإسلامية الغراء، تحقق الأمن والسلام للإنسانية في عالم متعدد الثقافات والحضارات.

وسوف يكشف البحث عن المبادئ الإسلامية العظيمة في مجال التعايش الإنساني بين البشر، مهما اختلفت أعراقهم وتعددت ثقافتهم، ودياناتهم.

وفي البحث بيان لمعاني بعض المصطلحات كمعنى الثقافة والتعددية الثقافية، ومفهوم الآخر، وللبحث وقفة مع موضوع التنظير للصراع والأفكار التي وراءه.

وقد سميت البحث (استراتيجية التعامل مع الآخر في ضوء الشريعة الإسلامية الغراء).

خطة البحث

يحتوي البحث على مقدمة، و أربعة فصول و خاتمة :

المقدمة وتتضمن : أهمية البحث، وأسبابه، وخطته.

الفصل الأول : تحرير مفهوم المصطلحات الواردة في البحث .

المبحث الأول : مفهوم الاستراتيجية.

المبحث الثاني : مفهوم الثقافة.

المبحث الثالث : مفهوم الآخر.

الفصل الثاني: الدعوة إلى صدام الحضارات والترويج لثقافة الصراع والكرهية.

المبحث الأول: الدعوة إلى صدام الحضارات

المبحث الثاني: الترويج لثقافة الصراع والكرهية

داسات في الشأن الإسلامي

الفصل الثالث : التعامل مع الآخر في الشريعة الإسلامية.

المبحث الأول: القاعدة العامة في التعامل مع الناس في الإسلام

المبحث الثاني: المرتكزات الأساسية في التعامل مع الآخر

الفصل الرابع: حقوق غير المسلمين في السلم والحرب

المبحث الأول : حقوق غير المسلمين زمن السلم

المبحث الثاني : حقوق غير المسلمين زمن الحرب

المبحث الثالث: نموذج من تعامل الآخر مع المسلمين.

الخاتمة : وتضمنت أهم نتائج البحث .

وأسأل الله عز وجل التوفيق والسداد ، إنه ولي ذلك والقادر عليه،

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول تحرير مفهوم مصطلحات البحث

المبحث الأول : مفهوم الاستراتيجية.

تعود كلمة (استراتيجية) في الأصل إلى اللغة اليونانية، وقد عُرِفَتْ في مجال دراسة فنون الحرب، ونُقِلَتْ إلى العلوم الاجتماعية منذ وقت قريب، في النصف الثاني من القرن العشرين، ثم صارت متداولة في (التخطيط والتنفيذ).

الاستراتيجية علم أم فن ؟

إذاً فالاستراتيجية علم من جهة ، وفن من جهة أخرى :

فهي من جهة كونها علماً ؛ فإنها معرفة يكتسبها الإنسان ، تجعله قادراً على تطوير مفاهيمه وأدائه ؛ لتحقيق الأهداف التي يحددها، وهي فنٌّ من جهة أخرى؛ لأنها دراسة في استعمال العلم^(١).

وبناءً عليه فقد عُرِفَتْ الاستراتيجية بأنها : فن أو علم القيادة في الحرب، أي جميع التدابير اللازمة لتحقيق النصر^(٢).

التعريف الاصطلاحي للاستراتيجية :

عُرِفَتْ الاستراتيجية اصطلاحاً بتعريفات عدّة، منها:

- تنظيم الأنشطة والوسائل المتاحة؛ بغية تحقيق أهداف محددة بدقة^(٣).
- الاستخدام الأفضل للفرص والإمكانات، والقدرات بما يحقق النتائج والأهداف^(٤).
- الأسلوب العلمي الذي تلجأ إليه الإدارة في استخدام الموارد، وصولاً إلى الأهداف المقررة^(٥).

داسات في الشأن الإسلامي

- وعُرِّفَتْ -أيضاً- بأنها وضع الإطار العام للحركة، أو التخطيط للحركة^(٦).
- وعُرِّفَتْ:بأنها فن استخدام القوة العسكرية، للوصول إلى النتائج التي حددتها السياسة^(٧).
- كما عُرِّفَتْ:بأنها فن الحوار بين إرادتين متضادتين، تستخدمان القوة في حل خلافاتها^(٨).

(العناصر الرئيسية في التعريفات) :

- من خلال النظر في التعريفات يتضح أن مفهوم الاستراتيجية يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية، وهي:
- ١- إعداد خطة شاملة.
 - ٢- توفير الوسائل اللازمة لتنفيذ الخطة.
 - ٣- تحقيق أهداف معينة.

(التعريف المقترح للاستراتيجية) :

- مما تقدم يتضح أن الاستراتيجية هي: وضع خطة محكمة وشاملة؛ لتحقيق أهداف معينة يكون تنفيذها بوسائل محددة.
- وبناءً عليه يكون تعريف الاستراتيجية هو: إعداد خطة شاملة عن طريق وسائل محكمة؛ لتحقيق الأهداف المقصودة.

المبحث الثاني : مفهوم الثقافة

أولاً : معنى الثقافة في اللغة:

الثقافة في اللغة مشتقة من فعل ثَقَّفَ الشيءُ ، يَثْقِفُ، وَثَقَّفَ يَثْقِفُ ثَقْفًا وَثِقَافًا وَثَقْفًا وَثِقَافَةً ، من باب تَعَبَ ، و باب كَرَمَ : أي صارَ حاذِقًا خَفِيفًا فَطِنًا، فهو ثَقِفٌ، كَجِبْرِ ، وَثَقِفٌ وَثَقْفٌ ، مثل حَذَرَ وَحَذَرٌ . وَثَقِفَ الشيءَ ثَقْفًا وَثِقَافًا وَثَقُوفَةً :حذقه ، ورجلٌ ثَقِفٌ وَثَقْفٌ : أي حاذقٌ فَهْمٌ .

دراسات في الشاهد الإسلامي

وتثقيف الرماح : تسويتها وتقويم عوجها .

وثقفت الشيء : سرعة تعلمه ، وقلب ثقيف : أي سريع العلم والتفهم ،
وتقول : ثقفت كذا: إذا أدركته ببصرك لحذق في نظرك، ثم استعمل تجوزاً
في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة ، قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾
(البقرة: ١٩١)(٩).

ثانياً : مفهوم الثقافة في الاصطلاح :

أ - كلمة الثقافة في الاصطلاح الحديث :

إن مصطلح الثقافة المعاصر يعود في استعماله إلى عصر النهضة في
أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي كتعبير عن مجموعة من الأعمال
الهامة في الفن والأدب والفكر ، وعبروا عنها بكلمة (CULTURE) في
اللغات الأوروبية ، وهي مشتقة من الأصل اللاتيني (CUTUVARE) ، وهي
تعني أيضاً الزراعة.

وفي عصر النهضة الحديثة أصبحت كلمة الثقافة تعني: " مجموع ثمرات
الفكر في ميادين الفن والفلسفة و العلم والقانون " (١٠).

وبعد عصر النهضة أصبح مصطلح الثقافة يستخدم عند علماء الاجتماع
للإشارة إلى طريقة الحياة الكلية لشعب من الشعوب.

كما أنها في الاستعمال اليومي تشير إلى ضروب النشاط في مختلف
الميادين مثل الفن والموسيقى و الأدب.

ب - تعريف الثقافة اصطلاحاً :

عرفت الثقافة بتعريفات مختلفة نذكر منها :

- تعريف مالك بن نبي الذي عرف الثقافة بأنها " مجموعة من الصفات
الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعورياً

داسات في الشأن الإسلامي

العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه " (١١) .

تعريف تيلور : " الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والتقاليد وما إلى ذلك من القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع " (١٢) .

تعريف الموسوعة العربية العالمية:

" الثقافة هي طريقة الحياة الكلية لشعب من الشعوب " (١٣) .

أثر الثقافة على الإنسان :

وقد عبّر مالك بن نبي عن أثر الثقافة على الإنسان ، فقال : " والثقافة جو من الألوان والأنغام ، و العادات والتقاليد و الأشكال والأوزان والحركات ، التي تطبع على الإنسان اتجاهات وأسلوباً خاصاً يقوي تصورهم ، ويلهم عبقريته ، ويغذي طاقاته الخلاقة ، إنها الرابطة العضوي بين الإنسان والإطار الذي يحوطه " (١٤) .

فالثقافة لها تأثير كبير على الإنسان تطبع توجهه و أسلوبه في الحياة ، وتكون مصدراً إلهاماً لتصوراته ، كما أنها تمثل الرابطة العضوي بينه و بين وسطه ومجتمعه .

ظاهرة التعددية الثقافية:

إن التعددية الثقافية ظاهرة تعم أغلب دول العالم نتيجة الطفرة الهائلة في اتصال شعوب العالم المعاصرة ببعضها ، سواء عن طريق الهجرة من أجل الاستيطان ، أو لطلب الرزق ، أو لغير ذلك من المآرب ؛ فقد أصبحت أغلب دول العالم - وبخاصة المتقدمة اقتصادياً - تعج بجمع غفير من الناس متعدد الثقافات ؛ وقد أثر هذا التمازج بين شعوب العالم المعاصر على التركيبة الثقافية لمعظم الدول ، فأصبحت الدولة الواحدة تنتظم ثقافات متعددة تتضمن ديانات ومذاهب وعادات وتقاليد مختلفة ، و أساليب فكر متنوعة . فربما يوجد في قطر بعينه اختلاف واضح بين شماله وجنوبه

دراسات في الشاه الإسلامي

وشرقه وغربه في التركيبة الثقافية ؛ فالعالم في أغلب دوله اليوم ينتظم ثقافات متنوعة ويجمع أجناساً مختلفة ، وأصبح الحديث عن النقاء الثقافي كالنقاء العرقي ضرباً من الخيال.

فالعالم تعددت أعراقه و تنوعت ثقافته ، و لم يعد لأي شعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم في هذا العصر أن تتوقع على نفسها أو تتجاهل الآخرين ؛ بل إن ظروف الحياة المعاصرة تحتم على أهل الفكر و النظر في جميع دول العالم إيجاد صيغ حضارية للتفاهم والتعايش بين الناس على اختلاف أعراقهم وثقافتهم.

المبحث الثالث : مفهوم الآخر

مفهوم الآخر في اللغة:

الآخر في اللغة اسم للغير ومؤنثه أُخْرَى ، وجمع المذكر منه آخرون، وجمع المؤنث أُخْر و أُخْرِيَّات . (١٥)

مفهوم الآخر في الاصطلاح:

من خلال تتبعي لمصطلح الآخر وجدت أن أكثر ما يقصد به هو غير المسلمين سواءً أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم .

يقول الدكتور علي القره داغي: " يقصد بـ(نحن) المسلمين وبـ(الآخر) غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم "(١٦).

ولاشك أن محاولة تحديد مفهوم الآخر على أساس المصطلح الديني لم يعد له تداول في الواقع المعاصر، وبخاصة في مجال تحديد العلاقة و أسلوب التعامل، وإنما كان ذلك سائداً في فترة تاريخية محددة كان العالم ينقسم فيها إلى دار إسلام ودار حرب عند ما كان التقسيم السياسي للدول آنذاك ينطلق من الدين الذي ينتمي إليه سكان البلد .

والمأمل في الفقه السياسي في ذلك الوقت يجده ينسجم تماماً مع الواقع

داسات في الشأن الإسلامي

التاريخي القائم في تلك الفترة، وما يهمننا في هذا الخصوص، موضوع تحديد مفهوم الآخر، أو كيفية التعامل مع الآخر، هو الواقع الدولي الجديد الذي يحتم على علماء المسلمين اليوم إعادة النظر في التراث الفقهي المتعلق بالعلاقات الدولية وصياغة فقه جديد للأوضاع الدولية السائدة.

ولعله من قلة الفقه أن تصنف البلاد التي تأوي المسلمين وتمنحهم حق المواطنة الكاملة و تحمي انتماءهم للدين الإسلامي، وتسمح لهم بالدعوة إلى الله، وممارسة شعائرهم الدينية على أنها بلاد حرب!

ولعل من الإنصاف أن يقال أن الغالبية العظمى من دول العالم ليست ديار حرب وإنما هي ديار سلام.

و بناءً عليه فإن تحديد مفهوم الآخر على أساس ديني أو مذهبي أو عرقي لا يصلح في واقع دولي تعددت فيه الأديان و المذاهب والأعراف والثقافات.

والواقع أن مفهوم الآخر يتحدد باعتبارات عدة ، منها : أن الآخر إذا أطلق في دولة من الدول فهو يعني غير المواطن ، سواءً أكان مقيماً أم أجنبياً عن الدولة، وكذلك يعني باعتبار آخر المختلف ثقافياً؛ فمن ينتمي إلى ثقافة مختلفة يسمى الآخر بالنسبة إلى الثقافة المقابلة، و قد يطلق باعتبار الانتماء إلى حضارة معينة ، فالآخر في نظر الغرب هو من لا ينتمي إلى الحضارة الغربية، وقد يطلق باعتبار التقدم الصناعي والتكنولوجي؛ فمن ينتمي إلى دولة صناعية يشير إلى من ينتمي إلى دولة متخلفة أو نامية بلفظ الآخر.

ولعله يتوجب التنبيه إلى أن العلاقة مع الآخر لا يصح أن تنطلق من ردة فعل أو استجابة لظروف معينة.

الفصل الثاني

الدعوة إلى صدام الحضارات والترويج لثقافة الصراع والكرهية

المبحث الأول: الدعوة إلى صدام الحضارات

مما ينبغي التأكيد عليه أنه لا وجود لصدام حضارات أو صراع ثقافات إلا في خيال المهوسين بالصراع ، المروجين لثقافة الكراهية و تتضافر الأدلة على أن فكرة الصدام بين الحضارات والثقافات غريبة المنشأ ، حيث إن الإسلام لا يقر فكرة الصراع بين البشر ولا يرتضيها ؛ بل يقرر أن السلام هو أساس العلاقة بين البشر والحرب استثناء تملئها اعتبارات خاصة كالتخلص من الظلم والقهر ، كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

ويشهد المنصفون من علماء الغرب أن فكرة الصراع لا علاقة لها بالإسلام وإنما هي صناعة غريبة ، ومن هؤلاء

الفيلسوف الإنجليزي (توينبي) الذي يقول : " إن الصراع موجود في العالم و في العلاقات الدولية منذ زمن طويل،

أن العالم الغربي هو الذي يقود هذا الصراع ويخلقه، على الأقل طوال الخمسة قرون الماضية، وأن أحداً لم يكن يبدأ بالعدوان عليه، ولكن العكس هو الصحيح " (١٧).

ومن أشهر الذين أصلوا اليوم لفكرة الصراع بين الإسلام والغرب مجموعة من المفكرين، وفي مقدمتهم (برنارد لويس) وقد نشر تنظيره للعلاقة بين الإسلام والغرب في كتاب بعنوان: " الأصولية الإسلامية " ، و(صامويل هنتجتون) في كتابه الشهير : "صدام الحضارات" ، و (فوكوياما) في كتابه: " نهاية التاريخ " .

داسات في الشأن الإسلامي

ومعلوم أن هذه النظريات التي توصل لفكرة الصراع بين الإسلام و الغرب والتي وجدت لها تأثيراً واسعاً لدى الغربيين لم تكن مبتوتة و لم تأت من فراغ، وإنما استمدت مضامينها من ثقافة الصراع والكرهية التي سادت طوال فترات المواجهة مع المسلمين ، وحسبنا أن نستشهد في هذا الشأن اعترافات المفكرين الغربيين ،من أمثال (روجيه غارودي) ، و (إسبوزيتو) ، وهذا الأخير فنّد فكرة الصراع في كتابه : " التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة " ، ويحسن بنا أن نستعرض بعض ما جاء على لسان (إسبوزينو) عن التحامل على الإسلام الذي يمارسه بعض الغربيين ، فقد قال: "لما ذا كان هناك اتجاه يصر على التقليل من الإسلام والنشاط الإسلامي بحيث يجعلونه مجرد تطرف وإرهاب ؟ فالعنف والحرب والإرهاب والظلم موجود في العالم المسلم كما هو موجود في أماكن أخرى من العالم ، وقد تم إسباغ الشرعية على هذه الأعمال في بعض المناسبات باسم الإسلام ، كما اكتسبت شرعيتها في مناسبات أخرى باسم المسيحية واليهودية ، و الأيديولوجيات العلمانية ، مثل الديمقراطية والشيوعية .

ويستطرد المؤلف ، مشيراً إلى أن الحملات على الإسلام والمسلمين تتجدد وتتخذ في كل مرة أنماطاً معينة ، فيقول : "وفي قلب سوء التفسير والتميط والمبالغة في الخوف من الإسلام الذي يمارسه الغرب نجد صداماً بين وجهات النظر ؛ فالأنماط الشائعة القديمة عن العرب والإسلام في مصطلحات البدو والصحراء والجمل وتعدد الزوجات والحريم وشيوخ البترول الأثرياء، تخلت عن مكانها لأنماط شائعة تصور الملالي يحملون البنادق ، والأصوليين الملتحين المعادين للغرب ، و النساء المحجبات" (١٨).

ويؤكد المؤلف على أن هذا التحامل على الإسلام والمسلمين لاتغذيه وسائل الإعلام الغربية بتقاريرها وعناوينها التي تثير التوجسات و المخاوف في نفوس الغربيين فحسب، وإنما يستند إلى اللغة العلمانية ونظرة الفكر

دراسات في الشاه الإسلامي

الحديث للدين بأنه أمر غير عادي وغير معقول وغير قابل للفهم و متطرف ومصدر للتهديد ، لمجرد أنه يختلف عن نموذج معياري حديث مقبول^(١٩). ويعزو الكاتب هذا الموقف المجحف من الإسلام إلى المفهوم الجديد للدين الذي تبلور بعد عصر النهضة في أوروبا ، فأصبح تعريف الدين منذ ذلك الوقت هو : أن الدين "نظام للإيمان مقيد في حدود الحياة الشخصية أو الخاصة، بدلاً من أن يكون أسلوب حياة"^(٢٠).

ويعترف الكاتب بأن هذا المفهوم للدين الذي تبناه الغرب قد نتج عنه عجز خطير في فهم طبيعة الإسلام وكثير من ديانات العالم ؛ لأنه اصطنع للدين مفهوماً خاصاً وجعل العنف جزءاً من طبيعة الدين ، و أعاد فرض مفهوم جامد عن التقاليد الدينية بدلاً من أن يكشف عن طبيعتها الداخلية الحيوية. وبالنتيجة فإن الدين الذي يختلط بالسياسة يبدو بالضرورة رجعيًا عرضة للتطرف و التعصب الديني، ومن ثمَّ يكون خطراً محتملاً، وبذلك اعتبر الإسلام في الغرب وبين كثير من ذوي العقلات العلمانية من المسلمين ظاهرة جامدة على المستوى المذهبي و الاجتماعي و الثقافي ، وبالتالي فهو ضد التقدم ورجعي^(٢١).

ومعظم الباحثين الغربيين وكذلك بعض الباحثين المسلمين المتعلمين في الغرب كانوا يرون المجتمعات الإسلامية من منظور نظرية للتطور مستقاة من قيم وتوجهات علمانية وغربية ، وحذا حذوهم المحللون الأكاديميون والحكوميون والإعلاميون ، و قد ساووا بين العلمنة والتقدم من ناحية، والدين والمحافظه والتخلف من ناحية أخرى، وهم في الغالب يرون أن البدائل المتاحة للتطور السياسي والاجتماعي في المجتمعات الإسلامية تظهر في شكل ثنائيات متصارعة وصفت بأنها صدام بين الحضارات : الشد والجذب بين التقليد والحداثة وبين الماضي والمستقبل ، وبين المدارس الدينية والجامعات ، وبين الحجاب والملابس الغربية^(٢٢).

داسات في الشأن الإسلامي

وحتى نكون منصفين مع أنفسنا ننبه إلى أنه يوجد في الصف الإسلامي متطرفون يُنظرون لِحتمية الصراع والمواجهة مع الغرب .
يقول الشيخ محمد تسخيري: " ولا نعدم في عالمنا الإسلامي من يصور العلاقة مع الغرب في ثنائية متنافرة تنافر الإسلام والجاهلية " (٢٣).
وقد لاحظ الشيخ تسخيري ، وهو يحلل موضوع العلاقة مع الغرب، ملاحظتين هامتين:

الأولى: وجود خلط واضح بين الإسلام كمنظومة قيم ، وبين المسلمين كأمة تعتق الإسلام ؛ فالواقع التطبيقي للإسلام ولمسيرته لا يعكس في كثير من الأحيان حقيقة القيم الإسلامية في جانبها العملي، و إن كانت روح القيم الإسلامية هي المحرك للتيار العام في العالم الإسلامي، كما أن السلوك الغربي لا يعني بالضرورة مطابقته للقيم المسيحية.
والملاحظة الثانية : افتراض معادلة باطلية ذات طرفين فقط في العلاقة بيننا وبين الغرب:

- الجانب الأول: هو أن تترك الساحة للقيم المتناقضة ، مما يؤدي إلى الصدام والصراع .
- والجانب الثاني في المعادلة هو اللجوء إلى المصلحة ، فيحدث التنازل عن القيم ، ويتم التعايش ، مما يعني الاغتراب عن الذات . (٢٤).

المبحث الثاني : الترويج لثقافة الصراع والكراهية

يجدر بنا - ونحن بصدد الحديث عن ثقافة الصراع - التنبه على أن التنظير للصراع وتأصيله ونشر ثقافة الكراهية الذي يجري على قدم وساق من قبل بعض المفكرين والجهات الثقافية والإعلامية في الغرب لم يأت من فراغ - كما سبق و أن ذكرت - وإنما يرتكز على تراث ثقافي مفعم بالكراهية الشديدة للإسلام والمسلمين ولنبي الإسلام ، والذي بدأ مبكراً منذ أن احتك المسلمون بالغرب ، وحسبنا أن نشير إلى طرف من التراث الثقافي الذي

دراسات في الشاهد الإسلامي

يفيض بالكراهية للإسلام وأتباعه ، فمن ذلك : ما ذكره (توما الأكويني) فيلسوف الكاثوليكية الأوروبية (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) في وصف رسول الإسلام بأنه الذي أوغر الشعوب من خلال وعوده الشهوانية ، وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة في التوراة والأنجيل، من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالة محمد ﷺ إلا المتوحشون من البشر الذين كانوا يعيشون في البادية (٢٥).

ويصف رائد البروتستانتية الأوروبية (مارتن لوثر كنج) (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) القرآن الكريم بأنه كتاب بغيض وفضيع وملعون ومليء بالكاذب والخرافات .. ، وأن على القساوسة أن يعلنوا أمام الشعب عن فظائع محمد حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضاً ليقوي إيمانهم بالمسيحية ولتتضاعف جرأتهم وبسالتهم في الحرب ضد الأتراك المسلمين ، و ليضحوا بأموالهم وأنفسهم في هذه الحروب (٢٦).

وهذا (دانتي) (١٢٩٥ - ١٣٢١م) صاحب الكوميديا الإلهية يضع رسول الإسلام وعلي بن أبي طالب في الحفرة التاسعة ، في ثامن حلقة من حلقات جهنم ؛ لأنهما كانا في الدنيا - كما يزعم - أهل شجار ونفاق (٢٧).

وأقوال المفكرين الغربيين التي تفيض بالكراهية للقرآن والرسول ﷺ كثيرة. يقول الدكتور محمد عمارة - بعد ما استعرض بعض صور الكراهية التي ذكرنا طرفاً منها - : إنها تكون أصولاً وجذوراً لثقافة الكراهية السوداء التي تسكن حيناً وتثور أحياناً إبان الأزمات بين الغرب والمسلمين، يحدث هذا بينما المسلمون يقدسون كل الكتب والشرائع والرسالات السماوية، ولا يفرقون بين أحد من رسل الله، ويتلون الآيات التي تقول عن التوراة والإنجيل أن فيها هدى ونوراً (٢٨).

الفصل الثالث

(التعامل مع الآخر الشريعة الإسلامية)

المبحث الأول: القاعدة العامة في التعامل مع الناس

لقد اهتم الدين الإسلامي بضبط العلاقة بين الناس على مبدأ الإحسان، فقد حث الشارع الحكيم على الإحسان، ورغب فيه بأساليب متنوعة، و أمر به في غير آية من القرآن الكريم، منها: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)، وقوله جل ثناؤه ﴿وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

وفي آيات متعددة يقرن المولى تبارك وتعالى الأمر بعبادته، الوصية بحسن معاملة خلقه، من ذلك قوله سبحانه تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣٦). والوصية بالإحسان هنا تعم المسلم الصالح والفاسق وكذلك الكافر، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٨٣).

يقول القرطبي عند تفسير هذه الآية: "وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليئلاً ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضى مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ (طه: ٤٤)؛ فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون وقد أمرهما الله تعالى باللين معه، وقال طلحة بن عمر:

دراسات في الشاه الإسلامي

قلت لعطاء : إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ، فقال: لا تفعل ؛ يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣). فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى، فكيف بالحنيفي! " (٢٩).

و بخصوص حسن التعامل مع غير المسلمين يقول الله تبارك و تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨)، وهذا يشمل كل أنواع البر.

يقول الإمام ابن القيم- رحمه الله تعالى - عند الاستشهاد بهذه الآية الكريمة - : "إن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة" (٣٠) كما ذكر القرطبي عن جعفر الصادق - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

يقول ابن العربي: قال علماؤنا: هذه الكلمة من ثلاث كلمات قد تضمنت قواعد الشريعة ؛ المأمورات والمنهيات ، حتى لم تبق حسنة إلا وضححتها، ولا فضيلة إلا شرححتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها ، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الإسلام الثلاثة :

فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ تولى بالبيان جانب اللين، ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكلفة.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيات ، وأنهما ما عرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه.

داسات في الشاه الإسلامي

وقوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفح بالصبر الذي به يتأتى للعبد كل مراد في نفسه وغيره " (٣١).

ويقول الإمام ابن القيم: "فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وسعتهم؛ فإن العفو ما عفي من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم، فهذا ما منهم إليه ، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف ، وهو ما تشهد به العقول، وتعرف حسنه ،وهو ما أمر الله به وأما ما يتقى به أذى جاهلهم فالإعراض عنه ،وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها، فأى كمال للعبد وراء هذا؟ وأي معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟ فلو فكر الرجل في كل شر يلحقه من العالم - أعني الشر الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة و الزلفى من الله - وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها، وإلا فمع القيام بها فكل ما يحصل له من الناس فهو خير له، وإن كان شراً في الظاهر ، فإنه يتولد من الأمر بالمعروف ولا يتولد منه إلا الخير، وإن ورد في حالة شر وأذى "

كما يذكر: أن من أسباب انشراح الصدر الإحسان إلى الخلق، ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه، والنفع بالبدن وأنواع الإحسان؛ فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرا وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً من البخيل الذي ليس في قلبه حب الإحسان إلى الناس (٣٢).

ومن التوجيهات الأساسية في معاملة الناس التي جاءت بها هذه الشريعة الغراء معاملة الناس بخلق حسن، كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

ولقد كان رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى في حسن الخلق والإحسان إلى الناس، وقد شهد له القرآن الكريم بذلك:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) كيف لا وهو الذي وصفته عائشة - رضي الله عنها - بأنه ﷺ " كان خلقه القرآن" (٣٣).

دراسات في الشاهد الإسلامي

وكان الحلم و اليسر والسماحة و الصفح عن الجاهل من سجيته ﷺ ،
قالت عائشة - رضي الله عنها : " ما خَيْرُ النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار
أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعدهما منه ، و والله ما انتقم
لنفسه في شيء يئوتى إليه قط حتى تُتَهَكَ حرمان الله فينتقم لله " (٣٤) .

يُروى أن رجلاً كان من اليهود اسمه "زيد بن سعنة" باع النبي ﷺ تماً إلى
أجل: " فلما كان قبل حلول الأجل بيومين أو ثلاثة قال أتيتُه "أي النبي ﷺ" "
فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ فقلت له: ألا
تقضييني يا محمد حقي فو الله إني علمت بأن بني عبد المطلب سيئ القضاء
مطل ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم ، ونظرت إلى عمر فإذا عيناه تدوران
في وجهه كالفلك المستدير ثم رماني ببصره، فقال عمر: يا عدو الله أتقول
لرسول الله ﷺ ما أسمع وتصنع به ما أرى فو الذي بعثه بالحق لولا ما
أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في
سكون وتؤدة وتبسم . ثم قال: (يا عمر أنا وهو كنا أحوج من أن تأمرني
بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة "الصبر"، اذهب به يا عمر فأعطه حقه
وزده عشرين صاعاً من تمر) فقلت أي «زيد» ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال
أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما نقتك. قلت أتعرفني يا عمر؟ قال:
لا، من أنت؟ قلت: زيد بن سعنة، قال: الحبر؟ قلت: الحبر قال: فما دعائك
أن فعلت برسول الله ﷺ ما فعلت؟ قلت له: يا عمر لم يكن له من علامات
النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين
لم أخبرهما منه : هل يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلاًماً
؟ فقد اختبرتهما فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً
وبمحمد ﷺ نبياً... الحديث" (٣٥) .

ولا غرو في ذلك فإنه ﷺ هو الذي قال : " إنما بعثت لأتمم مكارم
الأخلاق" (٣٦) .

داسات في الشاه الإسلامي

ومن هنا فقد توالفت في السنة النبوية الشريفة التوجيهات والإرشادات الداعية إلى حسن معاملة الناس التي تؤكد على أهمية حسن الخلق وإحسان التعامل في كسب القلوب وتأليفها، ومن جملة ما جاءت به السنة حديث الرسول ﷺ الذي رواه أبو ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: " اتق الله حيثما كنت و أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " (٣٧). وقوله ﷺ: " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعكم منهم بسط الوجه وحسن الخلق " (٣٨).

والإحسان إلى الناس يعني الحرص على كل ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ولا شك أن على رأس جميع المنافع والخيرات الإيمان الذي هو جماع الخير في الدنيا والآخرة. ولذلك نجد الرسول ﷺ حريصاً على هداية الناس جميعاً حتى إنه (كان يفرط في الحزن على كفر الناس فنهى عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ (فاطر: ٨) أي فلا تهلك نفسك حزناً على ضلالتهم وكفرهم بالله وتكذيبهم لك. وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦) (٣٩). وكان ﷺ يدعو لهم بالهداية حتى في أخرج وأصعب المواقف التي كان يلقاها من هؤلاء الكفار والمشركين.

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم: أنه دعا يوماً بعض القبائل فلم يلق منهم القبول فانطلق ﷺ مهموماً ، فجاءه جبريل فناده " فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً" (٤٠). وجاءه أصحابه وقالوا له: "يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله

دراسات في الشاهد الإسلامي

عليهم" لكنه بدل أن يدعو عليهم دعا لهم قائلاً: "اللهم اهد ثقيفاً" (٤١).
وقد بين ﷺ لأصحابه قيمة دعوة الناس في مواطن كثيرة، من ذلك أنه لما أرسل علي بن أبي طالب ﷺ إلى فتح حصون خيبر قال له: "انفذ علي رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم" (٤٢).

المبحث الثاني: المرتكزات الأساسية في التعامل مع الآخر في هذا العصر

إن إعادة النظر في ضبط العلاقة مع الآخر يمرّ عبر جملة من المنطلقات هي بمثابة القواعد المتينة التي يركز عليها التعامل ، ومن أهمها ما يلي :

١- التأكيد على أن أصل العلاقة مع غير المسلمين السلام، وليس العنف والحرب:

فالسلم اسمٌ من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ (الحشر: ٢٣)، وهو ما أوضحه رسول الله ﷺ بقوله: "إن السلم اسم من أسماء الله تعالى وضع في الأرض فأفشوا السلم بينكم"، ثم كرر هذا الاسم في الدعاء النبوي: "اللهم أنت السلم ومنك السلم تباركت يا ذا الجلال والإكرام" (٤٣).

وعبارة " السلم عليكم " و " وعليكم السلم ورحمة الله " هي التحية اليومية المتداولة بين المسلمين والعرب حتى في حاضرهم ، وهي من أفضل تحيات الأمم " لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدم على كل شيء ... فتضمنت السلامة نجات العبد من الشر وفوزه بالخير مع اشتقاقها من اسم الله (٤٤).

وكلمة الإسلام مشتقة من السلم والسلام ، و في مفهومها معنى الاستسلام لنواميس الكون ولسنن الله التي قدرها ، وهو ذات معنى المسالمة في معاملة الناس (٤٥).

داسات في الشاه الإسلامي

وقد ذهب جماعات العنف والإرهاب إلى أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هي : الحرب وليست السلم،

مستدلين بعمومات بعض الآيات والأحاديث، ومن الآيات التي استدلوا بها: قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ، وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخَذُوهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ ، وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦).

وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (التوبة: ٣٩).

يقول الماوردي : "أي لا يفتن بعضكم بعضاً" (٤٦).

ومن الأحاديث النبوية ، قوله ﷺ: " لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها" (٤٧)، وقوله ﷺ: " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها" (٤٨).

وقوله ﷺ: "جاهدوا المشركين بأموالكم ، وأيديكم وألسنتكم" (٤٩).

وبناءً عليه فقد قالوا: إن هذه النصوص تحث، وتبرر قتال المشركين، والكفرة لمجرد كفرهم وشركهم!!

وقد أخطأوا؛ لأن هذه النصوص يتعين حملها على نصوص أخرى، من باب حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص جمعاً بين الأدلة (٥٠).

ومن النصوص التي تحمل عليها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا

دراسات في الشاهد الإسلامي

في السِّلْمِ كَافَّةً، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿البقرة: ٢٠٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١).

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨).

وأما الأحاديث التي يستندون عليها فهي مقيدة بالأحاديث الأخرى التي تنهى عن قتل النساء، والشيوخ، والأجراء، والرهبان والنسائك، منها قوله ﷺ: "انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، واحسنوا إن الله يحب المحسنين" (٥١).

واستكر رسول الله ﷺ قتل امرأة مشركة، بقوله: "ما كانت هذه لتقاتل، أدرك خالداً، وقل له لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً" (٥٢).

والعسيف هو الأجير (٥٣)، الذي استأجره القوم، ولو كانت العلة هي الكفر لما أستثنى هؤلاء منهم؛ لأنهم كفرة مثلهم، فجعل النبي ﷺ علة النهي عن قتلها أنها لم تقاتل، ولو كانت علة قتل الكفار هو كفرهم لأمر بقتلها لأنها كافرة" (٥٤).

وأما قولهم: بأن مناط قتال الكفار هو كفرهم فباطل، لأنه يؤدي إلى إجبار الناس على اعتناق الإسلام وهو يتعارض مع قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦) وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

داسات في الشأن الإسلامي

٢- التعارف من أجل الاستفادة من التنوع البشري:

عندما يصدق النداء القرآني الكريم في أسماع الإنسانية منادياً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

فإنه يقرر وحدة الأصل البشري ويرشد الناس إلى ضرورة التعارف بين شعوبها وقبائلها من أجل الاستفادة من التنوع والتفاوت الذي هو من طبيعة الحياة الدنيا، ولا شك أن التعارف يمهد الطريق إلى التعايش الإنساني بين البشر .

ومن فوائد التعارف ونتائجه :

- أ- القبول بالآخر بجميع مكوناته .
- ب - السعي إلى التواصل مع الآخر .
- ج - التفاعل المثمر بين الشعوب .
- د - إفساح المجال لاطّلاع الآخرين على الإسلام .
- هـ- الإفادة من التنوع الثقافي والحضاري في العالم .

ولعل التجربة الغربية في عصر النهضة خير دليل على أهمية التعرف على العالم والاطلاع على ما فيه من خيرات وتراث ثقافي وحضاري ؛ فقد قادتهم الاكتشافات الجغرافية إلى التعرف على حضارات وثقافات شعوب العالم ومكنتهم من الاستفادة مما لدى الآخرين ، وفتحت لهم طريق السيادة والريادة في العالم .

٣ - الكرامة الإنسانية مكفولة لجميع البشر في الإسلام:

إن الإسلام قد كرم الإنسان ، وسخر له جميع ما في الكون . يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

روى البخاري في صحيحه: كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين

دراسات في الشاهد الإسلامي

بالقادية ،فمروا عليهما بجنازة،فقاما،فقيل لهما : إنها من أهل الأرض ،أي من أهل الذمة ، فقالا :إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام ، فقيل له :إنها جنازة يهودي ، فقال : أليست نفساً ؟(٥٥).

وجاء في دستور دولة المدينة الدولة الإسلامية الأولى الذي وضعه رسول الله ﷺ: "اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من اليهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن بطانة اليهود ومواليهم كأنفسهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا غير محاربين، على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر المحض من أهل هذه الصحيفة، دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه"(٥٦).

وجاء العهد الذي كتبه رسول الله ﷺ لنصارى "نجران" : "...وننجران وحاشيتها ولأهل ملتها ، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وتبعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .. أن أحمي جانبهم وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعتهم وبيوت صلواتهم ، ومواضع الرهبان ومواطن السماح حيث كانوا من بر أو بحر ، شرقاً وغرباً ، و بما أحفظ به نفسي و خاصتي و أهل الإسلام ملتي "(٥٧).

٤- وحدة الأصل الإنساني:

لقد قرر الإسلام منذ خمسة عشر قرناً أن البشر أصلهم واحد وربهم واحد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء: ١).

داسات في الشاه الإسلامي

ه- التخلص من الحقد الدفين :

من الضروري لإيجاد صيغة استراتيجية للتعامل مع الآخر - وخاصة في الغرب- التخلص من الحقد الدفين واطراحه جانباً ذلك الحقد الذي تكون نتيجة مرارات تراكمت عبر تاريخ طويل من الحروب والمواجهات؛ لأن من شأنه تجديد العداوة، وبقاؤه يخلف مشاعر سلبية في أغوار النفس تعرقل النهوض والتقدم الحضاري.

ويكفي دلالة على ضرورة اطراح الحقد موقف الرسول ﷺ يوم الفتح مع أهل مكة الذين أمعنوا في عداوته ، فبكلمة منه ﷺ أسست علاقة جديدة مع أعدائه ، بعيداً عن الحقد والانتقام عندما قال : " اذهبوا فأنتم الطلقاء" (٥٨).

وقد بين مالك بن نبي الجانب السلبي للحقد والعداوة في نفس الشعوب المستعمرة تجاه المستعمر قائلًا : " فإن نزعة معاداة الاستعمار لا تصلح أن تكون دافعاً سامياً يحرك الحضارة ويعطيها مثلها الأعلى ووثبتها الضرورية" (٥٩).

ثم أوضح ابن نبي أن نزعة العداوة تجاه الاستعمار قد تخلف مشاعر سلبية تقوم على حقد الشعوب التي قاست ظلم الطغاة ، منبهاً إلى أن الهدف ليس تخليص العالم من طغيان الكبار وإسلامه إلى الصغار.

ثم دلل بما شاهده في الشمال الأفريقي من آثار نفسية خلفها الاستعمار فقال: "إن الاستعمار لم يؤثر على الرجل المستعمر في مفهومه السياسي، أو في علاقاته الاجتماعية فحسب، بل لقد أثر عليه في أعماقه وفي تكويناته الأساسية حتى لقد وصل إلى روحه وإلى ضميره في صورة حالات ذهان، وحالات حرمان تشل عنده كل جهد خلاق، ولاسيما في أفريقيا الشمالية" (٦٠).

وبنظرة ملهمة يدرك المؤلف أن موقع المثقفين المسلمين الصحيح الذي يخولهم الريادة هو في معاضدة ومناصرة الاتجاه الإنساني والابتعاد عن

دراسات في الشأه الإسلامى

العنف حىث يقول : "فالمثقف المسلم نفسه ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الرحبة حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته في هذا الإطار العالمى... فعلى المربين في البلاد العربية والإسلامية أن يعلموا الشبببة كيف تستطيع أن تكتشف طريقاً فيه مواكبة الإنسانية، لا أن يعلموها كيف تواكب الروس أو الأمريكيين في طرائقهم أو كيفية تتبعهم" (٦١)

الفصل الرابع

(حقوق غير المسلمين في السلم والحرب)

المبحث الأول: حقوق غير المسلمين في الإسلام زمن السلم

لضيق المجال أكتفي بذكر أهم الحقوق التي ضمنها الإسلام لغير المسلمين من أهل الذمة والمعاهدين و المستأمنين فيما يلي:

(١) حق الحماية والأمن :

إن الإسلام قد أوجب على أتباعه حق الحماية والأمن لغير المسلمين بموجب عقد الذمة ، و عهد الأمان ، وجعله في ذمة الله وذمة رسوله ﷺ ليحظى بالتقدير والوفاء به .

وفي الخراج ذكر أبو يوسف أنه جاء في عهد النبي ﷺ لأهل نجران: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على أموالهم وملتهم وبيعتهم، وكل ما تحت أيديهم ، من قليل أو كثير ، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر" (٦٢).

يقول الرسول ﷺ: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً" (٦٣).

وفي رواية: "من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" (٦٤).

ومجرد أذيتهم ومضايقتهم محرم في الشريعة الإسلامية ، قال رسول ﷺ: "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه ، فأنا حججه يوم القيامة" (٦٥).

وروي عنه ﷺ أنه قال: "من آذى ذمياً فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله" (٦٦).

دراسات في الشاه الإسلامي

وعقد ابن حبان في صحيحه باباً بعنوان: "باب ذكر إيجاب دخول النار لمن أسمع أهل الكتاب ما يكرهونه" و مما رواه في هذا الباب قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من سمع يهودياً أو نصرانياً دخل النار" (٦٧). يقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : "إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماءهم كدمائنا" (٦٨)، وفي رواية عنه: "من كانت له ذمتنا قدمه كدمنا وديته كديتنا" (٦٩).

و يروى أن نصرانياً مرَّ بفرس له على عاشر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعشره، ثم مر به ثانية فهمَّ أن يعشره ثانية، فغضب النصراني، وقال له: كلما مررت بك عشرتني! فذهب متظلماً منه إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقص عليه القصة، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتاك الغوث، ثم نكس رأسه، فظن النصراني أنه استخف بظلامته، فرجع كالحائب، فلما انتهى إلى فرسه وجد كتاب عمر قد سبقه إلى العاشر أن خلَّ عن فرسه. وجاء في بعض الروايات أن النصراني أسلم بعد أن رأى هذا الموقف المنصف (٧٠).

٢) الدفاع عنهم حالة العدوان عليهم :

ذكر الفقهاء أنه يجب على الإمام حفظ أهل الذمة والدفاع عنهم والمنع من أذاهم؛ لأنهم بذلوا الجزية على ذلك. كما ذهب الشافعية والحنابلة إلى أن على الإمام استتقاذ أسراهم من بيت المال، وهو رأي بعض الحنفية أيضاً؛ لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام، وتأبد عهدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين (٧١).

ومن كتاب عمر للخليفة بعده: "وأوصيه بأهل ذمة المسلمين خيراً أن يوفى لهم بعهدهم ويحاط من ورائهم" (٧٢).

فالمسلمون ملزمون بالدفاع عنهم بموجب عقد الذمة، وبما يأخذون عنهم من الجزية مقابل ذلك.

لما دخل التتار بلاد الشام وقع بأيديهم كثير من الأسرى والمسلمين والنصارى واليهود، ثم تدخل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مع أمير

داسات في الشاه الإسلامي

التتار في أمر الأسرى وفك أسرهم ، فأجابه الأمير التتري إلى فك أسرى المسلمين فقط دون اليهود والنصارى ، فأبى شيخ الإسلام ذلك ، وقال له : لا بد من انفكاك جميع من معك من اليهود والنصارى ، والذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة " (٧٣) .

٣ - ضمان الحرية الدينية :

لا مجال لإكراه أحد من غير المسلمين على قبول الإسلام ؛ لقول الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ١٥٦) . والمسلمون مأمورون بتبليغ الدعوة للناس ، وإزالة الموانع التي تحول دون بلوغ الدعوة إلى الناس بالحكمة والموعظة والتي هي أحسن ، وقد جاء كتاب عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (القدس) :

"هذا ما أعطى عبد الله (عمر) أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتها ، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صليبها ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود" (٧٤) .

وقد اعترف المنصفون من المؤرخين والمستشرقين الغربيين بضمن المسلمين حرية الدين ، ومن هؤلاء المؤرخ الإنجليزي (توماس آرنولد) الذي قال : "لم نسمع أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى فيها (فرديناند وإيزابيلا) دين الإسلام من أسبانيا ... ، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم" (٧٥) .

دراسات في الشاه الإسلامي

وتقول المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكة): " إن عمراً فاتح الإسكندرية ، هو نفسه عمرو الذي ضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته ، وحرّم النهب والسلب والتخريب على جنوده، وعمل ما كان غريباً عن فهم الشرقيين القدامى والمسيحيين على سواء : لقد ضمن صراحة للمغلوبين حرية ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة " (٧٦).

وتقول أيضاً: "إن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام" (٧٧).

٤ - ضمان الحقوق الاجتماعية :

بموجب ما قرره الإسلام يشترك غير المسلم و المسلم في جملة من الحقوق الاجتماعية العامة ومن ذلك ضمان حرمة ديارهم وموطنهم، وحقهم في العيش في أوطانهم وحرية ممارسة عاداتهم وتقاليدهم وما يعتاشون به من أنواع المهن والأعمال، وقد فتح الإسلام باب العمل أمام الإنسان باعتباره حقاً اجتماعياً.

وللإنسان الحق في الأجر إذا عمل لغيره ، قال تعالى : ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ﴾ (القصص: ٢٦-٢٧).

ومما ضمنه الإسلام لأهل الذمة في الجانب الاجتماعي التكفل بكبار السن والفقراء والمرضى ، ومن أمثلة ذلك ما كتب الخليفة أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق ، وكانوا من النصارى - : "وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت عنه الجزية، وعيل من بيت مال المسلمين، هو وعياله" (٧٨)،

ومن ذلك ما جاء في كتاب عمر بن عبد العزيز -رحمه الله - إلى عامله

داسات في الشاه الإسلامي

عدي بن أرطاة: "وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه" (٧٩).
ويعترف المستشرق سيمان بأن "المسيحيين كانوا أسعد حظاً - في الغالب - تحت حكم جماعات المسلمين منهم تحت حكم ملوك الرومان حيث تمتعوا بحرية التجارة والعيش في ظلال الأمن، ولم يرهقهم المسلمون بالضرائب كما كانوا يعانون قبلاً" (٨٠).

٥ - الحق في العدالة مكفول للأخضرعاً:

لقد أمر الإسلام بالعدل وأوجبه، وحذر من الظلم، قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠).
وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

والحق في العدل ضمنه الإسلام لجميع رعايا الدولة الإسلامية مسلمين أو غير مسلمين، وجاء في خطاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: "أس بين الناس في مجلسك و في وجهك وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك" (٨١). والروايات والقصص عن عدل الإسلام تزخر بها كتب التاريخ من ذلك قصة الغلام القبطي الذي سابق ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه (والي مصر)، فلما سبقه القبطي ضربه ابن الوالي، فاشتكى القبطي إلى أمير المؤمنين (عمر) رضي الله عنه، فأعطى (عمر) الدرّة للقبطي وضرب خصمه ابن عمرو بن العاص، ثم خاطبهما بكلمته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!".

دراسات في الشاه الإسلامي

المبحث الثاني: (حقوق غير المسلمين زمن الحرب)

من خلال تأمل أحكام الشريعة الإسلامية نخلص إلى أن الإسلام لا يتشوف إلى الحروب ولا يدعو إليها ، بل ينبذها ويكرهها ، فقد قال ﷺ: "يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا" الحديث(٨٢) ولكن عندما لا يكون خيار غير الحرب فإن الإسلام فرض على المقاتل المسلم شروطاً تضبط سلوكه وتحفظ للخصم كرامته الإنسانية، جاء في وصية رسول الله ﷺ: " لا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا تعتدوا ولا تمثلوا(٨٣) وهذه الوصية صدرت قبل قرون طويلة من صدور اتفاقية جنيف في أسرى الحرب، وعلى درب رسول الله ﷺ سار أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومما جاء في وصيته لجيش المسلمين: " لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوا ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ، و سوف تمرن بقوم قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، و سوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم شيئاً منها فاذكروا اسم الله عليه " (٨٤).

ومن أهم التوجيهات التي أرشد الإسلام إليها المجاهد(٨٥):

١- الدعوة إلى الإسلام بالتي هي أحسن قبل القتال: ومما يدل على وجوب الإبلاغ قبل القتال حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً قط إلا دعاهم" (٨٦).

٢ - اجتناب الغدر والخيانة : فإن أحس المسلمون منهم خيانة فإنهم ينبذون إليهم عهدهم علناً ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ (الأنفال: ٥٤). وقد ضرب المسلمون أيام عزهم أمثلة رائعة في الوفاء بالعهد وتجنب الغدر.

ومن تلك الأمثلة الرائعة: أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز - رحمه

داسات في الشأن الإسلامي

الله- وفد عليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم و أسكنها المسلمين على غدر، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا إلى معسكرهم كما كان جند قتيبة و أهل سمرقند قبل أن يظهر عليهم قتيبة، فنصب إليهم جميع بن حاضر الناجي، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، و عندئذ لما رأى أهل مدينة سمرقند هذا رفضوا الحرب و أقروا المسلمين، فأقاموا بين أظهرهم^(٨٧).

٣- عدم الاعتداء في القتال: قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)، ووقف المسلمون الفاتحون عند هذا النهي القرآني.

ومما سطره التاريخ الإسلامي في هذا الشأن موقف القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين لما دخل القدس بعد أن ارتكبوا فيه من الجرائم البشعة ما يندى له جبين الإنسانية، وكان في القدس يومئذ ما يزيد على مائة ألف من النصارى بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وسمح لهم بالخروج من القدس آمنين مطمئنين ، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يوماً، ومنهم أربعة وثمانون لحقوا بإخوانهم في عكا وصور وصيدا وغيرها ، ولم يكتف بإعطائهم الأمان فحسب، بل أرسل معهم من يحميهم ويدافع عنهم و يوصلهم إلى أماكن الصليبيين في المناطق المذكورة، وهذا ما جعل بعض المؤرخين الإنجليز يقول: "إن صلاح الدين أعظم رجل على وجه الأرض"^(٨٨). ومثل صنيع صلاح الدين الأيوبي المبني على العفو والتسامح مع الصليبيين هو: ما فعله السلطان محمد الفاتح معهم عندما دخل القسطنطينية^(٨٩).

٤ - حماية الرسل: تكفل الإسلام بأمن الرسل والمبعوثين، وحظر على أتباعه التعرض لهم بسوء؛ و دليل ذلك أن رسولي مسيلمة الكذاب لما قالوا

دراسات في الشاه الإسلامي

لرسول الله ﷺ : نشهد أن مسيلمة رسول الله ، قال لهما رسول الله ﷺ :
"والله لو لا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما" (٩٠).

٥- تحريم قتل النساء والصبيان و الشيوخ وأمثالهم ممن يعتزل القتال،
فإن أشترك هؤلاء في الحرب برأي أو تدبير أو مال أو قتال كان حكمهم
حكم المقاتلين (٩١).

٦- تحريم التمثيل بالقتلى : حرم الإسلام المثلة ضمن وصايا رسول الله
ﷺ للمجاهدين : " و لا تمثلوا" (٩٢)، وقال عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " ما خطبنا
رسول الله ﷺ إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة " (٩٣).

وهذا ما شهد به الآخرون من أمثال المستشرق (غوستاف لوبون) الذي
قال: "إن الأمم لم تعرف فاتحين أرحم من العرب، ولا ديناً متسامحاً مثل
دينهم" (٩٤).

المبحث الثالث: (نماذج من تعامل الآخر مع المسلمين)

لقد تبين لنا مما سبق أن المسلمين قد بلغوا شأواً بعيداً في حسن معاملة
غير المسلمين، كما أنهم التزموا بأداب الحرب مع المحاربين وفي هذا المبحث
نستعرض بعض النماذج من تعامل الآخر مع المسلمين- على سبيل المثال
فقط-

- ارتكب الغرب مجازر وحشية عندما زحفوا على بلاد الشام وفلسطين
خلال الحروب الصليبية، كما شهد بذلك مؤرخو الغرب أنفسهم، منهم
(غوستاف لوبون) الذي قال: " كان أول ما بدأ به ريتشارد قلب الأسد ملك
انجلترا أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه،
بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف
القتل والسلب، مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل، الذي رحم نصارى
القدس، فلم يمسهم بأذى، والذي أمدَّ فيليب ملك فرنسا ريتشارد قلب الأسد

داسات في الشأن الإسلامي

بالثلج والأدوية والأزواد أثناء مرضهما "(٩٥).

" ولم يكد يمضي على سقوط غرناطة اثنان وثلاثون سنة حتى أصدر البابا أمره عام ١٥٢٤م بتحويل جميع مساجد أسبانيا إلى كنائس "(٩٦).

- لما وصلت جيوش الصليبيين إلى " معرة النعمان " في سورية حاصروها حصاراً شديداً حتى اضطر أهلها للاستسلام، بعد أن أخذوا عهداً وموathيق من القادة الصليبيين بالمحافظة على الأنفس والأعراض والأموال، لكنهم ما أن دخلوا المدينة حتى بدؤوا يعيشون فيها فساداً، وقدر بعض المؤرخين الإنجليز الذين كانوا برفقة هذه الحملة عدد الذين قتلهم الصليبيون بمائة ألف من المدنيين الأبرياء(٩٧).

- ما فعله المغول والتتار بالمسلمين وأموالهم فحدث عنه ولا حرج .

يقول ابن تيمية: "هؤلاء القوم (يعني التتار) جازوا على الشام في المرة الأولى عام تسعة وتسعين وستمائة، وأعطوا الناس الأمان، وقرؤوه على المنبر بدمشق، ومع هذا فقد سبوا من ذراري المسلمين ما يقال: إنه مئة ألف أو يزيد عليه، وفعلوا في بيت المقدس وجبل الصالحية ونابلس وحمص وداريا، وغير ذلك من القتل والسبي ما لا يعلمه إلا الله، حتى يقال: إنهم سبوا من المسلمين قريباً من مئة ألف، وجعلوا يفجرون بخيار نساء المسلمين"(٩٨).

- أما مظالم الشيوعيين ضد المسلمين العزل في بلاد ما وراء النهر فليست بأقل بشاعة مما فعله الصليبيون والتتار آنذاك.

- رأينا في عصرنا الحاضر وسمعنا المجازر التي ارتكبت ضد المسلمين، سواء أكانت في صبرا وشاتيلا، أم في غيرها من الأراضي الفلسطينية، أم كانت في بلاد البلقان، ولا تزال المجازر مستمرة في الأراضي الفلسطينية على مرأى من العالم ومسمع.

- يضاف إلى ذلك المجازر التي حصلت في معظم البلاد الإسلامية عند احتلالها، ونهب ثرواتها من قبل المستعمرين لعشرات السنين، وأحدثها ما

دراسات في الشأه الإسلامى

ىجرى فى أفغانستان والعراق.

- هذا فىض من غىض مما فعله الآخر بالمسلمىن جهاراً نهاراً، فضلاً عن المؤامرات التى تحاك ضدهم وراء الكوالىس، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠).

الخاتمة

- وفي الختام هذه أهم نتائج البحث:
- الثقافة لها تأثير كبير على الإنسان تطبع توجهه و أسلوبه في الحياة ، و تكون مصدر إلهام لتصوراته، كما أنها تمثل الرباط العضوي بينه و بين وسطه و مجتمعه .
 - أن الحديث عن العلاقة مع الآخر لا يصح أن يطلق على أساس ردة فعل واستجابة لظروف معينة و نتيجة لأعمال خاطئة
 - أن فكرة الصراع بين الحضارات والثقافات غريبة المنشأ ، و الإسلام لا يقرها
 - أن النظريات التي تؤصل لفكرة الصراع بين الإسلام و الغرب استمدت مضامينها من ثقافة الصراع والكرهية التي سادت طوال فترات المواجهة مع المسلمين
 - أن مفهوم الدين الذي تبناه الغرب نتج عنه عجز خطير في فهم طبيعة الإسلام ؛ لأنه اصطنع للدين مفهوما خاصا وجعل العنف جزءاً من طبيعة الدين
 - معظم الباحثين الغربيين وأغلب الباحثين المسلمين المتعلمين في الغرب يرون المجتمعات الإسلامية من منظور نظرية للتطور مستقاة من قيم وتوجهات علمانية وغربية
 - من غرائب الأمور أن المتطرفين الذين يسعون إلى تأجيج الصراع و تأصيله في العالم من كلا الطرفين ؛ يتخذون الدين و العقيدة وسيلة لتبرير الحروب
 - من المبادئ الأساسية التي أرساها الإسلام في مجال التعامل بين بني البشر مبدأ الإحسان إلى الخلائق

دراسات في الشأه الإسلامى

- أصل العلاقة مع غير المسلمين هو السلام والسلم، وليس العنف والحرب
- الكرامة الإنسانية مكفولة لجميع البشر في الإسلام
- التنوع الثقافى والحضارى فى العالم أمر إيجابى يجب الحفاظ عليه والإفاده منه
- الدعوة إلى الإسلام تكون بالتي هي أحسن
- الحق فى العدالة مكفول للأخر شرعاً
- فرض الإسلام على أتباعه التقيد بأخلاقىات الحرب مع الأخر

وأخر دعوانا ﴿أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ١٠)، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش

- (١) دروس في العلم الجنائي ، مصطفى العوجي ٢٠٠/٢- ٢٠١ .
- (٢) انظر : القاموس السياسي ، أحمد عطية ص ٥٤ ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨م ، دار النهضة العربية .
- (٣) السياسة الجنائية: دروس في العلم الجنائي، مصطفى العوجي ٢٠٠/٢- ٢٠١ . طبعة ١٩٨٧م، مؤسسة نوفل-بيروت.
- (٤) الإرهاب والعنف السياسي ، أحمد جلال عز الدين ص ١٦٥ ، طبعة ١٩٨٦م ، دار الحرية - القاهرة .
- (٥) الإدارة والتخطيط الإستراتيجي ، عايدة سيد خطاب ص ٣٩ ، الطبعة الأولى - دار الفكر العربي .
- (٦) انظر: المشكلات الاجتماعية والسلوك الإجرامي ، نعيم سمير ص ٣٢ ، طبعة ١٩٨٨م، مؤسسة العروبة للطباعة والنشر.
- (٧) مقومات الإستراتيجية الأمنية ، المحارب محمد عبد العزيز ص ١١٨ ، طبعة ١٩٨٨م، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب - الرياض .
- (٨) الإستراتيجية الإدارية ، محمد طاهر ص ١٣٥ ، طبعة ١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة- بيروت .
- (٩) انظر : لسان العرب (ثقف) ، و القاموس المحيط ، ص ٧٣٣ ؛ و العين ٥ / ١٣٩ ؛ و مختار الصحاح ١ / ٣٦ ؛ و المغرب ١ / ١١٨ ؛ و التعاريف ١ / ٢٢١ ؛ و معجم مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٩٠ .
- (١٠) انظر : مشكلة الثقافة ، مالك بن نبي ، ص ٢٨ .
- (١١) مشكلة الثقافة ، ص ٧٤ .
- (١٢) الموسوعة العربية العالمية ، حرف الثاء ، ص ٣٩ .
- (١٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ .
- (١٤) مشكلة الثقافة ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .
- (١٥) انظر : لسان العرب مادة (آخر) .
- (١٦) نحن و الآخر ، بحث مقدم لمؤتمر مجمع الفقه الإسلامي في دورته السادسة عشرة ٩ - ١٤ / ٤ / ٢٠٠٥ م .
- (١٧) نقلها عن كتاب : دراسة في التاريخ " لتوينبي " الدكتور جعفر عبد السلام . انظر : الإسلام وحوارات الحضارات، ص ٣٦ ، إصدار رابطة الجامعات الإسلامية (سلسلة فكر المواجهة ٢) ، ط ١ / ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠٢م .
- (١٨) التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .
- (١٩) انظر: المرجع نفسه ، ص ٣٥١ .
- (٢٠) المرجع نفسه ، ص ٣٥٤ .

دراسات في الشاه الإسلامي

- (٢١) المرجع نفسه ، ص ٣٥٥ .
- (٢٢) انظر : المرجع نفسه ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .
- (٢٣) تصحيح صورة الآخر بين العالم الإسلامي والغرب ، ص ٩ ، بحث من إعداد الشيخ محمد علي تسخيري ، الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، مقدم للدورة السادسة عشرة لمؤتمر مجمع الفقه الإسلامي ، ٩ - ١٤ / ٤ / ٢٠٠٥ بدبي .
- (٢٤) انظر: المصدر السابق ، ص ١١ .
- (٢٥) انظر: صورة الإسلام في التراث الغربي ، ثابت عبد ، ص ٣٢ ، طبعة ١٩٩٩ ، القاهرة .
- (٢٦) المصدر نفسه ، ص ٢١ .
- (٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- (٢٨) انظر: صورة الإسلام في الخطاب الغربي ، مقال الدكتور محمد عمارة ، مجلة المجتمع ، العدد (١٦٦١) ، ١٣ / ٦ / ١٤٢٦ هـ .
- (٢٩) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٦ .
- (٣٠) أحكام أهل الذمة ١ / ٦٠١ .
- (٣١) أحكام القرآن ، ٢ / ٨٢٦ .
- (٣٢) انظر : زاد المعاد ، ٢ / ٢٦ .
- (٣٣) رواه : أحمد في مسنده ٦ ، ٩١ / ١٦٣ ، و الطبراني في الأوسط ، ١ / ٣٠ .
- (٣٤) رواه البخاري في كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود و الانتقام لحرمة الله ، ٦ / ٢٤١٩ .
- (٣٥) رواه الحاكم في المستدرک في ٢ / ٣٧ ، وفي ٣ / ٧٠٠ .
- (٣٦) رواه : أحمد في ٢ / ٣٨١ ؛ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠ / ١٩١ ؛ والقضاعي في مسند الشهاب ٢ / ١٩٢ .
- (٣٧) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في معاشره الناس ، ٤ / ٣٥٥ ، و الدارمي في سننه ٢ / ٤١٥ ؛ والحاكم في المستدرک ، ١ / ١٢١ .
- (٣٨) مسند أبي يعلى ، الحديث (٦٥٥٠) ، المستدرک للحاكم ، الحديث (٤٢٨) و صححه الحاكم ، و حسن إسناده ابن حجر في فتح الباري ١٠ / ٤٥٩ .
- (٣٩) وانظر : جامع البيان (تفسير الطبري) ٢٢ / ١١٨ ؛ الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٢٨٥ ؛ وتفسير ابن كثير ٢ / ١٣٠ .
- (٤٠) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم أمين ... ، ٣ / ١١٧٨ ؛ و مسلم في كتاب الجهاد و السير ، باب ما لقي النبي (من أذى المشركين والمنافقين) ٣ / ١٤٢٠ .
- (٤١) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه ٦ / ٤٣١ ، و ٧ / ٤١١ ؛ و أحمد في مسنده ٣ / ٣٤٣ .
- (٤٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب علي بن أبي طالب ٣ / ١٣٥٧ ؛ و مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ٤ / ١٨٧٢ .

داسات في الشأن الإسلامي

- (٤٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ رقم ٢٠١١ - ج ٢ - رقم ٦٦٠٣ .
- (٤٤) انظر : أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية ١٩٣/١
- (٤٥) القانون والعلاقات الدولية في الإسلام ، د . صبحي الحمصاني : - دار العلم للملايين ١٩٨٢ ص ٥٠ .
- (٤٦) الأحكام السلطانية ص ٨٣ .
- (٤٧) متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه ، ٢٧٩٢/٦ ، ومسلم في صحيحه ، ١١٢/٣ .
- (٤٨) متفق عليه المصدرين السابقين ، وانظر : نيل الأوطار ، الشوكاني ٢٤٦/٧ .
- (٤٩) رواه الإمام أحمد في المسند ١٢٤/٣ ، وأبوداود في السنن ٢٥٠٤/٣ ، والنسائي في السنن ٧/٦ .
- (٥٠) انظر : التفجيرات والتهديدات الإرهابية ، للدكتور حسين حامد حسان ص ٥٠ .
- (٥١) رواه أبوداود في السنن ١٦١٤/٣ .
- (٥٢) رواه الإمام أحمد في المسند ١٧٨/٤ ، وأبوداود في السنن ٢٦٦٩/٣ .
- (٥٣) انظر: نيل الأوطار ، للشوكاني ٢٩٢/٧ .
- (٥٤) تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء ، لحمدي عبدالرحمن عبدالعظيم وآخرين ص ٧٧ .
- (٥٥) كتاب الجنائز، باب من قام لجنزة كافر ١ / ٤٤١ .
- (٥٦) د. محمد حميد الله الحيدر آبادي - جمع وتحقيق - (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص ١٧-٢١ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.
- (٥٧) جاء ذلك ضمن كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى نصارى نجران ، وكذلك كتاب أبي بكر الصديق ، و كتاب عمر - رضي الله عنهما - إليهم . انظر كتاب السير لمحمد بن الحسن الشيباني، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
- (٥٨) انظر : الرحيق المختوم للمباركفوري - ص ٤٥٦ .
- (٥٩) مشكلة الثقافة ص ١٠٦ .
- ٦٠ المصدر السابق ، ص ١٠٧ .
- (٦١) المصدر السابق ، ص ١١٧ ، ١١٨ .
- (٦٢) الخراج : ص ٧٢ ٧٣ .
- (٦٣) رواه البخاري في مواضع ، منها : أبواب الجزية والموادعة ، باب إثم من قتل معاهداً ٣ / ١١٥٥ ؛ و ابن ماجه في الديات، باب من قتل معاهداً ٢ / ٨٩٦ ؛ و أحمد في ٢ / ١٧١ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعاً .
- (٦٤) أخرجه ابن الجارود في المنتقى ص ٢١٢ ؛ و الحاكم في المستدرک ٢ / ١٣٧ ؛ والبيهقي في السنن الكبرى ٨ / ١٣٣ .
- (٦٥) أخرجه أبوداود في كتاب الامارة والخراج و الفيء ، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات ٣ / ١٧٠ ؛ والبيهقي في السنن الكبرى ٩ / ٢٠٥ .
- (٦٦) ذكره ابن القيم ضمن الأحاديث الباطلة في المنار المنيف ، ص ١٢٣ ؛ و نقد المنقول ، ص

دراسات في الشاه الإسلامي

. ١١٤

- (٦٧) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١١ / ٢٣٨ .
- (٦٨) استشهد به الحنفية في كتبهم ، كما في المبسوط ٢٦ / ٨٥ ؛ والهداية ٢ / ١٣٦ ؛ و بدائع الصنائع ٧ / ١١ ؛ كما استشهد به ابن قدامة في المغني ٩ / ٢٨٩ ؛ وقال عنه الزيلعي : " غريب " نصب الراية ٣ / ٢٨١ .
- (٦٩) رواه - ضمن قصة - : الشافعي في مسنده ، ص ٣٤٤ ؛ و الدارقطني في سننه ٢ / ١٤٧ (٧٠) انظر : كتاب الخراج ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ؛ و شرح الجامع الصغير ، ل ٩٨ (٧١) انظر : فتاوى السفدي ٢ / ٧٣٠ ؛ والإقناع في شرح أبي شجاع للشريبي ٢ / ٥٥٩ ؛ و المبدع ٣ / ٣٩٧ ، ٤٢٨ ؛ والإنصاف ٤ / ٢٢٨ ، ٢٤٧ ؛ و كشف القناع ٣ / ١٣٩ ؛ و كتاب الأموال لأبي عبيد ص ١٢٧ .
- (٧٢) المصدر نفسه .
- (٧٣) ندوة المحاضرات ، موسم حج عام ١٣٨٩ ، محاضرة الشيخ الصواف ، ص ٣٣٨ .
- (٧٤) تاريخ الطبري ، دار المعارف بمصر ، ج ٣ ، ص ٦٠٩ .
- (٧٥) منهج الإسلام في الحرب والسلام ، لعثمان جمعة ضميرية ، ص ٦٥ ، نقلاً عن الدعوة إلى الإسلام ، لتوماس آرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم و آخرين ، ص ٩٨ - ٩٩ .
- (٧٦) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٦٣
- (٧٧) المرجع نفسه ، ص ٣٦٤ .
- (٧٨) الخراج ، لأبي يوسف ، ص ٣٠٦ .
- (٧٩) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٤٥ - ٤٦ .
- (٨٠) صراع العرب خلال العصور ، لمحمد عبد الغني ص ٤٦ .
- (٨١) أخبار القضاة ، لوكيع ، ١ / ٢٨٣ - ٢٨٤ ، عالم الكتب ، بيروت .
- (٨٢) رواه البخاري في مواضع ، منها : كتاب الجهاد ، باب لا تمنوا لقاء العدو ٣ / ١١٠١ ؛ و مسلم في الجهاد ، باب كراهية تمني لقاء العدو ٣ / ١٣٥٦
- (٨٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد ، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها ٣ / ١٣٥٧ ؛ ومالك في الموطأ ٢ / ٤٤٨ ؛ والترمذي في السير ، باب ما جاء في وصيته صلى الله عليه وسلم في القتال ٤ / ١٦٢ ؛ وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب دعاء المشركين ٣ / ٣٧ ؛ وابن ماجه في كتاب الجهاد ، باب وصية الإمام ٢ / ٩٥٣ ؛ و ابن حبان ١١ / ٢٤ .
- (٨٤) أخرجه مالك في الموطأ ٢ / ٦ ، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥ / ٢٢٠ (٩٤٣٠) ؛ والبيهقي في السنن الكبرى ٩ / ٨٥ ، راجع كنز العمال ٢ / ٢٩٥ ٢٩٦ .
- (٨٥) أعرضت عن إيراد الأدلة واختلافات العلماء في بعض النقاط تحاشياً للتطويل ؛ و اقتصرت هنا على ما تقتضيه طبيعة هذا البحث .
- (٨٦) رواه : أحمد في ١ / ٢٣١ ، ٢٣٦ ؛ والدارمي في سننه ٢ / ٢٨٦ ؛ وأبو يعلى في مسنده ٤ / ٣٧٤ ، ٤٦٢ ؛ والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣ / ٢٠٧ ؛ و الحاكم في ١ / ٦٠ .

داسات في الشأن الإسلامي

- (٨٧) انظر: تاريخ الطبري ٤ / ٦٩ ؛ و فتوح البلدان للبلاذري، القسم الثالث، ص ٥١٩ .
- (٨٨) محاضرة الشيخ الصواف، ص ٣١٧ .
- (٨٩) انظر: المزيد من تسامح المسلمين مع غيرهم في حروبهم كتاب الدعوة للإسلام، للمستشرق آرنولد، و الإسلام وأهل الذمة، للخربوطلي .
- (٩٠) أخرجه: أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الرسل ٣ / ٨٣؛ و أحمد ١ / ٣٩٦؛ و في الحاكم في ٢ / ١٥٥،
- (٩١) انظر الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي ٦ / ٤٢١ .
- (٩٢) سبق تخريجه .
- (٩٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب النهي عن المثلة ٣ / ٥٣؛ والدارمي في سننه ١ / ٤٧٨؛ و أحمد في ٤ / ٤٢٩؛ و الحاكم ٤ / ٣٤٠
- (٩٤) حضارة العرب، ص ٧٢٠ .
- (٩٥) نقلاً من كتاب: الشريعة والقانون الدولي، لعلي علي منصور، ص ٢٩٢
- (٩٦) محاضرة الشيخ محمد محمود الصواف، ص ٣١٨ .
- (٩٧) انظر: المصدر نفسه، ص ٣١٢ .
- (٩٨) انظر: فقه الجهاد، بتحقيق زهير شفيق الكبي، ص ١٣٢



دراسات في الشأه الإسلامى

التمييز ضد المسلمين في الغرب دراسة في الحالة البريطانية

د. عزام بن محمد ناجي التميمي

مدير معهد الفكر السياسي الإسلامي - لندن



دراسات في الشأه الإسلامى

مقدمة

في الرابعة من فجر يوم الجمعة الثاني من يونيو (حزيران) ٢٠٠٦ استيقظ عبدالقهار على بكاء أخيه الصغير الذي بدا مذعوراً وكأنها صحا لتوه من كابوس مرعب، إلا أن الكابوس المرعب لم يكن ما رآه النائم، بل ما سيتعرض له اليقظان.

خرج عبد القهار من غرفته متمسكاً طريقه إلى غرفة شقيقه ليقف على ما انتابه، فإذا بجلبة في رواق الدار، وإذا به يرى في أسفل الدرج أشباحاً.

ما أن خطا خطوة إلى الأمام حتى أصابه عيار ناري اخترق الجانب الأيمن من صدره وخرج من ظهره من الجهة الأخرى ليستقر في الجدار، تبادر إلى ذهنه مباشرة أن منزل عائلته يتعرض لعملية سطو على أيدي مسلحين مقنعين ومتلفحين بالسواد، وضع إحدى يديه على صدره حيث أصيب ووقع أرضاً على رأس الدرج، لم يلبث بعيداً حتى عاجله أحد المتسللين إلى البيت بركلة في وجهه وهم أن يتبع ذلك بضربه على رأسه بسلاح كان في يده إلا أن عبد القهار تلقى الضربة بيده وهو يصيح "أرجوك لاتقتلني". جره رجلان إلى أسفل الدرج، وهو يهيب بهما ألا يلحقا به مزيداً من الأذى، وكلما نزل درجة ارتطم رأسه بحافتها. دفعاً به إلى خارج البيت الذي اختفى بابه تماماً، وألقيا به على رصيف الشارع، وكلما هم بالكلام أوسعاه ضرباً وأسمعاه من الكلام أقذعه، لم يكن هؤلاء لصوصاً بل كانوا من عناصر الأمن، وكانوا بعضاً من مائتين وخمسين رجلاً من الأمن حاصروا البيت واقتحموه بينما كان الحي بأكمله يغط في سبات عميق، ما لبث باقي أفراد العائلة البنغالية المسلمة أن اقتيدوا من أسرتهم الواحد تلو الآخر وهم يبكون ويصيحون: "ويحكم، ماذا دهاكم، ما الذي تفعلون." ارتفع عويل الأم وهي ترى ولدها الآخر يناله على أيدي الشرطة بعضاً مما نال أخاه من الركل والشتم، وإن

دراسات في الشاه الإسلامي

كان قد أفلت من نيران أسلحتهم الفتاكة، انفطر قلبها على ولدها النازف، ولم تجد مع زوار الفجر نفعاً كل توسلاتها بأن أخبرونا ماذا حدث، ماذا جنت أيدينا، ولماذا هذا الذي يجري.

اقتيد الأخوان مقيدين، بعد أن ألقى القبض عليهما، فأما المصاب النازف من جرحه العميق فنقل إلى سيارة إسعاف انطلقت به إلى المشفى للعلاج الطارئ بينما أخذ الآخر في حافلة الاعتقال إلى محطة شرطة بادينتونغون غرين، التي تجري فيها في العادة التحقيقات مع المشتبه بتورطهم في قضايا الإرهاب.

وما أن طلع النهار، وأفاق الحي على الغزو الأمني الذي أغلق الجوارب بأكمله، حتى بدأت تتضح دوافع الهجوم، أعلن متحدث باسم شرطة سكوتلانديارد بأن الهجوم جاء بعد فترة طويلة من الرصد والتحري، وبناء على معلومات استخباراتية مؤكدة بأن المنزل المستهدف كان مصنعاً لأسلحة كيماوية فتاكة، وأن عبدالقاهر وأخاه يعملان لصالح منظمة إرهابية تستهدف العباد والبلاد بسوء، وبعد أسبوع كامل من الاستجواب المكثف، وبعد أن قلب بيت عائلتهما رأساً على عقب ولم تبق فيه خشبة على أختها، وجرفت حديقة منزلهم، وتحولت جدران المنزل وسقوف غرفه إلى مناخل من كثرة ما حفرت فيها من الثقوب بحثاً عن الأسلحة الكيماوية المزعومة، أطلق سراح الأخوين دون توجيه أي تهمة مساء الجمعة التاسع من يونيو (حزيران) ٢٠٠٦م.

شكلت الحادثة من أولها لآخرها، ولم تكن ذيولها قد انتهت بعد حين إعداد هذه الورقة، فضيحة كبرى للأجهزة الامنية البريطانية وإحراجاً كبيراً لحكومة رئيس الوزراء طوني بليير، فمن الزعم بوجود معلومات استخباراتية دقيقة ثبت أنها مفبركة ولا أساس لها من الصحة، إلى استخدام أساليب غير مسبوقة في بريطانية روعت الأمنين وقضت مضاجعهم، إلى إطلاق نار

داسات في الشأن الإسلامي

دونما مبرر على الإطلاق الأمر الذي كان يمكن أن يؤدي بحياة رجل بريء لم تقترب يده سوءاً، كانت تلك سلسلة من الأخطاء التي ما ينبغي أن تصدر عن يفترض فيهم الحفاظ على أمن المواطنين وتعزيز الاستقرار في البلاد. إلا أن هذه كلها ليست المشكلة الأكبر فيما حدث، بل إن ما بات يشغل بال المسلمين في بريطانيا أكثر من أي شيء آخر هو المسلك العنصري الذي انتهجه رجال الأمن في تنفيذ المهمة المناطة بهم، والنفس العنصري الكريه الذي تحدث به بعض المعلقين في الأيام الأولى للأزمة مبررين ما جرى وكأنما المسلم في هذه البلاد متهم حتى تثبت براءته. ليست المشكلة فيما صدر عن خصوم الإسلام من كتاب صهاينة ويمينيين متطرفين، فهؤلاء عرف عنهم حقدهم وتجنبيهم ومجانبتهم للإنصاف وعدم اهتمامهم بتحري الحقيقة، وإنما المشكلة الحقيقية تكمن فيما كشفتها هذه الحادثة، أو أكدته، من عنصرية بنوية خطيرة في داخل الأجهزة الأمنية، كشف بعضاً من حيثياتها الشقيقتان الضحية في مؤتمر صحفي عقده بوجود فريق من المحامين ومندوبي المنظمات الأهلية الحقوقية وجمهرة كبيرة من الإعلاميين يوم الثلاثاء الثالث عشر من حزيران (يونيو). مجمل ما يستتج من القصة التي رواها الشقيقتان أن لون بشرتهما ومظهرهما الإسلامي المحافظ كانا العاملين الأهم في سوء المعاملة والازدراء الذي لقياه والعائلة أثناء الحملة الأمنية.

من المفارقات العجيبة أن انعقاد المؤتمر الصحفي لعبد القهار وشقيقه تصادف مع احتفال اليهود في بريطانيا بمرور ثلاثمائة عام على ذلك اليوم الذي سمح لليهود فيه لأول مرة بأن يعيشوا بشكل رسمي في البلاد وأن يمارسوا طقوسهم فيها بحرية بعد عقود طويلة من الاضطهاد والاحتقار، مع أن ذلك المرسوم الملكي الذي رفع القيود عنهم لم يحممهم من سياط التمييز العنصري والديني التي استمرت تفتح جلودهم وتنغص عليهم حياتهم، وتلجئهم إلى الاندماج ثم الذوبان القسري في المجتمع، إلى ما قبل الحرب

دراسات في الشاه الإسلامي

العالمية الثانية بدءاً من اليهود إلى الإيرلنديين، ومن الأفارقة إلى الكاريبيين، وانتهاءً بالعرب والمسلمين، يثبت الإنسان البريطاني الأبيض "النصراني" بأنه غير قادر على تقبل الآخر بسهولة، ذلك الآخر المخالف لوناً أو عرقاً أو لغة أو ديناً. وتثبت الأحداث عبر القرون الثلاثة الماضية بأن العنصرية والتمييز ضد الآخر في بريطانيا أمر قديم متجدد، لم تقض عليه الحداثة، وإن كانت قد خففت من غلوائه قليلاً، ورغم أنها عنصرية ضد الآخر بمختلف ألوانه وأجناسه، إلا أنها تكاد تتركز اليوم حصرياً على المسلمين، الذين يظلون الفئة الوحيدة تقريباً التي لا يحميها القانون بشكل فعلي ضد التمييز.

تاريخ المسلمين في بريطانيا

إذا كان اليهود اليوم يحتفلون بمرور ثلاثمائة عام على السماح لهم بالوجود بشكل رسمي ومكشوف في بريطانيا، فإن بداية التواجد الإسلامي في بريطانيا تعود جذورها إلى ما قبل ثلاثة قرون أيضاً، حينما بدأ يتردد على البلاد البريطانية منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي أعداد من البحارة المسلمين المنحدرين من أصول يمنية، أو من جيء بهم من شبه القارة الهندية (وبشكل خاص من أقاليم كوجورات والسند وآسام والبنغال) حيث كانوا يعملون مع "شركة الهند الشرقية". وبمرور الزمن أخذ بعض هؤلاء البحارة يشكلون بؤراً سكنية خاصة بهم بالقرب من الموانئ البريطانية التي كانوا يحطون بها، ولكن بشكل خاص في تلك التي تقع في العاصمة لندن. كان يطلق على هؤلاء البحارة اسم "لاسكار" وقدر عددهم في عام 1842م بحوالي ثلاثة آلاف، وبعد أن فتحت قناة السويس للملاحة في عام 1869م استقرت مجموعات من البحارة اليمنيين في مدن كارديف، وليفربول، ولندن، وساوث شيلدز وتاين سايد، حيث أسسوا عدداً من الزوايا يقيمون فيها الصلاة ويمارسون شعائرهم وبعض تقاليدهم المتعلقة بمراسيم النكاح، والعقيقة، والختان، والجنائز، ويجتمعون فيها للاحتفال بعيدي الفطر

داسات في الشأن الإسلامي

والأضحى، وفي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي كانت نسبة كبيرة من البحارة العاملين في الأسطول البريطاني التجاري هم من المسلمين الهنود، وهؤلاء ما لبث عدد كبير منهم بعد الحرب العالمية الثانية أن استقر في بريطانيا. وهؤلاء هم الذين شكلوا جسوراً عبر خلالها المهاجرون بأعداد كبيرة من جانبي باكستان الشرقي والغربي خلال الخمسينيات حينما كانت بريطانيا بحاجة ماسة إلى العمالة لتعويض تقلص الأيدي العاملة بعد أن حصدت الحربان العالميتان الأولى والثانية ملايين الأرواح فكادت تتوقف عجلة الصناعة وتشل حركة التجارة. وكان ذلك هو السبب الأساسي الذي من أجله شجعت السلطات البريطانية الهجرة، بل طلبتها بإلحاح تعويضاً للنقص الحاد في العمالة وخاصة في قطاعات الصناعات الفولاذية والمنسوجات في مناطق يوركشاير ولانكشير، وكان العمال الوافدون يستخدمون بشكل أساسي لسد الحاجة في الدوام الليلي، حيث كانت المصانع تدور عجالاتها على مدار الساعة لتستجيب لطلبات السوق الضامئ لهذه المنتجات في عصر إعادة البناء بعد الدمار الذي سببته الحروب.

كان عدد المسلمين في بريطانيا في مطلع الخمسينيات يقدر بنحو ٢٣ ألفاً، ارتفع عددهم بعد عقد من الزمان إلى ما يقرب من ٨٢ ألفاً، وظل عددهم مستمراً في الارتفاع إلى أن بلغ ما يقرب من ٤٠٠ ألف في مطلع السبعينيات، وكان معظم المهاجرين في البداية من الرجال، جاءوا للعمل سعياً لتوفير ما يتيسر لهم من المال حتى يعودوا به إلى بلدانهم لتحسين أوضاعهم المعيشية وأوضاع من يعولون هناك والذين كانوا في أمس الحاجة في تلك السنوات العجاف التي كانت مجتمعاتهم قد وقعت فريسة لها بسبب كوارث بعضها طبيعي وأكثرها مما عملته أيدي البشر.

في عام ١٩٦١م على سبيل المثال كان عدد المسلمين ممن قدموا من باكستان واستقروا في مدينة برادفور ٣٣٧٦ فرداً، وعدد النساء فيهم ٨١

دراسات في الشاه الإسلامي

امرأة فقط. ورغم ما كانوا يمتنون به أنفسهم من عودة إلى موطنهم الأصلي فإن عدداً قليلاً جداً من هؤلاء كان يرجع، بل الذي حدث أنهم بدأوا باستقدام المزيد من أقاربهم، واستجلبوا زوجات لهم من بلادهم، وبذلك أخذوا يشكلون مجتمعات خاصة بهم، شكلت في كثير من الأحيان جيوباً استيطانية في داخل المجتمع البريطاني أو على هامشه. ثم ما لبثت السبعينيات من القرن العشرين أن شهدت وفود أعداد من الأتراك والعرب - خاصة من شمال أفريقيا - للعمل والإقامة لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى، إلا أن الأمر في الثمانينيات اختلف حيث طرأ تحول مهم في نوعية الوافدين إلى الجزر البريطانية وفي العوامل التي دعتهم إلى ذلك، فقد بدأ في ذلك العقد يتكثف قدوم أنواع من المهاجرين، لجأوا إلى بريطانيا - ضمن موجات اللجوء التي حطت بسواحل أوروبا في ذلك الوقت - لأسباب سياسية بالدرجة الأولى طلباً للأمن ورغبة في السلامة وهرباً من تداعيات الاضطرابات التي زلزلت بلدانهم، وهؤلاء جاءوا من الصومال وإيران، وبعض الأقطار العربية التي شهدت توترات كبيرة وأخيراً من البلقان، بالإضافة إلى ذلك طالما شهدت الساحة البريطانية وجود أعداد كبيرة من الطلاب المسلمين وبشكل خاص من ماليزيا وبدرجة أقل من بعض الأقطار العربية، ولكن هؤلاء كانوا غالباً ما يعودون إلى بلدانهم بعد الانتهاء من الدراسة، أما البريطانيون الذين اعتنقوا الإسلام فلا توجد إحصائيات دقيقة بشأنهم ولكن تقدر أعدادهم بما لا يقل عن عشرة آلاف شخص، نصفهم تقريباً من الأفارقة الكاريبيين المنحدرين من أصلاب المهاجرين القدامى ونصفهم من البيض ذوي الأصول الأوروبية. وبشكل عام، فإن نصف المسلمين في بريطانيا هم من أصول باكستانية يأتي بعدهم البنغاليون. تختلف التقديرات حول تعداد السكان المسلمين في بريطانيا، ولكن من المرجح أن عددهم لا يقل عن مليونين ونصف المليون، وإن كان البعض يرى أن عددهم قد يتجاوز ذلك بمليون على الأقل، أي أنهم ربما بلغوا ثلاثة ملايين ونصف، يعيش مليون

داسات في الشأن الإسلامي

منهم في مدينة لندن وحدها، أي أن عشر سكان العاصمة البريطانية هم من المسلمين، ولا يدخل في ذلك عشرات الآلاف من السياح العرب - وخاصة من الجزيرة العربية ومنطقة الخليج - الذين يتوافدون على العاصمة خلال شهور الصيف من كل عام.

مواطنون ولكن ...

لم يكن البريطانيون بشكل عام يشعرون بثقل الوجود الإسلامي بين ظهرانيهم حينما كان المسلمون أيدي عاملة يحتاج إليها الاقتصاد ولا تدور بغيرهم عجلة الصناعة، وحينما كان هؤلاء المسلمون منطوين على أنفسهم، لا يشغل بالهم أمر السياسة المحلية ولا الدولية، وكان جل همهم أن يكسبوا لتوفير لقمة العيش وتحويل ما يزيد عليها إلى ذويهم في البلاد، إلا أن مجموعة من العوامل طرأت على المعادلة غيرت من السلوك البريطاني تجاه المسلمين وبدلت، وأدت في نفس الوقت إلى تطور ملحوظ في نظرة المسلم إلى نفسه وإلى المجتمع الذي استضافه ليستفيد منه ويفيده، أما العامل الأول فهو انتكاس قطاعات الصناعة التقليدية التي من أجلها جيء بالعمال المسلمين بأعداد كبيرة في أعوام ما بعد الحرب، إذ تراجعت صناعات المنسوجات والفولاذ بشكل سريع أمام المنافسة القوية من قبل دول آسيا الصاعدة، وخاصة اليابان والصين، وكذا الحال بالنسبة لصناعات السفن، ثم ما لبث قطاع المناجم - وخاصة في مجالي الفحم والقصدير - أن تعرض لسلسلة متعاقبة من النكسات أدت إلى ارتفاع حاد في البطالة بين السكان البيض. وذلك ما جعل المسلمين يتحولون في نظر أوساط بريطانية معينة إلى عبء ثقيل، وإلى شماعة يعلق عليها أصحاب النزعات العنصرية الكارهين للأجانب بشكل عام وللمسلمين بشكل خاص تفسيراتهم للتراجع الاقتصادي التي بدأت تمنى به البلاد.

وأما العامل الثاني فهو نشأة الجيل الثاني من أبناء المسلمين الذين ولدوا

دراسات في الشاه الإسلامي

في بريطانيا أو التحقوا بأولياء أمورهم وهم أطفال، إنه الجيل الذي تعلم في مدارس بريطانيا واحتك بالمجتمع بشكل لم يخبره جيل آبائهم من العمال المهاجرين، ذلك الجيل الذي كان قانعاً بحياة منعزلة ضمن دائرة مغلقة من البيت إلى المصنع ومن المصنع إلى البيت، حتى أن كثيراً منهم لم ير حاجة إلى إتقان اللغة الإنجليزية التي لم يشعر أنه بحاجة إليها لا في حياته المهنية ولا في حياته الاجتماعية، ولم تجذبه قضايا السياسة المحلية لأنه مازال يعتبر نفسه غريباً ويرى بأن وجوده في هذه البلاد مؤقت وبأنه لابد عاجلاً أم آجلاً عائد إلى الوطن. أما أبناؤهم ممن تعلم اللغة وأتقنها، واحتك بأقرانه من البريطانيين، فبدأت تتشكل لديهم قناعات مختلفة عن كل ما يدور حولهم، يرون أنفسهم بريطانيين، ويرون هذه البلاد بلادهم، ولكنهم في نفس الوقت يشعرون بأنهم لا يعاملون على هذا الأساس من قبل الآخرين الذين يرون فيهم مهاجرين أجانب. خلق هذا الوضع لأبناء الجيل الثاني معاناة من نوع خاص لم يجربها من قبل أبائهم ولم تشكل مصدر أرق للجيل السابق لهم، فهم بموجب قيم البلاد التي ولدوا، أو نشأوا فيها بريطانيون يستحقون كامل الحقوق التي يتمتع بها أقرانهم من البيض، ولكن الواقع شيء مختلف تماماً عن المثال، وسعيًا لحل هذا الأشكال ذهب بعضهم إلى أقصى مدى في الذوبان في المجتمع حتى لا يبقى من الفوارق الظاهرة بينه وبين البريطانيين إلا ما يعجز عن تغييره من لون البشرة وقسمات الوجه. وذهب آخرون باتجاه المعارضة السائدة للنظام في ذلك الوقت فتحولوا إلى الماركسية وانخرطوا في النشاط السياسي من خلال تيار اليسار، وبين هؤلاء وأولئك تفوق آخرون حفاظاً على الهوية محتمين بمسجد الحي وما نسجته حوله الجالية من ثقافة جاء بها المهاجرون معهم من بلاد المشرق.

وأما العامل الثالث فهو قدوم المسلمين، سواء من الطلاب الباحثين عن العلم أو من طالبي اللجوء السياسي الهاربين من البطش والباحثين عن الأمان، ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن أبناء المسلمين ممن ولدوا في

داسات في الشأن الإسلامي

بريطانيا أو نشأوا فيها لم يصبحوا ظاهرة ملحوظة في الجامعات والمعاهد البريطانية إلا في أواخر السبعينيات أو في مطلع الثمانينيات، وكان الوجود الطلابي الإسلامي في الجامعات لعقدين سابقين تقريباً مقتصرأ على الطلبة الوافدين من العالم الإسلامي والذين كان معظمهم يعود إلى بلاده بعد الانتهاء من الدراسة، إلا أن التوترات التي طرأت على بلدان بعض هؤلاء الطلاب حالت دون عودة عدد ممن كانوا يعتبرون معارضين أو مناوئين للأنظمة السياسية فيها، فاستقروا في بريطانيا وأصبحوا من مواطنيها، ومن أوائل من فعل ذلك من العرب الطلبة السوريون والعراقيون والليبيون. ولعل بعض هؤلاء عاصروا وصول أبناء الجيل الثاني من مسلمي بريطانيا إلى المرحلة الجامعية من الدراسة واجتمعوا بهم داخل الحرم الجامعي وساهموا في تفعيلهم وتنشيطهم وتشجيعهم على الاهتمام بالشأن الإسلامي العام، ومن المهم ملاحظة أن وفود أعداد كبيرة من طالبي اللجوء السياسي إلى بريطانيا في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين كان بسبب قضايا وأزمات تجاوزت حدود القطرية والإقليمية إلى نطاق العالمية وكانت ذات علاقة بالنهوض الإسلامي وما اعتبر جهوداً تبذلها قوى "مغرضة" لإحباطه، ومن هنا فقد لعبت الأحداث المتعلقة بهذه القضايا دوراً مهماً في إلهاب مشاعر المسلمين حول العالم.

وتأتي على رأس هذه القضايا بلا منازع قضية فلسطين التي ترتبط في أذهان معظم المسلمين بعقيدتهم ولا فرق في ذلك بين واحد منهم والآخر أينما كانوا أو حيثما حلوا، ولذلك فإن جل ما يتعلق بفلسطين من تطورات لا ينظر إليه على أنه شأن محلي أو إقليمي بل يعتبرهما إسلامياً عالمياً، ولا تكاد تجد قضية من قضايا المسلمين الأخرى تشبه هذه القضية القديمة المتجددة. وما من شك في أن مسلمي بريطانيا كغيرهم من المسلمين حول العالم قد تأثروا بشكل كبير بوقوع المسجد الأقصى تحت الاحتلال بسبب حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧م وما فتىء يتعرض له من تهديد من ذلك الحين

دراسات في الشاه الإسلامي

ابتداءً من محاولة تدميره خلال إضرام النار فيه عام ١٩٦٩ م إلى المحاولات المتعددة لوضع حجر الأساس للهيكل الصهيوني التي تكررت على يد حركة "غوش إيمونيم" الصهيونية العنصرية الأمر الذي تسبب في صدامات دموية شهدتها ساحات الأقصى بين الصهاينة من مستوطنين وجنود وحشود المصلين المسلمين الذين كانوا في كل مرة يتدفقون على الأقصى للدفاع عنه بصدورهم العارية، إلا أن أحداثاً متسارعة في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي كان لها أيضاً عملٌ محفز مهم في تسييس الوجود الإسلامي في بريطانيا، بل وفي الغرب بشكل عام، كان من أبرزها الثورة الخمينية في إيران عام ١٩٧٩م والتي أطاحت بشاه إيران محمد رضا بهلوي، أكبر وأهم عملاء الولايات المتحدة والمنظومة الغربية في المنطقة والذي كان بلا منازع أشرس الطغاة وأبرز رموز الاستبداد في عالم المسلمين المعاصر، ولعل ذلك هو الذي ألهب حماسة الجماهير الإسلامية حول العالم، معزراً آمالها في التخلص من الطغيان الذي ابتليت به الأمة دهرًا طويلاً، وفي الانعتاق من نير التبعية للغرب الإمبريالي، كما تصادف ذلك مع الاحتلال السوفياتي لأفغانستان وانطلاق حركة الجهاد التي استقطبت أعداداً غفيرة من الشباب المسلم المتعطش للجهاد من مختلف أرجاء المعمورة بما في ذلك بعض أقطار الغرب حيث يعيش المسلمون كأقليات، وقد ساعد على تفاعل المسلمين مع الجهاد الأفغاني - دون إدراك معظم المسلمين لذلك - وجود مصلحة للولايات المتحدة وحلفائها في إلحاق الهزيمة بالمعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفياتي فلم تكن الولايات المتحدة ولا أي من الأقطار الدائرة في فلكها تضع العوائق في طريق من أراد التوجه إلى الجبهة، ولا في طريق من جال عواصم الأرض يحث على دعم المجاهدين ويجمع لهم المال محرصاً الشباب على الالتحاق بهم، فكانت أعوام العقد الثامن من القرن العشرين أعوام إحياء فريضة الجهاد قولاً وعملاً على أرض أفغانستان التي شكلت متنفساً لكل من أراد الخروج من ضيق مجتمعه المتأزم سياسياً واقتصادياً

داسات في الشأن الإسلامي

واجتماعياً إلى رحابة ساحة الوغى دفاعاً عن حياض الأمة التي بدا للجميع في ذلك الوقت أن عدوها الأول والأساس كان "الخطر الأحمر" الزاحف من الشرق الشيوعي الكافر.

نحو الاستقطاب

إلا أن الحدث الأهم على الإطلاق على مستوى الساحة البريطانية والذي كان له أكبر الأثر في تأزيم العلاقة بين مسلمي بريطانيا والمجتمع المحتضن لهم كان صدور رواية "آيات شيطانية" في أواخر الثمانينيات للكاتب البريطاني من أصل هندي سلمان رشدي الذي تجرأ في روايته على النبي ﷺ وعلى أمهات المؤمنين إذ نسج من خياله رواية تافهة ساقطة اقتبس لأبطالها أسماء من آل بيت النبوة والصحب الكرام، وكان من تداعيات هذا الإنتاج المسيء للإسلام أن أحدث حالة من الاستقطاب لم تشهدها الساحة البريطانية من قبل بين المسلمين الذين ثاروا انتصاراً لنبيهم وحماية لعقيدتهم من تناول السفهاء والمغرضين ونخبة من الفكرين والسياسيين البريطانيين الذين انبروا للدفاع عن حق سلمان رشدي في التعبير عن رأيه كيفما شاء، ومع أن المدافعين عن سلمان رشدي تحصنوا في هجومهم على المعارضين له بقيم الحضارة الغربية، إلا أنهم كانوا في الحقيقة طرفاً أساسياً فيما اعتبر اختبار هو الأول من نوعه للنيل من المقدس الإسلامي عن طريق عمل فني يحاكي ما كان يكتبه الروائيون الغربيون المتمردون على المقدس المسيحي نيلاً من رموز الديانة المسيحية. وكما شرح ريتشارد ويبستر في كتاب قيم له حول القضية، نشره في حينه، فإن الدافع الأساسي لمن تصدى للدفاع عن "هرطقة" سلمان رشدي لم يكن الانتصار لحقه في التعبير والإبداع وإنما الانتصار لعلمانيتهم المتطرفة التي أعلنت الحرب الشاملة على كل ما له صلة بالدين أو بالإيمان بمرجعية إلهية متجاوزة للبشر. غير أن ما لم تتوقعه النخب العلمانية في بريطانيا، ثم من بعدها في

دراسات في الشاه الإسلامي

أرجاء المعمورة، هو أن تستفز رواية رشدي مشاعر المسلمين - المتدينين وغير المتدينين منهم على حد سواء - وتحيي في نفوسهم مقومات الهوية الإسلامية الدفينة في أعماقهم لتترجم على أرض الواقع تديناً احتجاجياً ثائراً ومسيئاً. فالاستهانة بأهم رموز عقيدتهم أشعر المسلمين بخطر داهم، وكأن وجودهم نفسه بات مهدداً، وكأنهم في وقوفهم في وجه الرواية الشيطانية إنما كانوا يقفون على خط الدفاع الأول والأخير عن هويتهم وعن أمتهم. فلقد تصادف نشر الرواية سيئة الذكر مع بدء انهيار المعسكر الاشتراكي وإحساس الغرب بنشوة انتصار ليبراليته على شيوعية السوفييات، الأمر الذي هبأه للتفرد بإدارة شؤون الكوكب الأرضي. ولذلك فليس مستبعداً على الإطلاق أن يكون بعض المسلمين قد رأى في رواية رشدي الرصاصة التي أذنت بانطلاق الحملة على الإسلام الذي لم يعد أمام الغرب فيما يبدو عدو سواه يحرض عليه ويتخذ سبباً في جمع صفه وحشد قوته ولكن، وكما هو الحال في كافة الانتفاضات الشعبية الاجتماعية أو السياسية على الأمر الواقع، تتعدد العوامل المفجرة للبركان. فقد كان صدور الرواية أشبه بعود الثقاب الذي أشعل برميلاً من البارود تراكم عبر سنوات من إحساس المسلمين بالظلم والتهميش صمتوا خلالها طويلاً وصبروا كثيراً حتى عيل صبرهم، على إساءات متكررة من قبل وسائل الإعلام للإسلام والمسلمين، سواء من خلال السينما، أو التلفزيون أو الصحافة، وسواء تعلق الأمر بتغطية الأحداث في فلسطين أو بالتعليق على المتغيرات التي جاءت بها الثورة الخمينية في إيران، أو بأحداث الساحة اللبنانية منذ إرهابات الحرب الأهلية في أواسط السبعينيات إلى ما بعد الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢م لدولة لبنان أو غير ذلك من أمور انتهاءً بتفجر الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧م، وما من شك أن الاحتقان لدى المسلمين فاقم من حدته تنامي مشاعر العداة لهم والنظرة العنصرية التي كان بعض البريطانيين ينفس من خلالها عن إحباطاته الناجمة عن تردي الوضع الاقتصادي وازدياد

داسات في الشأن الإسلامي

معدلات البطالة، وما أكثر ما يلجأ السياسيون الغربيون وأنصارهم من كتاب الأعمدة الصحفية إلى تحميل الأقليات ذنب فشل السياسات الاقتصادية لحكوماتهم.

تتابعت الأحداث بعد ذلك لتزيد من حدة الاستقطاب، فجاءت حرب الخليج التي حشد لها الأمريكان الجيوش بهدف استعادة الكويت من سيطرة نظام صدام حسين ورغم انتهاء "حرب التحرير" في زمن قياسي فإن تداعياتها من حصار وتجويع استمرت نحو عشر سنوات تقريباً عانى خلالها الشعب العراقي أيما معاناة. ثم تفجرت ساحات البلقان حيث تعرض المسلمون لمذابح جماعية وجرائم ضد الإنسانية في البوسنة والهرسك وكوسوفا، كما تعرض المسلمون في الشيشان لدمار شامل على أيدي الروس في عهد ما بعد زوال السوفيات، وبين هذا وذاك كان الجميع يتابع تطورات القضية الفلسطينية في ظل عملية تفاوضية فشلت على مدى سبعة أعوام في تحقيق أي سلام، إلى أن جاءت هجمات نيويورك يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بدعوى الانتقام من السياسة الأمريكية الظالمة للمسلمين، ولتوفر المبرر لأن تعلن الولايات المتحدة بقيادة تيار المحافظين الجدد حربها على الإرهاب بحجة تعرضها للعدوان، فذهبت في سبيل ذلك تقسم العالم إلى فسطاطين، فسطاط من يقف مع أمريكا وفسطاط من يعارضها، ووجد المسلمون في العالم أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه، إذ لم يكف أن يتبرأوا مما تعرضت له نيويورك من هجوم وينددوا به وبمن نظموه ونفذوه، بل كان لا بد أن يباركوا التحرك الأمريكي الانتقامي ضد القاعدة من خلال غزو أفغانستان ثم العراق، وأن يتفهموا كل ما يصدر عن الأمريكان وحلفائهم في هذا الصدد دون تحفظ أو استهجان.

ما لبث مسلمو بريطانيا أن وضعوا على المحك، فقد سارعت المملكة المتحدة بزعامة طوني بليير إلى إعلان مبايعتها للعم سام، والدخول شريكاً

دراسات في الشاه الإسلامي

أساسياً في الحلف الأمريكي، وسعت بكل الوسائل لتهيئة الرأي العام البريطاني لعهد جديد تكون الأولوية فيه بلا منازع لمحاربة الإرهاب ولو على حساب مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان التي طالما فاخر الغربيون بأنها مما تميزت به حضارتهم عن غيرها وما أهلهم أكثر من سواهم لقيادة العالم نحو مزيد من الرقي والتقدم رسلاً للحدثة.

أسباب التمييز

لا يمكن بحال إعفاء المسلمين في أوروبا من جزء من المسؤولية عن التمييز الذي يمارسه الغربيون ضدهم، فهم يساهمون في كثير من الأحيان بشكل مباشر أو غير مباشر في إثارة الشكوك والمخاوف لدى الآخرين تجاه ما يبطنون من نوايا أو ما يصدر عنهم من أقوال أو أفعال، فشتان بين منظومة الأخلاق الإسلامية التي يجملها القرآن الكريم وتفصلها السنة النبوية المطهرة وتجسدها سير الرعيل الأول من الصحابة والتابعين وبين مسالك بعض المسلمين المعاصرين في تعاملهم مع بعضهم البعض أو مع الآخرين ممن يختلفون معهم في المعتقد والثقافة، ومن أهم عوامل هذا الاختلال بين المثال والواقع حقيقة أن مسلمي أوروبا لم يقدوا على الغرب رسلاً للإسلام بهدف نشره أو التبشير به، وإنما جيء بمعظمهم كما تقدم عمالاً لسد ثغرة طرأت في مصانع الأوروبيين. وكان هؤلاء العمال من أبسط الناس وأفقرهم في مجتمعاتهم، وكانوا في الغالب من أقلهم تعليماً وأدناهم ثقافة، ناهيك عن أن المجتمعات التي جاءوا منها كانت تعاني من آثار تخلف شديد استمر عقوداً طويلة وقعت خلالها بلدانهم فريسة للاستعمار وغدت نهباً لتجاره وسماسرته. جاء هؤلاء العمال كما في الحالة البريطانية يحملون معهم بضاعة مجتمعاتهم التي كانت مزيجاً من بعض تعاليم الإسلام، وبعضاً من الموروث الثقافي من عادات وتقاليد قد يتفق بعضها مع الإسلام بينما يتناقض البعض الآخر معه تماماً، وبعض القيم والمفاهيم التي جلبها

داسات في الشاه الإسلامي

المستعمر وفرضها بالترهيب تارة وبالترغيب تارة أخرى. لم يكن كثيرون من هؤلاء العمال مؤهلين ولو بالحد الأدنى لتقديم نموذج ينال الإعجاب والتقدير، بل لم يخطر ببال كثير منهم ولا طلب أحد منهم القيام بمثل هذا الدور أو التصرف على هذا الأساس. ومع ذلك، فإن أي مساهمة للمسلمين فيما يمارس ضدهم من تمييز لا تفسر الظاهرة ولا تبررها. بل إن العلة الكبرى تكمن في الإرث الثقافي للإنسان الأوروبي، الذي عجزت حضارته، رغم كل إنجازاتها، عن حل مشكلة "الآخر" لديه، تلك المشكلة الأزلية التي ما فتئت تتجدد ظلماً وعدواناً وجرائم ضد الإنسانية ومشاريع إبادة جماعية.

فأوروبا التي ظل إنسانها متخلفاً عن ركب الحضارة الإنسانية قرونًا طويلة لم ترغب أبداً في أن تكون النهضة من غفوتها استمراراً لنهضة غيرها، بل دماراً له وبناءً على أنقاضه. ولا أدل على ذلك باديء ذي بدء من إنكار الغربيين لفضل المسلمين عليهم، وإصرارهم على نسبة حضارتهم بكل ما فيها من علوم ومعارف إلى حضارة اليونان القديمة في تجاوز ظالم لحقبة تاريخية، كان المسلمون فيها هم حملة مشاعل العلم وزعماء الحضارة وأساتذتها. فالأوروبيون لم يتعلموا شيئاً من اليونان أو من غيرها من الحضارات القديمة إلا عبر الجسر الثقافي الذي شيده المسلمون في بغداد وقرطبة وإشبيليا وغيرها من المدن الجامعية التي كان طلاب أوروبا يحجون إليها طلباً للفلسفة والعلوم. إن إشكالية التعامل مع الآخر عند الأوروبيين لا تقتصر بحال على المسلمين، بل تلك كانت معضلتهم في التعامل مع كل مختلف عنهم، حتى ولو شاركهم المعتقد، وجذور المشكلة عميقة عمق التاريخ الإنساني، وإن كان من أبرز تجلياتها تعامل الأوروبيين "الفرنجة" مع شعوب المناطق التي مروا بها في طريقهم إلى القدس في القرن الحادي عشر الميلادي سعياً لاستنقاذ مهد المسيح، بزعمهم، من سيطرة "الهرطقة" «المسلمين» فمعظم ضحايا "الصليبيين" كانوا من النصاري الذين لم يرقوا في نظر جحافل "الفرنجة" إلى ما يستحق الاعتراف ناهيك عن الاحترام.

دراسات في الشاه الإسلامي

وتكررت المآسي بعد ذلك حينما وصلت مراكب الأوروبيين شواطئ "العالم الجديد" أو ما بات من بعد يعرف بالأمريكيتين، ومن ثم في كافة المناطق التي غزاها المستعمرون بحثاً عن الثروات والأسواق. والمشارك في كل ذلك أن الجرائم كانت تبرز باسم الدين المسيحي، بعد أن تقمص الأوروبيون شخوص العبرانيين الأوائل وتوهموا أنهم "شعب الله" المختار الذين ورد ذكرهم في التوراة (العهد القديم)، وبأن وعد الله لإبراهيم وذريته من بعده هو وعد لهم، وبذلك أجازوا الاستيلاء على بلاد الآخرين الذين لم يكن أمامهم من خيار سوى أن يخضعوا ويتصرفوا أو يبادوا. وبذلك أبيت شعوب بأكملها ودرست ممالكها ونهبت ممتلكاتها.

ولليهود مع الأوروبيين قصة فريدة يمثلون خلالها حالة خاصة، فقد كانوا دوماً مكروهين، وأجزم بأنهم مايزالون كذلك، ولكنهم كانوا حتى أقل من قرن مضى يحتلون في نظر مبغضيهم موقع "الشر الذي لا بد منه". فرغم أن اليهود في التراث الأوروبي المسيحي هم قتلة المسيح - أو على الأقل المتآمرون عليه - إلا أن المسيحية الأوروبية، والبروتستانتية منها بشكل خاص، طالما أناطت بهم وظيفية حيوية تستدعي التعايش معهم على ما هم فيه من "بغض السيرة والسلوك"، فهم وسطاء في التعاملات المالية التي لا تجوز بحق "أتباع المسيح" وهم في نفس الوقت مدخرون إلى أن يأتي المسيح المخلص فيحملهم على الإيمان به بعد أن رفضوه وكفروا بما جاءهم به، ورغم ذلك، فإن تاريخ أوروبا مليء بقصص البطش باليهود،

فمن التمييز ضدهم بشكل عام، إلى ممارسة القتل بحقهم وتشريدهم، إلى الهولوكوست (المحرقة النازية). وما التحالف الحالي بين الغرب المسيحي واليهود الصهاينة إلا أمر طارئ تمخض عن اجتماع المصالح أكثر مما تمخض عن تحول جذري لدى الغربيين في النظرة إلى الآخر، بل إن الآخر اليوم لم يعد اليهودي المنبوذ الذي لم تسعفه أعلى درجات الاندماج في

داسات في الشاه الإسلامي

القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وإنما هو المسلم الذي يطلب منه إثبات ولائه خلال الاندماج حتى الذوبان، وقد لا يجدي الذوبان نفعاً.

العلمانية مخلصاً

ما من شك أن تخلص أوروبا من سلطان الكنيسة وتخفيفها من المسيحية لصالح العلمانية، التي غدت منهجاً بديلاً للحياة، كان سبباً رئيساً في نهضتها العلمية والإدارية، كما أنه أسس لتعايش سلمي بين المختلفين عقيدة وثقافة من مواطنيها. فقيم الديمقراطية وحقوق الإنسان كفيلة بضمان حد أدنى من الاحترام المتبادل، والنظم السياسية المؤسسة عليها تشتمل على ضوابط وإجراءات تحول دون تغول فئة على أخرى. إلا أن التجربة العملية خلال القرون الثلاثة الماضية على الأقل أثبتت أن الأسس التي قامت عليها الفكرة العلمانية أضعف من أن ترفع عليها أعمدة حياة إنسانية كريمة لجميع بني البشر بلا تمييز، فالحقيقة المؤلمة أن هذه الأسس ما وضعت ابتداءً إلا لمجتمعات الغرب شبه المتجانسة، ولم يقصد منها التعميم على جميع البشر، فإنسان أفريقيا وآسيا، والسكان الأصليون للعالم الجديد الذي أصبح فيما بعد أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا أحط منزلة وأدنى كرامة في نظر فلاسفة الحضارة الغربية المعاصرة من أن يتمتع بحقوق الإنسان الأوروبي، ولا أدل على ذلك من أن قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان تولدت في أذهان فلاسفة أوروبا يوم كان هؤلاء من أشد المناصرين للغزو الاستعماري للأمم الأخرى بحجة نقل الحضارة والاستتارة إليها. وللمرء أن يستدل على ذلك أيضاً بالموقف المضطرب في الغرب من قضية الديمقراطية في بلاد المسلمين، حيث تسود أوساط الأدباء والمفكرين والسياسيين قناعة بأن مصالح الغرب لا يخدمها انتشار النظم الديمقراطية في العالم الإسلامي نظراً لأن ذلك يؤدي في نهاية المطاف إلى تقليص النفوذ الغربي القائم على خدمات نخبة فاسدة من المتنفيين المحليين الذين ستطرح بهم الديمقراطية لا محالة إن

دراسات في الشاه الإسلامي

ترك المجال أمام الشعوب لتختار حكامها بحرية مطلقة.

فالعلمانية نظرياً تبشر بالمساواة في الكرامة والحقوق، ولكنها في الواقع العملي حصرية قصرية، لا تملك القدرة على استيعاب الآخر إلا أن تزول "أخريته" فيصبح الـ "هو" و الـ "أنا" شيئاً واحداً. وقد رأينا نماذج من عصيان النظم العلمانية على التكيف مع المتغيرات في كل واحدة من أقطار أوروبا التي أصبح المسلمون يشكلون فيها نسبة معتبرة من التعداد الكلي للسكان. وأشد هذه العلمانيات شراسة وأقلها تسامحاً تلك التي تعتبر نفسها الأكثر إخلاصاً للمبدأ والأشد تمسكاً بالمنهج، وأبرزها في عالم اليوم علمانية فرنسا، التي ضاقت ذرعاً حتى بقطعة قماش تغطي بها الفتاة المسلمة شعرها امتثالاً لأمر ربها فصدر الأمر بحرمان كل من تصر على غطاء الرأس من التعلم في مدارس الدولة "العلمانية" رافعة شعار الأخوة والحرية والمساواة، نعم، إنها أخوة لمن قبل بشروطها، وحرية لمن تقيد بإملاءاتها، ومساواة لمن تخلى عن كل صفة طارئة أو سلوك دخيل، إن مشكلة المشكلات في بعض أقطار أوروبا اليوم هي إصرار المواطنين المسلمين على العيش بكونهم مسلمين، يأكلون الحلال، ويمارسون العبادات، ويتخلقون بما يفرضه عليهم دينهم، ويبدلون الجهد لتنشأة أبنائهم وبناتهم على ذلك، مع العلم بأن أياً من ذلك لا ينال من حريات الآخرين في العيش كما يحلو لهم. ولكن فئات متنفذة في السياسة والإعلام تصر على أن أوروبا ليست موطناً لهذه الممارسات، ولا تريد لها يوماً أن تصبح كذلك، مع أن فئات كثيرة من منتسبي الأديان الأخرى لا تجد صعوبة كبيرة في ممارسة طقوسها والتعبير عن عقائدها، والفرق هنا هو أن الممارسة العملية للدين الإسلامي من قبل أتباعه تبدو في أعين المعارضين تحدياً سافراً للفكرة العلمانية، لأن الإسلام وحده اليوم يصر على ألا يُخلى الساحة للعلمانيين، فالإسلام من دون الأديان لا يحصر نفوذه بالخاص، بل هو له وللعام أيضاً، يفرض على أتباعه أن يكون لهم رأي فيما يجري من حولهم، وأن يسعوا أيضاً بكل ما تيسر لهم من

داسات في الشاه الإسلامي

وسائل مشروعة لإصلاح ما يطرأ من خلل على المجتمعات التي يعيشون فيها، والإسلام وحده يضع للمسلم حدوداً إذا ما تجاوزها فإنه يخاطر بالخروج من الملة، ولذلك عليه أن يعرض عليها بالنواجذ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧).

والأمر هنا لا يتعلق بسعي المسلمين إلى الثورة على ثقافة أوروبا وفرض أنفسهم على معتقداتها، بل يتعلق بحقهم، ضمن ما تدعي قيم العلمانية الغربية بأنه من حقهم، في أن يعتقدوا بما يرونه حقاً وفي أن تصان معتقداتهم من التشويه والامتهان. إلا أن الرغبة الجامحة لدى بعض غلاة العلمانية في الغرب في ألا يبقوا على مقدس سوى مقدسهم، يضع المسلمين لا محالة في موقع التصادم مع ما يدعيه هؤلاء من طرفهم بأن من حقهم أن يقولوا في أديان وثقافات الآخرين ما يريدون، فعلى المسلمين، في زعم هؤلاء، ألا ينزعجوا من أن تقوم مرتدة صومالية بعد سنوات قليلة من وصولها مهاجرة لاجئة بالتسفيه بعقيدة المسلمين. كما ينبغي على المسلمين ألا ينزعجوا من أن تنشر صحيفة دنمركية سلسلة من الرسومات تسيء إلى النبي ﷺ.

أسطورة التعددية الثقافية

طالما بشرت المنظومة العلمانية بمجتمعات التعددية الثقافية، حيث يعيش البشر معاً في سلام ووثام رغم تباين معتقداتهم وثقافتهم شريطة الالتزام بالقانون العام، وكثيراً ما تفاخر فلاسفة وكتاب وسياسيو أوروبا بتفوق منظومتهم العلمانية على غيرها في هذا المجال، وأخذوا بمناسبة وبغيرها يعيبون على الآخرين، وخاصةً على المسلمين، عجزهم عن توفير مثل هذه الأجواء ضاربين في ذلك الأمثال من سوء معاملة النساء، واضطهاد الأقليات

دراسات في الشاه الإسلامي

الدينية، وعدم التسامح مع المرتدين، ورفض الاعتراف بشرعية اللوطيين. هذا بالرغم من أن موقف كثير من هؤلاء الفلاسفة والمفكرين من الثقافة الإسلامية كان العداء والمبادرة بالتحقير والازدراء، والأمر لا جديد فيه سوى أنه كان محصوراً في دوائر معينة ولا يخرج إلى العلن إلا في بعض الأزمات. ولكن ما لبثت الأمور أن تغيرت بشكل جذري حينما حلت بالمسلمين محنة الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١م في نيويورك ومن بعدها محنة السابع من يوليو (تموز) ٢٠٠٥م في لندن، فتحول العداء الخجل إلى حرب شعواء تشن صباح مساء على كل ما له علاقة بالإسلام عقيدة وثقافة وتاريخاً، لقد كشفت تلك المحن الجسام اللثام عن واحدة من أكبر الأوهام. فرغم أن الهجمات في كلتا الحالتين كانت بدوافع سياسية بحتة، وذات علاقة مباشرة بالسياسة الخارجية للحكومتين الأمريكية والبريطانية، إلا أن صناع القرار السياسي ومن يؤيدهم هنا وهناك سخروا كل ما تحت أيديهم من صلاحيات وما تيسر لهم من وسائل إعلام لتوجيه سهام الاتهام إلى الإسلام كونه ديناً وإلى المسلمين كونهم أمة تدين بالإسلام، وبقليل من الخجل أو التحفظ هذه المرة، ومن أراد أن يحفظ خط الرجعة منهم لجأ إلى طرق غير مباشرة كالتعريض بالسلفية أو الوهابية أو افتراض أن ثمة في الإسلام ما هو معتدل مقبول وما هو متطرف مرفوض، وفي أحسن الأحوال راحوا يعرفون للمسلمين ما ينبغي أن يكون عليه دينهم إذا ما أرادوا أن يقبلهم "العالم الحر" وأن تؤويهم "الأسرة الدولية".

وقد رأى صناع القرار السياسي مصلحة كبيرة في تأجيج هذه الحملات على الإسلام والمسلمين، وذلك للحيلولة دون أن توجه إليهم أصابع الاتهام بالمسؤولية عما جرى، فلولا سياساتهم الخرقاء لما حصل ما حصل، «أوليسوا هم الذين بادروا المسلمين بالعدوان منذ أكثر من قرن من الزمان». ثم عمدوا إلى زرع كيان الصهاينة في قلب الأمة واستمروا في دعمه بينما يشن عدوانه ويرتكب جرائمه ويعيث في أرض المسلمين السليبة فساداً صباح مساء؟

داسات في الشأن الإسلامي

أوليسوا هم الذين غزوا بلدين مسلمين هما أفغانستان والعراق دون أدنى وجه حق بحجة مكافحة الإرهاب، مرتكبين في سبيل ذلك جرائم حرب مروعة ومتجاوزين كل القوانين والأعراف التي طالما تشدقوا بالالتزام بها وتمنوا على البشرية بأنهم من أوجدها؟ والخلاف هنا بين المسلمين والمتنفذين في الغرب لا يتعلق بشرعية الهجمات من عدمها، فمعظم المسلمين لا يرون جوازها وينفون عنها مشروعيتها، إلا أن محل الخلاف هو التفسير والتحليل. فالمسلمون مع رفضهم للاعتداءات، التي ذهب ضحية لها أبرياء، منهم عدد لا بأس به من المسلمين، يرون بأن الدافع لها سياسي بحت، بينما يرى الخصوم في الطرف الآخر أن أي خطاب بهذا المعنى هو محاولة للتبرير وإضفاء الشرعية على "العدوان". وخالصة القول بالنسبة لهم أن ثقافة المسلمين ثقافة إرهابية بالضرورة، وبأن مثل هؤلاء يتعذر التعايش معهم إلا أن ينسلخوا من ثقافتهم ويعيدوا تأسيس هويتهم على أساس الانتماء إلى المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها والفكرة العلمانية التي تأسست عليها لا الأمة الإسلامية مترامية الأطراف حول العالم ولا العقيدة والشريعة اللتان تحددان معاً ملامحها.

نعم، تبدد الضباب، وتجلت الأمور على حقيقتها. فمنذ أحداث يوليو (تموز) بالذات تعالت أصوات بعض المتنفذين من صناع السياسة والرأي في بريطانيا، بل وفي أمريكا وأوروبا، تطالب بإعادة النظر في مفهوم "التعددية الثقافية" وبتحديد مفهوم الهوية عند المسلمين. فالمسلمون البريطانيون - وإخوانهم من مواطني الدول الغربية الأخرى - أصبحوا مصدر إزعاج كبير، لأنهم يستعصون على الاندماج الذي يعني فيما يعنيه الصمت على ما يجري من ظلم وقهر لـ "الآخر" فيما وراء البحار، بل إن المسلم الراض لمثل هذا الاندماج - أو الذوبان (والمصطلحان وجهان لعملة واحدة) - يصبح هو "الآخر" بعينه، وهذا "الآخر" لا مكان له في المنظومة الغربية سواء كانت مسيحية أو علمانية، ومن هنا يمكن أن نفهم ترحيب الأوروبيين في غرب

دراسات في الشاه الإسلامي

القارة بإخوانهم المهاجرين من جناحها الشرقي وتفضيل أستراليا للمهاجرين من كل الديانات على المهاجرين من المسلمين.

إن الحرب المعلنة في بعض الأوساط الفكرية والسياسية على "التعددية الثقافية" مؤشر في غاية الخطورة، وتطور ينذر بشر مستطير، وهدية مجانية تقدم لليمين المتطرف ومن في فسطاطه من فئات نازية وعنصرية تتمنى التخلص من المسلمين، بل ومن كافة المختلفين لوناً أو لساناً أو ثقافة، بالترحيل إن أمكن أو بغيره إذا تعذر.

ليسوا سواء

رغم ما ورد أعلاه، فإن الناس في الغرب ليسوا سواء، بل في الغرب خير كثير، وهو بالضبط ما كشفت عنه نفس المحن التي خرج من رحمها من يطالب بتذويب المسلمين أو ترحيلهم. ففي بريطانيا على سبيل المثال مؤسسات مجتمع مدني وتيارات اجتماعية وسياسية وثقافية كثيرة تعارض السياسة الغربية الاستعمارية، وهي التي وقفت بشدة في وجه الغزو الأمريكي الأنغلو ساكسوني لأفغانستان والعراق، وتقف اليوم في وجه مؤامرة جديدة تحاك لتوجيه ضربة عسكرية قاصمة لإيران، ويؤيد كثير من منتسبي هذه التيارات حق الفلسطينيين في الدفاع عن أنفسهم وفي النضال من أجل تحرير وطنهم والعودة إلى أراضيهم، بل ويعتبرون حق المقاومة ضد الاحتلال في العراق حقاً مشروعاً رغم أن الحكومة البريطانية متورطة حتى النخاع في العدوان.

لقد أثبتت التجربة خلال السنوات القليلة الماضية بأنه لا سبيل أمام المسلمين في الغرب إن أرادوا الذود عن حقهم في الوجود وفي ممارسة شعائرهم بحرية إلا أن يتحالفوا مع هذه التيارات فيدعموها ويحتموا بها، وهي تيارات ليست بسيطة، بل لها تأييد شعبي لا بأس به ولها دور مؤثر في صناعة الرأي العام، هذا مع أن التوجه الفكري والأيديولوجي السائد ضمن

داسات في الشأن الإسلامي

هذه التيارات هو "اليسار" أو ما تبقى منه، ولعل من المفارقات العجيبة أن اليسار الذي كان في يوم من الأيام الخصم الأول والعدو الألد للمسلمين هو اليوم أفضل حليف لهم في المعركة الدائرة مع اليمين المتطرف والمتصهين. لا بد أيضاً من التذكير بأن عامة الناس في الغرب لا يعرفون عن الإسلام إلا ما تبثه وسائل إعلامهم من حين لآخر، وهو في مجمله سلبي وعدائي. وكما ورد في المثل فإن (الناس أعداء ما جهلوا)، ورغم ما يمر به المسلمون في الغرب اليوم من ظروف صعبة إلا أن تسليط الضوء على الإسلام وعليهم بشكل يومي يخلق حالة من الفضول لدى كثير من الناس الذين باتوا يتعطشون لمعرفة المزيد، ولعل في هذا تأكيداً للفرضية القائلة بأنه لا يوجد شيء اسمه دعاية سيئة فكل دعاية يمكن أن تتحول إلى فرصة سانحة حتى لو كانت دعاية مفرضة. والفرصة سانحة اليوم أمام المسلمين ليكتفوا تواصلهم مع عامة الناس وينهوا تماماً حالة العزلة والانعزال، ومن يفهم من عامة الناس ويعرف فإنه يتحول بشكل تلقائي إلى صديق، والمسلمون بحاجة اليوم إلى أكبر عدد من الأصدقاء. إن الأزمة التي يعيشها المسلمون اليوم لا تعني بحال بأن وجودهم في الغرب بات مهدداً، ولكنها أزمة غير مسبوقة وتحتاج إلى التعامل معها بحكمة وشجاعة، ومن الحكمة البحث عن القواسم المشتركة بين المسلمين وبين قطاعات المجتمع المختلفة، ومن الشجاعة أن نعيد النظر في بعض الفرضيات التي على أساسها أدار المسلمون في الغرب شؤونهم حتى عهد قريب. وهذا يرتب على المؤسسات الإسلامية المحلية في الغرب، والعالمية ذات المصلحة في التواصل مع الغرب ومع مسلميه، مسؤوليات جسام، ويتطلب منها مراجعة أولوياتها وآليات عملها.



دراسات في الشأه الإسلامى

مستقبل الدعوة الإسلامية في الغرب في ضوء المتغيرات الدولية

أ.د. أحمد جاب الله

مدير المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية - باريس - فرنسا



دراسات في الشأه الإسلامى

داسات في الشاه الإسلامي

إن الدعوة إلى الله تعالى، وهي كما عرفها بعض أهل العلم: تبليغ الإسلام إلى الناس وتعليمهم عقائده وأحكامه وأخلاقه، ومساعدتهم على تطبيقه في حياتهم العملية^(١)، تعتبر من الواجبات الشرعية المطلوبة من المسلمين أفراداً وجماعات أينما وجدوا، ولئن كان لاختلاف البيئات أثر في تحديد مجالات الدعوة وأولوياتها وأساليبها، إلا أن ذلك لا يغيّر من مكانتها وضرورتها، إن الله عز وجل وهو يمتنّ على الأمة الإسلامية بأن جعلها أمة وسطاً، قد ربط هذا التفضيل وهذا التكريم بشرط الشهادة على الناس بالحق، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة، آية ١٤٣).

قال الفخر الرازي في تفسير الآية: (خطاب لجميع الأمة أولها وآخرها، من كان منهم موجوداً وقت نزول هذه الآية ومن جاء بعدهم إلى قيام الساعة)^(٢).

وإن صفة الشهادة التي وصفت بها الأمة تحمل معاني عظيمة حريّة بالتأمل، إذ إن الشاهد الحق لا يشهد إلا بما يعلم، ولا يمكن أن يشهد عن أحقية شيء إلا إذا كان متمثلاً له، كما أن الشاهد هو الذي يُدلي بشهادة وليس هو القاضي الذي يحكم على غيره، فالحكم هو الله عز وجل، وهذا يؤكد مبدأ الاختيار في الدعوة، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (الغاشية، آية ٢١، ٢٢).

إن الحديث عن مستقبل الدعوة الإسلامية في الغرب على ضوء المتغيرات الدولية يقتضي التعرض أولاً لحاضر الدعوة الإسلامية في الغرب من حيث واقعها وأثرها، ثم التعرض بعد ذلك لأهم المتغيرات الدولية ذات الأثر على الدعوة في الغرب، لنصل بعد ذلك إلى استشراف مستقبل الدعوة في ضوء هذه المتغيرات، وما هو مطلوب من المسلمين ليكونوا بحق شهداء على الناس.

دراسات في الشَّاه الإسلامي

حاضر الدعوة الإسلامية في الغرب:

إن العمل للدعوة الإسلامية تنتظمه دائرتان متلازمتان: دائرة المسلمين وما يحتاجونه من توجيه وتعليم وإرشاد، ودائرة المجتمع وما يحتاجه من شرح وعرض لحقائق الإسلام ومبادئه، ولا يمكن أن يُغني التحرك في الدائرة الأولى عن الاهتمام بالدائرة الثانية، كما قد يتصور البعض من باب إعمال مبدأ الأولويات في الاهتمام، وذلك لأن القصور في بيان الصورة الصحيحة للإسلام في المجتمع لا يؤثر سلباً فحسب على غير المسلمين، ولكنه يؤثر أيضاً على عموم المسلمين، الذين سينالهم بسبب هذا القصور ما ينال غيرهم من التشكيك والتشويه، وكلما كانت صورة الإسلام إيجابية وكان القبول به أفضل في المجتمع، كلما كان ذلك ميسراً لدعوة المسلمين للالتزام بدينهم، إذ إن الكثيرين من المسلمين، لا يقوون على معاكسة تيار الهجوم على الدين فيتأثرون سلباً بما يسمعونه ويرونه من مواقف المناهضين والمنتقدين، ومن جهة أخرى فإن تأثير الدعوة على المسلمين تهذيباً وتمثلاً، يساهم بدوره في تغيير تلك الصورة النمطية المغلوطة عن الدين لدى المجتمع، ولذا فإن الجهد الدعوي لا بد له أن يهتم بالصعيدين معاً، لما لكل منهما من التأثير على الآخر، فما هو واقع الدعوة الإسلامية في الغرب اليوم على الصعيد الإسلامي وعلى صعيد المجتمع؟

أولاً: على الصعيد الإسلامي:

تقوم جهود الدعوة الإسلامية في الغرب على الصعيد الإسلامي عن طريق المؤسسات التالية:

١- المساجد والمراكز الإسلامية:

يظل المسجد هو المؤسسة الأولى التي يؤمها المسلمون، باعتباره المكان الذي يقيمون فيه صلواتهم ويجتمعون فيه بمناسبة أعيادهم

داسات في الشأن الإسلامي

ومواسمهم وأفراحهم وأتراحهم.

ويختلف عمل المسجد ويتفاوت تأثيره بحسب القائمين عليه، وبحسب الإمام الذي يؤمّ الناس فيه، فهناك مساجد يقتصر نشاطها على إقامة الصلوات، وهناك مساجد أخرى لها برامج وعظية وتعليمية منتظمة، كما أن مستوى خطيب الجمعة ومدى تمكنه من الثقافة الشرعية واستيعابه لواقع المسلمين في الغرب عموماً وفي بلده خصوصاً، يجعل أثره بين الناس مختلفاً بحسب درجته من ذلك التمكن والوعي.

وللمسجد كذلك مهمة اجتماعية بين المسلمين، فالكثير منهم يلجأ إلى الإمام يستفتيه فيما يعرض له من القضايا الحياتية وخصوصاً ما يتعلق بالمشكلات الأسرية، وقد يكون الإمام قادراً على إفادته وحسن توجيهه، وقد يكون عاجزاً عن القيام بهذه المهمة فلا يفيد سائله بشيء أو قد يكون توجيهه له غير مناسب لمقتضى الواقع والحال.

وللمسجد أيضاً إسهام في مجال التعريف والدعوة للإسلام، ولكن هذا الإسهام يظل كذلك مرتبطاً بمستوى القائمين عليه وقدرتهم على الانفتاح على الناس واستقبالهم والرد على استفساراتهم.

وإن الناظر لأوضاع المساجد والمراكز الإسلامية في الغرب يجد أن الكثير منها لا تستطيع أداء هذه الأعمال المناطة بها، ولكن هناك تحسن تدريجي يلاحظ في هذا المجال يؤمل أن يستمر مع وصول أجيال جديدة من المسؤولين ومن الأئمة والخطباء، الذين يملكون الكفاءة على حسن التسيير والتوجيه.

٢ - المؤسسات التعليمية والتربوية:

لقد كان التعليم ولا يزال هو الدعامة الكبرى في حفظ هوية أي مجموعة بشرية تريد التمسك بعقائدها وثقافتها، ولقد كان التعليم من أبرز الأنشطة

دراسات في الشاه الإسلامي

التي اتجهت إليها جهود الأقليات المسلمة في الغرب. وينقسم النشاط التعليمي إلى ثلاثة مجالات:

أ - التعليم الديني الذي تقوم به المساجد والمراكز الإسلامية، ويتولى تدريس الأبناء القرآن الكريم ومبادئ التربية الإسلامية، وقد تطور أداء بعض المراكز الإسلامية في هذا الجانب بحيث أصبح نشاطها التعليمي يقوم على إطار تعليمي متكامل ومتخصص.

ونشأت كذلك بعض المدارس التكميلية التي تقوم بهذا العمل وتتخصص فيه، وهذا يدل على الطلب الشديد من المسلمين لتوفير الفرص لأبنائهم ليتعلموا مبادئ دينهم منذ الصغر.

وقد أصبح أيضاً من اهتمامات القائمين على التعليم في هذا المجال توفير حصص للدعم الدراسي لمساعدة التلاميذ في موادهم التعليمية التي يدرسونها في المدارس العامة، لمساعدتهم على النجاح والتفوق.

ب - المدارس الإسلامية الخاصة، والتي أصبحت تتزايد أعدادها في جميع الدول الغربية، وذلك لشعور المسلمين بأهمية التعليم من جانب، واتجاههم الواضح نحو الاستقرار الذي جعلهم يفكرون بجد في ضرورة الحفاظ على النشأ المسلم، ليظل مرتبطاً بدينه وهويته الإسلامية، وقد استفادت المدارس الإسلامية الخاصة، كغيرها من المؤسسات التعليمية الخاصة، من الدعم الحكومي الموجه للتعليم الخاص، وتمكن بعضها من إحراز تفوق واضح في المستوى التعليمي، مما جلب لها الاحترام والتقدير من المسؤولين عن الدوائر التعليمية في الدولة.

وإن المؤمل هو أن تستمر جهود المسلمين في هذا المجال وأن يتمكنوا من توفير تعليم نموذجي راق، فيقدمون بذلك خدمة لأبنائهم ولمجتمعاتهم الغربية، إذ إن ارتفاع المستوى التعليمي في أي بلد هو أحد المؤشرات المهمة على تقدمه وتفوقه.

داسات في الشأن الإسلامي

ج - المؤسسات التعليمية الشرعية، التي ظهرت في بعض الدول الغربية، والتي تهدف إلى التخصص في التعليم الشرعي ونشر الثقافة الإسلامية وتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم، وإن نشوء مثل هذه المؤسسات إنما جاء استجابة لحاجة ملحة في تكوين الأئمة والخطباء والدعاة والمدرسين الذين يقومون على التوجيه والتعليم في أوساط المسلمين في الغرب، وكذلك استجابة لحاجة الكثير من المسلمين في الغرب، وخصوصاً من الأجيال الجديدة، إلى تعلم مبادئ دينهم في مؤسسات تعليمية موثوقة، تقدم لهم تعليماً شرعياً منطلقاً من مصادر الإسلام الصحيحة على أيدي متخصصين في العلوم الشرعية.

وقد أصبحت هذه المؤسسات التعليمية الشرعية تمدّ الجاليات المسلمة في الغرب بعدد من الأئمة والدعاة وساهمت في نشر الثقافة الإسلامية في الوسط الإسلامي.

٣ - المؤسسات الإعلامية:

للإعلام إسهام كبير في عالمنا المعاصر، وخصوصاً في البلاد الغربية التي يمثل الإعلام فيها قوة ضاغطة لها تأثيرها على صياغة الرأي العام وعلى توجيه السياسيين وأصحاب القرار، والمسلمون في الغرب هم أحوج ما يكونون إلى إعلام قوي يساعدهم على كشف حقائق الإسلام والرد على ما يلصق به من الشبهات والأباطيل، ولذلك حاولت بعض المؤسسات الإسلامية أن تُقيم أنشطة إعلامية عن طريق إصدار النشرات والكتب، وإصدار الصحف والمجلات، وعقد المحاضرات والندوات والمؤتمرات، وكذلك تأسيس مواقع على شبكة الأنترنت التي أصبحت اليوم من الساحات الإعلامية المهمة، كما حاولت بعض الجهات الدخول في مجال الفضائيات عن طريق تأسيس قنوات بث تلفزيوني.

ولكن المتابع لهذا النشاط الإعلامي الإسلامي في الغرب، يجد أنه يفتقر

دراسات في الشَّاه الإسلامي

غالباً إلى التخصّص الحرفي، وإلى الإمكانيات المالية التي تجعله قادراً على الأخذ بأسباب التأثير الواسع، خاصة وأن الصناعة الإعلامية قد أصبحت اليوم فنّاً تشتدّ فيه المنافسة بين مؤسسات ضخمة ذات قدرات وكفاءات عالية.

٤ . المؤسسات الثقافية والاجتماعية:

بدأت تظهر في أوساط المسلمين في الغرب مؤسسات تخصصية تعنى بالجانب الثقافي والاجتماعي، وذلك في مجال الاهتمام بالنشأ والشباب، وبالمرأة والأسرة المسلمة، ويأتي هذا الاهتمام استجابة لحاجة عموم المسلمين إلى دعمٍ في هذه المجالات الحساسة، وقد كانت هذه الجوانب تدخل ضمن أنشطة بعض المراكز الإسلامية، ولكن الاتجاه العام يسير نحو مزيد من التخصص في إقامة مؤسسات تعمل في هذه الميادين، ومن المشاريع التي تدرج في هذا المجال، إقامة مراكز ثقافية ترفيهية تستوعب الشباب المسلم وتقدّم لهم بديلاً مناسباً يلبي طلبهم في الترفيه، ولكن في جوٍّ إسلامي نظيف، وكذلك إقامة مشاريع لتشجيع الإنتاج الثقافي والفني، في ظل مجتمعات تُقيم اعتباراً للعمل الثقافي والفني، وكذلك إقامة مؤسسات اجتماعية تتصدى لبحث مشكلات الأسرة المسلمة وتقدّم لها الدعم التربوي والنفسي اللازم.

ثانياً: على صعيد المجتمع:

مع أن جهود الدعوة الإسلامية في الغرب تتصرف أساساً إلى العناية بالمجال الإسلامي، نظراً للحاجة الكبيرة في هذا المجال، إلا أن المؤسسات الإسلامية تعي كذلك أن من واجباتها أن تفتح على المجتمع وأن تتواصل معه لبيان طبيعة معتقداتها وحقيقة مواقفها، ولكن الجهود المبذولة في هذا الميدان تظل قاصرة عما هو مطلوب أمام الصخب الإعلامي الذي يحيط

داسات في الشأن الإسلامي

بالظاهرة الإسلامية وما يصحبها من تشويش وتشويه.

وإن من الأنشطة التي تقيمها المؤسسات الإسلامية باتجاه المجتمع وهي:

١. الندوات والمحاضرات:

وذلك عن طريق طرح بعض الموضوعات العامة التي تجيب على تساؤلات غير المسلمين سواء فيما يتعلق بجوانب دينية بحتة تتصل بالعقائد والعبادات الإسلامية، أو بخصوص قضايا فكرية واجتماعية تتعلق بالإسلام والمسلمين وتحتاج إلى بيان وإيضاح، ويظل أثر هذا النشاط مرتبطاً بنوعية الطرح والتناول شكلاً ومضموناً، ولكن هناك أعداداً من الناس تُبدي اهتماماً بهذه الأنشطة، لأنهم يشعرون بحاجة إلى التعرف على هذا الدين، الذي يكثر الحديث عنه في وسائل الإعلام المختلفة.

٢. لقاءات الحوار الديني والفكري:

يشارك عدد من المسلمين في لقاءات الحوار الديني، وخاصة في مجال الحوار الإسلامي المسيحي، وقد أصبحت اليوم تقوم على تفعيل هذا الحوار جمعيات ومؤسسات أكثرها بمبادرة من المسيحيين، وتتنوع وسائل هذه الجمعيات في إقامة هذا الحوار، فبعضها يهتم ببناء علاقات تعارف بين المسلمين وغيرهم، وبعضها تبحث قضايا دينية من خلال طرح موضوعات يتم تناولها في ندوات مشتركة من الزاويتين الإسلامية والمسيحية. وتشهد هذه اللقاءات إقبالا خصوصا من المسيحيين الذين يرغبون في التواصل مع المسلمين ومعرفة مواقفهم مما يُطرح في الساحة الفكرية والإعلامية من قضايا وإشكالات.

ولا تقتصر لقاءات الحوار على التجمعات الدينية، وإنما تشمل أيضاً بعض المؤسسات الفكرية العامة التي تهتم بالوجود الإسلامي وتتنظر إلى طبيعة تفاعله مع المحيط الاجتماعي وترغب أن تبني علاقات مع المسلمين من أجل

دراسات في الشاهد الإسلامي

تفعيل عملهم الاجتماعي في ظل مجتمعات تعددية تحكمها أنظمة علمانية. ويمكننا القول إن المسلمين في هذا المجال، هم في الحقيقة يستجيبون لمبادرات يأخذها غيرهم، وليسوا هم المبادرون في الغالب بإقامة مؤسسات حوارية تجمعهم مع غيرهم، ولا ضير في ذلك إذا كانت الأهداف واضحة، وكان المتصدي لهذا الحوار على درجة من الكفاءة والوعي بما هو مطلوب.

٣. التواصل الإعلامي:

بحكم الاهتمام المتزايد بالإسلام، في ضوء ما يجري من أحداث متتابة في العالم الإسلامي أو ما يتعلق بالوجود الإسلامي في الغرب، فإن المسلمين مستهدفون بالاتصال من قبل وسائل الإعلام التي تتجه إليهم لتتعرف على مواقفهم مما يجري من أحداث، ولكن المؤسف أن قضية الإسلام لا تبرز على السطح إلا عند وقوع حوادث القتل والتفجير في هذا المكان أو ذلك، مما يجعل صورة الإسلام مرتبطة دائماً بهذا الأوضاع الشاذة.

ومما يؤسف له أيضاً أن أكثر وسائل الإعلام تتعمد التوجه إلى أولئك الذين يثبتون بتصريحاتهم ومواقفهم تلك الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين، مع أنهم لا يمثلون إلا قلة قليلة من المسلمين، أو أنها تتجه إلى فريق آخر من المسلمين ممن يصفونهم عادة بـ"المعتدلين"، والذين لا يتورعون عن الانتقاص من الإسلام والتهجم على المسلمين وتحميلهم مسؤولية ما يحدث من أحداث العنف والإرهاب، وغير ذلك مما يلصق بالمسلمين من التهم.

ولذلك فإن بعض الهيئات الإسلامية تحاول أن تبادر بالقيام بجهد إعلامي تعلن فيه عن حقيقة موقف الإسلام والمسلمين مما يجري من أحداث، كما أن العديد من المؤسسات الإسلامية تصدر بيانات بمناسبة حصول أحداث عالمية أو محلية لتوضيح رؤيتها، وقد ساهمت المواقع على

داسات في الشأن الإسلامي

شبكة الإنترنت في سهولة إيصال صوتها، ولكنه يظل في دائرة محدودة نوعاً ما، لأن وسائل الإعلام الكبرى من محطات تلفزيونية وإذاعية وصحف ومجلات، تملك قدرة أوسع على التأثير على الرأي العام بل صياغته باتجاه ما تريده.

٤. المشاركة السياسية:

لا ينخرط المسلمون في الغرب في الشأن السياسي انطلاقاً من صفتهم الدينية ولكن باعتبارهم فئة من فئات المجتمع ذات خصوصية دينية، ولكن عموم الأنظمة السياسية في أوروبا، تفضل أن تتعامل مع المسلمين في المجال السياسي من منطلق المواطنة، التي لا تفرق بين مواطن وآخر، وليس بناء على اعتبارات دينية أو عرقية أو ثقافية، هذا من حيث المبدأ أما من حيث الواقع فالمسلمون في أغلب الدول الغربية لهم حضور ضعيف في الحياة السياسية، ويرجع هذا الضعف إلى أسباب عديدة، بعضها عائد إلى الجاليات المسلمة التي لا تزال تمرّ بمرحلة انتقالية بين الوجود المؤقت كمهاجرين والوجود الدائم كمواطنين مستقرين، وتعود الأسباب الأخرى إلى طبيعة تعاظمي المجتمع وهيئاته السياسية مع المواطنين الوافدين وخصوصاً المسلمين منهم، حيث لا تزال العديد من الأحزاب لا تتقبل بسهولة أن يكون من بين أعضائها الفاعلين أشخاص مسلمون، فضلاً عن ترشيحهم في الانتخابات الهامة كالانتخابات البرلمانية.

ومع ذلك فإنه بالإمكان القول، إن الحضور السياسي للمسلمين مرشح للنمو، بعد أن أصبحوا يشاركون في الانتخابات المحلية وأصبح عدد منهم يصل إلى مقاعد المجالس البلدية، كما أن بعض الهيئات الإسلامية تحاول تحسيس المسلمين وتوعيتهم بضرورة وأهمية مساهمتهم في الشأن السياسي خلال المشاركة بالتصويت على الأقل.

هذه صورة موجزة عن حاضِر الوجود الإسلامي في الغرب وما يتسم به

دراسات في الشاه الإسلامي

من خصائص، ولا شك أن هذا الوجود تعتريه من عوامل التفاعل والنمو ما يجعله مرشحاً لأعمالٍ قادمة يكون فيها أكثر رسوخاً وأبعد تأثيراً في واقعه، خصوصاً بوجه التحديات التي تعترضه والتي تضطره إلى الاستجابة لمقتضياتها، وهو ما يجرُّنا إلى الحديث عن المتغيرات الدولية المؤثرة على الدعوة الإسلامية في الغرب.

المتغيرات الدولية ذات الأثر على الدعوة الإسلامية في الغرب

إن المقصود بهذه المتغيرات هي مجموعة العوامل الحاضرة التي لها أثر مباشر أو غير مباشر على الوجود الإسلامي وعلى الدعوة الإسلامية، سواءً كان ذلك الأثر إيجابياً أو سلبياً، وسواءً كانت تلك العوامل عائدة إلى طبيعة الوجود الإسلامي نفسه، أو إلى خصائص الواقع المباشر، أو إلى عوامل موضوعية تتعلق بطبيعة الحياة في العالم المعاصر، وما تتسم به من مكتسبات علمية وتقنية وخصائص ثقافية وحضارية.

ويمكننا أن نلخص العوامل التي لها أثر على الدعوة الإسلامية في الغرب في النقاط التالية:

١ - إن المتغير الأول هو ظاهرة استقرار المسلمين في المجتمعات الغربية في إطار المواطنة، فبعد أن كان الوجود الإسلامي وجوداً عابراً بسبب صفة الهجرة التي غلبت على عموم المسلمين المقيمين في الغرب، بدأ التحول مع الأجيال الناشئة نحو الاستقرار، إذ لم تعد الأجيال المتعاقبة من الأبناء تشعر بأنها دخيلة على هذه المجتمعات، وإنما نشأت في رحمها وتعلمت في مدارسها وتلقت ثقافتها وتعرفت على أعرافها وعاداتها، وهذا من شأنه أن يجعلها تتعامل معها من منطلق يختلف عن منطلق الوافد الذي يرى نفسه دائماً أجنبياً عن المجتمع الذي انتقل إليه. هذه النظرة للذات مهمة لأنها تضع الإنسان المسلم في وضع من الاستقرار النفسي والاندماج المجتمعي. نعم، إن المجتمعات الغربية في عمومها لم تتطور بعد في نظرتها إلى المسلمين على أنهم قد أصبحوا يكونون جزءاً أصيلاً من كياناتها، ولكن هذا الأمر سيتغير تدريجياً مع مرور الزمن.

دراسات في الشاه الإسلامي

وإن من وراء استقرار المسلمين كمكون من مكونات المجتمعات الغربية استقرار الإسلام، الذي أضحى في كثير من المجتمعات الغربية يمثل الديانة الثانية للبلد، فلم يعد الإسلام ديناً هامشياً وإنما هو دين عدد هام من أبناء المجتمع، ولهذا الوضع مقتضياته وتبعاته. ولذلك نرى اليوم العديد من الدول الغربية تهتم بالشأن الإسلامي وما يتعلق به من إقامة دور العبادة والمرافق المختلفة وتمثيل المسلمين كمجموعة دينية ليكون لهم من يتحدث باسمهم ويدافع عن مصالحهم لدى أجهزة الدولة المختلفة، على غرار الأديان الأخرى المستقرة.

٢ - ومن المتغيرات الحاصلة على مستوى الوجود الإسلامي، ما نراه من تطلع للأجيال الإسلامية الجديدة إلى أن يكون لها مواقع اجتماعية متقدمة في مجتمعاتها، فالشباب الذي ينطلق من منطلق المواطنة لا يرضى أن يُعامل كمواطن من الدرجة الثانية، وإنما يطمح أن يكون له وضع اجتماعي يختلف عن الوضع الذي عرفه أبوه أو جدّه، إن الشاب المسلم قد تخلص في تعامله مع المجتمع من عقدة الإنسان الأجنبي الوافد، الذي يرضى بما يُعطى له ولا يطالب بحقوقه حتى لو ناله الهضم، إن هذه النظرة من الشباب قد تصطمم بواقع صعب في تعامل المجتمع الذي لا ينطلق من نفس المنطلقات، ولكن الأوضاع مدعوة إلى التغيير، وهو ما تسعى له كثير من الدول الغربية عن طريق إقامة مؤسسات تعمل على تحقيق العدل والتكافؤ في الفرص، وسيحتاج الأمر إلى جهود مضيئة وسيطلب وقتاً ولكن لا مناص من التغيير، خصوصاً إذا استطاع هؤلاء الشباب أن يثبتوا جدارتهم من الكفاءة والاقترار في مجالات الحياة المختلفة.

٣ - من العوامل المؤثرة على الوجود الإسلامي في الغرب، ما تعيشه مناطق عديدة في العالم الإسلامي من أوضاع متوترة وما تعرفه بعض المناطق من احتكاك مباشر مع السياسة الغربية التي تمارس نشاطها كونها قوى عظمى في العالم، ولا شك أن هذه السياسات تحكمها في أغلب الأحيان المصالح

داسات في الشأن الإسلامي

المادية في إطار التسابق على مواطن النفوذ في العالم، وإن اختلال موازين العدل في التعامل مع القضايا الساخنة في العالم الإسلامي، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، يُحدث نوعاً من الفجوة بين هذه السياسات وبين طبيعة الانتماء إلى المجتمع الذي ينتمي إليه الشاب المسلم، وقد يؤدي هذا الوضع إلى حالة من الانفصام الصعب الذي يعيشه البعض على مستوى المشاعر وربما المواقف، ولا يمكن حلّ هذه المعضلة إلا عن طريق نظرة عميقة تجعل المسلم مندمجاً في مجتمعه وفيماً في انتمائه له، ولكن بذات الوقت يعمل على تحريريه من الموقف السلبي الذي يجعله يستسيغ سياسة الكيل بمكيالين، ويتعامل مع قضايا المسلمين من منطلق الانحياز السلبي ضدهم.

٤ - أثر العولمة الاقتصادية والثقافية على المجتمعات البشرية وما ينشأ عنها من اختلال في التوازن العالمي بين الشعوب والحضارات، ووجود العالم الإسلامي في دائرة التهميش والتبعية، يفقد الوجود الإسلامي في الغرب ثقل بُعده الإسلامي العالمي، إن المسلمين في الغرب باعتبارهم أقليات لا يمكن أن تنقطع صلاتهم بإخوانهم في العالم الإسلامي أخذاً وعطاءً، وكلما كانت الشعوب الإسلامية لها من العطاء الثقافي والحضاري الذي يعكس خصائصها ومبادئها، كلما كان ذلك أدعى إلى التوازن والإثراء المتبادل، ولن يتحقق ذلك إلى من خلال وضع ضوابط تحدّ من هيمنة عولمة طاغية.

إن العمل من أجل السلم والاستقرار في عالمنا المعاصر، يقتضي مراجعة السياسات العالمية المتبعة لتكون أقرب إلى العدل والإنصاف، وليست الدعوات التي تنطلق لإصلاح أوضاع الهيئات الدولية، كالأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، إلا تعبيراً عن هذا القلق الذي تعيشه كثير من شعوب العالم اليوم وترجو معالجة أسبابه بمنطق العقل والمصلحة المشتركة في إطار السلم والتعاون المشترك بين الشعوب والأمم.

٥ - الأحداث الإرهابية التي تحصل سواءً في العالم الإسلامي أو في

دراسات في الشاهد الإسلامي

الغرب وأثرها السيئ في ترسيخ الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين، إذ إن هذه الأحداث، بقطع النظر عن أسبابها وعن حقيقة الذين يقفون وراءها، قد تجد من المسلمين - ولو كانوا قلة قليلة - من يتبناها ومن يدافع عنها، باعتبارها في رأيهم شكلاً من أشكال مقاومة الضعيف الذي لا يملك من أسباب القوة المكافئة ما يجعله يواجه الظلم والحييف، ولكنه مع الأسف نرى أن هذه الأحداث قد نشأت من ورائها تداعيات سلبية على المسلمين وعلى الدعوة الإسلامية، وقد أصبحت اليوم العديد من الدول الغربية تسن قوانين، في إطار مكافحة الإرهاب والتصدي لأسبابه، ستؤدي مع الوقت إلى التضييق من حرية الممارسة الدينية للمسلمين، لا يمكننا أن نرفض حق الدول الغربية في حماية أمنها واستقرارها، والمسلمون معنيون هم كذلك بحفظ الأمن والاستقرار، وهو من واجباتهم كمواطنين صالحين، ولكن نسبة الإرهاب إلى المسلمين يؤدي حتماً إلى توسيع دائرة الاتهام أو الشك وتزعزع الثقة لتشمل كل المسلمين، وربما يكون لبعض الجهات المُغرضة مصلحة في ترويج مثل هذه الأفكار لعزل المسلمين في مجتمعاتهم.

٦ - أزمة الهوية التي يعيشها الكثير من أبناء الشعوب الغربية، بسبب ما عرفته مجتمعاتهم من تحولات حضارية أدت إلى تهميش مهمة الدين والقيم الأخلاقية في بناء مؤسساتها وإدارة واقعها الاجتماعي، وقد أنتجت هذه الأزمة حالة من الخوف على النفس والخوف من المستقبل، وبالتالي الخوف من الآخر المخالف الذي يمكن أن يكون مصدر تهديد للمكتسبات وما بقي من الأعراف المستقرة، إن هذه الوضع هو الذي يفسر، ولو جزئياً بعض المواقف العنصرية التي يعبر عنها البعض في وجه من يراهم مخالفين أو مكتسحين يريدون تغيير طبيعة المجتمع، وإن خلاصة النظرة المستقرة في الأذهان هي أن الإسلام يشكل هذا التهديد للهوية الغربية، التي ترى أنها قد حققت عبر معاناة تاريخية طويلة مكسب الانعتاق من الدين، وإذا كانت قد انعتقت من سلطان الكنيسة، فلا يمكن أن تقبل بتأثير دين آخر تراه دخيلاً عليها.

داسات في الشأن الإسلامي

إن هذه الأزمة تُلقى بظلالها على المسلمين أيضاً، باعتبارهم جزءاً من المجتمع، وخصوصاً في النظرة إلى الدين ومكانته في حياة الناس.

إن المسلمين مدعوون للتعامل مع أزمة الهوية تعامل المتفهم الحكيم، والإسلام إذا أحسنا عرض قيمه الإنسانية يمكن أن يشكّل إثراء لهذه الهوية دون أن يلغي مكاسبها وإنجازاتها الكثيرة في مختلف مجالات الحياة.

٧ - تطور وسائل الإعلام وتنوعها وتوسّع نطاق تأثيرها، يُعدّ من سمات المجتمعات الغربية المعاصرة، ويشكّل هذا الأمر حجر الزاوية في فهم كثير من التحولات التي تعيشها هذه المجتمعات وما ينشأ عنها من تأثير في موازين القوى، إن كثيراً من المعارك الفكرية والسياسية يتمّ حسمها إعلامياً قبل أن تحسم بالقرارات والتوجهات، بل إن رجال السياسة، وهم المسؤولون عن إدارة شؤون الدولة، كثيراً ما يخضعون إلى سلطان الإعلام ويحاولون تكييف مواقفهم وسياساتهم، بحسب الاتجاه العام الغالب الذي يرسمه الإعلام ويجعل منه حقائق ثابتة. إن الأفراد مهما كان نفوذهم، وكذلك المجموعات، في ظل المجتمعات الغربية المعاصرة، لا يمكن أن يكون لها أثر في مجريات الأمور، ما لم يكن لها من سلطان الإعلام نصيب.

وعندما نعلم أن صورة الإسلام في عدسة الإعلام صورة سلبية ندرك أنه من التحدي الكبير أن يكون للدعوة الإسلامية الأثر المرجو منها في ظلّ هذا الواقع الصعب.

مستقبل الدعوة في ظل هذه المتغيرات

إن الدعوة الإسلامية مدعوة للتفاعل مع هذه المتغيرات من أجل تفعيل إسهامها وأداء مهامها الشرعية المنوطة بها، وذلك على الصعيد الإسلامي الداخلي وعلى الصعيد المجتمعي الخارجي.

أولاً: على الصعيد الإسلامي:

إن المهام المطلوبة من الدعوة الإسلامية لصالح المسلمين في الغرب تدور حول المحاور التالية:

١- العمل على ترسيخ الفهم الإسلامي الوسطي:

إن الفهم هو منطلق العمل، وكلما كان الفهم سليماً كلما كان العمل مسدداً، وإن من أعظم الخصائص التي يجب الحرص عليها في الفهم الإسلامي خاصية الوسطية التي تنأى عن الغلو المنهي عنه وعن القصور المحذّر منه. ولقد امتدح الله تعالى هذه الأمة أن جعلها أمة وسطاً حتى تستطيع أن تُقيم الشهادة بالحق على الناس:

يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية: (قال أبو جعفر: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع، هو الوسط الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار... وأرى أن الله تعالى ذكره، إنما وصفهم بأنهم وسط، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه)(٣).

وذكر البغوي في تفسيرها: (قال الكلبي: يعني أهل دين وسط بين الغلو

داسات في الشاه الإسلامي

والتقصير، لأنهما مذمومان في الدين(٤).

وجاء في تفسير القرطبي: (وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً، أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم، والوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها، وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) قال: عدلاً، قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي التنزيل: "قال أوسطهم" أي أعدلهم وخيرهم. ووسط الوادي: خير موضع فيه وأكثره كلاً وماء. ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً، أي هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في أنبيائهم، ولا قصرُوا تقصير اليهود في أنبيائهم، وفي الحديث: (خير الأمور أوسطها) (راجع كشف الخفا رقم ١٢٤٧). وفيه عن علي رضي الله عنه: عليكم بالنمط الأوسط، فإنه ينزل العالي، وإليه يرتفع النازل(٥).

وذكر البيضاوي في تفسير الآية: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً، أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل. وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن(٦).

إن خاصية الوسطية من أهم الخصائص التي يجب الحرص عليها في فقه الدين حتى نتجنب آفتي الغلو والتقصير، وهو ما نراه في واقع المسلمين مع الأسف، إذ إن هناك من يقع في التنطع باسم الحرص على الدين وحسن الالتزام به، فيكلف نفسه ما لا يطيق وينفر الناس من دين الله تعالى بسوء فهمه، وهناك من يقع في التقصير ويريد أن يبرره على أنه اجتهاد سائغ مع أنه يفتقر إلى الدليل وإلى النظر السديد.

وإن من الوسطية أن يتصدى لأمر التعليم والتوجيه والفتوى الثقة من أهل العلم، الذين جمعوا بين الفقه الشرعي وبين معرفة الواقع واستيعاب مقتضيات العصر.

دراسات في الشاهد الإسلامي

٢ - العناية بالتحصين التربوي والتهديب الروحي:

إن المسلمين في الغرب بحكم وجودهم كأقليات في مجتمعات مادية، يحتاجون إلى عناية كبيرة فيما يتصل بالجوانب التربوية والروحية، إذ إن الإنسان لا يمكن أن يستمر التزامه بالدين ما لم تتعمق لديه معاني الإيمان والأخلاق الإسلامية، وهذا الأمر يحتاج إلى عمل دائم وإلى تذكير مستمر، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات : ٥٥).

كما أن التهديب التربوي والخلقي يبرز المسلمين في صورة إيجابية تجعلهم بسلوكهم يقدمون الدليل على عظمة الإسلام وعلو مبادئه، وهي دعوة بلسان الحال يفوق أثرها الدعوة بلسان المقال.

ومن أهم المؤسسات التي تخدم هذا الهدف المؤسسات التعليمية، من معاهد شرعية، ومدارس نظامية وتكميلية تقوم على ترسيخ مبادئ التربية الإسلامية لدى النشأ منذ الصغر.

٣ - الاهتمام ببناء الشخصية الإسلامية المتوازنة:

إن المسلمين في الغرب مدعوون لبناء هوية إسلامية غربية تنطلق من أسس الإسلام وتجمع إليها مقتضيات الاندماج الإيجابي في المجتمع.

إن المسلم الغربي مدعو إلى تجاوز عقدة ازدواجية التعارض في الانتماء بين ما عليه من واجب الولاء لدينه، وبين ما يقتضيه منه عقد المواطنة الصالحة في المجتمع من العمل من أجل الصالح العام والحرص على استقرار البلد وأمنه، وقد يظن البعض أن هناك تعارضاً بين الأمرين، ولكن المتأمل في مبادئ الإسلام لا يجد أي تعارض بينهما، فالإسلام يدعو المسلم إلى احترام عهوده ومواثيقه مع غيره، وليست المواطنة إلا عقد يرتبط به الإنسان مع غيره. كما أن المتأمل في تاريخ المسلمين يجد أنهم لم يجدوا حرجاً في العيش كأقلية وفيه في مجتمع لا يدين بدينهم، وما مثال المسلمين

داسات في الشأن الإسلامي

المهاجرين الأوائل إلى الحبشة إلا دليل على ذلك.

ذكر ابن هشام في سيرته في حديث أم سلمة رضي الله عنها، تحت عنوان: " فرح المهاجرين بنصرة النجاشي على عدوه ":

(... قالت فوالله إنا لعلى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه. قالت فوالله ما علمتتا حزناً حزناً قط كان أشد (علينا) من حزن حزناه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه .

قالت وسار إليه النجاشي ، وبينهما عرض النيل، قالت فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت فقال الزبير بن العوام : أنا، قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سناً، قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، قالت فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه ومكّن له في بلاده، قالت فوالله ما علمتتا فرحنا فرحة قط مثلها .

قالت ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه ومكّن له في بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة(٧).

٤- العناية بالأسرة:

إن العمل على حفظ كيان الأسرة يعدّ من أوكد الواجبات التي يحتاجها المسلمون في الغرب، فالأسرة يقع على عاتقها عمل كبير في بناء الأجيال

دراسات في الشاه الإسلامي

الصاعدة بناء تربوياً وروحياً وسلوكياً ونفسياً، وإذا ما قصرت الأسرة في أداء هذا الدور، فإن الخلل سيكون كبيراً. وإن الناظر إلى أوضاع المسلمين في الغرب يجد أن الأسرة المسلمة، لا تمتلك من أسباب القوة والاستقرار ما يرشحها للقيام بوظيفتها على أحسن وجه، بل إن كثيراً ما تعاني من مشكلات داخلية بسبب ضعف الانسجام بين الزوجين، وبسبب عدم القدرة على التواصل والحوار الناجع مع الأبناء، مما يؤدي في أحيان كثيرة إلى تعقيد المشكلات وترك الأبناء نهباً لتيارات الانحراف التي تتلقفهم في المجتمع.

ولذلك فإنه من الضروري أن تكون هناك مؤسسات اجتماعية تهتم بشؤون الأسرة المسلمة، وتكون مرجعاً لها تعود إليها لمساعدتها على تخطي ما يعترضها من مشكلات، وتقوم أيضاً بوظيفة الإصلاح والتحكيم الأسري، حتى لا تكون عرضة للتصدع والتفكك.

هـ - الاهتمام بالمجال الثقافي والترفيهي:

يعيش المسلمون في الغرب في مجتمعات تُولي اهتماماً كبيراً للجوانب الثقافية والترفيهية، وقد يجد الشاب المسلم نفسه في بعض الأحيان، إذا أراد ممارسة أنشطة ثقافية وترفيهية، في أجواء غير مريحة، ولذلك فإن الشباب المسلم وكذلك الأسر المسلمة تحتاج إلى فضاءات ثقافية وترفيهية يتحقق فيها مغزى الترفيه وممارسة بعض الهوايات الرياضية أو غيرها، دون الشعور بحرج أو مضايقة، ويمكن أن يتحقق هذا الأمر خلال إقامة بعض النوادي الرياضية والثقافية، وتأسيس المؤسسات الشبابية والكشفية، إلى جانب ما يمكن الاستفادة منه تربوياً في سياق هذا النشاط الثقافي والترفيهي.

ثالثاً: على الصعيد العام

١. مراعاة التعددية الدينية والفكرية واعتبار عامل الحرية:

لا بد للدعوة الإسلامية في الغرب أن تأخذ بعين الاعتبار، أنها تتحرك في مجتمعات تعددية في انتماءاتها الدينية والفكرية، وهي بالتالي ترفض لأي دين أو فكرة أن تدعي لنفسها الانفراد بالصواب، فكيف يمكن للمسلم أن يعتقد عن يقين بصحة دينه، دون أن ينفي حق غيره في أن يعتقد ما يشاء وأن يظن نفسه على الصواب؟ إن اعتقاد المسلم بأنه على الحق الذي جاءه من عند الله تعالى، لا يمنعه أن يُقرّ بحق غيره في أن يخالفه وأن يكون معتقدا لدين آخر، وقد نهى الإسلام عن الإكراه وأقرّ حرية الإنسان في اختيار معتقداته، بل إن القرآن الكريم قد علّم النبي ﷺ، في خضمّ جداله مع المخالفين له، أن يقول لهم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، حتى يترك باب الحوار معهم مفتوحا بافتراض جدلي أن يكونوا هم كذلك على هدى، مع يقينه الكامل بالحق الذي جاء به من عند ربه.

وإن من مقتضيات التعددية الدينية تفعيل الحوار الديني مع أصحاب الديانات الأخرى، وهو ما يلتقي أيضاً مع التوجيه القرآني الداعي إلى محاورة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٦).

ويرتبط بمسألة التعددية مفهوم الحرية الذي غدا مفهوماً مقدساً في الذهنية الغربية، فالإنسان حرّ في التعبير عما يريد، وقد يمسّ هذا التعبير أحياناً بمقدسات الآخرين، بل إن فهم البعض للحرية يجعلهم يرون في التعبير الديني العلني مساً بحرية الآخرين، ويعتقدون أن ذلك يشكل نوعاً من

دراسات في الشاه الإسلامي

الضغط النفسي على غير المتدينين يتنافى مع مبدأ حرية الاختيار، وهذه لاشك أنها إحدى المفارقات الصعبة التي يواجهها أصحاب الأديان بخصوص هذه الرؤية لبعض "المتطرفين من دعاة الحرية"، إذ إن التعبير الديني هو جزء مهم من حق الحرية الذي يجب أن يتمتع به كل مواطن بغض النظر عن معتقده الديني أو انتمائه الفكري، دون أن يهدد حرية الآخر في اعتناق واعتقاد ما يريد.

وعليه فإن الدعوة الإسلامية تحتاج إلى حكمة كبيرة في التعبير عن نفسها دون أن تُتهم بممارسة الضغوط على الآخرين، أو ادعاء احتكار الحق.

٢. تطوير الخطاب الديني مضموناً وصياغة:

إن الدعوة الإسلامية تتجه إلى الناس عن طريق الخطاب بوسائله المختلفة، وكلما كان الخطاب واضحاً، عميقاً، مراعيًا لعقلية المخاطب، قوي الحجّة، كان قبوله أيسر وأثره أعمق.

وإن من مقتضيات النجاح للخطاب الإسلامي، أن يُجيب على عدد من الإشكالات المثارة في الساحة الغربية، والتي تحتاج إلى أجوبة واضحة ومقنعة، ويمكننا أن نعدّد من بين هذه القضايا:

- قضية الموقف من الآخر، وكيف ينظر المسلم لغيره ممن يخالفه في الاعتقاد؟ هل يقرّ بحريته؟ وما هي طبيعة الحقوق التي يجب أن يتمتع بها غير المسلم في المجتمعات الإسلامية؟ وهل لا يزال المسلمون يعاملون غير المسلمين في بلادهم تحت مسمى أهل الذمة، أم أن عقد المواطنة هو الذي يجمع الجميع في إطار الوطن الواحد؟

- قضية الحرية الدينية، سواءً في اعتناق الدين أو في الخروج منه، إذ إن تحريم الردّة في الإسلام من المسائل التي يتوقف عندها الغربيون، لأنهم يجدون فيها منافاة لمبدأ حرية الاعتقاد، خصوصاً وأن الميثاق

داسات في الشاه الإسلامي

العالمي لحقوق الإنسان ينص بوضوح على حرية الإنسان في اعتناق أي دين شاء وفي تغيير معتقده متى شاء!

- قضية علاقة الدين بالسياسة، وكيف أن الإسلام يعرض نفسه كمنهج حياة يعتني بكل مجالاتها بما في ذلك المسألة السياسية، إذ إن العلمانية الغربية تعتبر أن الدين لا شأن له بتنظيم شؤون المجتمع العامة، وأن الشعب يقرر نفسه، عن طريق البرلمان وفي المؤسسات الديمقراطية القوانين والتشريعات التي تحكمه. ومع أنه ليس وارداً عند المسلمين في الغرب أن يطالبو بتطبيق الشريعة الإسلامية في ظل مجتمعات غير إسلامية، إلا أن المسألة تظل مطروحة من الناحية المبدئية، إذ أن القناعة التي يجمع عليها عموم الغربيين، والتي تدعمها التجربة التاريخية في نظرهم، هي أن الدين لا ينبغي أن يتدخل في السلطة السياسية.

- قضية المرأة ومساواتها مع الرجل وكفالة حريتها، من القضايا التي يكثر حولها الجدل وينتقد فيها الإسلام وكذلك بقية الأديان، بدعوى أنها لا تسلّم بحقوق المرأة ولا تحميها من الظلم والحيث، وهذا الموضوع لا يزال الخطاب الإسلامي فيه ضعيفاً ويحتاج إلى مزيد من العمق وقوة العرض، بحيث يكون قوياً ومقنعاً، وإن مما يزيد الطين بلة في هذه القضية وجود بعض الأصوات النسائية، لمسلمات أو من أصول مسلمة، تقدم شهادة عن ظلم المسلمين للمرأة وحرمانها من حقوقها، وإن ذلك التعامل يستند في نظرهم إلى مبادئ الإسلام، لأنه لم يسوّ بين الرجل والمرأة في الحقوق وأقر ضرب المرأة، إلى غير ذلك من المسائل التي تُثار بهذا الخصوص. ومع ضرورة الردّ على هذه القضايا، إلا أنه يجب التنبيه على أن كثيراً من العادات الخاطئة التي يتمسك بها بعض المسلمين، إلى جانب بعض الممارسات السيئة لبعضهم مما يرسخ هذه الصورة السلبية.

هذه القضايا وما يُطرح حولها من إشكالات تحتاج إلى دراسة ومناقشة

دراسات في الشاهد الإسلامي

بأسلوب علمي هادئ، يعتمد الإقناع العقلي القائم على الحجة المنطقية، مع توخي الموضوعية في التمييز بين مبادئ الإسلام وممارسات بعض المسلمين وعاداتهم كما أشرنا، وكذلك التمييز بين الفهم الإسلامي السليم وبين آراء وتصورات بعض المسلمين التي لا تُلزم الإسلام بالضرورة، فكلُّ يؤخذ من كلامه ويردُّ إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام.

٣. إتقان التعامل مع وسائل الإعلام الحديثة وحسن استخدامها لتبليغ الدعوة:

لا أحد يجهل اليوم ما لوسائل الإعلام من تأثير بالغ في نقل الأفكار بل الترويج لها بأساليب مدروسة، ومع ما ذكرناه من حساسية التبشير بالأفكار الدينية في الغرب بطرق مباشرة، إلا أن هناك طرقاً في عرض الأفكار والمعتقدات يمكنها أن تحمل رسالة هادفة في صيغة مقبولة. ولعل مواقع الإنترنت والبرامج الثقافية والتظاهرات الفنية من الأساليب المناسبة، التي يمكن استخدامها في مجال الدعوة.

٤ - التواصل مع مؤسسات المجتمع المدني:

إن الدعوة إلى الإسلام لا تتم فقط من خلال الخطاب الدعوي، وإنما تتم كذلك من خلال المعاشة اليومية في المجتمع، والمجتمعات الغربية لها تقاليد راسخة في إقامة مؤسسات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية يلتقي فيها الناس بناء على اهتمامات مشتركة، أو قناعات مشتركة، أو للنضال من أجل حقوق مشتركة، ويمكن للمسلم أن يتواصل مع هذه المؤسسات، حيث يلتقي فيها بغيره وتُتاح له من وراء ذلك، فرصة طبيعية للتعارف والتبادل الفكري والثقافي مع غيره. وتعتني هذه المؤسسات بالمشكلات البسيطة التي يعيشها المواطن في حيه، من خلال لجان الأحياء ولجان أولياء التلاميذ في المدارس... وصولاً إلى القضايا الكبرى المتعلقة بحقوق العمال في إطار النقابات والجمعيات، والقضايا العالمية التي تعنى بها تجمعات متحركة

داسات في الشأن الإسلامي

بخصوص مسألة العولمة مثلاً وتداعياتها في عالمنا المعاصر، إلى غير ذلك من القضايا الكثيرة التي يمكن أن يلتقي فيها المسلم مع غيره وينخرط معه في عمل مشترك من أجل المصلحة العامة.

٥ - تفعيل العمل البحثي حول الإسلام اجتماعياً وحضارياً:

إن الدعوة الإسلامية تحتاج إلى دعم في مجال البحث من خلال تناول الوجود الإسلامي في الغرب، وإبراز إسهاماته في بناء المجتمعات الغربية، وكذلك إبراز الإسهام الحضاري الذي قدمه المسلمون للحضارة الإنسانية عبر التاريخ. وكم كان لبعض المعارض التي تعرّف بالتراث الحضاري الإسلامي والتي عقدت في بعض الدول الغربية، من تأثير في تغيير النظرة السلبية عن الإسلام والمسلمين، إذ إن الكثير من هذا التراث يجهله الكثيرون، ولا نقول من الغربيين فقط، بل حتى من المسلمين كذلك، وخصوصاً الأجيال الجديدة من أبنائهم الذين لم يتسنّ لهم أن يقفوا على معرفة التراث الحضاري الإسلامي الضخم.

هذه إذن بعض المجالات التي يمكن أن تتجه إليها الدعوة الإسلامية في الغرب، حتى تكون أقدر على التعامل مع المتغيرات والوفاء بالمتطلبات في ظل مجتمعات، أصبح الإسلام فيها، يشكّل قضية من أبرز القضايا التي ينشغل بها مفكروه وإعلاميوه وسياسيوه، وإن الدعوة الإسلامية لا يمكن أن تأخذ مسارها الإيجابي إلا في ظل التواصل والحوار، مع الحرص على ضمان الأمن والاستقرار في المجتمع، وإن مما يساعد على ذلك، أن يتعامل المسلمون مع مجتمعاتهم الغربية من منطلق المواطنة الصالحة، التي تجعلهم حريصين على خدمة المصلحة العامة والإسهام في الإثراء والنفعة.

الهوامش

- (١) انظر: مدخل إلى علم الدعوة لأبى الفتح البيانونى
- (٢) مفاتيح الغيب للرازى
- (٣) تفسير الطبرى
- (٤) تفسير البغوى
- (٥) تفسير القرطبى
- (٦) تفسير البىضاوى
- (٧) سيرة ابن هشام المجلد الأول، ورواه أحمد وصححه أحمد شاكرفى تعليقه على المسند، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية بسند صحيح، وأورده إبراهيم العلى فى كتابه: صحيح السيرة النبوية.

وسائل الإعلام بين إزالة الحواجز وبناء الجسور

د. صالح بن عبد العزيز التويجري

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
جامعة القصيم - المملكة العربية السعودية



دراسات في الشأه الإسلامى

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد: فالإعلام وسيلة فاعلة في البناء والهدم، ويستخدمه أناس بضوابط وبدون ضوابط، وفي الزمن الحاضر تعددت صور انفتاحه بحيث لا يسيطر عليه نظام ولا ضوابط، وتحدث من خلاله مندوبون ومتبرعون كل يعكس رؤيته وثقافته الخاصة، أو ما يظنه حال الآخرين، كما دخلت مشاركات غير مسئولة عبر الشبكة العنكبوتية، وحُسبت على من هم منها براء؛ هنا يتأكد توصيف نقاط التواصل والالتقاء وبناء الجسور وفق الشريعة، وحماية الأمة من الذوبان في ثقافات وحضارات أمم أخرى. إن نظرية الحرية: تهدف إلى حماية الفرد وإلى سعادته ورفاهيته، وله مطلق الحرية فيما يقول ويعمل، وأن يكون له كيان مستقل عن كيان الدولة ويعتمد على نفسه في الوصول إلى الحقيقة دون الرجوع إلى الحاكم ومعاونيه، وقد ظهرت هذه النظرية في أوروبا، ويؤخذ بها الآن في أوروبا وأمريكا.

دراسات في الشأه الإسلامى

أهمىة الإعلام وأسهمه فى نقل ثقافات الأمم والشعوب

هذا العصر هو عصر الاتصالات بالفعل، إذ إنَّ كل فرد يجد نفسه - بصورة أو بأخرى - مقحماً فى موقف من مواقف الاتصال، ومعنىاً بالفاعل والتجاوب الإنسانى، وفى صلب هذه العمليات المستمرة والمتشابهة تتوالد الكلمات وتتمو فى مجالات اللغة والرموز والإرشادات لتشمل كل أنواع الاتصال سواء بين فرد وآخر، أو بين مجموعتين، أو بين مهنيين ومختصين وجمهور مستمعين حتى أصبح مألوفاً الآن اهتمام اللغة باللغة، والاتصال بالاتصال.

ولعلنا ندرك أن مؤشر الاهتمام بالاتصال فى هذا العصر بالذات قد بدأ - ومنذ فترة - يتجه إلى أعلى بصورة سريعة، ولا غرابة فإن عملية الاتصال كانت وما زالت أساسية وجوهريّة فى نشاط الإنسان ومجتمعاته، ذلك لأن الحياة الاجتماعية تقتضى من الأفراد المشاركة على الأقل فى الرغبات والطموحات مع تبادل المعلومات والخبرات والأفكار. وبسبب الاتصالات برزت المجتمعات إلى الوجود^(١).

ويدل على خطورة هذه الوسيلة ما صرح به الرئيس السابق لوكالة الاستخبارات الأمريكية حين قال: "إن استراتيجيتنا يجب أن تتجاوز التعامل مع القادة إلى الشعوب، ومن أهم وسائل تحقيق هذا التوجه وسائل الإعلام، وأهمها التلفزيون، فهو الوسيلة القادرة بطبيعتها على السيطرة على أدمغة الشعوب".

ومعلوم أن الأثر غير المباشر لهذه الوسيلة أشد خطراً من كل وسيلة أخرى، فهي تجدُّ فى محاصرة المشاهد وملاحقته بتأثيراتها وإغراءاتها ليسلك الوجهة المطلوبة، ولترويض عقله وفكره وقناعاته إلى الناحية المقصودة.

فالإعلام بكافة وسائله يشكل نافذة مشرعة تدخل منها كل رياح التغريب

داسات في الشاه الإسلامي

والتغيير لمبادئ الأمة وأخلاقيات المجتمع، وأكثر ذلك يكون عن طريق التوجيه غير المباشر.

دعائم الإعلام الإسلامي

الدين الإسلامي دين إعلامي بطبيعته؛ لأنه يقوم على الإفصاح والبيان في مقابل الاتجاهات الغامضة والرموز والطلاسم والحدس والظن والتخمين ، وكل مسلم يقوم بالإسهام في تبليغ الرسالة والدعوة إليها. قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما-: أن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فقال: " ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم" (٣).

يقول د. إبراهيم إمام: " لقد نجح الإسلام بقوته وذاتيته وسماحته وبساطته وقدرته على الإقناع وخصائصه الفريدة المبنية على عقيدة التوحيد والإيمان الذي يصدق العمل، وفي كل مغازي الرسول ﷺ لم يحارب المسلمون أمة أو شعباً أو جماعة ، وإنما حاربوا قوى الشر التي كانت تحول دون وصول الإسلام إلى تلك الأمم والشعوب والجماعات .. حارب المسلمون أئمة الكفر في مكة ولم يحاربوا أهل مكة ، وعندما تم فتح مكة قال لهم الرسول -عليه الصلاة والسلام- قولته المشهورة : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " ، وهي مقالة الحكمة التي فتحت قلوب جميع الناس للإسلام .

ومن الثابت أن الإعلام الإسلامي والدعوة إلى سبيل الله هما الغاية العليا

دراسات في الشاهد الإسلامي

والهدف الأسمى لجهود المؤمنين ، كما أن توفير مناخ الحرية كان هو الشغل الشاغل للإسلام والمسلمين ، وما كان الجهاد إلا سبيلاً لبلوغ تلك الغاية السامية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة : ٢٥٦). والأصل في الجهاد أنه يمهد الطريق لحرية الإعلام الإسلامي وحرية الاتصال بالناس ليسمعوا كلام الله، ويتيح الفرصة أمام الدعاة كي يبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة ؛ لأنه ﷺ بعث رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، وكافة العالم في تلك العصور يئن تحت ظلم الملوك ، ويرزح تحت طغيان الأباطرة المستبدين ، فكان لا يهمهم سوى فرض سيطرتهم على الناس رضوا بهم أو كرهوا ، وكانت الديانات السائدة آنذاك تفرض لهم الطاعة المطلقة^(٣).

فالإعلام الإسلامي إعلام يتسم بالاستقلال والحرية ، ويبتعد تماماً عن المداهنة والتحيز ، ولا يمكن أن يكون أداة في يد السلطان للتحكم في الناس أو التمويه عليهم أو تسخيرهم واللعب بعقولهم ، على نحو ما يحدث من دعايات في النظم السياسية الطفوائية التي تجعل من الإعلام أداة للضغط والقسر والإلزام ، وهو ما يسمى بالإعلام الاستمالي أو التطويعي لتسخير الجماهير لتنفيذ سياسات معينة.

الإعلام الإسلامي حر بشرط ألا يؤدي بسوء استخدامه والتعسف في تطبيق الحرية إلى إيذاء الآخرين أو الاعتداء على الحريات الفردية والاجتماعية ، والإسلام لا يقر الإساءة للآخرين حتى ولو كانوا من أعداء الدين كالتجسس والتحرش والتنازع. ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيْرَ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام : ١٠٨).

ولما كان الإعلام الإسلامي إعلاماً هادفاً مستولاً ، فإنه يسعى إلى حمل الرسالة الإسلامية وتبليغها للناس ، ويقوم على أساس قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة : ١١٩) . ولا بد أن يكون

داسات في الشاه الإسلامي

صادقاً دقيقاً أميناً ، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»(٤).

الإعلام الإسلامي يلتزم العدل والميزان القسط مهما كانت الظروف والأحوال فلا ينحاز إلى شخص أو إلى طبقة أو إلى جنس أو إلى قومية أو إلى منفعة مادية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء : ١٣٥).

وحتى إذا تناول قضايا الخصوم والأعداء ، فإنه يكون عادلاً منصفاً؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة : ٨) وهكذا يصبح ضمير الإعلامي المسلم وثقافته الأصلية وروحه الأمانة دافعاً له على قول الحق مهما كانت الإغراءات المالية أو السياسية أو الضغوط الاجتماعية أو الدولية.

يقول د . إبراهيم إمام: " وإذا كان الإعلام الغربي يجعل من السبق الصحفي قيمة حضارية كبرى يحرص عليها ويتباهى بها فيسرع بنشر الأخبار في عجلة شديدة ودون روية جذبا للشهرة ، وإثارة للقراء والمشاهدين والمستمعين حتى يقبل المعلنون على شراء المساحات الصحفية والأزمة الإذاعية ، فإن الإعلام الإسلامي يتوخى الدقة والموضوعية الأمانة ، ويحرص على التأكد من صحة الأنباء ، والتثبت من دقتها ، مؤثراً الجانب الأخلاقي على الجوانب المادية الأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات : ٦). وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء : ٣٦)(٥)..

دراسات في الشاهد الإسلامي

خصائص الإعلام الإسلامي

- يتميز الإعلام الإسلامي بمفهومه بمجموعة من الخصائص هي :
- ١- أن الإطار العام للإعلام الإسلامي ليس لأحد من البشر الفضل في وضعه ؛ لأنه من الله سبحانه وتعالى .. أوحى به إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم- في كثير من الآيات التي حددت معالم الدعوة ، وطرق الإقناع والتأثير ؛ ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف، ٦٨) ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ (هود: ٨٨) ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ (هود: ٨٩) ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونِ﴾ (الأعراف: ١٩٥).
 - ٢- الارتباط الحي بين المبادئ العامة للإعلام الإسلامي وبين الممارسة الفعلية لها، وذلك في ضوء دراسة الأساليب الإعلامية المختلفة للأنبياء والمرسلين في الآيات القرآنية العديدة التي بينت ذلك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد استوعب المصطفى ﷺ هذه المبادئ، وصدر عنها في كل أقواله وتصرفاته، وقدم لنا المعالجة الحقيقية لمشكلات التطبيق الإعلامي . وفي ميدان هذا التطبيق الحي استوعب الصحابة -رضوان الله عليهم- هذا المنهج الإعلامي والتزموا بحدوده ومبادئه، ثم توارث الدعاة والمسلمون هذا الفهم والاستيعاب جيلاً وراء جيل.
 - ٣- يستمد القائم بالاتصال الإسلامي إرادته من ذاته ، فهو لا يمارس العمل الإعلامي إرضاءً لفرد أو جماعة أو هيئة أو سلطة ، وإنما إرضاءً لذاته الراغبة في شيوع الخير وانتشاره، وهو لهذا يعطي عن طواعية ورغبة ووعي أقصى ما يستطيع من قدراته .
 - ٤- يعمل القائم بالاتصال الإسلامي في إطار أهداف واضحة تماماً ومحددة سلفاً .
 - ٥- يتسم مضمون الرسالة الإعلامية للقائم بالاتصال الإسلامي بالدقة ويرتبط بالأهداف الموضوعية ويأخذ في الاعتبار خصائص المستقبلين .
 - ٦- الجمهور المستقبل للرسالة الإعلامية معروف مسبقاً ومحدد سلفاً بكافة

دراسات في الشأن الإسلامي

- خصائصه النفسية، وقد تعرضت أول سورة البقرة إلى بيان أنواع هذا الجمهور . وقسمته إلى ثلاثة أنواع : - جمهور المؤمنين بالدعوة - جمهور المنافقين: - وهم الذين يظهرون الولاء للدعوة وقبولها ويضمرون عكس ذلك - وجمهور الكافرين بالدعوة .
- ٧- هدف رسالة الإعلام الإسلامي محدد سلفاً في غرض الإبلاغ - مجرد الإبلاغ فقط - أما محاولة إملاء الإرادة والإقناع بالقوة فغير وارد تماماً قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة : ٢٥٦).
- ٨ - القوة الذاتية للإعلام الإسلامي في سرعة الانتشار، وعلمية العمل الإعلامي، وسلامة التخطيط، ودقة التنفيذ، وقياس الأثر لا تضارع بأي إعلام آخر، وقد تضمنت ذلك الآية الكريمة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف : ١٠٨).
- ٩ - اعتمد الإعلام الإسلامي الأسلوب الموضوعي القائم على التحليل والوضوح والتأمل، واتخاذ كافة الوسائل التي تنمي ملكة التفكير لدى الإنسان، وذلك إيماناً منه بأهمية العقل الذي يجب أن نتوجه إليه بالإقناع لا أن نجره جراً بواسطة الغرائز والعواطف والانفعالات.
- ١٠- الإعلام الإسلامي إعلام إيجابي ، وليس سلبياً ، لأنه ينقي نفسه من مختلف مسببات الضعف والدمار ، ويركز على أن يكون التغيير والتطوير دائماً نحو الأفضل والأعلى في كل ما يعمل الإعلامي من أجله ، وذلك في إطار مبادئ الإسلام وقيمه .
- ١١ - يتسم الإعلام الإسلامي بأنه إعلام مطرد النمو ، وقوته في حركته إلى الأمام، مستمدة من قوة دفع الأثر التراكمي للدعوة عبر جهود ملايين الدعاة لمئات السنين.
- ١٢ - الإعلام الإسلامي إعلام وظيفي ، يستهدف تلافي كافة الأضرار الجانبية أو غير المتوقعة الناتجة عن توجيه الرسالة الإعلامية ، عن طريق

دراسات في الشاهد الإسلامي

اليقظة الكاملة، والمتابعة المستمرة لكافة جوانب الظرف الاتصالي من قبل القائم بالاتصال .

١٣- الإعلام الإسلامي لا يفتعل الأحداث ، ولكنه يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، وبصفة خاصة: الأحداث التي يمكن استثمارها إعلامياً، ويحاول بواسطتها أن يشد انتباه الناس إلى مواطن التأمل والعظة والعبرة، ولعل هذا هو السبب في نزول القرآن متواتراً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً ولم ينزل دفعة واحدة، ولذلك فإن القائم بالاتصال الإسلامي ليس مجرد ناقل للأخبار، وإنما هو ناقل للأخبار وداعية يقدم منهاجاً يخدم الدعوة ويبني المجتمع ويحقق العدالة والاستقرار، وكثيراً ما نقرأ في القرآن: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً ﴾ (آل عمران: ١٣) و﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ (طه: ١٢٨) و﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ (البقرة: ٤٨). و﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر: ٢)(٦).

الهيمنة الغربية على وسائل الإعلام وتأثيرها

على الرأي العام المحلي والعالمي

فطن خبراء الدعاية والإعلام إلى أن تأثير الاتصال في الرأي العام يزداد قوة باستخدام الأخبار بدلاً من المقالات الجدلوية والكتابات الإنشائية ، فقد اكتشفت قيمة الخبر في التوجيه والتأثير ، وأصبح الخبر هو العامل الذي يجدد صورة الأحداث في أذهان الجماهير(٧)، ولذلك فإن الاستراتيجيات الأمريكية تصر على حرية انتقال المعلومات بغية نقل الثقافة الأمريكية، حيث صرّح مسؤل أمريكي عقب الحرب العالمية الثانية يقوله إن الدولة سوف تتخذ كل السلطات سواء على المستوى السياسي أو الدبلوماسي للمساهمة في إقصاء الحدود للتوسع عبر العالم، حتى يصبح تبادل المعلومات جزءاً لا يتجزأ من السياسة الخارجية للدولة .

منذ ذلك الوقت خصصت الحكومة الأمريكية أموالاً طائلة للعمل على تطوير الكمبيوتر والمعلوماتية وتشجيع البحث العلمي، وكان هدف هذا التطوير في المجال التكنولوجي والمعلوماتي هو إعطاء الأسبقية لواشنطن

دراسات في الشأن الإسلامي

لتمكينها من التحكم في المعلومات عبر الأقمار ، وهذا يبدو واضحاً عندما شعرت أمريكا بمنافسة بريطانيا لها إبان الستينات فركّزت على تطوير المعلوماتية عبر الأقمار الصناعية. فبالنسبة للكثير من الرؤساء الأمريكيين من أمثال الرئيس كلينتون ، فإن الإعلام وسيلة فعالة لتطوير الحياة اليومية، لذلك فتطوير التكنولوجيا والإعلام هو أولوية حكومية.

وفي نفس اتجاه الرئيس كلينتون نجد مجموعة من القادة السياسيين أو العسكريين أو الباحثين يعطون الأولوية لتفوق المعلومات ، لأن الدولة التي تستطيع أن تتحكم في الإعلام يمكنها أن تتحكم في العالم ، أي أنه في المستقبل ستكون الولايات المتحدة الأمريكية هي السيدة الوحيدة للعالم بسبب سيطرتها على المعلومات^(٨).

وعلى المستوى الكوني فإن الصورة الإعلامية بمفاهيمها الأمريكية سابقة الذكر تبدو أكثر رعباً إذا علمنا أن الولايات المتحدة تتحكم بـ ٦٥٪ من المادة الإعلامية في العالم، وأن هدف أمريكا العالم كان ماثلاً في الحلم الأمريكي منذ البداية ، فقد كرر تيودور روزفلت مقولته المحببة : " قدرنا هو أمريكا العالم ، فتكلموا بهدوء، عندئذ يمكن أن تتوغلوا بعيداً" ، أما بريجينسكي مستشار الأمن القومي الأمريكي على عهد كارتر فقد وجد أن بلاده التي تمتلك حصة الأسد في البث الإعلامي على المستوى الكوني عليها واجب " أن تشيع في العالم النموذج الأمريكي للحدثة بواسطة تعميم المعايير والمبادئ الأمريكية " . وهذا ما ذكره الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه " الانتصار دون حرب " عام ١٩٨٨م من أن أمريكا إذا أرادت أن تكون زعيمة العالم فعليها أن تنشر القيم الأمريكية.

ويرى محمد عابد الجابري أن الولايات المتحدة تسعى اليوم لتعزيز سيطرتها السياسية على العالم كله بفضل ما تتمتع به من قدرة في مجال إدماج منظمات الإعلام المعقدة بعضها في بعض، وإن الهيمنة العالمية أصبحت تعني مراقبة سلطة تكنولوجيا الإعلام التي ترسم اليوم الحدود في

دراسات في الشاهد الإسلامي

الفضاء السيبراني (حدود المجال الاقتصادي السياسي التي ترسمها وسائل الاتصال الالكترونية المتطورة).

وفي نهاية المطاف فالإعلام معرفة وسلطة له قدرة جبارة على إخضاع المتلقين له خضوعاً لا شعورياً تجعل منه أداة سيطرة لا حدود لها ، فهو الأداة النفسية الناجحة لصياغة الوعي وفقاً لما تتطلبه الضرورات السياسية والاقتصادية^(٩).

إن الهيمنة والسيطرة الإعلامية التي تمارسها الدول المتقدمة على وسائل الإعلام ناشئة بصفة أساسية عن امتلاكها لأسباب القدرة والسبق والتطور في مجال تقنية المعلومات المتطورة وباستخدام الأقمار الصناعية في كل وسائل الاتصال من طباعة للصحف ، وامتلاكها لأقوى الترددات الإذاعية للوصول إلى مساحات واسعة من الكرة الأرضية ، بالإضافة للإمكانات المادية الهائلة وأجهزة الاتصال ذات التقنية العالية والمحطات الفضائية التي جعلت عن طريق الأقمار الصناعية من التلفزيون أكثر وسائل الإعلام تأثيراً، وجاء اكتشاف واستخدام تقنية الإنترنت فأحدث ثورة في عالم الاتصالات ونقل كبيرة في نقل وتبادل المعلومات.

وهذه القدرات الهائلة والإمكانات المادية الكبيرة مع التطور التقني في وسائل الإعلام، هي التي أكسبت أجهزة الإعلام الغربية الهيمنة والفعالية والتأثير الكبير في وصول الرسالة الإعلامية التي ترغب فيها للمتلقي: إن كان في مجتمعه المحلي أو المجتمع العالمي.

ومن ذلك نلاحظ أن هناك خللاً جسيماً في التوازن الإعلامي بين الدول المتقدمة وتلك الحديثة النمو، الأمر الذي يجب أن نضع له حداً عن طريق تعميق الوعي بتأثير العملية الإعلامية على حياتنا وتنمية إمكاناتنا الذاتية بالتعاون وبالتصميم على مواجهة الإفرازات السلبية التي يفرضها علينا الإعلام الدخيل بمساعدة وسائله ذات التقنية المتطورة^(١٠).

ونتيجة لهيمنة الغرب على الإعلام ، وتبعاً للتطور الهائل في وسائل

داسات في الشاه الإسلامي

الاتصالات في العصر الحديث اتسعت بدورها دائرة النشاط الإعلامي ، لتؤثر على أفكار معظم سكان العالم، يوجهها كيفما شاء سلباً أم إيجاباً بواسطة قنواته الواسعة وتعدد وسائله بالغة التأثير والفعالية .

فالجحافة الغربية لها اتصالاتها المباشر بأفراد المجتمع مع قدرتها الفائقة على التأثير في الرأي العام، كما أنها تكتسب قوتها من حساسية التدخل في جهازها ، وحرمانها من حريتها، خاصة أثرها في الولايات المتحدة عن طريق التصدي لكشف مواطن الخلل والقصور في الجهاز الإداري، لذلك أصبح ما تقوم به من دعاية وما تقدمه من شائعات له أثر كبير في المجتمعات (١١).

إن المعلومات والإعلام مهيمان على العالم بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وللأسف، يكفي أن نلقي نظرة سريعة على بعض برامج فضائياتنا الغربية لنستنتج الفرق بين اهتمامات الإعلام الغربي مقابل اهتماماتنا .

انتهاز أزمة الجوع للهيمنة الإعلامية :

لقد انتهزت القوى المعادية للإسلام أزمة الجوع في العالم لأغراض تبشيرية وإعلامية خطيرة، ولا يخفى ما فعلته إسرائيل من نقل آلاف اليهود الأثيوبيين (الفلاشا) إليها وإعدادهم لقتال العرب، وتوطينهم في المستعمرات اليهودية التي تقام وسط المناطق السكانية الكثيفة كالضفة الغربية وغيرها، كما انتهزت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي سابقاً أزمة المجاعة في الدول النامية للترويج بالمساعدات المشروطة وتشجيع المعاهدات الثنائية بدلاً من تقديم المساعدات عن طريق الهيئات الدولية ، بغية الانفراد بالدول الفقيرة وقسرها على الارتباط معها سياسياً واقتصادياً وإعلامياً ، فالدولة المستفيدة ترتبط ارتباطاً كلياً بالدولة المانحة نظير ما تقدمه لها من معونات اقتصادية وعسكرية (١٢).

الإعلام : عكس الحقيقة وقلب المفهوم

أكد تحليل مضمون وسائل الإعلام في الدول الغربية أن الخوف من

دراسات في الشَّاه الإسلامي

الإسلام ليس بالأمر الطاريء أو الجديد ، غير أن هناك عوامل عديدة تزيد من هذا الشعور حالياً ، وتجعل الغربيين يرون في دين الإسلام خطراً كبيراً وتحدياً أكبر أمام الغرب ، كما ذهب إلى ذلك صاموئيل هنتجتون في كتابه (صدام الحضارات)، ولذلك كانت حصيلة تأمل نتائج الدراسات الإعلامية التي تناولت صورة المسلمين في الوسائل الغربية ، المقروءة والمسموعة والمرئية ، سلبية في أغلب ما تقدمه هذه الوسائل، مع وجود بعض التغطيات غير المتحيزة أحياناً ، ولكنها قليلة قياساً إلى الصورة غير الصحيحة عن المسلمين السائدة في الإعلام الغربي نتيجة المعالجات المفرضة، وقد أثبتت هذه الدراسات أن وقوع بعض الأحداث المرتبطة بالمسلمين عموماً تزيد فيها المعالجة غير الموضوعية ، سواء أكانت هذه الأحداث متعلقة بالأقليات الإسلامية في الغرب ، أم في بعض الدول الإسلامية والعربية .

يقول السناتور الأميركي جيمس أبو رزق مؤسس اللجنة الأميركية العربية لمكافحة التمييز A.D.C : «إن الإعلام الصهيوني يشوّه صورة العرب والمسلمين في أمريكا، وهذا الأمر ينعكس سلباً على العرب الأمريكيين الموجودين هناك ويؤثر على حياتهم بشكل سيئ؛ ولذلك من الضروري أن نقف معاً ونتعاون لإجهاض هذا التشويه... النظرة هناك سلبية؛ فيما يقال عن أوضاع المرأة السعودية وإسهام السعوديين في أحداث سبتمبر، وتلك النظرة تتبناها تحديداً القوى الصهيونية في المجتمع الأمريكي» (١٣).

وفي دراسة أجراها الباحث السعودي طارق بن فؤاد أبو شنب قدمها لنيل درجة الماجستير في جامعة القاهرة بعنوان: صورة المملكة العربية السعودية في الإعلام الأمريكي قبل وبعد ١١ سبتمبر (دراسة تحليلية على عينة من الصحف الأمريكية). أوضح فيها أن استطلاعاً للرأي أجرته صحيفة واشنطن بوست بالتعاون مع شبكة (إن بي سي) الإخبارية الأمريكية، كشف أن ٤٦٪ من الأمريكيين ينظرون إلى المسلمين بصورة سلبية... وقد رصد الباحث الصورة

داسات في الشأن الإسلامي

الإعلامية في الولايات المتحدة عقب أحداث ١١ سبتمبر، وقال: إن الخطاب الهجومي تصدر مقدمة أنواع الخطاب بالصحف الأمريكية (عينة البحث) قبل وبعد الأحداث، في حين غاب الخطاب الموضوعي، كما استحوذ الخطاب الهجومي على نصيب الأسد في مجلة النيوزويك أيضاً وغاب كذلك الخطاب الموضوعي... وتزعم الصحف الأمريكية أيضاً أن الدين في المملكة العربية السعودية يتعارض مع الديمقراطية واحترام الحريات، وتعتبر الأصوليين الإسلاميين فيها شأنهم شأن الاستبداديين الشيوعيين، فهم بطبيعتهم ضد الديمقراطية والحرية، وفي أعماقهم عدم التسامح والتعاون، وعدم الثقة بالغرب... وكشفت النتائج أيضاً حرص الصحف الأمريكية (عينة البحث) على تزييف الحقائق عند تناولها موضوعات تخص المملكة العربية السعودية، وفي نفس الوقت حرصت على عدم الاهتمام بعرض وجهة النظر السعودية تجاه المواقف والأحداث بما يعني عدم التزام هذه الصحف بالتوازن والمصداقية في هذه التغطية^(١٤).

لقد كثرت في الآونة الأخيرة الدلائل على المحاولات المتعمدة لإعادة صياغة المواقف السياسية وتفسيرها وتشويهها بما يخدم أهداف الغرب ومن يدور في فلكه، وهذا يدفعنا للتساؤل عن:

من يملك الإعلام الغربي؟

هناك أربع شبكات تلفزيونية تشكل في مجموعها أكثر من ٩٥٪ من الأخبار المحلية والعالمية التي تجمع وتصور وتبث للمواطن الأمريكي، وهي تمثل أهم مصدر إخباري لنسبة ٨٥٪ من الشعب الأمريكي. وهذه الشبكات هي: سي. إن. إن. CNN وتملكها شركة تايم - وارنر التي يرأسها جيرالد ليفين (يهودي)، وشبكة إي. بي. سي. ABC وتملكها شركة والت ديزني التي يرأسها مايكل إيزنار (يهودي)، وشبكة سي. بي. إس. CBS وتملكها شركة وستجهاوس ويرأس الشبكة إيريك وابر (يهودي)، وشبكة إن. بي. سي. NBC.

دراسات في الشاه الإسلامي

وتملكها جنرال إلكترونيك ويرأس قطاع الأخبار فيها أندرو لوك (يهودي).
أما الصحافة اليومية فيملك اليهود أكبر ثلاث مؤسسات صحفية أمريكية مؤثرة، وهذه الصحف هي: نيويورك تايمز الموجهة لنبض المجتمع الأمريكي ويتولى رئاستها ويشغل منصب الناشر لها في الوقت الحالي آرثر أوكس سالزبرج (يهودي). واشنطن بوست وهي الجريدة السياسية الأولى في أمريكا، ويقرؤها معظم صانعي القرار ابتداءً من البيت الأبيض، وقد اشترى إيجين ماير (يهودي) هذه الصحيفة عام ١٩٣٣م ولا تزال مملوكة لعائلته، وتملك الحصص الكبرى فيها إحدى حفيدات إيجين وهي كاثرين ماير (يهودية). أما صحيفة وول ستريت جورنال وهي صحيفة المال والتجارة، والتي يقرأها السياسيون ورؤساء الشركات والمستثمرون وأصحاب الأموال في أمريكا فهي مملوكة لشركة داو جونز التي يرأسها بيتر كان (يهودي).
أما المجالات الأسبوعية فنجد أن أهمها على الساحة السياسية مملوك تماماً لليهود، وهذه المجالات هي: مجلة التايم وتملكها تايم وارنر التي يرأسها جيرالد ليفين (يهودي)، ومجلة نيوزويك، وهي مملوكة للواشنطن بوست التي ترأسها كاثرين ماير (يهودية)، وأخيراً مجلة يو إس نيوز ويملك أغلب أسهمها ويرأسها مارتينمر زوكerman (يهودي)^(١٥). فلا عجب إذن إذا ما شوهدت صورة الصراع في كل مناطق العالم الإسلامي ووجهت لخدمة المصالح الغربية.

يروي دافيد بن جوريون - وهو الرئيس الإسرائيلي الأسبق - في مذكراته أن الإذاعة الإسرائيلية كانت تقوم بالدفاع عن الإخوان والهجوم على عبدالناصر، للإيجاء بوجود صلة بين الإخوان واليهود، ولإعطاء الفرصة لعبد الناصر باتهام الإخوان بالعمالة لليهود والتعاون معهم، وقد ذكر هذه الواقعة أيضاً رئيس الوزراء الأردني السابق سعد جمعة في كتابه: أبناء الأفاعي نقلاً عن مايلز كوبلاند صاحب كتاب: لعبة الأمم.
ولعل أحد شواهد أثر هذا الكذب الإعلامي هو ما نقلته صحيفة

داسات في الشأن الإسلامي

الصنڊاي تايمز في أحد أعداد عام ١٩٨١م عن الصڤفية الأمريكية اليهودية: سارة ايهرمان أن مؤسسة الضغط اليهودية إيباك، قد تمكنت باستخدام الوسائل الإعلامية، من تغيير الرأي العام الأمريكي خلال ٤٨ ساعة فقط عقب قصف إسرائيل للمفاعل النووي العراقي. وتدعي الصڤفية بكل فخر نجاح الضغط الإعلامي في تحويل الرأي العام الأمريكي من الموقف الغاضب جداً ضد إسرائيل إلى تقبل وجهة النظر اليهودية؛ بل والقناعة بأن ضرب المفاعل كان عملاً شجاعاً من أجل سلام العالم.

وذكر روبرت فيسك في مقال له صدر في جريدة الإندبندنت البريطانية في يوم ١٩٩٧/١٢/٣م حول الإعلام الغربي وتعامله مع قضايا المسلمين، أن هناك تعمداً مستمراً للإساءة للدين الإسلامي بكل الطرق الإعلامية الممكنة من قبل الصڤافة والإعلام الغربي، وذكر في مقاله مثالين على ذلك وهما: وصف مجلة باري ماتش الفرنسية لحادثة الأقصر بأنها من فعل مجانيين الله، وكذلك غلاف مجلة التايم الأمريكية عقب تفجير برج التجارة العالمي في نيويورك، والذي خرج بعنوان الإرهاب الإسلامي، وفي المقابل فعندما قام الصرب بكل أنواع التتكيل والتعذيب للمسلمين في البوسنة والهرسك، كان ذلك ينقل في الإعلام الفرنسي على أنه صراع عرقي وليس دينياً، ولم يحدث أن أشير إلى جرائم الصرب على أنها جرائم لنصارى أوروبا، ولكنها صورت في معظم وسائل الإعلام الغربية على أنها صراعات من أجل الهيمنة على الأرض أو الحدود الجغرافية. وتلقفت كثير من وسائل الإعلام العربية هذا الموقف نفسه وبدأت في إعادة بثه في وسائل الإعلام العربية^(١٦).

ويمكننا الجزم بأن الإسلام في أغلب وسائل الإعلام الغربية - وانطلاقاً من هذا التحريف الحادث -، يصور على أنه يمثل " خطراً كبيراً على الغرب "، ويتم وصف المسلمين عموماً أنهم " يتبنون التطرف، والعنف، والجهاد، وتعدد الزوجات، ونبذ العلمانية، ورفض الاندماج"، ويوصف المسلم بأنه " الشخص الذي يركب حصانه ويده سيفه، أو العربي الذي يحمل كيساً من الدولارات،

دراسات في الشاه الإسلامي

وأنه هو الذي أعطي الفرصة للنكات وكلمات السخرية في الصحف الغربية " ... وغير ذلك من الصور النمطية المضللة والبعيدة عن جوهر الدين الإسلامي، والبعيدة أيضاً عن ممارسات المسلمين أنفسهم في الغرب.

ويتم ذلك أحياناً بتعاون إعلامي نادراً ما يحدث في أثناء معالجة قضايا أخرى. وفي الإعلام الأوروبي لا يختلف الأمر كثيراً فقد أعد الدكتور محمد بشاري دراسة متميزة في هذا الجانب ورصد صورة الإسلام في الإعلام الغربي الأوروبي، وقد اكتفيت بنقل ما تعرض له الدكتور مما يخص هذا الموضوع هنا:

أذاعت القناة الفرنسية الثانية (٢) France وهي قناة حكومية في برنامج مبعوث خاص Special Envoy في حلقة أذيعت يوم ١٩٩٩/٥/٦ برنامجاً حول وضعية المرأة في باكستان ، وذلك نقلاً عن برنامج خاص بقناة " البي . بي . سي " (BBC) البريطانية ، وصفه المفكر التونسي محمد الطالبي ، بالبرنامج المضلل والمحتال، تحدث معد البرنامج عن "الشرعية الإسلامية التي تحرم على المرأة ولوج عالم الدراسة " في تجاهل متعمد إلى أن أول آية نزلت على المسلمين كانت : ﴿اقرأ﴾ (العلق : ١). وأن المرأة في باكستان تبقى " ألعوبة في يد الرجل تباع مثلما تباع البهائم " ! وغير ذلك من الأباطيل المشينة بالواجب المهني والأخلاقي على حد سواء . وبطبيعة الحال المتكرر، سوف يتم استغلال هذه الصورة، من أجل إسقاطها كما أسلفنا على أوضاع المرأة المسلمة، ليس في باكستان فقط، ولكن في شتى دول العالم الإسلامي.

ولا تزال وسائل الاتصال في الدول الغربية بصفة عامة ، تشن حرباً ثقافية ضد العرب والمسلمين ابتداء من الكتب الدراسية والسينما والمسرح ، ومروراً بالشخصيات الكاريكاتورية المروعة التي تتهم المسلمين جميعاً إما بأنهم إرهابيون أو شيوخ نفط ، وأن بلادهم بمنزلة صحراء قاحلة وخربة ، ووصولاً إلى الكتب التافهة التي كتبها صحفيون مغرضون ، وهي الكتب التي

دراسات في الشأن الإسلامي

أشاعت نماذج إسلامية غريبة تنزع عن الإنسان إنسانيته ، وتبرز المسلمين جميعاً بوصفهم قتلة وسفاحين .

ومن أسماء الصحف والمجلات التي يعرف عنها نشر مقالات ودراسات تسيء عموماً إلى صورة المسلمين ، نجد " دير شبيغل " في ألمانية ، و " الديلي ميروور " ، و " الديلي إكسبرس " في بريطانيا ، و " الإكسبرس " ، و " لئونوفيل أوبسرفاتور " و "لوبوان " في فرنسا(١٧) .

وعموماً تتضح طبيعة التعامل الإعلامي مع القضايا الإسلامية ، خلال

أربع قضايا نموذجية ، وهي :

- قضية سلمان رشدي .

- قضية الفتيات المحجبات .

- المرأة في الإسلام .

- قضية الجهاد(١٨) .

وذلك انطلاقاً من نتائج جاءت في الدراسة الأكاديمية للباحث / الصادق رابع ، وتحمل عنوان : "الإسلام في الخطاب الإعلامي الفرنسي" وفيها اعتمد على صورة هذه النماذج الأربعة في مجلة الإكسبرس(L'Express) ولئونوفيل أوبسرفاتور (29) (Le Nouvel Observateur)

لقد عنونت المجلة الملف المخصص لقضية الحجاب " بالفخ الديني " ، وتضمن الملف ما لا يقل عن سبع مقالات إضافة إلى حوار مطول مع وزير التربية الوطنية آنذاك ليونيل جوسبان، ومن ضمن عناوين المقالات نقرأ مثلاً: " البرقية المشفرة للخمار " بقلم جان دانيال ، " بيوت اللاتسامح " بقلم جاك جوليار ، " المدرسة ، أو الفخ الديني " بقلم إليزابيث شيملا ، " نساء محجبات نساء مقهورات " بقلم السياسية الفرنسية فرانسواز جيرو ، مشيرة بالمناسبة إلى أن الحجاب يرمز للمكانة الرجعية (retrograde) التي تحتلها المرأة في الإسلام، وأنه آن الوقت للتصدي لهؤلاء الفتيات المحجبات في

دراسات في الشاهد الإسلامي

المدارس الفرنسية ، حتى لا يأتي الزمن الذي يطالب فيه بضرورة السماح بإقامة الصلاة في أثناء الحصص الدراسية، ثم نقرأ عنواناً ملفتاً هو الآخر يتحدث عن " إستراتيجية الإسلاميين " !! بقلم هرفي غاتينو وفريد عيشون ، ونجد أيضاً مقالاً مسموماً يدعو لمنع ارتداء الحجاب في المدارس الفرنسية ، بقلم المؤرخ الجزائري محمد حربي ، الذي يقارن بين ضجة الحجاب وضجة رواية " آيات شيطانية " لسلمان رشدي ، محذراً السلطات الفرنسية ممن وصفهم بالمتشددین الذين إن سمحت ورضخت لهم في هذا الملف ، فإنه سيأتي اليوم الذي يطالبون فيه بضرورة التفرقة بين الجنسین في المدارس ، متهماً الإسلاميين بالمنافقين .

كما نشرت المجلة في العدد نفسه حواراً مع ليونيل جوسبان ، وزير التعليم في تلك الفترة ، ومن أهم الأسئلة التي يغلب عليها طابع التضليل وتحريف صورة المرأة في الإسلام ، سؤالٌ جاء فيه : «إن الحجاب أو " التشادور " في الإسلام يرمز إلى التفرقة الممارسة ضد المرأة في الإسلام ، فهل يمكن أن تسمحوا (والسؤال موجه إلى جوسبان) بمطالب ترسخ من المكانة الرجعية للمرأة؟» (١٩).

كان مصطلح " الحجاب الإسلامي " أول اصطلاح استعملته " الإكسبرس " في هذه الحملة الإعلامية ، وتلتها كما هو منتظر تعابير تصب في خانة الأهداف المرسومة من وراء التضليل الإعلامي ، ونقرأ أمثلة من هذه العناوين والعبارات :

" الحجاب الرجعي " ، الذي يحيلنا إلى " الخطر الأخضر " والمقصود بالخطر الأخضر هو الإسلام، الذي قام بتعويض الخطر السوفيياتي الأحمر ، وتضيف " الإكسبرس " دائماً : إن الحجاب يعبر عن انتماء ديني ، وانتماء سياسي - ديني .

ويشير كاتب آخر في لئونفيل أوبسرفاتور ، إلى أن المسألة تشبه تكييف الرأي العام الفرنسي مع ديانة معينة ، وأنه أن الأوان للتصدي لذلك ،

داسات في الشأن الإسلامي

والسبب حسب الكاتب هو أن العقول المحسوبة على الأقلية المسلمة أصبحت مليئة بالحقد .

إننا أمام حرب وطنية ، تسبب في اندلاعها حجاب الظلامية (Voile de l'obscurantisme) ، كما جاء في عنوان لمقال سيلفيان شتاين بالإكسبرس تصف فيه الحجاب أنه رمز الإسلام الصارم والخالص، والذي لا يقبل الاختلاط، وأن الحجاب يصبح رمزاً للتقهقر الديني، والعودة للوراء، نفضه على النساء ليصبحن ممثلات لإسلام رجعي متخلف، وقد وصلت الأمور إلى حد الحديث عن " فتيات محجبات يمثلن الإسلام الرجعي " ، وعن " حجاب يمثل ممارسة ظلامية تفرضها العائلات الرجعية " ، " إن الحجاب يؤدي بالمرأة إلى التقوقع في فضاء الصمت والإهانة والحشمة " حسب جان دانيال لونوفيل أوبسرفاتور.

ثم قامت مجلة الإكسبرس باختزال موضوع الحجاب الإشكالي في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٤م تحت عنوان : الحجاب ، المؤامرة : كيف يتسلل الإسلاميون؟ ونقرأ في العدد نفسه مفردات أبعد ما تكون عن مناقشة موضوع الحجاب في المدارس الفرنسية ، بين الحقوق والواجبات ، وتثير أغلب هذه المفردات فزعاً واضحاً لدى القاريء الفرنسي ، ونذكر منها: الأرخبيل الإسلامي، الجماعة الإسلامية المسلحة، الملتحون، الجبهة الإسلامية للإنقاذ (الجزائرية)، التلاعب، تفشي الحجاب، الأسلحة ، الضواحي الحمراء. وكانت المقالات تفرز المواقف الحقيقية للكتاب والمجلات من الموضوع.

ولن نستفيض مع أصدقاء الحديث عن " الحجاب الشبح الذي قد يهدد باندلاع حرب " أهلية " " civile guerre في المجتمع الفرنسي ، تقف من ورائها مجموعة من التنظيمات ، بحسب ما يروق للمسؤولين عن المجلتين أن يستشهدوا به ، كأن نقرأ عن " الجماعات الموالية للسعودية " أو " التنظيمات الموالية لإيران " ، " الحركات الشيعية " ، " الزمر الأفغانية " ، الشبكات

دراسات في الشاه الإسلامي

الإيرانية " ، " الجماعات المتطرفة " ، " التجمعات الأصولية " ، " المحرضون الموالون للسعودية أو الموالون لإيران " ، " التأثير السعودي " ، وغيرها من المسميات التي يتعمد من ورائها المحررون توريط بعض الدول الإسلامية .

لم تقتصر مسألة التشويه والتحريض على الكتابات الصحافية ، وإنما اتسمت بتدخل بعض المثقفين الفرنسيين البارزين في خطوة تبنتها لوفيل أوبسرفاتور خلال نشر أسماء خمسة من أبرز المثقفين الفرنسيين على الصفحة الأولى من أحد أعدادها ، يطالبون في نداء سمي بعدم الاستسلام (Profs, ne capitulons pas) وذلك في رسالة مفتوحة موجهة إلى وزير التربية الوطنية (٢٠) .

وفي دراسة علمية حول صورة العالم الإسلامي في الإذاعات الأجنبية ، أوردها الأستاذ محيي الدين عبد الحليم تبين منها أن نسبة الأخبار السلبية في نشرات الأخبار التي تبثها هيئة الإذاعة البريطانية بلغ ٤٣,٠٩٪ من مجموع ما تبثه عن الدول الإسلامية مقابل ١٣,٢١٪ أخبار إيجابية، وتكاد تتخذ هيئة الإذاعة البريطانية من نشر هذا الجانب من الأخبار مادة دعائية لتشويه صورة العرب والمسلمين ، كما كشفت الدراسة أن إذاعة صوت أمريكا تستخدم أداة للإساءة إلى الدول العربية والإسلامية التي لا ترتبط مع الولايات المتحدة بعلاقات طيبة ، أو التي تعارض سياستها الخارجية في المنطقة العربية ، كما تقوم هذه الإذاعة بصياغة نشراتها وبرامجها الإخبارية بطريقة فنية يصعب استكشاف نواياها الحقيقية ، ويجعل المستمع يستسلم لما تقدمه من معالجات . وهذا يشير إلى أن الجوانب السلبية تأتي في مقدمة ما يبث عن العالم الإسلامي في وسائل الإعلام الغربية ، ومن ثم فإن هذه الوسائل تلعب دوراً بارزاً في تقديم صورة تتسم بالسلبية للدول العربية والإسلامية كآباء الممارك والحروب والانقلابات العسكرية والاضغيات السياسية والكوارث والأزمات الاقتصادية، وقد بلغت نسبة الأخبار السلبية

داسات في الشأن الإسلامي

التي تقدمها إذاعة صوت أمريكا عن العالم الإسلامي ٧٩,٥٢٪ من مجموع الموضوعات والأخبار التي تتناولها (٢١).

ويبدو أن هذا جزء من التوجه العام الذي يمكن أن نسميه (توجيه التعميم) ، فعندما يعمل مسلم شيئاً فإن هذا يعني أن الإسلام هو الذي عمل ذلك ، وهذا التوجه ليس جديداً ؛ بل كان موجوداً منذ أمد بعيد ، ونستشهد بمثال حول هذه النقطة الهامة، جاء عندما أبرزت الصحف البريطانية خلال صيف ١٩٩٥م قضية الخادمة الفلبينية التي حكم عليها بالإعدام في الإمارات لقيامها بقتل مخدمها.

فقد استغلت وسائل الإعلام البريطانية هذه القضية لتمرير صور وأحكام جاهزة من جديد موجهة ضد الإسلام والمسلمين عموماً، وقد كان لهذه القضية التي ركزت عليها الصحف البريطانية أثر كبير في إثارة الرأي العام الإنجليزي ضد قوانين الشريعة الإسلامية وزيادة مخاوفهم من الإسلام والمسلمين ، خاصة أنها حادثة وقعت في بلد عربي مسلم، ومما يؤكد أن هذه المعالجة غير الموضوعية كانت مقصودة ، هو أن الصحف لم تكتف بنقل الحدث وتحليله ؛ بل تدخلت بالرأي والتعليق دون معرفة كافية بالقوانين الإسلامية ، مع أنها تعرضت لضرورة احترام المهاجرين لقوانين البلاد الأوربية التي يعيشون فيها (٢٢).

وإذا أردنا أن نكون منصفين فإن لسياسة الإعلام العربي أيضاً إسهاماً يعطي ذريعة لوسائل إعلام الغرب - وسوف نشير لواقع الإعلام العربي إن شاء الله- وقد علق على هذه القضية وزير الإعلام الإماراتي سمو الشيخ عبد الله بن زايد آل نهيان مؤكداً على هذه النقطة بأن سياسة الإعلام العربي تمنع وصول الصحفيين للوقوف على أصل الخبر ونقله بموضوعية مما يتيح الفرصة للمغرضين من تحقيق أهدافهم لتشويه صورة الرجل العربي أو المسلم عموماً. جاء ذلك في مؤتمر: الإعلام العربي الأوروبي حوار

دراسات في الشأه الإسلامى

من أجل المستقبل ، والذي عقد بمملكة البحرين من ٢٣ إلى ٢٥/٢/١٩٩٨م. وفي اللحظة التي سمح فيها للصحفيين للوقوف على أصل الحادثة وصل أكثر من ثلاثين صحفياً ليغطوا قصة امرأة قتلت شخصاً بتعمد بغض النظر عما إذا كان مغتصبها أو لم يكن، وعندها قل الاهتمام الإعلامي بهذا الموضوع ، بشكل كبير حتى انعدم الموضوع ولم يعد يذكره أحد(٢٣).

وقد صرح سعيد شهابى من مجلة " القلم " الصادرة في لندن ، بأن نظرة الكراهية " من الدول الغربية تجاه المسلمين ، وهي نظرة تعكسها وسائل الإعلام الأوروبية والأمريكية ، تتركز في ثلاثة محاور ، وهي :

- النظر إلى المسلم على أنه معاد للغرب .
- إظهار القيم الإسلامية على أنها معادية لقيم الحضارات الغربية .
- إظهار القيم الإسلامية على أنها تشجع الرجعية والإرهاب.

وأضاف شهابى أن الحضارة الإسلامية حققت إنجازات هامة عبر التاريخ، وأنه باستطاعة الحضارات الغربية الانتفاع من التقرب إلى حضارتنا وفهمها على حقيقتها، وأنه ليس من السهل إقناع الغرب بتغيير نظرتة السلبية تجاهنا عندما لا تتمتع الدول الإسلامية بأنظمة ديموقراطية ، وبمجتمع مدنى يشجع التعددية والشفافية.

من جهة ثانية، اشار الصحفي البريطانى إيان بلاك الذي يعمل لصحيفة ذي غارديان إلى أن جمهور القراء الغربيين ، تعرفوا على العالم العربى والإسلامى عبر التغطية الصحفية لحروب وأزمات مثل حرب الخليج والحرب العراقية الإيرانية ، والصراع العربى الإسرائيلى ، ومذابح الجزائر، وبطبيعة الحال، من شأن هذه التغطيات أن تولد في الذهن الغربى أن العالم الإسلامى هو فقط عالم الحروب والصراعات العنيفة(٢٤)

ماذا عن التضليل الإعلامى:

يعمل الإعلام الغربى باحتراف كبير جداً في مجال التضليل الإعلامى ،

داسات في الشاه الإسلامي

وهذا يمكن أن نضرب له بمثال قريب جداً من تاريخ كتابة هذا البحث وهو (حادثة اغتيال أبو مصعب الزرقاوي زعيم تنظيم القاعدة بالعراق). في ضوء تقرير أعده موقع مفكرة الإسلام الإلكتروني: حيث احتل هذا النبأ الصدارة في كل وسائل الإعلام العالمية، التي استقبلته غالبيتها بالتهليل والتعظيم، مبديةً إياه كإنجاز عظيم لقوات الاحتلال الأمريكية ونهاية للمقاومة العراقية، في تضليل إعلامي متعمد، وقد فنّد هذا التضليل عدداً من المثقفين ووسائل الإعلام الحرة من مختلف الجنسيات ومن بينها وكالة 'برينسا لاتينا' الكوبية في مقال نشرته بعنوان: (آليات التضليل الإعلامي تتطلق عقب موت الزرقاوي) للصحفي (خوان كارلوس دياث جيريرو) قال فيه: " انطلقت آليات حرب التضليل الإعلامي من جديد بأقصى قوتها عقب مقتل أهم رجل كان يجري البحث عنه خلال الأعوام الأخيرة في العراق: أبو مصعب الزرقاوي.

وفي تأكيد لزيغ هذه الصورة التي تحاول سلطات الاحتلال والحكومة العراقية نقلها للرأي للعام، كتب 'كارلوس باريا'، الأستاذ بجامعة مدريد المستقلة ومنسق الحملة الدولية من أجل مساندة العراق ومناهضة الاحتلال، مقالاً نشرته صحيفة الموندو الإسبانية بعنوان: (العراق عقب موت الزرقاوي)، يقول فيه: " قدّمت الولايات المتحدة والحكومة العراقية مقتل الزرقاوي كنقطة تحول في الوضع الداخلي العراقي، وكما حدث في مناسبات سابقة، عقب اعتقال صدام حسين على سبيل المثال، سوف تثبت الأحداث على الفور أن الأمر ليس كذلك..".

وفي مقال بعنوان 'الزرقاوي وحديثة'، أبرزت صحيفة 'لا خورنادا' المكسيكية كذلك سياسة التلاعب الإعلامي التي تنتهجها كبرى وسائل الإعلام الدولية في هذا الصدد، جاء فيه: " تبدو هذه اللحظة مشابهة تماماً للحظة اعتقال صدام حسين، أو للحظة إعلان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش انتهاء المعارك في العراق في مايو ٢٠٠٣"، ووصل عظم الهالة التي أحاطوا بها نبأ

دراسات في الشاه الإسلامي

مقتل الزرقاوي إلى درجة أن أشارت وكالات الأنباء الدولية إلى انخفاض في أسعار النفط نتيجة لذلك الحدث، الذي وقع في بلدة هبهب (٢٥).

ويأتي ذلك في محاولة لصرف الانتباه عن الأحداث الإعلامية الأخيرة التي كانت تحتل الساحة الإعلامية العالمية، والتي تمثلت في فضائح المذابح التي ارتكبتها القوات الأمريكية في مدينة حديثة والإسحاق في ضد مدنيين عراقيين.

أسباب الخوف من الإسلام :

نورد هنا أهم أسباب الخوف من الإسلام كما صورتها وسائل الإعلام الغربية ونختصر مجمل هذه العوامل في النقاط التالية:

- ١- الخطر الذي يمكن أن يجسده العالم الإسلامي في حالة تملك أسلحة نووية، ويبرز هذا مع نماذج كل من باكستان ، إيران .
- ٢- انهيار الإيديولوجية الشيوعية وتحول الصراع إلى صراع حضارات منها حضارة الإسلام، وما يزيد من تعقيد الأمور عند صناع القرار الغربي أن الوضع مختلف مع الإسلام ؛ لأنه دين عالمي ويمكن لمعتنقيه الوصول إلى قلب الدول الغربية ، أن يروجوا لقيمه ومبادئه .
- ٣- المواجهة التاريخية بين العالم الإسلامي والدول الغربية لفترات طويلة، والتي يصطلح عليها بالحروب الصليبية ، إضافة إلى أنها تصاعدت في العشرين عاماً الأخيرة، خاصة بعد أزمة البترول في السبعينات لتساهم في استفحال أحكام سيئة مسبقة عن الإسلام .
- ٤- ظهور تيارات في الغرب تدعو لتخصيص فرص العمل لأبناء الوطن وحدهم، والخوف من مزاحمة المهاجرين المسلمين بهدف البحث عن فرص العمل، كما يدعي جان ماري لوبين رئيس الجبهة الوطنية (Front National) في فرنسا .

دراسات في الشأن الإسلامي

٥- انتشار الثقافة الإسلامية إلى حد أنها أصبحت ظاهرة مميزة لأفقر أحياء المدن الغربية، وخاصة في الضواحي حيث تقطن الأقليات المسلمة، ويتم وصف هذه الظاهرة في وسائل الإعلام الغربية بتسلل العدو القديم من الباب الخلفي.

٦- تأييد وسائل الإعلام الغربية لإسرائيل، مما أدى إلى التعامل مع النظام الذي يمس القضايا العربية والإسلامية، مثل الكفاح الفلسطيني أو المقاومة العراقية على أنها نضال ذو طابع إرهابي، ولا تخرج وسائل الإعلام الغربية عن الأحكام المشوشة للعديد من الأكاديميين الغربيين، تلصق صفة الإرهاب بالإسلام، وعلى رأس هؤلاء المستشرق الأمريكي برنارد لويس، الذي لا يجد أي حرج في استخدام الإسلام مصطلحاً للتحديد في المناقشة والتصنيف في مناقشة موضوع الإرهاب.

٧- مخلفات عمليات اختطاف الرهائن والاعتقالات التي تعرض لها مواطنون غربيون.

تستدعي هذه النقاط السبعة الإشارة الضرورية إلى خطورة الخلط الذي يسقط فيه المتتبع الغربي عن جهل وعن عمد، بمباركة وسائل الإعلام بطبيعة الحال، ومن ضمن ذلك جملة من الثنائيات المعبرة عن هذا الخلط، نكتفي بالتركيز على نقطتين تحدث عنهما الأستاذ عبدالقادر طاش - رحمه الله - هما:

أولاً: خطأ الخلط في التصور والحكم بين الإسلام والأيديولوجيات، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الأيديولوجية الشيوعية التي كان يرتكز عليها عقائدياً وفكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، طفق أناس يبشرون بانهيار الإسلام، قياساً على ما جرى للشيوعية، كما حصل على الخصوص في أطروحة "صدام الحضارات" للأكاديمي الأمريكي صاموئيل هنتجتون، وهذا أمر مرفوض للإسلام دين وليس أيديولوجية، بمعناها الموسوعي أو مفهومها الفلسفي، وهذه

دراسات في الشاه الإسلامي

الأيديولوجية التي أدبرت تحمل في أحشائها عوامل فنائها. والإسلام ليس كذلك لا في المعتقد ولا في الشريعة، والدليل على هذه المفارقة أن الأيديولوجية الماركسية اندحرت عبر سبعة عقود من الزمان فحسب، في حين أن الإسلام يتقدم بعد أربعة عشر قرناً، وهو فوق كل هذا يبقى عند المسلمين خاتم الديانات ومتممها.

ثانياً: هناك خطأ الخلط في التصور والحكم بين الإسلام والعنف، في المدة الخالية القريبة، وقد كان ذلك على الخصوص نتيجة حتمية، نوعاً ما، على بعض الأحداث المؤسفة التي قام بها متطرفون أو جماعات محسوبة على تيار الأصولية الإسلامية سواء في العالم العربي والإسلامي، مثلما حصل في أحداث الأقصر مثلاً أو في المملكة العربية السعودية، أم في العالم الغربي، كما حصل على الخصوص مع اتهامات أحداث 11 أيلول (سبتمبر)، وهذا خطأ فنحن لا نعلم ديناً ولا مذهباً فلسفياً أو اجتماعياً أو سياسياً، جرم العنف ونفاه كما فعل الإسلام، وتمازج هذه الفقرة هو: انحسار العنف، يتضمن تقدم الإسلام أيضاً. أولاً: لأن الإسلام لا يتقدم إلا في مناخ عقلي ونفسي هادئ سمح. وثانياً: أن انحسار العنف يعني تناقض كم المادة التشريعية التي كانت توظف في تشويه صورة الإسلام^(٢٦).

واقع الإعلام العربي بشكل عام

ظروف الإعلام العربي :

- يقول د. قيس العزاوي: "يمكننا أن نعرض لأرضية هذه الظروف بالشكل التالي:
- ككل أوجه الحياة العربية الأخرى يعاني الإعلام العربي من محدودية الإمكانيات وضعفها على المستويين المادي والتقني .
 - تتعكس الأوضاع السياسية والاقتصادية التي تحيط بالعرب على إعلامهم، فما زالوا يعتمدون في أغلب غذائهم ودوائهم وبضائعهم وسبل تقدمهم التقني عامة وعناصر قوتهم العسكرية على الخارج.
 - فضلاً عن تبعية الغذاء والدواء والبضائع، فهناك طغيان الإعلام الغربي.
 - غياب الممارسة الديمقراطية الذي يجعل من المهمة الإعلامية الأصيلة شبه مستحيلة.
 - ندرة الكوادر في مجالات الإعلام المتطور المستخدم للوسائل الإلكترونية والمعلوماتية الحديثة(٢٨).
- وبالتالي إذا أردنا أن نصف معالم الإعلام العربي الحقبة فسوف نقول بصريح العبارة:
- إن الإعلام العربي إعلام محدود الحركة وضيق الأفق.
 - مستهلك للمادة الإعلامية الأجنبية وغير منتج لعناصر الإعلام المحلية بالقدر المتوازن مع تدفق الإعلام الوافد على أقل تقدير.
 - إنه في جانب منه، إعلام ركيك لا عقلاني وتبريري.
 - إعلام يحرص على إشاعة الامتثالية للسلطة أكثر من حرصه على تعزيز الهوية والثقافة ..
 - يفتقر إلى التنسيق بين أطرافه في هامشه الضئيل جداً الذي يجسد قضايا الأمة.

دراسات في الشاهد الإسلامي

- يستخدم القيم الثقافية لتحقيق أهداف فتوية متباينة .
- يحرص على أمن الدولة أكثر من حرصه على أمن الأمة (٢٩).
- فلن تصيبنا الدهشة عند اكتشاف تأثير ثقافتنا وإعلامنا على حد سواء بالاختراق الثقافي والإعلامي الغربي لمنطقتنا العربية حيث يمارس هذا الاختراق دوره المهدد لهويتنا، ووسيلته في ذلك هي السيطرة على الإدراك بالصورة السمعية والبصرية التي تسعى إلى "تسطيح الوعي" ، وجعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إشهاري مثير للإدراك ، مستفز للانفعال ، حاجب للعقل .. وبالسيطرة على الإدراك ، وانطلاقاً منها ، يتم إخضاع النفوس ، بتعطيل فاعلية العقل وتكييف المنطق والتشويش على نظام القيم ، وتوجيه الخيال، وتتميط الذوق، وقولبة السلوك. كما يهدف إلى تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع، تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه "ثقافة الاختراق" (٣٠).
- يقول أحد الإعلاميين : "من الأشياء التي لا تخفى على المتابع أن البث الفضائي الأجنبي أكثر تنظيماً ولا يعمل في فراغ، ولديه حسابات تبعده عن التسلية المجردة لإنجاح مشاريعه، وهي تمثل أفكار مالكيه من دول أو مؤسسات أو أفراد، ووجود هذا البث بما يملكه من آليات وتكنولوجيا متقدمة ظاهرة موضوعية نتيجة اختلاف موازين القوى في العالم لصالح الجانب الغربي" (٣١).
- والقنوات المشفرة والمجانية التي تعرض الأفلام الأجنبية بدأت تأخذ مساحة متزايدة في الساحة العربية ، وهي تحمل مخاطر تستحق الدراسة خاصة أن بعض هذه القنوات تقوم بالترجمة إلى اللغة العربية ، وهذا يعني أن الخطورة لا تقتصر على المشاهد الفاضحة أو العنف والإثارة وإنما الأفكار والمضامين التي تصل إلى عقل المشاهد البسيط (٣٢).
- الإعلام .. القيم المطلقة والقيم النسبية (قانون شرف)
- يختلف نظام القيم في الإعلام الغربي عنه في الإعلام العربي ، فالخبر

داسات في الشاه الإسلامي

لدى وسائل الإعلام الغربية يُعنى بشكل أكثر بالأفراد ومصالحهم الشخصية، وعلى سبيل المثال فإن مفهوم الخبر التام في وسائل الإعلام الغربية هو الخبر الذي يستقطب انتباه الناس ، ويجب على خمسة أسئلة هي : ماذا ، أي وقت، أين ، لماذا ، أي شخص ... وغالباً ما يصاغ الخبر بشكل مخالف للحقائق من أجل الضرورات الإعلامية أو التزاماً بمصالح المشرفين أو الممولين لهذه الوسائل، وهو بسماته هذه يؤثر تأثيراً بالغاً على أنظمة القيم والهوية والثقافة العربية والإسلامية، ويتعارض تماماً مع المهمات الملقاة على عاتق الإعلام العربي ؛ بل وإعلام العالم غير الغربي المستهلك المستسلم لقضايا الإعلام الغربي . ومن هنا طرحت دول العالم الثالث منذ منتصف السبعينات ضرورة قيام نظام إعلامي عالمي جديد يحقق بعض التوازن وبعض العدالة في إنتاج وتوزيع المادة الإعلامية.. ولعل هذا العالم الثالث ومنه منطقتنا العربية والإسلامية هو اليوم بأمس الحاجة لمثل هذا النظام وبخاصة بعد التطورات التي جرت وتجري في العالم الذي يتحول ، كما يقال ، إلى قرية صغيرة بفعل المتطلبات التي تفرضها العولمة على دول الجنوب(٣٣).

إن القفزة الهائلة لوسائل الإعلام في العقود القليلة الماضية نحو استعمال تقنيات الاتصال الحديثة قد أدت إلى تغييرات بنوية كثيرة في مؤسسات هذه الوسائل، إلا أن هذا التغيير، للأسف، لم يصاحبه تغيير أخلاقي، خاصة عند الغني والقوي، ومن ثم فإن "الحداثة" وما يسمى بـ"التقدم" في مجال الاتصال كانا على حساب القيم، وهكذا نرى أن القيم المادية للغني والقوي تسود في عمل وسائل الإعلام.

إن التغيير المطلوب في النظام العالمي الإعلامي الحالي هو الذي يمكن أن يعطي الدعم الأخلاقي اللازم للممارسة الإعلامية المسؤولة، وقد أثبتت أمريكا والغرب عموماً، أنها غير مؤهلة لأن تكون قدوة في هذا المجال. إن العلة الأساسية في نظام الإعلام العالمي الحالي هي أخلاقية قبل أن تصبح بنوية. فمهما كانت البنية متينة فإنها ستتهار إذا فسدت الأخلاق.

دراسات في الشاهد الإسلامي

وبعد أحداث سبتمبر، غدت الموضوعية والتوازن في التقارير الإخبارية عملاً سيئاً، وبدأ قادة المؤسسات الصحفية في أمريكا يطالبون الصحفي بأن يقدم تقييمه للأحداث من خلال الخبر، فلا يكتفي بعرض وقائع الأحداث بصورة حيادية، كما تفترض ذلك المبادئ الصحفية التي تدرّسها المعاهد الغربية.

أظهرت دراسة قامت بها، في أيار/مايو الماضي، جماعة وسائل الإعلام في جامعة غلاسكو البريطانية أن افتقار الجمهور إلى تفهم أزمة الشرق الأوسط يتفاقم بتغطية وسائل الإعلام لهذه الأزمة. فنادرًا ما يقال للمشاهدين إن الفلسطينيين هم ضحايا احتلال عسكري. وكذلك نادرًا ما يقدم تفسير للمشاهد عن معنى تعبير "الأراضي المحتلة". وأظهرت الدراسة أن ٩٪ فقط من الشباب الذين تم استبيانهم يعلمون أن الإسرائيليين هم محتلون، وكذلك "مستوطنون" غير شرعيين.

وتشير الدراسة إلى أن الاختيار الانتقائي للغة واضح، فعند ذكر الموتى الإسرائيليين تُستعمل على وجه الحصر تقريباً التعابير: "جريمة"، "وحشية"، "إرهاب". ويقول البروفسور جورج فيلو، المشرف على الدراسة، إن فريقه لم يجد في أي تقرير صحفي ما يشير إلى أن "هجوم الفلسطينيين هو رد على اغتيال المقاومين للاحتلال الإسرائيلي" (٣٤).

وهذا ما حمل بعض الأصوات الجريئة هناك لمخالفة التيار الغالب وإن بصوت خافت: ففي مقالة في جريدة نيويورك تايمز في سبتمبر ٢٠٠٢م بعنوان "مواجهة التظلمات ضد أمريكا" يقول بريجنسكي، مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي الأسبق كارتر: "ما تفتقده معظم المناظرات العامة هو نقاش الحقيقة البسيطة بأن وراء كل عمل إرهابي تكمن سابقة أو خلفية سياسية... الحقيقة هي أن كل نشاط إرهابي تقريباً منشؤه نزاع سياسي، وهو أيضاً سبب استمرار هذا النشاط الإرهابي... إن للتاريخ السياسي للشرق الأوسط علاقة بكره "إرهابي" هذه المنطقة لأمريكا، إذا كانت لا توجد أعذار لاعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر، فهناك أسباب لها تكمن في

داسات في الشأن الإسلامي

السياسة الخارجية الأمريكية" (٣٥).

ويقول رامسي كلارك، وزير العدل الأمريكي الأسبق، في رسالة بعث بها إلى أمين عام الأمم المتحدة في ٢٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢م: "إن جورج بوش في حربه على الإرهاب يدعي أن الضرورة تجبره على مواجهة خطر الإرهاب باعتماد ضربات مسبقة ضد أي عمل إرهابي محتمل واعتقال الأفراد اعتباطياً وتوقيفهم. إن في هذا تعدياً غير مسبوق على ميثاق الأمم المتحدة وعلى القانون، وكذلك على السلم. ويضيف أن أي قرار للأمم المتحدة أو أمريكا بالاعتداء على أعداء أمريكا هو عمل إجرامي، ويؤدي إلى زيادة الحقد والإرهاب ويقود إلى الحرب" (٣٦).

ويعلق كلارك على قول جورج بوش إن العراق غزا بلدين خلال السنوات الاثنتين والعشرين الماضية، فيقول: "إن أمريكا في هذه المدة نفسها غزت أو اعتدت مباشرة على غرانا، ونيكارا، وليبيا، وبنما، وهايتي، والصومال، والسودان، والعراق، ويوغوسلافيا، وأفغانستان، وساعدت عمليات غزو لأقطار عديدة في جميع أنحاء العالم" (٣٧).

وتقول "آن ماري سلوتر" أستاذة القانون الدولي في جامعة هارفرد ورئيسة الجمعية الأمريكية للقانون الدولي، في مقالة نشرتها في النيويورك تايمز: "... إن أمريكا تحيد عن الممارسات الدستورية، وعليها أن تحاكم المتهمين بالإرهاب أمام محكمة دولية".

أما المفكر اليساري إيمانويل والرشتاين، فيقول في مقالة في مجلة فورين بوليسي الرصينة: "تفسيرات المتشددين (في الإدارة الأمريكية) خاطئة، وستسهم فقط في انحدار الولايات المتحدة وتحويل هبوطها التدريجي إلى سقوط مدوٍ أسرع بكثير... إن الولايات المتحدة تبعد المصادقية (التي اكتسبتها في السنوات المائتين الأخيرة) بسرعة تفوق تبديدها لمخزونها من فائض الذهب لديها في عقد الستينيات من القرن الماضي" (٣٨).

دراسات في الشاهد الإسلامي

الإعلام واللغة المعتمدة وتحديد المصطلح

كثيراً ما تقوم وسائل الإعلام بتحديد كثير من المصطلحات وفق دراسة وتخطيط دقيق للوصول إلى الأهداف المنشودة والمصالح المبتغاة، نحن نرى ونلمس محاولة وسائل الإعلام الغربية جعل العناوين المشبوهة على الحركات الإسلامية ووسمها بالإرهاب وتركيزها في أذهان الناس، تأمل إلى مصطلح الإرهاب من خلال الإعلام العالمي من الذي يوصف بالإرهاب؟ الإرهاب يطلق على جهاد الشعب الفلسطيني المكافح، والمقاومة العراقية المشروعة، والدفاع عن الوطن والدفاع عن الحقوق يعبر عنها بأنها إرهاب وهذا ما يسمى اللعب بالمصطلحات . من اللعب بالمصطلحات في الإعلام العالمي، استعمال بعض المصطلحات المضلّة ككلمة العلمانية والعولمة فهي مصطلحات براققة في الوهلة الأولى ولكن عندما تأتي إلى كلمة العلمانية فمعناها العلم، العلم هذا مطلب للجميع لأن الإسلام أيضاً يقبل العلم، جميع الأديان تقرّ العلم، وجميع العقلاء يقروّن ويعترفون بأهميته ولكنه استعمل استعمالاً ذكياً ووظف في مجال الحرب على الأديان، وفصل الدين عن السياسة، وفصل الدين عن الحياة الاجتماعية.

إن الإعلام العالمي يريد تشكيل البشرية وفق النظرية والرؤى التي يرتئها في منظوره خاصةً ونحن نعرف من هم سياسة الإعلام العالمي.. والمخططين له؟ لا شك أن الصهيونية تبذل جهداً كبيراً في السيطرة على الإعلام العالمي سواء على مستوى وكالات الأنباء أو الأقمار الصناعية.

يقول د. محمد بشاري عن هذا الموضوع من خلال مسح لوسائل الإعلام الأوروبية: استخدمت وسائل الإعلام الغربية عدة وسائل لإبراز الصورة السيئة للإسلام والمسلمين من خلال :

- أ - العناوين المثيرة التي تبعث الخوف والقلق لدى الرأي العام الغربي.
- ب - التكرار والاجترار المستمر خاصة في أحداث العنف والريبط بين الإسلام والإرهاب ، كما استخدمت العديد من الصحف في فرنسا وبريطانية على وجه الخصوص ، تعابير مجازية مكررة عند الإشارة إلى

دراسات في الشأن الإسلامي

المسلمين ، مثل : الطابور الخامس ، حصان طروادة ، العدو من الداخل ، وكذلك تعابير مثل : وحشي ومتعصب وبربري، وأصبحت مصطلحات مثل الأصولية الإسلامية والتطرف وإرهابي مسلم، والخطر الإسلامي، والقنبلة الإسلامية عبارات طنانة أساسية تستخدمها أوساط كثيرة في وسائل الإعلام، ولا شك أن مثل هذه اللغة المبهمّة ذات الهدف الدعائي التي أصبحت جزءاً من الخطاب الثقافي الشعبي، تمارس تأثيراً على الذهن العاجز عن التمييز ، مما قاد إلى يقين وسط كثرة من المسلمين بوجود دعاية منظمة ومتواصلة لا تخضع لقواعد تذكر .

ج- الضرب على وتر المشاعر والأحاسيس الإنسانية باستخدام صور وعبارات مؤثرة نفسياً وموحية بالمعنى الذي تسعى هذه الوسائل لإيصاله وبتخاذ الموقف الذي تطمح إليه .

د- التأثير على المتتبع مستغلة جهله بالإسلام واعتماده على ما تقدمه له من معلومات وأحكام جاهزة ، ومستغلة كذلك المصلحة الشخصية والقومية بتصوير المسلمين والإسلام على أنهم يشكلون الخطر والعدو .

هـ- استغلال الأحداث والسلوكيات الخاطئة للمسلمين العاديين وتصويرها على أنها من صميم الإسلام نفسه بغض النظر عن عرض الإسلام بوصفه ديناً يحفل بقيم ومبادئ ومثل عليا سامية .

خلاصات صورة الإسلام :

ونذكر هنا أهم الصور النمطية التي يتم ترويجها عن الإسلام في مختلف وسائل الإعلام الغربية:

١- جاءت صورة الإسلام بصفة عامة في وسائل الإعلام الغربية المختلفة ، سواء الصحف أو المجلات والإذاعات والتلفازات صورة سلبية وسيئة ومشوهة في الغالب ، فالصورة كانت منفرة ، ولقد وُصف المسلمون بأوصاف بدائية وهمجية، إلا في القليل جداً من المعالجات الإعلامية ، والتي تبقى غير مؤثرة مقارنة مع السائد ، إضافة إلى كونها مرتبطة

دراسات في الشاهد الإسلامي

بصاحب التغطية الذي يكون موضوعياً في كل ما يقدمه ، وليس للقضايا الإسلامية فقط .

٢- كان هناك نزوع نحو ما يطلق عليه في لغة الإعلام (بشيطنة العدو) ، والعدو هنا في العديد من الحالات يتمثل في الإسلام والمسلمين ، ويقوم هذا المبدأ على التحويل المعنوي لهذا " العدو " إلى شيطان ، أي شر مستطير ومتجسد ، أو نزع الصفة الإنسانية عن العدو حيث يستحق عقاباً صارماً يسمح للمضطهد أن يمارس اضطهاده على المضطهد ، دون أن يكون مطالباً بتطبيق الشرائع وموائيق حقوق الإنسان المعروفة في التعامل مع البشر .

٣- ربط الإعلام الغربي بشكل كبير بين الإسلام ديناً وبين بعض الحركات الإسلامية ، وفي كثير من الأحيان لم يفرق هذا الإعلام بين المسلم المعتدل في ممارسته الدينية ، وبين المسلمين المنتمين لجماعات إسلامية تختلف في أطروحاتها ، ويتأرجح هذا الاختلاف ما بين الاعتدال والتطرف ، وقد تم استغلال أحداث تورط فيها بعض الإسلاميين المتشددين من أجل إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين ، ولقد اعترف العديد من الإعلاميين بوجود صورة خاطئة عن الإسلام والمسلمين في مختلف وسائل الإعلام الغربية (٢٧) .

٤- ركزت وسائل الإعلام الغربية على بعض الأفكار الحديثة في الجوانب الخاصة بالإسلام والمسلمين ، مثل فكرة " صدام الحضارات " التي قدمها هنتجتون ، والترويج الإعلامي على أن الإسلام هو العدو البديل للشيوعية ، إلى جانب قضية الأصولية والجماعات الإسلامية وإيديولوجياتها ، باعتبارها موضوعات مرتبطة بالإسلام والمسلمين .

٥- لم تستطع احتجاجات قادة وزعماء الجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب على المعالجات الإعلامية الخاطئة للإسلام والمسلمين (والتي نتج عنها أحياناً تقديم اعتذارات رسمية من كبار المسؤولين في أجهزة الدول

داسات في الشاه الإسلامي

ببعض الدول الغربية) إيقاف هذه الحملات الإعلامية المسمومة ضد الإسلام والمسلمين ؛ لأنه لا يمكن التحكم بوسائل الإعلام ، والتدخل في عملها ، وفق القوانين المعمول بها هناك، إلا أن بعض التحسن قد طرأ على قليل من المعالجات الإعلامية في هذه القضية ، كما بدأت بعض الوسائل تتجه نحو الموضوعية في عرض القضايا الإسلامية ، نظراً للتدخل النوعي القادم من لدن الأقليات الإسلامية في بعض الدول الأوروبية.

٦- هناك سبب آخر تم ذكره في تقرير حلف شمال الأطلسي الصادر في شهر أيار (مايو) عام ١٩٩٤ وهو " العداة المتنامي للحركات الإسلامية ضد القيم الغربية والاقتناع بأن هذه الحركات سوف تستخدم العنف ضد مواطن الدول الغربية وضد مصالحتها " .

مما لا شك فيه ، أن هذه الخلاصات تبقى غنية عن التعليق ، وما هو أخطر من ذلك ، هو أنها تشوه بصفة كلية الصورة السمحة المعروفة عن الإسلام عند المسلمين وعند كل المتتبعين الغربيين الذين أنصفوا القضايا الإسلامية ، سواء أكانوا محسوبين على القطاع السياسي أم الثقافي أم الأكاديمي أم الإعلامي .

وأخيراً نورد تلخيصاً لجوهر الصور المغلوطة عن الإسلام في النقاط التالية :

- الإسلام دين العنف والإرهاب .
- الإسلام يضطهد المرأة (وهنا يتم التركيز كثيراً على قضية الولاية والزواج والعصمة والقوامة والتعدد...) .وجملة من القضايا حق لا نتخلى عنه ولكنه قدم بمفهوم خاطيء .
- المسلمون يعبدون إلهاً مختلفاً .
- الإسلام انتشر بالسيف .
- المسلمون هم العرب .
- الأمة الإسلامية هي جماعة المسلمين .
- المسلمون يتزوجون بأربع نساء .
- المسلمون أناس متخلفون بربريون .

دراسات في الشاهد الإسلامي

- محمد هو مخترع الإسلام وأن المسلمين يعبدونه .
- المسلمون لا يؤمنون بعبسى عليه السلام .
- الإسلام ضد حرية الاعتقاد .
- لم تكن الفتوحات الإسلامية سوى توسعات استعمارية ذات طابع اقتصادي للحصول على الغنائم وفرض الجزية .
- الإسلام يظلم المرأة في الميراث .
- الإسلام دين وحشي في تطبيقه للحدود والعقوبات .
- الإسلام ضد الديمقراطية وحقوق الإنسان .
- الإسلام يحرم الفنون (الموسيقى - الرسم - النحت) .
- ليس القرآن سوى تأليف بشري وليس وحياً إلهياً .
- الإسلام يعادي الحضارات الأخرى .
- الإسلام دين رجعي .
- كان محمد رجلاً شهوانياً .
- الإسلام ضد العمل ، فهو من ثم دين تواكلي .
- الصيام يقلل حركة الإنتاج .
- الزكاة تقلل من الأموال .
- الإسلام دين ضد السامية (من خلال تحريف الآيات القرآنية التي تتحدث عن قضية اليهود) ٣٩.

وأخيراً .. إنه لمن الواجب على العلماء والمثقفين والدعاة والمفكرين بيان مثل هذه الجوانب والتي يراد من خلالها النفاذ إلى العقلية الإسلامية. بيان ذلك من خلال (الوقوف والاستيقاظ واستشعار المسؤولية والتفنيذ والرد والعرض والحوار والمناقشة وإيصال الصورة الصحيحة للآخرين). كل ذلك واجب وجوباً حتمياً.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ (آل عمران : ١٨٧).

المقترحات

يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

هذا السبب لا ينبغي أن يغفل ويهمل، ومن الواجب أيضاً ألا يُغالي فيه ، فإن هذا من دواعي تفاقم الإشكال لا حلّه، وهذا مقتضى الإنصاف الذي يقوم عليه الإسلام، ونحن نعلم أن الله يقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣).

وكما يقول بعض المفكرين الإسلاميين:

هناك خمس طوائف من الغربيين عموماً:

الطائفة الأولى: من المستكبرين باطري الحق وغامطي الإسلام .

الطائفة الثانية: لا يعرف أهلها عن الإسلام إلا ما صورته الطائفة الأولى. وهؤلاء لابد من الاعتراف بتقصير المسلمين في دعوتهم وإعطائهم الصورة المشرقة عن الإسلام.

الطائفة الثالثة: بين هؤلاء وهؤلاء وهم المعرضون الذين لا يريدون معرفة الحق وتمييزه من الباطل، إما لهوى أو ظلم أو جهل، وهؤلاء ينبغي أن يرغبوا في الإسلام وينبهوا إلى أهمية النظر فيه، قبل أن يلحقوا بالفريق الأول.

الطائفة الرابعة: المنصفون من الغربيين الذين عرفوا شيئاً عن الإسلام فبان لهم تعاليمه السمحة، وتشريعاته الحكيمة، وعرفوا شيئاً عن نبينا ﷺ فعظموه، فوقفوا موقف أبي طالب من محمد ﷺ ..

ومن هؤلاء على سبيل المثال: جوسلين سيزاري (الباحثة الفرنسية)، روبرت فيسك (الصحافي البريطاني)، ماركوس بوج (أستاذ علوم الدين في جامعة

دراسات في الشاه الإسلامي

أوريغون الأمريكية)، فرانسوا بورجا (الباحث الفرنسي المرموق)، وكذلك كارين أرمسترونج (الكاتبة البريطانية، والراهبة الكاثوليكية سابقاً)، وصاحبة العديد من المؤلفات عن الإسلام والمسيحية واليهودية. بل الأمير الإنجليزي تشارلز، وشهادته النادرة التي أسقط فيها صفة التطرف التي يحاول الإعلام الغربي أن يربطها بالإسلام إلى جانب دفاع تشارلز عن فضل الحضارة الإسلامية على القارة الأوروبية، وعلى الحضارة الغربية بصفة عامة..

هؤلاء ينبغي أن يعرف لهم فضلهم، وأن يكافأوا عليه، وأن يحرص على دعوتهم وهدايتهم، وحرى بمثلهم أن يسلموا إذا تعرفوا على الإسلام أكثر... الطائفة الخامسة: مسلمو الغرب، فهؤلاء ينبغي أن نكون رداءً لمحسنهم، حادبين على مسيئهم، حريصين على هدايته وتوجيهه التوجيه الأمثل (٤٠). هذه النقطة بالغة الأهمية، ويجب أن تحاط بالاهتمام، ومن خلالها نضع اقتراحاتنا ونعالج مشكلاتنا ونعامل الغرب على أساسها.

هناك أمر آخر: (إننا نحرص على مد الجسور مع الآخر وإظهار القواسم المشتركة التي يمكن التعايش بواسطتها، وننادي بالتعايش، وهم عندهم مؤسسات تصيرية ذات آلات إعلامية ونفوذ في الدوائر الرسمية وإمكانات اقتصادية ضخمة تعادل إمكانات عدد من الدول الإسلامية، هذه المؤسسات تسوق حديثنا الذي نتكلم فيه عن التعايش والاعتراف بالنصرانية بأنها دين منزل من عند الله، وغير ذلك مما يقال تسوقه لقومها على أنه اعتراف بما هم عليه، وأن الإسلام يقهرهم، ولا يتنكر للنصرانية إلا حفنة من المتشددین هناك. والحقيقة أننا نؤمن بما أنزل على عيسى والنبيين بحسب ما جاء به القرآن، أما ما حرفوه فهو غير داخل فيما أنزل الله على رسله.

وزاد الطين بله حين تسربت أحاديث (محبية الآخر) المبتورة إلى أفواه بعض من المحسوبين على الصحوة الإسلامية. وقف أحمد ديدات - رحمه الله رحمة واسعة وأعلى الله درجته - في

داسات في الشأن الإسلامي

الدنمارك هذه بعد إحدى مناظراته . وهي متداولة في السوق . يقول للمسلمين هناك حدثوهم بالإسلام دعوهم يطلعون على ما عندنا، قولوا لهم: عندنا حل لمشكلاتكم كلها... قولوا لهم: لا نقر السفاح ولا زنا المحارم، ولا المثلية الجنسية، قولوا لهم: ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، قولوا لهم كتابكم محرف.... ودعوهم يقبلون أو يرفضون. وهو والله السبيل. إننا اليوم نحتاج إلى وضوح في الطرح مع الآخر... نكلمه عن أننا نحب له الخير، ونكره له الكفر، ونتكلم له بأنه ليس على شيء، وإن مات على كفره فهي نار تطفى.. نار لا تبقى ولا تذر. وأن الأخبار والرهبان يكذبون عليه فيما يتعلق بحق نبينا وحق ديننا الإسلام. فليس هذا الذي يقرأ عنه هو محمد ﷺ الذي نعرفه، ولا هو الإسلام الذي نقره(٤١).

تبدأ المعالجة الحقيقية للمشكلة ب (التخلية قبل التحلية). بمعنى: إزالة الحواجز قبل مد الجسور، وذلك من خلال تصحيح وضع وواقع الإعلام الإسلامي والعربي جملة وتفصيلاً.

هناك ضرورة لوجود المرجعية الموحدة المتمثلة في ترابط الأمة الإسلامية والعربية أولاً، وتجاوز العقبات والأزمات وتكثيف جهود الاعتصام والتكافل والترابط وتقريب وجهات النظر، وتكثيف الاجتماعات والندوات والمؤتمرات والاستفادة من العقول والطاقات العربية والإسلامية، في جميع المجالات التي تساعد على الرفع من الوضع الراهن الذي تعيشه الأمة الإسلامية، والعمل على المساحة المتفق عليها. ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

هناك إجماع من قبل المختصين الإعلاميين وغيرهم يتمثل في ضرورة وجود الجهاز أو المركز الإعلامي الموحد الذي يتميز بخصائص الإعلام الإسلامي من حيث : القوة والدقة والأمانة والصدق والموضوعية، والهدف السامي الذي يحمله والرسالة النقية التي يصدرها. ويقوم بالتالي:
- التصدي لمحاولات تغييب وتحريف وتشويه صورة الدين الإسلامي.

دراسات في الشاهد الإسلامي

- وجود خطة إعلامية جماعية يضعها أساتذة وخبراء الإعلام .
- إنشاء دور أو مراكز أو معاهد للدراسات الإسلامية والعربية الخالدة وترجمتها إلى جميع لغات العالم، وبيعها بأسعار رمزية في الأسواق الغربية.
- إنشاء مرصد في الدول الإسلامية والغربية تقوم بمتابعة كل ما ينشر عن الإسلام والعرب وإعداد تقرير تحليلي ، والتنسيق مع الهيئات والمنظمات الإسلامية المعنية، والعمل على تنشيط العلاقة بين المؤسسات البحثية الأكاديمية في العالم الإسلامي ونظائرها في الغرب. وتقوم برصد الانتهاكات التي تمارس ضد الأقليات الإسلامية في شتى بقاع الأرض والبحث عن أسبابها وخلفياتها وذلك من باب الاهتمام بأمر المسلمين، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم(٤٢).
- مطالبة الدول العربية خاصة من خلال جامعة الدول العربية، وكذلك الدول الإسلامية باستحضار مسئوليتها ووجودها الفاعل في مثل هذا الجهاز الإعلامي من حيث: التمويل والتحضير والتخطيط المسبق.
- توجيه رسالة تعزز ثقة المسلم بنفسه وبعقله وبطاقته وبدينه وبرسالته، فالمعركة الإعلامية لا تحتاج إلى قنابل ذرية أو صواريخ عابرة للقارات. وإنما تحتاج فقط إلى قلم وورقة وعقل مدبر وإرادة قوية وإيمان.
- استثمار مواقف كثير من الغربيين المنصفين والتي ستساهم إلى حد ما في التخفيف من حدة التخويف من الإسلام والمسلمين، وربما تساهم أيضاً في كشف السحب الكثيفة التي ألقى بها أعداء الإسلام على الوجه المشرق الوضاء لديننا الحنيف.
- تفعيل طاقات المسلمين: عامة وعلماء ومفكرين ودعاة ومختصين ومسؤولين وحكاماً خاصة، وذلك للرد على كل من يسئ إلى الإسلام والمسلمين كل من موقعه وعلى قدر المكانة التي يتبوؤها وذلك في شتى المحافل المحلية والدولية.
- العمل على تصحيح صورة الإسلام في الغرب عبر عمل مؤسسي يقوم:

داسات في الشاه الإسلامي

بمواجهة التشويه الواقع هناك، وبدعم العلاقة بين المرادف الإسلامية وبين ممثلي الأقليات المسلمة في مختلف الدول، وتكثيف الاتصال بوسائل الإعلام الغربية ومراكز البحوث غير الإسلامية لتصحيح ما يصدر عنها، والاجتهاد في فتح أبواب الحوار مع مراكز التأثير وصناعة القرار في دول الغرب، والتحرك السريع لمواجهة المواد الإعلامية المسيئة للإسلام، والتنسيق مع وسائل الإعلام في الدول الإسلامية لمواجهة ما يتضمنه التقرير السنوي، والاستعانة بخبراء العلاقات العامة والإعلام من الأكاديميين في الجامعات والمعاهد في المجال التطبيقي لعقد اجتماعات وحوارات متخصصة لكيفية تفعيل الحملات الخاصة بالعلاقات العامة والإعلان، ومخاطبة الحكومات العربية والإسلامية لتفعيل مثل هذه الندوات من خلال وزاراتها، ومخاطبة أقسام الإعلام في العالم الإسلامي لإقامة ورش عمل لتدارس هذه القضايا، ومخاطبة المؤسسات الإعلامية العربية والإسلامية في وضع برامج ضمن خريطتها لكيفية تفعيل تصحيح صورة الإسلام في الغرب، وتأسيس منتدى إسلامي دولي ينعقد سنوياً بمشاركة المؤسسات العلمية والدينية في الدول الإسلامية وغيرها، يمكن من خلاله طرح القضايا التي تتعلق بفهم الإسلام والوعي به والتعبير عنه، والتخطيط لكيفية التعامل مع الحضارات الشرقية ودراسة هذه المجتمعات من النواحي المختلفة لإحداث توازن في علاقة العالم الإسلامي بغيره^(٤٣).

- إنشاء وقف عربي يمول من الحكومات والمنظمات على شكل أسهم وقفية، يقوم بتمويل هذه الحملات وبشكل دائم ومستمر، تكوين فريق عمل من الإعلاميين الغربيين وعمل قاعدة بيانات، وتوضيح كيفية الاستفادة منهم في المرحلة الحالية والمستقبلية، الاتصال برجال الأعمال العرب والمسلمين في مختلف القطاعات لتمويل بعض هذه الحملات، مخاطبة الجامعات والمعاهد في الغرب التي تتعاطف مع الإسلام في تنفيذ جزء من هذه الخطة^(٤٤).

- وفي بناء الجسور مع الغرب لا بد من :

دراسات في الشاهد الإسلامي

●● تفعيل الإعلام الإسلامي على الصعيد العالمي. (ويتضمن:

- ضرورة تأسيس قناة إسلامية فضائية تتحدث باسم المسلمين بلغات الغرب.
- العمل على استئجار أوقات من البث الإذاعي والتلفزيوني في مختلف القنوات الإعلامية الغربية.
- التفكير الجاد بامتلاك عدد من محطات الراديو، وتشجيع المستثمرين على شراء مثل هذه المحطات باللغات الغربية.
- إنشاء مؤسسة للإنتاج الإعلامي الإسلامي تقوم بإنتاج البرامج والاستطلاعات باللغات الغربية المنطوقة كما تقوم بتوزيعها هناك.
- الاهتمام بالكتاب كونه وسيلة لمخاطبة الرأي العام في الغرب، وضرورة التكامل بين الأجهزة والمنظمات الأهلية وبين الحكومات في العالم الإسلامي.
- مطلوب من القنوات الإعلامية العربية والإسلامية تخصيص وقت ساعات العمل وإرسال القنوات الفضائية لمخاطبة الرأي العام في المجتمعات الغربية.
- مواجهة التجزئة الهائلة التي يعانيها العمل الإسلامي بين الجاليات المسلمة مما يضعف قوة العمل الإسلامي.
- استثمار الفرص الإعلامية المتاحة لتأكيد حقيقة الإسلام في برامج قنوات الدول العربية والإسلامية.
- استثمار الفرص التي تتيحها شبكة الإنترنت من أجل الإسهام في تصحيح الصورة.
- وهذا يتطلب خطاباً إعلامياً عصبياً نقدياً وموضوعياً يغزو الأسواق الغربية ويبتعد عن رتابة الخطاب الإعلامي الموجود اليوم^(٤٥).

●● الاستفادة من تجارب الغرب الإعلامية:

- الإسلام - والحمد لله - لا يحول دون الاستفادة من أي تجربة إنسانية أو علمية لخدمة الإسلام والمسلمين ما دام أنها لا تتعارض مع هدي الله

داسات في الشاه الإسلامي

سبحانه ولا مع سنة المصطفى ﷺ وإذا كان الغرب قد حقق الكثير من الإنجازات في مجال العلوم التقنية والطبيعية، فإنه من الطبيعي الاستفادة منها لخدمة الإنسان والمجتمع. ويصدق الأمر كذلك على العلوم والمعارف الإنسانية ومنها الأدب والإعلام وهي مجالات تحظى بتقنيات عالية وأساليب متجددة، فإنه يمكن الاستفادة منها كوسائل، ويأتي التحفظ على المضمون والهدف الذي تحويه وتتضمنه هذه الوسائل، فإن للإسلام مضامينه وأهدافه التي لا يجوز التحول عنها لغيرها من المضامين التي تخالف هدى الله وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة : ١٥-١٦).

هناك عدة تجارب قام بها الغرب في الدول العربية والإسلامية يمكن النظر فيها وإعادة صياغتها على ما يفيد في بناء التواصل وفق الشريعة الإسلامية السمحة، من هذه التجارب مثلا:

● فكرة الزوايا الجامعية والثقافية الأمريكية في الشرق الأوسط التي تقام في بعض الجامعات العربية، تقول غولدن روبنسون : " إن مكتبا واشين من الحواسيب، وبعض رفوف الكتب في الطابق الثاني من المكتبة في الجامعة الأميركية في الكويت، تمثل أحد الخطوط الأمامية في معركة واشنطن لأجل كسب العقول والقلوب في الشرق الأوسط المسلم... إن الغاية هي تشغيل مصدر للناس الذين يريدون إما القيام ببحث عميق وإما أنهم يريدون فقط أن يتألفوا مع مختلف وجود المجتمع والثقافة الأميركية" (٤٦).

● فكرة جلب الصحفيين من الغرب لزيارة العالم العربي والإسلامي، يقول هانز ماهوني مستشار إعلامي ثقافي في السفارة الأمريكية في القاهرة: " قمنا بعمل نوع من تبادل الرؤى، ونحن بدأنا بالفعل في سفارة الولايات المتحدة بمصر في تطبيق برنامج يسمى (الزائر الدولي) نقوم بإرسال حوالي

دراسات في الشاهد الإسلامي

١٢ صحافياً لمدة ثلاثة أسابيع إلى الولايات المتحدة . والهدف من الرحلة ليس أن يقوم هؤلاء بكتابة تقرير مدح أمريكا ؛ لكن الهدف هو أن يقوموا بالتغلغل داخل المجتمع الأمريكي ليكتشفوا الأمور على طبيعتها . دون تدخل من أي طرف ؛ لأن الواقع يقول إن هناك تشويهاً مزدوجاً ، فصورة الأمريكيين لدى العرب مشوهة وكذلك العكس ولذا فنحن نعمل جاهدين على إجلاء هذه الصورة عن طريق الصحافيين " (٤٧)

وهنا نجد ضرورة حضور المجامع الفقهية ومجالس الإفتاء واللجان الشرعية للمشاركة في تكييف كثير من المسائل والمستجدات المعاصرة في جانب الإعلام . لا سيما وهناك اقتراحات من جانب المختصين إعلامياً بإقامة مدينة للسينما الإسلامية رداً على مدينة "هوليوود" الأمريكية ، وإخراج أفلام ومسلسلات إسلامية تجسد شموخ الحضارة الإسلامية والإنسان العربي وقيمه المثلى التي يفترق إليها الإنسان الغربي ، لتعزيز ثقة المسلم والعربي بشخصيته .

●● التوصل مع المنصفين من عقلاء الغرب ومع الجمعيات النشطة المتعاطفة مع القضايا الإسلامية: في ضوء:

- الاستفادة من تجاربهم وهم أكثر في شتى المجالات عن طريق التواصل بالزيارات .

- شكرهم وتشجيعهم على تصريحاتهم وتفاعلهم وتعاطفهم مع القضايا الإسلامية تقوية العلاقة بهم والتواصل معهم فيما يعود ببناء الجسور والوصول إلى الشعوب الغربية ، لنقل الصورة الصحيحة عن الإسلام والعالم العربي والإسلامي .

- تقديم الدعم المادي والمعنوي ، وهنا يأتي عمل الحكومات والمؤسسات ورجال الأعمال في العالم العربي والإسلامي . يقول السيناتور الأمريكي جيمس أبو رزق مؤسس اللجنة الأميركية العربية لمكافحة التمييز : A.D.C تقوم بإرسال عدد من المفكرين والصحفيين والكتاب إلى مناطق في الشرق

داسات في الشأن الإسلامي

الأوسط ليتعرفوا أكثر على الشعوب العربية وعاداتها وتقاليدها، ومن ذلك ما قمنا به من إرسال عدد من أصحاب الرأي إلى فلسطين لتمهيد الطريق والتعايش مع الشعب الفلسطيني، وبالفعل عاش الفريق في منزل إحدى الأسر الفلسطينية مدة ٣ أسابيع، خرج بعدها بفكر مختلف تماماً عما كنا نتخيله، ونحن الآن نقوم بإعداد برنامج آخر إذا تمكنا من جمع الأموال له، ويهدف إلى إعداد فريق يقيم لفترة في دول العالم العربي مثل المملكة العربية السعودية وفلسطين وباقي الدول لتتوير العالم عن العادات والتقاليد التي يجهلها الكثير عن العالم العربي...

ويقول: من الضروري أن نقف معاً ونتعاون... لدينا الكثير من الخبرة في مجال التعاون، نحن قد بدأنا قبل ٢٦ عاماً، ويمكن أن نقيدهم بخبرتنا الطويلة (٤٨)

- استغلال المؤتمرات المقامة في الغرب ومحاولة المشاركة الإيجابية فيها.
 - دعم المراكز الإسلامية والأقليات الإسلامية في الدول الغربية والتواصل معها وتفعيل وجودها هناك في إيصال الصورة الصحيحة والوصول من خلالها إلى الشعوب الغربية.
 - الاهتمام بشريحة الطفولة الغربية في الغرب ، والحفاظ على الطفولة في العالم الإسلامي.
- وأخيراً أنبه إلى ضرورة متابعة واستغلال مثل هذه المؤتمرات في المجال التطبيقي، لأن الجانب النظري يحسنه الكل، ويبقى المحك عند النزول إلى ميادين العمل والمنافسة. نسأل الله التوفيق والهدى والسداد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات في الشاه الإسلامي

الهوامش

- (١) الإعلام وسيلة ورسالة ، جون ميرل رالف ، لوينشتاين، تعريب د. ساعد خضر العرابي الحارثي. دار المريخ، الرياض ص ، ٢٣
- (٢) أخرجه البخاري (١٣٣١)، ومسلم (١٩).
- (٣) أصول الإعلام الإسلامي ، د. إبراهيم إمام ص ٩-، ١٠
- (٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٥).
- (٥) أصول الإعلام الإسلامي، ص ، ٥١
- (٦) انظر هذه الخصائص في : الإعلام الإسلامي المبادئ - النظرية - التطبيق. أ. د محمد منير حجاب ، دار الفجر ، القاهرة، ط الأولى ٢٠٠٢م. ص ٢٥- ، ٢٧
- (٧) أصول الإعلام الإسلامي، د. إبراهيم إمام، ص ٢٩٦- ، ٢٩٧
- (٨) انظر : الإعلام العربي - الأوروبي : حوار من أجل المستقبل، مركز الدراسات العربي الأوروبي، البحرين، ط الأولى، ١٩٩٨م. ص ٣٩- ، ٤٠
- (٩) ورقة مقدمة بالمؤتمر بعنوان: الإعلام العربي وقضايا الهوية والثقافة، د. قيس جواد العزاوي، انظر: الإعلام العربي - الأوروبي : حوار من أجل المستقبل، ص ، ٧٢
- (١٠) الإعلام الإسلامي ومتغيرات العصر ، محمد عبد الله السلامة، مكتبة التوبة بالرياض، ط الأولى ١٤٢٤هـ، ص ١٧٤ ، ١٧٦
- (١١) المصدر السابق ص، ١٧٧
- (١٢) (بتصرف) أصول الإعلام الإسلامي ، د. إبراهيم إمام ، ص ، ٣١٥
- (١٣) حوار أجرته معه جريدة الجزيرة السعودية، الأحد ٢٣ ربيع الآخر ١٤٢٧ هـ - ٢١ مايو ٢٠٠٦ م العدد (١٢٢٨٨).
- (١٤) انظر: جريدة الجزيرة السعودية، الخميس ١ ربيع أول ١٤٢٧ هـ - ٣٠ مارس ٢٠٠٦ م العدد (١٢٢٣٦).
- (١٥) تقرير : الإعلام الغربي وتشويه حقائق الصراع، موقع مفكرة الإسلام الإلكتروني: <http://www.islammemo.cc>
- (١٦) انظر النقول الثلاثة في المصدر السابق.
- (١٧) (بتصرف يسير) صورة الإسلام في الإعلام الغربي، د. محمد بشاري، دار الفكر بدمشق، ط الأولى ١٤٢٥هـ، ص ، ١٥
- (١٨) المصدر السابق ص ، ٢٨
- (١٩) المصدر السابق ص ، ٣٩
- (٢٠) المصدر السابق ص ٤١- ، ٤٤
- (٢١) المصدر السابق ص ، ٦٩

دراسات في الشأن الإسلامي

- (٢٢) المصدر السابق ص ٧٠ ، ٧١
- (٢٣) الإعلام العربي - الأوروبي: حوار من أجل المستقبل، ص ٦٣
- (٢٤) المصدر السابق ٧٣ ، ٧٤
- (٢٥) آليات التضليل الإعلامي تتطلق عقب موت الزرقاوي/ تقارير مترجمة / موقع مفكرة الإسلام الإلكتروني: <http://www.islammemo.cc>
- (٢٦) المصدر السابق (بتصرف يسير) ١٤٩ - ١٥٢
- (٢٧) المصدر السابق ص ١٥٣ - ١٥٤
- (٢٨) الإعلام العربي - الأوروبي : حوار من أجل المستقبل، بحث: الإعلام العربي وقضايا الهوية والثقافة، د. قيس جواد العزاوي، ص ٧٣
- (٢٩) المصدر السابق، ص ٧٤
- (٣٠) المصدر السابق، ص ٧٦
- (٣١) المصدر السابق ص ٣٤
- (٣٢) المصدر السابق ص ٣٦
- (٣٣) الإعلام العربي - الأوروبي : حوار من أجل المستقبل، بحث: الإعلام العربي وقضايا الهوية والثقافة، د. قيس جواد العزاوي، ص ٧٧
- (٣٤) مقال/ الإعلام الغربي .. نظرة في أخلاقيات المهنة، موقع الشبكة الإسلامية: <http://www.islamweb.net>
- (٣٥) المصدر السابق.
- (٣٦) المصدر السابق.
- (٣٧) المصدر السابق.
- (٣٨) المصدر السابق.
- (٣٩) انظر هذه الصور في دراسة د. محمد بشاري ، صورة الإسلام في الإعلام الغربي، ص ١٥٤ - ١٥٧
- (٤٠) مقال/ أسباب أدت لتشويه صورة الإسلام في الغرب (٢/٢) ، أ.د. ناصر بن سليمان العمر / موقع المسلم الإلكتروني. <http://www.almoslim.net>
- (٤١) الغرب يقرأ عن الإسلام... وقفة تأمل، محمد جلال القصاص، موقع المسلم الإلكتروني. <http://www.almoslim.net>
- (٤٢) الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٤٧٣) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٣١٠).
- (٤٣) صورة الإسلام في الإعلام الغربي ، د. محمد بشاري ص ١٦٠
- (٤٤) المصدر السابق، ص ١٦٢
- (٤٥) انظر: المصدر السابق.
- (٤٦) مجلة المجلة ، العدد ١٣٧٣ ، ٠٤-١٠/٠٦/٢٠٠٦ م .
- (٤٧) مجلة المجلة ، العدد ١٣٧٣ ، ٠٤-١٠/٠٦/٢٠٠٦ م .
- (٤٨) جريدة الجزيرة السعودية، الأحد ٢٣ ربيع الآخر ١٤٢٧ هـ، ٢١ مايو ٢٠٠٦ م، العدد (١٢٢٨٨) .

دراسات في الشأه الإسلامي

المراجع

- أصول الإعلام الإسلامي د. إبراهيم إمام ، دار الفكر العربي، القاهرة.
- الإعلام الإسلامي المبادئ - النظرية - التطبيق. أ. د محمد منير حجاب ، دار الفجر ، القاهرة، ط الأولى ٢٠٠٢م.
- الإعلام الإسلامي ومتغيرات العصر ، محمد عبد الله السلامة، مكتبة التوبة بالرياض، ط الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- الإعلام العربي - الأوروبي : حوار من أجل المستقبل، مركز الدراسات العربي الأوروبي، البحرين، ط الأولى، ١٩٩٨م.
- الإعلام وسيلة ورسالة ، جون ميرل رالف ، لوينشتاين، تعريب د. ساعد خضر العرابي الحارثي. دار المريخ، الرياض.
- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير.
- جريدة الجزيرة السعودية، العدد (١٢٢٨٨). العدد (١٢٢٣٦).
- الشائعات في عصر المعلومات، مركز الدراسات والبحوث بأكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية بالرياض ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم
- صورة الإسلام في الإعلام الغربي، د. محمد بشاري، دار الفكر بدمشق، ط الأولى ١٤٢٥هـ.
- الفضائيات ما له وما عليها ، عادل محمد العبد العالي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، مؤسسة الجريسي ، الرياض.
- مجلة المجلة ، العدد ١٣٧٣ ،
- المعجم الأوسط للطبراني.
- موقع الشبكة الإسلامية: <http://www.islamweb.net>
- موقع المسلم الإلكتروني، <http://www.almoslim.net>
- موقع مفكرة الإسلام الإلكتروني: <http://www.islammemo.cc>

المواجهة الإعلامية في الرد على الإساءة للمقدسات الإسلامية

د. عثمان أبو زيد عثمان

رئيس التحرير لـ مجلة (الرابطة)



دراسات في الشأه الإسلامى

تقديم

أعقبت أزمة الرسوم الكرتونية المسيئة لقاءات في أماكن مختلفة من العالم، دفاعاً عن النبي ﷺ، ومن هذه اللقاءات على سبيل المثال؛ مؤتمر وزراء الإعلام العرب الذي أقر خطة لتحسين صورة العرب والإسلام في الغرب، ومنتدى الحوار العربي الأوروبي، وأيضاً ندوة العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب في قطر، ومؤتمر الحوار بين شمال المتوسط وجنوبه في الجزائر، ومنها مؤتمر (نحن والآخر) عقدته وزارة الأوقاف الكويتية، ومؤتمر نصرته النبي محمد ﷺ في البحرين. وبلغ عدد المناشط التي أمكن رصدها خلال أشهر قليلة نحو خمسة عشر منشطاً.

ولا يخفى أن العالم الإسلامي قد انشغل كثيراً بظاهرة (الخوف المرضي من الإسلام) في الغرب، إذ تصدت لها المنظمات الإسلامية بمناقشتها واقتراح التعامل المناسب معها، ففي ديسمبر من العام ٢٠٠٥م صدر عن منظمة المؤتمر الإسلامي بيان هام أكد ضرورة العمل الجماعي على إبراز حقيقة الإسلام وقيمه السامية والتصدي لظاهرة كراهية الإسلام وتشويه صورته وقيمه وتدنيس الأماكن الإسلامية، والعمل الفعال مع الدول والمؤسسات والمنظمات الإقليمية والدولية، وحثها على تجريم ازدراء الأديان باعتباره شكلاً من أشكال العنصرية، وندد البيان بالإساءة إلى صورة النبي محمد ﷺ في وسائل إعلام بعض البلدان، مؤكداً مسؤولية جميع الحكومات على ضمان الاحترام الكامل لجميع الأديان والرموز الدينية وعدم جواز استغلال حرية التعبير ذريعة للإساءة إلى الأديان.

أما البيان الختامي - للملتقى العالمي للعلماء المسلمين المنعقد في رحاب رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة (٣ - ٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ) - فقد استنكر "الهجوم على دين الله الخاتم عن طريق حملات إعلامية تتصاعد

دراسات في الشاهد الإسلامي

يوماً بعد يوم، تكيل له التهم الباطلة، وتشوه مبادئه العظيمة، ولا سيما ما تعرض له القرآن الكريم من امتهان وتدني في أكثر من مكان ومناسبة، وتطاول بعض الحاقدين على مقام النبي ﷺ خاتم الرسل، بتأليف كتب تشوه دعوته، ونشر رسوم تسخر من شخصه الكريم. وأشار البيان إلى ما تكفل الله سبحانه وتعالى به من الدفاع عن أنبيائه ورسوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأنعام: ١٠) وقال عز وجل مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر: ٩٥).

وطالب بيان الملتقى العالمي للعلماء المسلمين أن يتحمل الجميع مسؤوليتهم في الذود عن دين الله وعن كتابه الكريم ونبيه ﷺ بعلم وبصيرة وحكمة، ودعا إلى بيان محاسن الإسلام لغير المسلمين والتعريف بمبادئه العظيمة، والاعتزاز بالقرآن الكريم في كل مناسبة وفي كل مكان: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢).

ولا شك أن ما تمخضت عنه اللقاءات المختلفة حتى الآن من أفكار ومبادرات، تصلح أن تقدم مرشداً تطبيقياً لمواجهة أي موقف مشابه.

وتحاول الورقة المختصرة التالية، الربط بين مختلف الأفكار والمبادرات التي وردت في تلك اللقاءات، واقتراح تصور عملي لإدارة مواجهة الإعلامية في الرد على الإساءة للمقدسات، بالتركيز على أربعة عناوين، هي:

- ١- ما وراء التعدي الإعلامي على الإسلام.
- ٢- طبيعة المواجهة الإعلامية ؟
- ٣- مستويات المواجهة (الوقائية والعلاجية والتكميلية).
- ٤- الحاجة إلى مرشد تطبيقي لكسب المواجهة الإعلامية.

داسات في الشاه الإسلامي

أولاً: ما وراء التعدي الإعلامي على الإسلام:

يذكر كاتب هذه السطور أنه في عام ١٩٨٨ عندما نُشرت رواية آيات شيطانية، قرأ عنها وعن مؤلفها سلمان رشدي خيراً في صحيفة خليجية، «أن هذا المؤلف (المسلم) حاز على جائزة أدبية رفيعة»، ولم تذكر الصحيفة شيئاً عن مضمون الرواية. وعند عرض القصاصة على الأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس للسؤال عنها، إذ به يلقي نظرة على الخبر، ويرد ضاحكاً: إن إخوة من إنجلترا أرسلوا إليه هذه الرواية وطلبوا الاطلاع عليها وإبداء الرأي في أسلوب الرد عليها وعلى ناشرها وكاتبها. قال الدكتور جعفر: هذا شخص يسب ويشتم، ومن رأيي ألا يردوا عليه. واستطرد قائلاً: لكن هؤلاء الأخوة رأوا أن الأمر ربما يأخذ أبعاداً أخرى لأن الكاتب قد تمادى في الجرأة والوقاحة، وهناك من يشجعه على ذلك باعتبار أنه يمثل تحدياً للإسلام من داخله، والموقف لا ينبغي الإعراض عنه...

ما حدث بعد ذلك أصبح معروفاً للجميع. لقد شاهد الغربيون استنكاراً واسع النطاق لتلك "الآيات الشيطانية"، ولم يفهم الكثير من الغربيين لماذا ينضم إلى المحتجين أناس لم يقرؤوا الكتاب، ولو قرؤوه فإنهم غير مؤهلين للحكم عليه بأنفسهم.

لقد تكشفت أبعاد تلك الرواية لسلمان رشدي وروايات أخرى من تأليفه لم تأخذ نصيباً من الشهرة؛ مثل روايته عن باكستان بعنوان "العار" و "أطفال منتصف الليل" عن الهند. وقد علق على هذه الرواية فيما بعد الكاتب البريطاني هاليداي منوهاً إلى "أن يكون هناك قدر أكبر من الوعي بما يمارس من عنصرية وتحامل إثني - ديني عام ضد المهاجرين المسلمين في المجتمعات الأوروبية... وأن على أوروبا أن تعترف بإباحتها اضطهاد شعوب إسلامية أو التغاضي عنه، سواء في فلسطين أو في البوسنة"^(١).

إن الصراع على الإسلام يتخذ منذ سنوات أبعاداً مختلفة، ويبلغ الآن

دراسات في الشاه الإسلامي

ذروته بالتطاول على مقام النبوة وتدني المصحف الشريف. ويتكرر من بعض المسؤولين الغربيين عند تفسير كراهية الإسلام (الإسلاموفوبيا) أن العدا والكرهية ليس للإسلام وإنما للعناصر المتطرفة من المسلمين. لكن واقع الحال يدل على وجود عدا للإسلام، وإظهاره بمظهر التخلف والتطرف، ويوجد عمل منظم لتعميق الخلاف وتخريب أي مسعى للتفاهم والحوار.

قد نتفهم أن تكون صورة الإسلام مشوهة دائماً لدى الجمهور العام في الغرب بسبب الجهل، لكننا لا نتفهم مواقف بعض المؤسسات الرسمية والمدنية التي تدل على تعمد الصدام.

ذلك ما يشرحه الكاردينال مارتينو رئيس المجلس البابوي للعدالة والسلام بقوله: "إن أحد التحديات التي لا تزال تواجه الغرب هو الشعور بعدم وجود شريك متكافئ للحوار... لقد نمت غطرسة لدى الدول الغنية، فلم تعد تعرف احتراماً للحضارات الأخرى" (٢).

وقال موريس بوكاي في محاضرة ألقاها في اليونسكو سنة ١٩٨٠ "إنه لمن الصعب بالنسبة لغربي لا يحسن اللغة العربية ويعيش في بيئة لا تخفي عداوتها للإسلام أن تكون له فكرة دقيقة عن ماهية الإسلام، إذ إن ما تعلمه هذا الشخص وما سمعه في بلاده وما يقرؤه من مؤلفات، يسهم في تشويه صورة الدين الإسلامي، لأن الكثير من الذين يكتبون عن الإسلام لا يفهمونه إلا كما يشتهون أن يكون". ويستطرد المحاضر بالقول: "لما شرعت للمرة الأولى في دراسة القرآن راغباً التعمق فيه، كان لا بد أن أستعين بتراجم المستشرقين، غير أن ذلك للأسف لم يكن يفيد بشيء، إذ عثرت على عدة ترجمات للآية الواحدة، وعلى فروق تدل بوضوح على أن الاختلاف في المعنى يرجع سببه إلى المترجمين وإلى تأويلاتهم الخاطئة. وبعد ما تعلمت اللغة العربية على المستوى الذي يسمح لي بتلاوة القرآن وفهمه، تيقنت أن

داسات في الشأن الإسلامي

بعض النيات كانت تريده غامضاً عن قصد؛ إما لتشويه معناه، أو لتطويعه لوجهات نظر منحازة" (٣).

ومن يتعمق في مشكلة الرسوم الكرتونية في الدنمارك، يجد - كما يقولون - في الزوايا خفايا. كتب جيمس بتراس أستاذ علم الاجتماع في إحدى الجامعات الأمريكية، مستهلاً مقالاً له بالسؤال: "لماذا تم نشر هذه الرسوم في الدنمارك؟ ومن المستفيد من نشر هذه الرسوم وإذكاء نار المواجهة بين المسلمين والدول الغربية"؟

إن الصحفي فليمينج أو (المشعل) (٤) Flaming كما يتهم به الكاتب، لم يكن سوى صحفي موجه. أما الحادثة كلها فهي إحدى عمليات (الموساد) للدفع بأجندة صراع الحضارات بين العالم الإسلامي والغرب تحت ستار حرية التعبير.

يقول الكاتب: "إن الموضوع كله جزء من الصراع الدولي وحرب الأفكار، والمستفيد الأول منها هو إسرائيل، والغرض من الإساءة إثارة المزيد من المبررات للهجوم على بعض الدول الإسلامية". ثم يستعرض التحليل خطوات اختراق الموساد لوكالات المخابرات الدنماركية منذ القدم، وعلاقات العمل الوثيقة التي تربطها بوسائل الإعلام اليمينية المتطرفة. يقول: "ليس من المستغرب أن يكون هذا الصحفي يهودياً أو كرانياً يعمل تحت اسم فليمينج روز وتربطه علاقات عمل وثيقة بدولة إسرائيل وبحزب الليكود اليميني على وجه الخصوص" (٥).

إن في الغرب اتجاهات عنصرية ومنظمات معادية للإسلام تعمل بأسلوب منهجي للاعتداء على الإسلام، ومع أن هذه الاتجاهات تمثل الأقلية، فإنها أقلية متحكمة في مفاصل السلطة والمال واتخاذ القرار، وهي دوائر لها مصلحة في إضعاف الوجود الإسلامي في أوروبا وأمريكا، وتعمل على إذكاء جذوة الصراع، وكلما حقق المسلمون اعترافاً أو نجاحاً،

دراسات في الشاه الإسلامي

سوف تزداد هذه الأقلية عداوة.

ومن الإنصاف أن نذكر وجود دوائر تنظر إلى الأمور باعتدال ونزاهة، وقد وجدنا في إبان الأزمة الأخيرة من عبر عن رأي صائب بما كتبه في الصحف أو بما أظهره من المواقف (٦). ومن الخير ألا يكون هؤلاء موضع التجاهل منا أو أن نضعهم في درجة واحدة مع المناهضين، بل لعلهم واسطة عقد بيننا وبين الغرب.

إننا نشعر بفجوة في الإدراك عندما نناقش موضوع العلاقة بين الحضارة الغربية والإسلام، وكثيراً ما يقع الاستشكال بين نظرتين تبدوان كالقطين المتقابلين، إما هذا وإما ذلك.

يقرر البعض أن العلاقة بين الطرفين هي علاقة الصدام الحضاري، ويقول البعض الآخر بل هناك مشترك يفتح باب التفاعل المثمر على أساس الحوار الحضاري. ومن الطريف أن تكون النظرتان صحيحتين إلى درجة كبيرة. إن العلاقة بين الطرفين مثل أي علاقة، تحتل أن تكون علاقة صراعية أو تنافسية، أو علاقة تعايش. فهي علاقة الصدام والعداء لدى البعض، وهي علاقة الحوار لدى بعض آخر.

وهناك من يقف عند حدث أو تصريح معين، ويتساءل: هل ما يزال الحوار الحضاري ذا مغزى ومصداقية في ظل خطاب الأزمة الذي يتبادلته الجميع؟ والواقع أن بعض بلاد الغرب مثل أمريكا، أصبح لديها بتعبير - محمد حسنين هيكل - جيش خطر من المفكرين الذين احترفوا تهيج القوة الأمريكية واستثارتها حتى تندفع أبعد كل يوم على طريق الحرب. وفي المقابل لدينا في العالم الإسلامي جماعات ترفع طول الوقت رايات الحرب وتدق طبول القتال.

داسات في الشأن الإسلامي

ثانياً: طبيعة المواجهة الإعلامية:

هكذا تبدو ساحة المواجهة؛ فكرية وعلمية واقتصادية وسياسية، وقانونية، ناهيك عن المواجهة العسكرية التي نرى ضرام نارها في العراق وأفغانستان ولبنان، وبالطبع فهذه المواجهات جميعاً إنما تتقاطع في (ساحة الجمهور والرأي العام). وربما تكون ساحة المواجهة الإعلامية أكثر تعقيداً وصعوبة بسبب توزيعها وانتشارها، وضآلة الدور العربي والإسلامي في وسائل الإعلام والنشر في الغرب، وفوق ذلك فإن المجال الإعلامي في عالم اليوم هو المجال الأوفى للتلاعب المثير بالعواطف والجنس والعنف، والبحث عن الجديد في كل شيء بذريعة أن المستهلك يريد ذلك. وهو ميدان "السباق إلى تقديم كل حدث جديد (سكوب)، يستبعد أي تحليل أو أي تأمل نقدي، وأي ثقافة وفهم للحدث، فالمثير له الأولوية، والخبر الصحفي بدلاً من أن يساعد على الوعي بالاتجاهات الفكرية ويضعك في قلبها، ويبرز لك مسؤولياتك تجاهها، يبحث عن البيع وزيادة حجم الإعلان المترتب على ذلك. أن تحب زوجتك، هذا لا يهم أي شخص، لكن لو قتلتها لدخل الأمر في باب الحوادث ووجدت مكاناً في الصحيفة أو حصلت على عدد من الثواني في النشرة التلفزيونية، ولكن لو قمت بتقطيع زوجتك فسيزداد نصيبك من (التغطية) الإعلامية، أما لو أكلتها (كما فعل أخيراً شخص ياباني)، فهذا هو المجد الإعلامي" (٧)!

ووجد الإعلام الغربي في التعدي على الدين فرصة لمن يريد الظهور والتسويق حتى صار التناول على الأنبياء (موضة) إعلامية وفنية. يذكر أن المسلمين كانت لهم مواقف في المملكة المتحدة وتنظيم مظاهرات للاحتجاج عندما عرض فيلم (العشاء الأخير) المسمى للنبي عيسى عليه السلام.

والمسلمون لم ينتبهوا إلى أهمية الوسائل الإعلامية إلا مؤخراً جداً بعد أن فاض الطغح الإعلامي بما آذاهم وشوه صورتهم، فبدأوا في إنشاء مؤسسات

دراسات في الشاهد الإسلامي

إعلامية صغيرة بأمل أن تتطور في المستقبل فتصبح قادرة على توصيل رسالتهم وفكرتهم إلى الوسط الأمريكي العام.

وهم بحاجة إلى الارتقاء بنوعية الخطاب الإعلامي وقدرات التأثير بناء على دراسة نفسية الجمهور المستهدف، ذلك أن الأداء الإعلامي يتحدد أسلوب الخطاب فيه وفقاً للموقف، ويتطلب ذلك معرفة جيدة بالمجتمع الذي يوجه إليه الخطاب، واختيار المفردات التي تليق بقضية القضية وعظمتها، والتركيز على الموضوع، وعدم تشتيت الاهتمام عن القضية الأساسية بإقحام قضايا جانبية.

ومهما يكن الطرف المقابل غارقاً في السوء باستخدام البذاءة والسباب، فإن علينا أن ننأى عن الخطاب القائم على السباب والفحش في القول الذي ينم عن ضعف الحجة وعدم امتلاك أدوات المواجهة شكلاً وموضوعاً.

وقد يقال إن الدعوة إلى اجتناب الفحش من القول فيه مبالغة ومثالية، وعلى كل حال، فإن الموقف هو الذي يحدد كيف يكون الخطاب، وكما يقول العرب: لكل مقام مقال. وقد يتوقف ذلك أيضاً على المخاطب ومن نلقي إليه الخطاب، والسياق الذي يؤدي فيه الخطاب.

وما يلزم الرؤساء والقيادات والعلماء قد لا يلزم غيرهم. وفي شرح الآية ٢٧ من سورة النمل: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، قالوا: فيه أدب حسن لما يلزم العظماء من صيانة ألفاظهم عن مواجهة أصحابهم بمؤلم خطابهم عند احتمال خطئهم وصوابهم^(٨).

تروي كتب السيرة أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا أراد سفراً صحب معه سفيهاً، فقيل له في ذلك، فقال: يرد عنا أذى السفهاء^(٩).

يذكر أحد أساتذة جامعة هارفارد من المسلمين أن أحد الأئمة التحق بالدراسة في هارفارد وكان يحمل درجة علمية في الدراسات الإسلامية من إحدى الجامعات الإسلامية، سألته بعد انتهاء الدراسة: ما الذي أفدته من

داسات في الشاه الإسلامي

دراستك هنا؟ فأجاب: من أهم الأمور التي أفدتها من وجودي هنا التدرج على الأسلوب الأمثل في التحدث إلى المستمع الغربي.

ويعلق هذا الأستاذ على ذلك بالقول: إن معظم الأئمة الذين يحضرون للتدريس أو الدعوة في الولايات المتحدة الأمريكية يتكلمون إلى وسائل الإعلام بطريقة غير معهودة في الإعلام الغربي، ويستخدمون مفردات غريبة على الأذن الغربية. إنهم يقدمون بذلك الصورة الخاطئة والرسالة الخاطئة، وبالطبع فإن الإعلام الأمريكي يجب هذا النوع من المقابلات لتأكيد الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين.

ثالثاً: مستويات المواجهة:

الكيد لدين الله سلوك قديم مستمر، تتجدد أساليبه وتتعدد. يقول الله تعالى: ﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ (آل عمران، ١٨٦).

وما يصاب به المؤمنون من الكيد والأذى ليست شراً كله، وكما يقول الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (النور: ١١)، نزلت الآية تحديداً في حادثة الإفك.

وعسى أن تكون الأحداث الأخيرة المؤلمة في أوروبا قد كشفت أيضاً عن جوانب إيجابية. لقد كانت الإساءة طريقاً للإضاءة، فالكثير من الناس هناك يسمعون بالنبي ﷺ لأول مرة في حياتهم، وتزايد الفضول لدى الناس، فتسابقت وسائل الإعلام المتعطشة دائماً إلى الجديد للتعرف على هذا النبي وللتزود بالمعلومات الصحيحة عن الدين الإسلامي.

ونشأ من يسمونهم (خبراء الإسلام) الذين اجتهدوا أن يكونوا موضوعيين ما أمكنهم ذلك، مع أن الكثير منهم ارتدوا عباءة الخبرة دون معرفة كافية لافتقار أعمالهم إلى الدقة. وصارت مبيعات الكتب والأقراص المدمجة عن

دراسات في الشاهد الإسلامي

النبى صلى الله عليه وسلم تحقق أرقاماً كبيرة.

وأطلقت هذه الأزمة فاعلية الشباب المسلم في شتى أنحاء العالم، فأثبتوا حضوراً فاعلاً في منتديات الانترنت بالرسائل الالكترونية وتبادل المعلومات والتفاعل مع استطلاعات الرأي.

ويبعث على التفاؤل أن المساجد والمراكز الإسلامية في الدول الغربية جذبت المسؤولين وقادة الرأي بشكل لم يسبق له مثيل. كل ذلك أفرز خبرات متنوعة تمخضت من واقع الابتلاء والتدافع، وما تزال المواجهة سبباً في زيادة الوعي وحفزاً للفعالية وتحريكاً لطاقت المجتمع المسلم^(١٠).

ومن النتائج المباشرة للأحداث التي أفرزتها الإساءة، أن مقام النبي ﷺ لن يكون ساحة مستباحة للمغرضين، وسوف يحسب الإعلاميون وغيرهم بعد اليوم ألف حساب قبل الإقدام على شيء يمس المقدسات، لقد رأينا كيف أن إحدى الصحف الأسترالية أرادت منذ شهرين أن تشر رسوماً للنبي ﷺ وبادرت قبل ذلك إلى جس النبض باستفتاء القراء إن كانوا يؤيدون هذه الخطوة. وكانت النتيجة أن غالبية القراء اعترضوا عليها، وربما يكون المسلمون قد شاركوا بفعالية كبيرة في ذلك الاستفتاء، والأمثلة على ذلك كثيرة، نفضل فيها في السطور التالية.

ومهما يكن فإن ندوتنا هذه، قدمت مفردة ملائمة لتوصيف الواقع المراد، هي مفردة (المواجهة). فالمواجهة بأصلها اللغوي ليس فيها شيء من معاني المقاتلة والمنازعة^(١١)، مع أن الاستعمالات الحديثة في السياسة والإعلام ضمننتها ذلك المعنى.

المواجهة فيها مشاركة وحوار ومساومة من أجل تصحيح الأوضاع وإحقاق الحق. وتستدعي المواجهة مستويات وقائية وعلاجية وتكميلية، بحيث لا تتوقف عند حدود الدفاع، فتستغرقنا المواقف الدفاعية. إذا ما أصبح كل فعلنا "الرد على التهم دون وعي باليات المواجهة والتحكم بإدارتها، وقد

دراسات في الشأن الإسلامي

نتحول من أن نكون أحد أطراف الحوار إلى مجرد أداة للحوار وموضوعاً له، فنخضع لتحكم الآخرين بنا وبنشاطنا بحيث يصبح الزمام بيدهم، وتصير حياتنا رد فعل عفوي بعيداً عن الفعل المختار" (١٢).

ولعلنا نستعرض بعض الرؤى والأفكار التي وقفنا عليها من اللقاءات السابقة. وقد تضمنت ورقة عمل مقدمة من الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي إلى لجنة تنسيق العمل المشترك في ربيع الأول ١٤٢٤هـ، عدداً من تلك الأفكار والمقترحات المهمة ومنها:

- تنسيق الجهود بين مختلف المنظمات الإسلامية ومؤسسات الدعوة في سبيل التعامل المناسب مع الحملات الإعلامية المعادية للإسلام والمسلمين وخاصة في البلاد الغربية.
- التواصل المستمر مع المنظمات الدينية والمدنية في الغرب من أجل التحوار والتعاون، بما يكفل منع الإساءة للدين والحد من التعصب والكرهية بين الشعوب.
- تشجيع الطاقات الإعلامية الإسلامية في الغرب لتأسيس صحافة مكتوبة تتوجه إلى الشعوب الغربية بخطاب إعلامي موضوعي يتصدى للصحافة المعادية.
- عقد المؤتمرات والندوات المشتركة بين المراكز المتخصصة في الدراسات والبحوث في كل من الدول الإسلامية والغرب، لضمان حوار بناء ومستمر ونقل صورة الإسلام الصحيحة.
- وضع أسس لمشروعات عملية في مجال العلاقات العامة والحملات الإعلامية بالتنسيق بين المنظمات الإسلامية والمؤسسات الرسمية والشعبية.
- تشجيع الكتاب والصحفيين غير المسلمين المنصفين، وترسيخ العلاقة وجهود التعاون معهم.

دراسات في الشاه الإسلامي

- التصدي المباشر للكتاب والإعلاميين الذين يخرجون عن قواعد السلوك المتحضر بتحقيير الإسلام والمسلمين ورموزه، ورفع دعاوى قضائية مشتركة إذا لزم الأمر على غرار ما قامت به رابطة العالم الإسلامي ومنظمات أخرى في فرنسا ضد الكاتب الفرنسي ميشيل مولباك.
- إنشاء قنوات فضائية باللغات العالمية لتوجيه خطاب دعوي باستخدام حرفية عالية مع أحدث وسائل التقنية.

هذه الأفكار وأمثالها تجد طريقها للتنفيذ العملي في النشاط الذي تقوم به رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع المنظمات والمراكز الإسلامية في العالم. وهناك منظمات وهيئات كثيرة دفعتها الأزمة إلى تطوير برامجها وأقسامها الإعلامية، وما تقوم به منظمة (كير) نموذج ومثال. فقد تبنت هذه المنظمة مشروعات كبرى لتوضيح صورة الإسلام والمسلمين، وانتظمت في عمل إعلامي بمواصفات الأداء الأمريكي في العلاقات العامة والاتصال، فقامت بإهداء الكتب إلى آلاف المكتبات العامة، ونشرت إعلانات مدفوعة الثمن بالجرائد الأمريكية الكبرى، وما تزال تتصدى بالرد وتنظيم الحملات وإرسال حزم من الوثائق التصحيحية، واللجوء إلى القضاء بعد استفاد جميع الخطوات في طلب الاعتذار وحق الرد والتصحيح، على الرغم من التكلفة الباهظة خاصة في حالة المطالبة بتعويضات من الطرف المسيء.

وأدركت منظمة (كير) أن ليس في مقدور المسلمين بالطبع أن ينشئوا مؤسسات إعلامية تضاهي المؤسسات المتخصصة القائمة في الوقت الحاضر، وأن بإمكانهم الرد والتعقيب وانتهاز كل فرصة متاحة لتقديم معلومات إيجابية، والغمز من قناة الإمبراطوريات الإعلامية الكبرى وكشف خبيثتها لمستهلكي المواد الإعلامية الغافلين. هذا أقل واجب يتصدى له المسلمون دفعا للباطل وانتصارا للدين. والإعلام الأمريكي ليس كتلة صماء، فقد تتنوع مواقفه تعبيراً عن المصالح المتضاربة وتوازنات قوى الضغط، وهو

دراسات في الشأن الإسلامي

إعلام منفتح على الجمهور، يستجيب لضغوط الرأي العام ويتروى ويحاذر.

وهناك جوانب ضعف في هذا الإعلام هي ولعه بالفورية وتبسيط القضايا وتسارعه في إلقاء الأحكام. وذلك مما أدى إلى ضعف ثقة الجمهور العام في الإعلام ومصادره، مما يعطي فرصة للرد والتصحيح والمبادرة إلى الكتابة في الصحف وإجراء الأحاديث في التلفزيون. يذكر جيمس زغبي في لقاء أجري معه أنه لم يفشل مرة واحدة في الحصول على فرصة للحديث عبر التلفزيون، ولا شك أن المجال مفتوح لمن يقدم وجهة نظره في اعتدال مراعيًا قواعد العمل الإعلامي (١٣).

وقد يكون من المناسب التنويه باهتمام بعض الدوائر بنشاط العلماء المسلمين الناشطين في مجال الاتصال الإعلامي، إذ يخضع كل شيء يصدر عن هؤلاء العلماء للرصد والتحليل الدقيق من قبل تلك الدوائر الأكاديمية وغيرها (١٤). ترى هذه البحوث والتقارير أن النشاط الإسلامي بات ملموساً عبر بلدان الانتشار. ومع نمو وسائل الإعلام الجماهيرية التي تساهم اليوم في تعديل تنظيم الحركات الدينية العالمية والعلاقات القائمة بين المهاجرين وبلدانهم، يبرز أفق جديد وخيال جديد ومثقفون جدد. وتميل هذه البحوث العلمية إلى تشبيه النشاط الإعلامي الإسلامي بعمل الكنيسة الكاثوليكية في سعيها إلى إقامة جماعة دينية عالمية لها مؤسساتها السياسية والاقتصادية والقانونية، بدمج واستيعاب الوسائط التقنية واعتماد بعض النظم العصرية مع بقائها في الحيز الديني.

وعلى مستوى المنظمات الدولية يتحقق جهد مناسب، يحدثنا الدكتور مصطفى المصمودي عن الجهود الذي بذله الخبراء في المناقشات والمداورات عند انعقاد قمة مجتمع المعلومات في تونس (نوفمبر ٢٠٠٥)، وقد استعر خلاف حول موضوع البعد الأخلاقي لمجتمع المعلومات، وحول التنوع الثقافي؛ احترامه أم تعزيره، وتجلي الخلاف على نحو خاص في إثبات الحق لرفض

دراسات في الشاه الإسلامي

القيم التي تتنافى مع الأخلاق أو الاعتبارات الدينية وتشويه الأديان.

لقد أمكن إثبات هذا الحق، ولكن ذلك الأمر استوفى جهوداً مضنية في المداولات التحضيرية للقمة، وسوف يحتاج المسلمون إلى جهد مماثل لإقرار قانون دولي يجرم الإساءة للأديان والمقدسات بعد أن وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على القرار بتجريم ازدراء الأديان في ديسمبر ٢٠٠٥م بأغلبية ١٠٢ صوتاً.

رابعاً: الحاجة إلى مرشد تطبيقي لكسب المواجهة الإعلامية:

لا شك أن المهم تحويل الأفكار والمبادرات التي وردت سابقاً إلى خطط وبرامج عمل، وبما أن مجال تقديمها ليس معنيا بالتفاصيل، فنكتفي ببعض المؤشرات العامة لما هو مطلوب، مؤكداً ضرورة اتخاذ مرشد تطبيقي للأداء الإعلامي عند وقوع أزمات مشابهة.

١- ليس كل إساءة تستحق الرد، فهناك الكثير من الترهات تطفح بها وسائل الإعلام كل يوم، تصدر من أغرار لا وزن لهم، فيحسن الإعراض عن أمثالهم، وكما يقول الشاعر:

لو كل ذئب عوى ألقمته حجراً لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

الاعتداءات الكثيفة التي كانت على النبي ﷺ ودعوته أول البعثة، لم يرد عليها القرآن جميعاً، إنما كان الرد على النفر الذين آذوا النبي عليه الصلاة والسلام ممن لهم أثر في قومهم، ومن كان الإيذاء منهم عملاً مستمراً مؤثراً مثل إيذاء أبي لهب وزوجته حمالة الحطب، تلك المرأة سليطة اللسان التي كانت تبسط لسانها وتطيل الافتراء.

رد القرآن الكريم على الأخنس بن شريق وأمية بن خلف وأبي جهل، وهؤلاء جميعاً كانوا من ذوي الزعامة في قريش، وكانت أعمالهم جزءاً من حرب متطاولة على الدعوة الإسلامية.

دراسات في الشأن الإسلامي

٢- إن التعرف على الواقعة المهمة ذات الخطر يتأتى بالرصد الدقيق، ثم بالتحليل بغرض الفهم وتقدير الموقف المناسب، فقد تكون واقعة معزولة لا خطورة منها، فنتجاهلها، أو قد يظهر غير ذلك فيتأتى التعامل المناسب مواجهة محدودة أو شاملة بما يقتضي الموقف.

ويجب أن يتشارك في تقدير الموقف ذوو الرأي من المشتغلين بالدبلوماسية والعمل السياسي والأمني والاستراتيجي. ردود الأفعال غير المدروسة التي تفتقد الرصانة والحس الثاقب تحول دون إنجاز مهمة الدفاع عن الإسلام.

٣- هناك قضايا شائكة تحتاج إلى رأي جماعي، وهي - بحمد الله - موضع عناية من الجامع الفقهيّة، مثل علاقة المسلم بغير المسلم، وحرية التعبير، والجهاد، وقضايا المرأة، وغيرها مما تحتاج إلى بسط القول في ضوء دراسات علمية مؤصلة بأسلوب سهل باللغات العالمية وتوفيرها بكل وسائل النشر.

٤- عقد صلات مع مراكز البحث العلمي في الغرب، وتزويدها بالجديد والمميز من الدراسات والبحوث.

٥- التخفيف من لغة الخطاب السياسي في بيانات العلماء، فالاعتماد على الرؤية الشرعية الهادئة أكثر التصاقاً بحياة الناس وواقعهم في البلاد الإسلامية والغربية على حد سواء.

٦- ضبط المصطلحات وتحديد المقصود منها، خاصة المصطلحات التي أسيء فهمها كالجهاد والإرهاب والاحتلال والاستشهاد ونحو ذلك.

٧- لم يعد من الممكن التفريق بين خطاب محلي وخارجي، فما يقال في درس خاص داخل مسجد أو مجلس خاص، يصل إلى أقاصي الدنيا في دقائق أو ساعات معدودة.

دراسات في الشَّاه الإسلامي

٨- على العلماء والشخصيات الإسلامية العامة أن يتخذوا جانب الحذر عند التعامل مع الوسائل الإعلامية، وأن تنشئ كل شخصية إسلامية مهمة مكتباً إعلامياً، أو تتخذ مستشاراً إعلامياً متمرساً ليعرف خلفيات كل وسيلة إعلامية تريد الحديث معه، وخلفيات الإعلامي نفسه وتاريخه المهني وتوجهاته، وجدوى الحديث معه. وينطبق هذا من باب أولى على المؤسسات.

٩- تنمية القدرات المهنية بأن يحضر العلماء دورات متخصصة في التعامل مع وسائل الإعلام، بدءاً من اختيار مكان اللقاء ومروراً باللبس والهيئة الشكلية وطول المقابلة والمواد المعدة لها، ونحو ذلك مما لها تأثيرات سلباً وإيجاباً، ويمكن إعداد كتيبات موجزة لهذا الغرض توزع على العلماء والشخصيات التي يتصل بها الإعلام الغربي باستمرار^(١٥).

١٠- عدم الاكتفاء بالبعد التربوي والتعليمي في الإعلام الديني - على أهميته - وصياغته وفقاً لمواصفات الإعلام الاجتماعي من حيث المهارة الفنية وتلبية حاجات متلقي الرسالة الإعلامية.

١١- التركيز على المتابعة المستمرة لمقررات اللقاءات والمؤتمرات والندوات العلمية، بحيث لا يُكتفى بما يتحقق من نجاح ظرفي، وإيجاد آليات تنفيذية ملائمة لتطبيق مقرراتها.

١٢- تفعيل دور الباحثين، وإيلاء عناية أكبر بالإنفاق على البحث العلمي والمراكز المتخصصة لمواكبة القضايا المستجدة في العالم، واكتساب مقتضيات الرقي العلمي.

١٣- تعزيز مسعى مسلمي الغرب ومؤسساتهم في تشجيع الحوار الحضاري والثقافي، وإدراك دورهم في بناء هذا الواقع، والقيام بالدور الإسنادي للأقليات المسلمة أينما وجدت..

داسات في الشأن الإسلامي

١٤- أن يمضي العالم الإسلامي في خطوات الإصلاح الذاتي بإرادة وفاعلية،
وتقديم النموذج الحي للإسلام في هذا العصر.

وأخيراً:

لا يسعنا إلا تأكيد روح التضامن والتعاون بين الشعوب المسلمة بواسطة
منظمتهم وحكوماتهم، على أمل أن لا تكون الإنجازات المتحققة مجرد
استجابة عارضة لظرف معين.

وإن لنا في واقعة الدنمارك لعبرة؛ ففي لحظة تاريخية أصبح المسلمون
على قلب رجل واحد، لا حزبيات ولا عنصريات ولا طائفيات، بل ولاء عام
للإسلام.

المأمول أن يستمر هذا التضامن لما فيه الخير للجميع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات في الشاه الإسلامي

الهوامش

- (١) فريد هاليدي، الإسلام والغرب: خرافة المواجهة، دار الساقى، بيروت، ط ١، ١٩٧٩.
- (٢) انظر هانس ديتريش جنشر وزير الخارجية الألماني الأسبق، من مقال له تعليقاً على أزمة الرسوم الدنماركية بعنوان: حرية التعبير هامة - واحترام الآخرين أيضاً، الجريدة الالكترونية الألمانية، ٢٧ فبراير ٢٠٠٦ .
- (٣) مصطفى المصمودي في بحث مقدم إلى ندوة (أثر الإعلام في تحقيق الوحدة الإسلامية) في رابطة العالم الإسلامي، ربيع الأول ١٤٢٧هـ.
- (٤) اسم فليمينج يشبه الكلمة في الإنجليزية Flaming بمعنى (مشعل).
- (٥) انظر موقع اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ICSFP.com
- (٦) لعل هذه الورقة تحمل أمثلة من هذه الاتجاهات المعتدلة.
- (٧) روجيه جارودي ، كيف نصنع المستقبل، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢ .
- (٨) المصباح المنير، ٢/ ٥٢٨.
- (٩) نقلاً عن كلمة للدكتور عبد الله المصلح وردت في مجلة الإعجاز العلمي، جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ.
- (١٠) هذه المعلومات مستقاة من تقارير المراكز الإسلامية. يذكر الأستاذ عبد الباقي سيد أحمد مدير المركز الإسلامي في ريودي جانيرو أن وسائل الإعلام في البرازيل أجرت معه خمسة وخمسين لقاء، ووجد المركز الإسلامي حاجة إلى تقديم المشورة الفنية للمنتجين الإعلاميين، وأقام دورة تدريبية للإعلاميين والممثلين والمحامين وأساتذة الجامعات للتعريف بالإسلام، وكان ذلك مدخلاً لاعتناق كثير منهم الإسلام.
- (١١) المعاجم، المواجهة استقبال الشيء بوجهك عياناً وكفاحاً وليس من وراء القفا.
- (١٢) مقال للدكتور حسن عزوزي، مجلة الرابطة.
- (١٣) انظر الوجود الإسلامي في أمريكا، محمد وقيع الله أحمد وعثمان أبوزيد، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٦هـ.
- (١٤) على سبيل المثال: د يوسف القرضاوي: سلطة إعلامية واقتصادية ورمزية، إرميتي مارياني، بحث مقدم في حلقة دراسية مخصصة لموضوع العولمة ووسائل الاتصال الجديدة في العالم العربي، ليون، فرنسا. وأيضاً بحث ديفيد كابلان معركة الدولار لكسب القلوب والعقول ٢٠٠٥، الموقع الإلكتروني لجامعة ليدز.
- (١٥) الفقرات من (٣) إلى (٩) أخذت بتصريف من ورقة عمل مقدمة من الدكتور أحمد سيف الدين تركستاني المقدمة إلى ندوة (أثر الإعلام في تحقيق الوحدة الإسلامية) رابطة العالم الإسلامي، ربيع الأول ١٤٢٧هـ.

أثر مقاصد الشريعة في تعميق الوعي الحضاري

د. مسفر بن علي القحطاني

رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الملك فهد للبترول والمعادن



دراسات في الشأه الإسلامى

المقدمة

تعيش الأمة الإسلامية تقارباً عظيماً مع الأمم والثقافات العالمية الأخرى نتيجة التطور الهائل في وسائل الاتصال وأدوات التواصل المعرفي، وأصبحت حضارات الأمم الأخرى، بما لها من تأثير إعلامي وهيمنة فكرية واقتصادية وسياسية تستحوذ على مجريات التغيير والتأثير في مجتمعاتنا الإسلامية بواسطة المد العولمي بكل أدواته المعاصرة، فبرزت في الأمة أجيالٌ انبهرت بالحضارات والقيم الغربية على وجه الخصوص، وضعف الأثر الديني والقيمي في أنفسهم فكان لزاماً أن تقوم المؤسسات العلمية والمجتمعية بإعادة التأهيل لعقل المسلم والمحافظة على دينه وقيمه بالعودة الصادقة الواعية إلى الرسالة الحضارية للإسلام والتي يمكن أن تقدم دوراً رائداً في بعث الأنفس والعقول نحو مدارج التحضر والعمران البشري من جديد .

والوعي الحضاري لم يحظ منذ زمن باهتمام معرفي وتأسيلي لمفاهيمه وأدواته التنفيذية سواء أكان هذا الاهتمام عن طريق التدريس أم التصنيف أم التنزيل على واقعنا المعاش، وأهم منحنى لرفع مستوى الوعي الحضاري لدى مسلم اليوم وتأهيل ثقته بدينه كعلاج لكل أزمات المجتمع والحياة ؛ هو بالعودة إلى مقاصد التشريع الإسلامي وإعادة قراءة الأحكام الفقهية في ضوء هذه المقاصد .

دراسات في الشاه الإسلامي

- تمهيد حول مقاصد الشريعة الإسلامية وأهميتها .

مقاصد الشريعة هي المعاني والأهداف الملحوظة للشرع في جميع أحكامه أو معظمها وهي الغاية التي من أجلها وضعت أحكام الشرع .
وقد ثبت بما لا يجد مجالاً للشك (أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً)(١).

إما بجلب النفع لهم أو لدفع الضرر والفساد عنهم ، كما دل عليه استقراء الشريعة في جميع تصرفاتها بما يثبت أنها وضعت لمصالح العباد ، كقوله تعالى : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ٦٥) وكقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ومن استقراء علل الأحكام المعروفة أو أدلة الأحكام المشتركة في العلة تبين كذلك أن العلة تلك بمعناها العام هي مقصد الشارع ومدار أحكامه .
كما في قوله تعالى بعد آية الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ (المائدة: ٦) ، وقوله تعالى في آية الصيام : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥) وقوله تعالى في الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (البقرة: ١٨٣).

إلى غيرها من الحكم والغايات المناطة بالأحكام ، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : (وإذا دل الاستقراء على هذا وكان في مثل هذه القضية مفيداً للعلم فنحن نقطع بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة)(٧).

وهكذا يوجد في كل حكم أمور ثلاثة :-

١. الوصف الظاهر المنضبط وهو العلة.

٢. وما في الفعل من نفع وضرر ويعبر عنه بالمصالح والمفاسد أو حكمة

التشريع.

داسات في الشاه الإسلامي

٣. وما يترتب على التشريع من جلب منفعة أو دفع مضره ويسمى مقصد التشريع (٣).

وهذه سمة ملازمة لكل أحكام الشرع ، فما من حكم إلا وقد قُرر لرعاية مصلحة أو درء مفسدة ، وإخلاء العالم من الشرور والآثام ، مما يدل على أن الشريعة تستهدف تحقيق مقصد عام ، ألا وهو إسعاد الفرد والجماعة ، وحفظ النظام وتعمير الدنيا بكل ما يوصل البشرية إلى أوج مدارج الكمال والخير والمدنية ، فالتشريع كله جلب مصالح ، فما طلبه الشرع محقق للمصلحة إما عاجلاً أو آجلاً ، والمنهيات كلها مشتملة على دفع المفسد والمضار .

فإذا كانت مقاصد الشريعة بهذا الشمول والعموم من الهيمنة على أحكام الشريعة وارتباط التشريع بها في كل جزئياته، كانت معرفتها بالتالي أمراً ضرورياً على الدوام ولكل الناس .

فالعامي يلحظ بها حكمة التشريع وأسرار الأمر والنهي مما يزيد يقيناً وإيماناً وعلماً وعملاً، والفقيه يراعي مقاصد الشرع عند الاستنباط وفهم النصوص والنظر في أحكام الشرع، فإذا أراد معرفة حكم واقعة من الوقائع احتاج إلى فهم النصوص لتطبيقها على الوقائع وإذا أراد التوفيق بين الأدلة المتعارضة استعان بمقصد التشريع، وإن دعت الحاجة إلى بيان حكم الله في نازلة مستجدة عن طريق القياس أو الاستحسان وغيرها، تحرى بكل دقة أهداف الشريعة ومقاصدها .

وهكذا لا تنقضي الفوائد والأسرار التي يجنيها الفقيه والمجتهد من مراعاته لمقاصد الشريعة عند بحثه ونظره في الأحكام (٤).

وهذا ما دعا الشيخ ابن عاشور - رحمه الله - إلى تأليف كتابه القيم (مقاصد الشريعة الإسلامية) حيث قال في مقدمته : (هذا كتاب قصدت منه إلى إملاء مباحث جلية من مقاصد الشريعة الإسلامية والتمثيل

دراسات في الشاه الإسلامي

والاحتجاج لإثباتها، لتكون نبراساً للمتفقهين في الدين ومرجعاً بينهم عند اختلاف الأنظار وتبدل الأعصار ، وتوسلاً إلى إقلال الاختلاف بين فقهاء الأمصار، ودربة لأتباعهم على الإنصاف في ترجيح بعض الأقوال على بعض عند تطاير شرر الخلاف حتى يستتب بذلك ما أردناه غير مرة من نبذ التعصب والفيئة إلى الحق، إذا كان القصد إغاثة المسلمين ببلاثة^(٥) تشريع مصالحهم الطارئة متى نزلت الحوادث واشتبت النوازل ، وبفصل من القول إذا شجرت حجج المذاهب وتبادت في مناظرتها تلکم المقانب^(٦)(٧).

وهذا المسوّغ لابن عاشور - رحمه الله - في التأليف في هذا الفن قد سوّغ لأئمة أعلام قبله الإشارة لأهمية هذا الفن والتنبية على حاجة الفقيه له ، أشهرهم : الإمام الجويني^(٨) - رحمه الله - والغزالي - رحمه الله^(٩) ، والعز بن عبد السلام^(١٠) وتلميذه الإمام القرافي^(١١) - رحمهما الله - وشيخ الإسلام ابن تيمية^(١٢) وتلميذه ابن القيم^(١٣) - رحمهما الله .

ولكن لما جاء الإمام الشاطبي رحمه الله أظهر هذا العلم وأبرز قواعده وأسهم في تأصيله وبيان أحكامه حتى أصبح كتابه (الموافقات) مرجع هذا العلم ومقصد العلماء فيه، بالإضافة إلى تخصيصه للمقاصد جزء من كتابة الموافقات لم يسبق إليه أحد ، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عن المسلمين كل خير^(١٤).

ونظراً لما سبق ذكره من أهمية علم المقاصد الشرعية للمجتهد والناظر في النوازل، أدرجنا هذا المبحث ضمن الطرق التي تعرّف الفقيه بأحكام النوازل المعاصرة ، وقد ختمنا هذا الفصل الذي تناولنا فيه طرق التعرف على النازلة بهذا المبحث نظراً لأهمية معرفة المقاصد واعتبارها وعدم الخروج عما يدفعها ويناقضها، وذلك في جميع الطرق المعرّفة لأحكام النوازل سواء كانت الأدلة أو القواعد أو التخريج على أقوال أئمة المذاهب .
يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله - في وجوب موافقة قصد المكلف من

داسات في الشاه الإسلامي

عمله قصد الشارع سواءً، أكان متعلماً أم مجتهداً : (قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة .. والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله ولا يخالف ما قصد الشارع)(١٥).

يقول الشيخ عبد الله دراز(٢١) - رحمه الله - في بيان موافقة المجتهد في عمله لمقصد الشارع : (أما بالنسبة للمجتهد بوجه خاص ؛ فإن عليه أن يحدد المقصد الشرعي في حكم كل مسألة على حده، ليتمكن من تبين صحة أو دقة اندراجها في المقاصد العامة للتشريع التي اتجهت جملة التكاليف إلى تحقيقها اعتباراً للجزئي بالكلي، وهذا لون من الجهد العقلي الاجتهادي)(١٦).

فهذا النظر المقاصدي من المجتهد يعتبر ضابطاً لكل أنواع الاجتهادات التي تستنبط بها الأحكام، ولعلنا في ضوء المطالب القادمة أن نسلط بعض الضوء على أهمية المقاصد الشرعية في تعريف المجتهد بأحكام النوازل المعاصرة.

- المقصود بالوعي الحضاري :

من المقرر أن الله عز وجل كرم الإنسان على سائر خلقه بالعقل المدرك والروح الواعية وجعله محور الرسالات السماوية وميزه في الخلق والخلق. قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠) وانطلاقاً من هذا التشريف جاء التكليف الرباني للإنسان بمهمة العبادة لله عز وجل والعمارة للأرض، وأي خلل في أداء الإنسان لهذين الأمرين يؤدي إلى أن تصبح حياته مضطربة قلقة وعيشه في ضيق وضنك.

وبناءً على ما سبق ذكره من تمهيدٍ نُسلم بحقائقه ونشهد بوقائعه .. فإننا نجد أن المجتمعات في مسيرتها التاريخية إنما تتطور وتنمو وتقوى بفعل

دراسات في الشاهد الإسلامي

الإنسان ونضجه وتماز وعيه بهدفه الحقيقي في الحياة وبإعماله سنن القوة والنصر والتمكين في الأرض.. ولا تتهار الأمم والمجتمعات أو تضعف وتتلاشى إلى العدم أحياناً إلا بسبب غياب أو انحراف معنى ذلك الوجود الإنساني.. وهذا هو سر الحضارة عند قيامها أو انهيارها .

ومن أجل تكييف هذا القصد وبيان أهمية هذا الوعي الحضاري يجدر بنا أن نسقطه على واقع أزمتنا الراهنة التي تعيشها مجتمعاتنا الإسلامية من جراء تلك الحوادث الإرهابية وذلك التطرف الفكري المأزوم و التردّي المدني في وسائل النهوض الحضاري، لنقف على حقيقة الخلل الواقع ولا نتشاغل بالعرض عن توصيف المرض.. إن الفترات الماضية بحوادثها الخالية التي مرت بالأمة ألفت في روعنا نمطاً من التفكير جعلت آخر ما نفكر فيه عند حدوث أزمة ما، أن نلوم ذواتنا أو نبادر في إصلاحها، بل إننا عادة ما نهمس تأثير أنفسنا فيما يحدث بنا من مشكلات؛ مع أننا نؤمن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ٣٢) ونقرأ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥). إن أزمتنا الراهنة في جميع المجالات الحياتية سواء أكانت أمنية أم فكرية أم اقتصادية أم غيرها هي (أزمة وعي) في فهم الدين وفقه التدين، وخلل في معرفة الفرد بواجبات وحقوق الانتماء للمجتمع وإدراك رسالة الإسلام الحضارية للعالمين، بالإضافة إلى تلك الغشاوة المزمنة التي أفقدتنا رؤية المدخل الحضاري بالولوج في أزقة الوهن والولوغ في حضارات الوهم والعيش في هدم الماديات.

إن الوعي الحضاري الشامل لحاجات الإنسان والمجتمع هو رهان المستقبل للأمة المسلمة مهما بلغت من ذبول مادامت الأمة تملك نبع الحياة وأكسير النصر..

داسات في الشاه الإسلامي

ومع هذه الأهمية القصوى للوعي الحضاري.. لا بد من تحرير هذا المصطلح وبيان مفهومه وحقيقته ليتضح المقصود منه ويتمهد فهمه للتطبيق والعمل .
ف(الوعي) من المصطلحات التي شاع استعمالها نتيجة للتطور الواسع في استخدامها كما يظهر في مجالات شتى خصوصاً في القضايا الفكرية والثقافية .

وبالرجوع إلى أهل اللغة في بيان معنى الوعي.. يقول ابن فارس: "الواو والعين والياء: كلمة تدل على ضم الشيء.. ووعيتُ العلمَ أعياه ووعياً . وأوعيت المتاع في الوعاء أوعية.."(١٨) وهذا ما نجده أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٢) وقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (المعارج: ١٨) وهي هنا بمعنى الجمع والحفظ .

وفي مرحلة لاحقه صارت الكلمة تستخدم بمعنى الفهم وسلامة الإدراك وكان علماء النفس في الماضي يعرفون الوعي بأنه: "شعور الكائن بما في نفسه، وما يحيط به"(١٩) ومع تقدم العلم وتعدد المصطلحات والمفاهيم أخذ مدلول (الوعي) ينحو نحو العمق والتفرع والتوسع، ليدخل العديد من المجالات النفسية والاجتماعية والفكرية. ويمكن ضبط معناه بأنه "الإدراك العقلي الواضح بمتطلبات العمل الناجح " وبالتالي فإن أي مشروع إنساني لابد أن يسبق بتفكير موضوعي يضمن سلامته وتوافقه مع سنن الحياة. والوعي المجرد من العمل - في وجهة نظري- سفسطة وخيال .

أما مصطلح (الحضارة) فهو من المصطلحات التي تختلف مدلولاتها من ثقافة إلى أخرى ومن تداولات تحكمها البيئات المختلفة .

فالحضارة في اللغة العربية مأخوذة من الحاضرة وهي ضد البادية وفي الإنجليزية (civilization) تعود إلى الجذر اللاتيني (civites) وتعني المدنية، فالعنيان متقاربان في اللغتين من حيث الجذر(٢٠)، إلا أن ابن خلدون وهو من أوائل من استخدم هذا المصطلح جعل الحضارة هي: "غاية العمران ونهاية

دراسات في الشاه الإسلامي

لعمره وأنها مؤذنة بفساده" (٢١) فالحضارة عند ابن خلدون تعني غاية المبالغة في التحضر و نهاية عمر الترف المادي المؤذن بعدها بالانحطاط ، وهذا المعنى يختلف مع المعنى الذي يقصده المعاصرون .

يقول ويل ديورانت: " الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق".

فمعنى الحضارة عند ديورانت هو كونها حضارة حادثة على الإنتاجية بصرف النظر عن مستواها . أما تايلور فنجد لا يحد مستوى الحضارة بحد سوى التقدم اللامتناهي . حيث يقول في تعريفها: "هي درجة من التقدم الثقافي تكون فيها الفنون والعلوم والحياة السياسية في درجة متقدمة"

إلى غير ذلك من التعريفات التي تتفاوت حسب الخلفيات المعرفية والتاريخية والعقائدية في النظر إلى الحضارة ، وبشكل عام هناك من وسع مفهوم الحضارة ليشمل كل أبعاد التقدم وهو اتجاه بعض المفكرين الفرنسيين وهناك من جعله قاصر على نواحي التقدم المادي مثل أصحاب الفكر الألماني وهناك من جعله مرادفاً لمفهوم الثقافة .

أما المفكر الإسلامي مالك بن نبي فقد استطاع أن يعطي مفهوماً ديناميكياً للحضارة يتحدد في ضرورة " توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه" (٢٢).

فحقيقة الحضارة عند مالك بن نبي وكثير من المفكرين هي أعم من العمران المادي ؛ وهذا ما دعا البعض للتمييز بين مصطلح (الحضارة) ومصطلح (المدنية) باعتبار الاشتباه اللغوي بينها، فالمتحضر هو الذي يسكن

داسات في الشاه الإسلامي

الحواضر، والمتمدن هو الذي يسكن المدن، لكن حين وجد كثير من المفكرين والباحثين أن ارتقاء حياة الإنسان ذو بعدين أساسيين: بُعد شكلي وبعُد داخلي. رأوا أن يطلقوا مصطلح (المدينة) على ما يتم من ارتقاء في مضامين الحياة الحضرية، ومصطلح (الحاضرة) على الارتقاء الشكلي الذي يتمحور حول وسائل العيش وأدوات الإنتاج وطريقة تنظيم البيئة - وليس هذا بمطرد عند الكل - .

وفي المذهبية الإسلامية التي ننظر من خلالها للكون والحياة هناك اهتمام بمسألة التفريق بين المدنية والحضارة.

فقد ذم الله عز وجل أمما وأقواماً قطعوا أشواطاً في العمران، واستخدام الموارد، وتصنيع الأدوات، لكن عتوهم عن أمر الله تعالى وفساد مضامين نظمهم العمرانية، تسبب في هلاكهم وإبادتهم. وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٣).

وقص علينا ما بلغه قوم ثمود من الارتقاء والقوة: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٧٤) لكن القوم كفروا وأعرضوا عما قاله لهم أخوهم صالح فكانت النتيجة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (الإعراف: ٧٨).

وفي المقابل فإن المدينة المنورة التي شهدت أول مجتمع إسلامي، لم تكن في أوضاعها المدنية تتجاوز ما عليه قرية صغيرة في أي بلد من بلدان العالم الثالث اليوم. لكن ذلك المجتمع كان حسب المقاييس المدنية - وهي شبه عامة - يشكّل قمة التمدن والرقى الخلقي والسلوكي والعلائقي. ففي المجتمع المدني كانت الأهداف الكبرى واضحة، والغايات مشرقة، وقد بلغ من

دراسات في الشاه الإسلامي

وضوحها وسيطرتها على النفوس أن كان المسلمون - حتى الأطفال - يتسابقون إلى نيل شرف الشهادة على نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ، وكان من المسلمين من يعمل ويجتهد ليتصدق ببعض أجره في المساء، وبلغ الناس من النقاء وحب التطهر أن اعترف أمام النبي ﷺ بعض الرجال والنساء بارتكاب جرائمهم مطالبين بكل إصرار أن ينزل عليهم عقوبة الدنيا، ولو كان بالرجم بالحجارة حتى الموت حتى يلقوا الله تعالى وهو عنهم راضي.. وبلغت شفافية الحكم والدولة أن كان مرتب الخليفة لا يزيد على نفقة الطعام مع كسوة قليلة.. وخلا ذلك المجتمع من مظاهر تسلط الدولة فالقضاء والسجون ورجال الشرطة، أمور هامشية إن لم تكن معدومة. ومهما بيّنا درجة المدنية التي بلغها المجتمع الإسلامي آنذاك: فإن الحقائق تظل أكبر من الكلمات(٢٣).

وخلاصة القول أن مقصودنا استخدام كلمة (الوعي) في سياق المفهوم الحضاري الشامل للمدنية؛ ويمكن بيان مفهومه العام بأنه: "أدراك الفرد ومؤسسات المجتمع المختلفة بمسؤولياتهم الكبرى في بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة والسعي في دفع عملية النهضة والتقدم المعنوي والمادي من خلال إصلاح الفكر والسلوك والواقع".

الوعي المقاصدي .. وأثره في بنية العقل المسلم

أتجه عدد من المفكرين والنقاد خلال العقود الثلاثة الماضية نحو نقد العقل المسلم ومحاولة تحليل الخلل الذي نجم عن حالة الوهن العام في أجزاء عدة من الأمة الإسلامية، والارتخاء الحضاري في القيام بإسهامها الأشهادي على العالم، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

فالعقل المسلم الذي سبق أن تفتق عن أمر نهضوي وتغيير ي واضح في

داسات في الشاه الإسلامي

بنية المجتمع العربي ها هو يعود لمشرط النقد والفحص العلمي للعلات التي أمت به من تداخل الوحي الغيبي بالاجتهاد البشري، والشرعي بالعرفي، والعقلي بالذوقي، وتداخلت أدوات البيان السمعي من القرآن والسنة بالعرفان الصوفي، والبرهان الفلسفي بالغيبي، مما أدى إلى حالة من المراوحة الميدانية كبلها عن الإنجاز الحقيقي ذلك الجدل العقيم في المقولات الكلامية والآراء الفقهية، وتعصب ذميم للمذاهب والفرق والجماعات الدينية، واستبداد سياسي تداخلت فيها حظوظ السلطة ومغالبات الفقهاء وتنافسهم على المناصب والقضاء.

هذه الإشكاليات وغيرها ساهمت في ذبول العقل الواعي وتضاءلت بالتالي روح الاجتهاد الفقهي، وأدى هذا الفتور إلى غياب التجديد ودعائه عن الساحة الفكرية والعلمية.

لذلك كان الداعي قوياً لمعاودة النظر في الخلل المؤدي لتلك النتائج السالفة والسالبة على المستوى الفردي والمجتمعي، ولعل العمل الذي قدمه الجابري أو أركون أو شحرور أو حسن حنفي أو جمال البنا وغيرهم من النقاد المعاصرين، كان محاولة جادة للبحث عن المنهجية الإصلاحية المثلى لنقد العقل وتحريره من شوائبه المتراكمة من عقود، لكن الأدوات المعرفية والمنهجية العلمية في النظر والحكم لأولئك الباحثين كانت مستمدة من بيئة علمية أخرى ليست في مستوى القدسية والعصمة كما هي في البيئة العلمية عند المسلمين والمعتمدة على منهجية الاستدلال القائمة على نصوص شرعية قاطعة من القرآن أو السنة، أو قواعد أصولية منبثقة عن هذا الوحي، قد تختلف دلالاتها وحجيتها ولكن تبقى أقرب للضبط والتحديد، وأقصد بتلك البيئة المختلفة روحاً وشكلاً بيئة البحث المعرفي التي تم استيرادها من الخارج بأدواتها النقدية التي جاء بها فلاسفة التنوير لنقد السلطة الدينية وتفكيك الكهنوت النصراني ومحاولة إرجاع العقل إلى حقه المسلوب. فكما

دراسات في الشاه الإسلامي

أن بعض الظواهر والنتائج متماثلة بين واقع الدين النصراني في أوروبا أثناء العصور الوسطى وما حصل للمسلمين بعد القرن الخامس الهجري، إلا أن هناك فروقاً واضحة وكبرى تختلف في سببيتها وجوهرها بين الواقع المسلم والواقع النصراني، إضافة إلى أن تحليل الواقع المنهجي للعقل المسلم اتجه لدى أولئك النقاد بواسطة نظرات جزئية للتراث الديني المستمد من الوحي، دون الوصول للعمق الحقيقي الذي يمثل الأصول والمنطلقات والقواعد التي تبنى عليها تلك المنهجية، ومعظم هذه الإسهامات فيها قدر من قصر النظر، بل التطرف في بعض المواقف حيث توصلت فيما بعد إلى نتائج فلسفية غير واقعية مازالت خاصة بدوائر بعض المثقفين من التيار العقلاني دون أن تشمل جميع أطراف الفقه والاجتهاد الديني لدى المسلمين.

وفي ضوء هذه المقدمة أرى أن مشروع نقد العقل المسلم وبنية التخلف التي أصابته تحتاج إلى مزيد نظر وكشف عن مواضع الصحة والضعف ومحاولة فهم العلل التي أصابت منهج النظر والاستدلال، وتحليل الخطاب الإسلامي ومدى موافقته للمتغيرات الراهنة من حيث كونه تجسيدا لتنزيل النصوص والقيم الدينية في واقع الحياة ومدى قدرتها في المعالجة والتبيين والإصلاح والتغيير.

وعند التأمل في هذا الواقع والنظر في مشاريع العمل لإصلاح هذا الواقع الفكري يرى أن هناك غياباً حقيقياً في أعمال مهمة المقاصد الشرعية في الإسهام في معرفة الخلل أو استشراف الحلول من خلالها. والذي دعاني للبحث في المنهج المقاصدي وتعليق الأمل في إسهامه في إحياء العقل المسلم عدة أمور أوجزها فيما يلي:

١- أن مقاصد الشريعة هي الرابط الجامع لكل فروع التشريع في جميع المناحي العبادية والعادية والاجتماعية والقضائية وغيرها، فهي لا تخرج عن كلياتها ومقاصدها الثابتة العائدة إلى الضرورات الخمس من حفظ الدين

داسات في الشاه الإسلامي

والنفس والنسل والعقل والمال، وهذه الكليات العامة والأهداف الرئيسية للتشريع حاكمة للفروع وليست محكومة بها، ويسير الاجتهاد الفقهي في فلکها و لا تخضع لأفلاك المجتهدين أو الفقهاء. يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في وجوب موافقة قصد المكلف من عمله قصد الشارع سواءً أكان متعلماً أم مجتهداً : (قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة.. والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله ولا يخالف ما قصد الشارع)(٢٤). كذلك هي أمر مشترك لا يمكن أن يتصور فرد أو مجتمع يمكنه أن يتخلى عن حفظها ومحاولة ديمومتها في شأنه الخاص والعام، فهي مقصودة ومرادة لكل الناس لا يختلف في ضرورتها أحد، والتشريع الإسلامي تشكل في أحكامه وآدابه على حفظها من جهة الوجود ومن جهة العدم، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: (فلم يعتمد الناس في إثبات مقصد الشارع في هذه القواعد)(٢٥) على دليل مخصوص ولا على وجه مخصوص، بل حصل لهم ذلك من الظواهر والعمومات، والمطلقات والمقيّدات، والجزئيات الخاصة، في أعيان مختلفة، ووقائع مختلفة في كل باب من أبواب الفقه، وكل نوع من أنواعه، حتى ألفوا أدلة الشريعة كلها دائرة على حفظ تلك القواعد، هذا مع ما يضاف إلى ذلك من قرائن أحوال منقولة وغير منقولة)(٢٦).

فبما أن للمقاصد هذا الشأن العالي والأهمية الواضحة في الضبط والتحديد كان الرجوع لها في البحث عن الخلل أمر مطلوب عقلاً كما أن اعتبارها في إنشاء الأحكام وبناء التشريعات الحياتية أمر لازم شرعاً، وإلا كانت الجزئيات خلاف كلياتها والمآلات خلاف الاجتهادات، ولأبين لذلك بأمثلة واقعية.

فالذين حملوا نظام الحدود والعقوبة في الإسلام على أنه هدم للحريات وقسوة على المخطئين لم ينظروا إلى المجتمع كوحدة كاملة وأن استقرار نظامه وصلاح العيش فيه لا يمكن إلا من خلال عقوبات رادعة وزواجر

دراسات في الشاهد الإسلامي

ناهية تحفظ للناس جميعاً حقوقهم وحررياتهم. مع أن آيات الحدود والعقوبات لا تمثل من مجمل أحكام الشريعة إلا العشر وألا فبناء الإنسان وإصلاح باطنه يحتل المساحة الأكبر من التوجيهات الشرعية.

وكذلك من أباح الربا كضرورة اقتصادية معاصرة لم ينظر إلى آثاره الأخلاقية والاجتماعية وهي من الكليات التي تتناغم في حفظ الفرد والمجتمع دون رعاية جزء منه وإهمال باقيه.

٢- أن اعتبار المقاصد الشرعية كقضايا كلية تضبط الفهم وترسخ الأهداف الحقيقية من الوجود الإنساني، والكيفية التي بها يعيش ويتعامل مع غيره ومع ظروف الحياة ونواميس الكون؛ تؤكد أن اعتبارها كفيل بحفظ بنية العقل من الشطط أو الوهم، وكفيل أيضاً بتنظيم العقل وترتيب أولوياته في الذهن، لذلك قام الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله وقد علم بهذا الدور الكبير الذي تؤسسه وتعمقه المقاصد في بنية العقل إلى محاولة ضبط المقاصد حتى لا يختلط المقصد بالوسيلة ولا الكلية بالجزئية. فجعل رحمه الله للمقصد المعتبر أربعة شروط لا بد من توافرها وهي:

أ - الظهور: بمعنى أن يكون المقصد واضحاً لا تختلف أنظار المجتهدين في الاتجاه إليه وتشخيصه بعيداً عن كل التباس أو مشابهة، وذلك مثل اتفاقهم على تشريع القصاص لحفظ النفوس.

ب - الثبوت: بمعنى أن تكون تلك المعاني مجزوماً بتحققها أو مظنوناً بوجودها ظناً قريباً من الجزم.

ج - الانضباط: أي أن يكون للمقصد الشرعي حدّ معتبر وقدر معين لا يتجاوزه، فلا يؤدي إلى وقوع الحرج المرفوع شرعاً ونفور البشر من التشريع ولا يقصر عنه فيؤدي إلى ضعف الوازع الديني في النفوس وفقدان الشريعة لهيبتها وسلطانها على الخلق.

د- الاطراد: بمعنى أن لا يكون المعنى مختلفاً باختلاف أحوال الأفكار

داسات في الشاه الإسلامي

والقبائل والاعصار (٢٧).

فهذه الشروط والضوابط المحددة للمقصد المعتبر هي لاشك ضوابط محددة للتفكير الموضوعي والاستدلال الصحيح والفهم الشامل الذي يحتاجه العقل الواعي في دوره الحضاري المنشود.

٣- أن الفطرة السليمة - وهي مشترك إنساني - نزاعة لتلمس القوى الكبرى في الكون؛ لتدين لها بالخضوع، والطاعة أمراً ونهياً دون أن يكون مبتغاه من وراء ذلك تلمس منفعة مادية معينة أو غير معينة، وبهذا تعتبر الرواق الذي يتحرك من خلاله قانون الاستجابة بين السماء والأرض (٢٨).

لذلك ذهب الإمام ابن عاشور رحمة الله إلى أن الفطرة هي القاعدة التي شُيِّدَ عليها صرح المقاصد الشرعية، ويجب أن تكون الأساس الذي ينطلق منه المكلفون حتى تكون مقاصدهم من وراء تصرفاتهم موافقة لمقصد الشارع يقول رحمه الله: "نحن إذا أجدنا النظر في المقصد العام من التشريع نجده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة والحذر من خرقها واختلالها، ولعل ما أفضى إلى خرق عظيم فيها يعد في الشرع محذوراً وممنوعاً، وما أفضى إلى حفظ كيانها يعد واجباً، وما كان دون ذلك في أمرين فهو منهي أو مطلوب في الجملة، وما لا يمسها مباح، ثم إذا تعارضت مقتضيات الفطرة ولم يمكن الجمع بينها في العمل يصار إلى ترجيح أولها على استقامة الفطرة، فلذلك كان قتل النفس أعظم الذنوب.." (٢٩)

فمن هنا نستطيع القول إن الفطرة هي الموجه للإنسان تفكيراً وتصرفاً وأخلاقاً وهي السمة الرئيسية للدين ووصفه العظيم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠).

فمقاصد الشريعة متسقة مع الفطرة السليمة غير مخالفة لها وليس هذا الاتساق في النوازع والمنافع المادية فقط؛ بل له آثاره على الفكر والحريات

دراسات في الشاهد الإسلامي

المتعلقة بحياة الإنسان. وهذا الجانب المهم والمتعلق بضبط السلوك الباطني بالفكر والعقل الواعي لم يعط حقه من التنظير والتأصيل مع أن له آثاره في حياة الإنسان سواءً أكانت إيجابية بإعماله والانسياق في موارده، أم سلبية في إنكاره ومخالفة منزع الفطري المكوّن لحقيقة الفرد الإنساني، ولعل العمل المقاصدي أن يُعيد الاهتمام بهذا الجانب العرفاني ويضبطه من الانحراف أو التعدي في تقديره واعتباره.

١- المتأمل في مصنّفات مقاصد الشريعة يرى أن هناك إسهاماً إصلاحياً قام به أولئك المصنّفون لما تحمّلوا هذا الجانب من التأليف والعودة إلى كليات الشريعة بتجديد الصلة بها وإحياء إسهامها المتجدد في النظر والوقائع المختلفة، وشواهد أحوال أولئك المجددين تثبت أن المقاصد الشرعية هي الحامل على التغيير نحو الأفضل والتصحيح نحو الأولى والأهم والإمام الشاطبي -رحمه الله- في مصنّفه العظيم الموافقات يعتبر من رواد الإصلاح الفكري في إسهامه في رد الخلاف الفقهي إلى مقاصد الشريعة الكلية وترتيب الذهنية الفقهية وتنقية علوم الاستدلال من شوائب الإيغال الفلسفي والكلامي. كما أن عمل الإمام الطاهر بن عاشور وعلاّل الفاسي لا يختلف عن سابقهما، فقد جعلوا من مقاصد الشريعة محور التجديد الذي دعوا إليه وكذلك منهاجهم الإصلاحي الذي بشّروا به سواءً أكان على مستوى التشريعات النظامية أم المحافظة على إسهام الفقه في علاج مستجدات الحياة.

لذلك أرى أن المنحى الدلالي للمقاصد فيه روح التجديد والتصحيح للمسار المنحرف للفقه أو الفهم للعلوم الشرعية، فلا ينبغي أن نهمله عند النظر في إعادة ترتيب بنية العقل المسلم أو البحث عن مكامن الخلل التي أدت إلى ضعف العمل المناط به في الإصلاح والتغيير.

٢- الواقع الذي تمر به الأمة الإسلامية والمتمثل بصور التفرق والضعف

داسات في الشاه الإسلامي

والجهل المتراكم في روعها المعاصر؛ يحتاج إلى عودة عاجلة إلى الكليات والمقاصد العامة، لأن عصور الضعف والانحطاط أغرقت أفرادها في الهوامش البعيدة عن مكامن البناء والإنتاج؛ لذلك يأتي عمل المقاصد في تجسيد العودة إلى الأصل وترك الهوامش التي أثقلتنا في تعقيداتها المثالية. كذلك تتحو المجتمعات الضعيفة إلى الكماليات والإسراف في استعمالها والإشباع في تعاطيها ونشرها، بينما الرد إلى مقاصد الشريعة يعيد الاعتبار إلى فقه الأولويات ويثبت في الذهن ميزان المنافع أو المضار بدءاً بحفظ الضروريات التي لا يقوم مجتمع إلا بها في كل شؤونه الحياتية والفكرية ثم الحاجيات ثم التحسينيات، والإخلال في هذا إخلال في بنية المجتمع والأفراد.

كما أن عصور الضمور الفكري تنهمك في بحث الجزئيات الهامشية وتشقيق الفروعيات غير الواقعية، مما يعمق جهل الناس بها ويوسع الهوة بينهم وبين المعارف الأصيلة؛ وبالتالي تتشكل في المجتمع طبقة وحيدة ومحصورة تمتلك حق العلم والفهم والتفسير، وهذا هو منحى الكثير من الفلاسفة الأقدمين والمعاصرين في تعقيد العلوم وحصرها في افهامهم الخاصة ووضع الجسور التي لا تسمح لغيرهم أن يجتازها، ولعل مقاصد الشريعة تعيد للشريحة الأوسع في المجتمع أن تعلم الكليات الظاهرة الواضحة وتكشف إغراق المتفلسفة في مسارات أبعد ما تكون عن هموم المجتمع وقضاياه الرئيسية، بل أرى أن الحديث عن المقاصد قد يساهم في بناء الوحدة الفكرية التي هي أساس الوحدة المجتمعية ويخفف من الصراعات المذهبية والمجادلات الخلافية كونها تأتي بالعودة إلى المفاهيم المشتركة والقضايا العامة التي تحمل في طياتها مشاريع لا تتقضي من العمل والبناء والإصلاح.

٣- وأختم في ذكر مبررات العودة إلى مقاصد الشريعة في كشف الخلل الفكري في بنية العقل المسلم؛ بالتأكيد على أهمية الوعي المقاصدي في

دراسات في الشاه الإسلامي

حفظ العقل من الشطط أو الانحراف بتأسيس قواعد الكشف عن الموهوم والمظنون والمردود والمرجوح، وهذه القواعد هي في بنيتها معايير عقلية راجعة إلى مقاصد الشرع وكلياته.

يقول العز بن عبد السلام -رحمه الله- إن تصرفات الناس العامة لا تخلو في كونها من قبيل المصالح أو المفسد ولضبط هذه الأفعال قال - رحمه الله: الأفعال ضربان: أحدهما المصالح وهي أقسام:

(أحدها) ما هو مصلحة خالصة من المفسد السابقة واللاحقة والمقتربة ولا يكون إلا مأذوناً فيها إما إيجاباً أو ندباً أو إباحتاً (القسم الثاني) ما هو مصلحة راجحة على مفسدة أو مفسد وهي ما دونه. (القسم الثالث) ما هو مصلحة مساوية لمفسدة أو مفسد. (القسم الرابع) ما هو مصلحة مساوية لمصلحة أو مصالح فإن أمكننا الجمع جمعنا وإن تعذر الجمع تخيرنا، ومهما تمحصت المصالح قدمنا الأفضل فالأفضل، والأحسن فالأحسن ولا نبالي بفوات المرجوح.

الضرب الثاني: المفسد وهي أقسام:

(أحدها) ما هو مفسدة خالصة لا يتعلق بها مصلحة سابقة ولا لاحقة ولا مقتربة، فلا تكون إلا منهيّاً عنها، إما حظراً، وإما كراهة. (القسم الثاني) ما هو مفسدة راجحة على مصلحة أو مصالح وهي منهيّة. (القسم الثالث) ما هو مفسدة مساوية لمصلحة أو مصالح، فإن أمكن درء المفسدة وجلب المصلحة أو المصالح قلنا بذلك وتركنا المفسدة وأثبتنا المصلحة أو المصالح. وإن تعذر جلب الدرء ففيه نظر. (القسم الرابع) ما هو مفسدة مساوية لمفسدة أو مفسد فإن أمكن درء الجميع درأناه وإن تعذر تخيرنا ومهما تمحصت المفسد درأنا الأرذل فالأرذل والأقبح فالأقبح" (٣٠)

ونظراً لصعوبة الترجيح في المصالح والمفسد المتعارضة سطر لنا كذلك

دراسات في الشأن الإسلامي

علماء الأصول والفقهاء قواعد فقهية تساعد على الترجيح بين المصالح والمفاسد المتعارضة، يحفظها الفقيه ليفتي بها ويحفظها غيره ليتزن على وفقها، ومن أمثال هذه القواعد:

درء المفاسد مقدم على جلب المصالح - تُفَوِّتُ أَدْنَى الْمَصْلِحَتَيْنِ لِحِفْظِ أَعْلَاهُمَا - المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة- الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف- الضرر لا يزال بمثله- يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام- الضرورات تبيح المحظورات- الضرورات تقدر بقدرها- إذ تعارضت مصلحتان أمام الفرد، فعليه أن يقدم المصلحة المتعلقة بأمر ضروري على الحاجي والحاجي على التحسيني وإذا تعارضت مصلحتان في نفس الرتبة تقدم مصلحة حفظ الدين على حفظ النفس والنفس على العقل والعقل على النسل، والنسل على المال، وإذا تعارضت مصلحتان في نفس المرتبة وتعلق بنفس الأمر تقدم المصلحة العامة التي تتعلق بالمجموع على المصلحة الخاصة - المتعدي أفضل من القاصر والفرض أفضل من النفل- لاعبرة بالظن البين خطؤه - ويغتفر في الوسائل ما لا يغتفر في المقاصد، إلى غير ذلك من القواعد المنظّمة للعقل والمؤسّسة لمنهج التفكير الموضوعي القائد نحو مدارج الرقي المعرفي والمنتج للعمران الحضاري .

دراسات في الشاهد الإسلامي

مشروع الوعي الحضاري في إطاره المقاصدي

أولاً: المقصود بالوعي الحضاري في هذا المشروع :

- 1- المراد بالوعي الحضاري الذي هو مجال عمل المشروع يعني : " إعادة تشكيل الذهن وتعميق التصور وتنمية الفكر نحو الرسالة الحضارية للإسلام بكل شمولها للمجالات العبادية والعمرائية وعمومها للزمان والمكان والأفراد". فالمشروع هو أشبه بخطاب لعقل المسلم يعيد فيه قراءة الشريعة الإسلامية التي جاءت بالإشهاد على الناس في ضوء سماحة الشرع ووضوح أحكامه وإسهامه في علاج مشكلات المجتمعات والنهوض بأفراده .
- 2- إن أي تحضر لأمة من الأمم لا بد أن يسبق بفكرة تتطبع في أذهان أصحابها إلى درجة الاعتقاد الجازم المفضي الى البناء المشترك وال عمران الحضاري، يقول مالك بن نبي: "إن حضارة ما؛ هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر؛ الدفعه التي تدخل به التاريخ " وهو ما أثبتته توينبي من أثر عظيم للفكرة وبالذات الدينية في تأسيس الحضارات، لذلك كان التركيز على إعادة إظهار هذه الفكرة بتوعية المسلمين بها وتعميقها في أذهانهم وأنفسهم كما نطق بها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠) وفي قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وهو الدور الذي قام به عليه الصلاة والسلام في إحداث التحضر العظيم الذي أسسه في المدينة وانطلق إلى أصقاع الأرض ،وهذا الوضوح في الفكرة نطق بها ربيعي بن عامر إجابة على سؤال رستم له عن سبب هذه الحركة التغييرية التي تقومون بها، فقال له ربيعي : "الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى سعة الإسلام ومن

داسات في الشاه الإسلامي

ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة".

٣- الوعي هو الوقود الحقيقي لحركة العمران التي انطلقت في الأمة منذ قرون، ولا بد من إشعال الوعي الحضاري الذي يدركه كل مسلم وينطلق من خلاله إلى الإصلاح والتغيير، فالمشروع يهدف إلى الإسهام في تنوير الوعي بهذا الجهد وإصلاح الذهن لهذه الانطلاقة الحضارية.

ثانياً : دواعي المشروع :

١- المدّ العولمي بكل آلاته الإعلامية والثقافية و الاقتصادية والسياسية , والذي بدأ يغزو كل مجتمع ويذيب كل الثقافات والفروقات تحت تأثير أنموذج غربي ينبغي أن يسود لوحده ويؤثر في الجميع، وبالتالي ظهرت أجيال من المسلمين منسلخة عن شريعتها منبهرة بعجل السامري، تحتاج إلى إفاقة واعية تبحث في دينها العظيم عن مكامن ثباتها واعتزازها وعلوها على سائر الأمم بدلاً من الانهزام النفسي الذي تعيشه أجيال اليوم .

٢- الضعف والانحطاط في البلاد الإسلامية في جميع الميادين الحياتية , مما جعل هناك حالة يأس في الأنفس من النهوض مرة أخرى، وحالة شك من أن نملك أدوات التحضر المنشود .

٣- المحاولات الإصلاحية التي أغفلت التركيز على الوعي الحضاري وكون الإسلام رسالة تحمل الهداية والرحمة والتقدم للكون والإنسان، وذلك بالبدأ إما بالعمل السياسي المجرد أو العمل التراثي العلمي أو التزكية والتحلية للنفس والروح أو العمل القتالي كوسيلة للنهوض بالأمة، إلى غيرها من اجتهادات كانت تنحو إلى جعلها هي مدار الدين ومرتكز التغيير، في حين لا يزال الوعي بالشريعة منحصرراً في تلك الزوايا غافلاً عن تلك المعاني الأخرى، فالمرحلة الحالية تحتاج إلى زرع الثقة بالدين وترتيب العقل المسلم وتشكيل ذهنه نحو القابلية لهذا التحضر ودفعه إلى ميادينها المتنوعة والمتكاملة كونها شريعة واحدة لا أنها مذاهب متفرقة .

دراسات في الشاه الإسلامي

ثالثاً: المنطلقات العامة للمشروع :

١- تعميق الوعي بمقاصد الشريعة الإسلامية وربط الأحكام بها وتنبيه المسلم على أهميتها في توضيح الصورة المتكاملة للدين كونه طريق السعادة في الدارين. وذلك عن طريق الميادين التالية :

- أ- تعظيم العبودية لله خلال التدبر في آياته المقروءة والمنظورة. والتركيز على جوانب العظمة الحقيقية التي تجعل الأنفس أقرب إلى الله في كل حال، وهذا له إسهام في تنظيم وحدة الفكر والإخلاص والعمل،
- ب- التأكيد على المقاصد عند الإفتاء بذكر العلة والحكم من التشريع وتهذيب النفوس بالأحكام، والتيسير ورفع الحرج فيما يغلب فيه الضيق والعنت، أو الحاجة والشيوع مع التدرج بالناس عند المنع واعطائهم البديل المباح عند التحريم، وإدراك المفتي لمهمته في العمران الحضاري المتجدد والمواكب لكل التغيرات الحياتية .
- ج- تلقي الأحكام وتوضيحها على أساس الكليات الخمس بحفظ الدين والنفوس والعقل والنسل والمال، وجعل هذه الضروريات الخمس متبلورة في ذهن المسلم ومناهج التغيير في المجتمع .

٢ - تعميق الوعي بفقہ العمران الحضاري خلال :

- أ- التأكيد على أن وجود المسلم مرتبط بمهمتين : العبادة لله والعمارة للأرض وفق مقتضيات تلك العبودية .
- ب- إعطاء العلوم والمعارف والفنون الإنسانية حقها من الاهتمام والتعلم والهيبة وتحقيق التكامل بينها والتوازن في عرضها لبث العمران المادي ونشر أدواته بين المسلمين .

أقدمت إحدى المؤسسات العلمية البريطانية على إقامة معرض علمي تاريخي للتذكير بمآثر المسلمين العلمية التي غيرت وجه العالم حسب عنوان صحيفة الاندبندنت، وقد لخص الكاتب بول فاليلي تلك الإنجازات العظيمة

داسات في الشاه الإسلامي

في عشرين إنجازاً ومخترعاً مسلماً لولاها لما كان العالم المعاصر على ما هو عليه من تقدم وحضارة وازهار ورخاء.

ومن ذلك أن ابن الهيثم عالم الرياضيات والفلك والفيزياء هو مخترع الكاميرا التي تعتبر عماد الحياة الإعلامية الحديثة. وقد اخذت اسمها من كلمة "قمرة" العربية وتعني الغرفة المظلمة أو الخاصة.

وأن الفلكي والشاعر والموسيقي والمهندس عباس بن فرناس كان قد سبق الأخوين رايت بألف عام في صناعة آلة للطيران؟ وقد طار لأول مرة من على مئذنة في مدينة قرطبة مستخدماً عباءة محشوة بمواد خشبية، وقد كانت عباءة بن فرناس أول مظلة في التاريخ، ثم اخترع آلة أخرى من الحرير وريش النسور وطار فيها من أعلى جبل وبقي في الجو لمدة عشر دقائق ثم سقط، واكتشف فيما بعد أن سبب سقوطه يعود إلى عدم صنع ذيل لطائره.

وأن المسلمين هم أول من طور الصابون الذي نستخدمه اليوم وأضافوا له الزيوت النباتية وهايدروكسيد الصوديوم والعطورات كعطر الزعتر بينما كانت تفوح من أجساد الصليبيين الذين غزوا الأرض العربية روائح كريهة للغاية حسبما يقول مسلمو ذلك الزمان؟ وقد جلب الشامبو إلى إنجلترا لأول مرة شخص مسلم وقد عُين فيما بعد في بلاط الملكين جورج وويليام الرابع لشؤون النظافة والشامبو.

وأن جابر بن حيان هو مخترع الكيمياء الحديثة وإليه يعود الفضل في صناعة كل أجهزة التقطير والفلترية والتبخير والتطهير والأكسدة المستخدمة هذه الأيام.

وأن الفضل يعود إلى المهندس الجزائري في تصميم أهم الاختراعات الميكانيكية في تاريخ الإنسانية. فهو الذي صمم أول صمامات عرفها الإنسان وهو الذي اخترع الساعات الميكانيكية وهو أبو علم الآليات والتسيير الذاتي الذي تقوم عيه الصناعات الحديثة، وللتذكير أيضاً فهو أول من اخترع القفل

دراسات في الشاهد الإسلامي

الرقمي الذي نراه الآن مستخدماً في الحقائق والخزائن.

وأن المهندسين المسلمين هم أول من صمم الأقواس الهندسية التي أخذها عنهم الغرب فيما بعد في علم هندسة البناء، ولولا العلوم الهندسية الإسلامية لما شاهدنا الكثير من القلاع والقصور المنيفة والأبراج الهائلة في الأصقاع الغربية.

وكذلك كل الأدوات المستخدمة في الجراحة والتشريح اليوم هي نفسها التي اخترعها العالم الزهراوي في القرن العاشر؟

وأن المائتي أداة التي يستعملها الأطباء اليوم هي من تصميم الزهراوي وهو أول من اكتشف الخيطان المستخدمة في العمليات الجراحية والتي تذوب في الجسم بعد العملية.

وتطول القائمة إن أخذنا نعد سبب الحضارة الإسلامية ومكتشفات علمائها.

٣- تعميق الوعي بالشهود الحضاري بواسطة الدلالات اللغوية لمعنى الشهود الذي جاء في الآية في قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، ومن معاني الشهادة:

أ - أن الشاهد لا بد أن يكون عالماً بما يشهد به علماً يقنع الآخرين بالحجج والدلائل .

ب - أن يبينه ويظهره للآخرين .

ج - تبليغه لمن يحتاجونه و ينتفعون به .

د - العدل والأمانة في تبليغ الشهادة .

رابعاً: آليات تنفيذ المشروع :

١- التأليف والنشر .

دراسات في الشأن الإسلامي

- ٢- الكتابة الصحفية في الدوريات الثقافية .
- ٣- الندوات والمحاضرات.
- ٤- البرامج التلفزيونية والإذاعية .
- ٥- المناهج الدراسية .
- ٦- موقع على الشبكة العالمية.
- ٧- إنشاء مركز للوعي الحضاري المجتمعي .

خامساً : الآثار المتوقعة لنجاح المشروع :

- ١- التقليل من حدة الخلافات والمنازعات والالتفات الى الغايات والاهداف العليا .
 - ٢- الاعتزاز والثقة بالعمل الديني في الاصلاح والتغيير .
 - ٣- التأكيد على منهجية الاعتدال والشمول في فهم الدين ونبذ التطرف والغلو .
 - ٤- ابراز فقه العمران الحضاري وأنه نوع من التعبّد لله عز وجل .
 - ٥- اصلاح أنماط التفكير وتوضيح فقه التدين .
 - ٦- قطع الطريق على صور الفصل بين الديني والدنيوي .
- وختاماً .. أسأل الله عز وجل أن يرزقنا الإخلاص والتوفيق ويبارك في جهود نشر الوعي ونهضة الأمة .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

دراسات في الشاه الإسلامي

الهوامش

- (١) الموافقات ٢ / ٩ .
 - (٢) الموافقات ٢ / ١٣ .
 - (٣) انظر : مقاصد الشريعة لابن عاشور ص ٢٠ - ٢٢ ، وأصول الفقه الإسلامي للزحيلي ٢ / ١٠١٨ .
 - (٤) انظر : المقاصد العامة للشريعة الإسلامية د . يوسف العالم ص ١٠٦ و ١٠٧ ، من كتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأمريكا / الطبعة الثانية ١٤١٤هـ : مقاصد الشريعة الإسلامية د . زيد الرماني ص ٢٠ - ٢٩ ، دار الغيث ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ : الاجتهاد المقاصدي حجيته وضوابطه ومجالاته ، د . نور الدين الخادمي ص ٥٨ و ٥٩ من كتب الأمة العدد (٦٥) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .
 - (٥) البُلالة : بالضم من الندوة وهو الماء وكل ما يُبَلُّ به الحلق ، والبَلَّة بالكسر : الخير والرزق وجريان اللسان وفصاحته ، انظر : القاموس المحيط ص ١٢٥٠ .
 - (٦) المقنَّب : جمع مقنَّب وهو اسم لجماعة كثيرة من الفرسان أو الذئاب الضارية ، وهو هنا مستعار لجماعات العلماء كما يستعار الفارس الضاري للعالم الفائق . انظر : القاموس المحيط ص ١٦٣ مادة «بَلَل» .
 - (٧) مقاصد الشريعة ص ٥
 - (٨) انظر : البرهان ٢ / ٨١٠ و ٨١١ ، ٩١١ - ٩٢٣ .
 - (٩) انظر : المستصفي ٢ / ٢٨٥ - ٣١٥ ، شفاء الغليل ص ١٦١ وما بعدها .
 - (١٠) انظر : كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) وكذلك كتابه (مختصر الفوائد في أحكام المقاصد) .
 - (١١) انظر : الفروق ١ / ١١٨ و ٢ / ٣٢ وما بعدها . شرح تنقيح الفصول ص ٣٩١ .
 - (١٢) انظر : مجموع الفتاوى ١١ / ٣٥٤ و ٢٠ / ٥٨٣ ، ٣٢ / ٢٣٤ وغيرها .
 - (١٣) انظر : شفاء الغليل ص ٤٠٠ وما بعدها ، مفتاح دار السعادة ٢ / ٤٠٨ ، إعلام الموقعين ٣ / ٩ وغيرها كثير .
 - (١٤) انظر بيان أهمية الموافقات : نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي للريسوني ص ٩٣ ، الشاطبي ومقاصد الشريعة للعبدي ص ٩٧ - ١١٦ .
 - (١٥) الموافقات ٣ / ٢٣ و ٢٤ .
 - (١٦) هو الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن حسنين دراز ، حفظ القرآن وابتدأ تلقي علومه على والده وعمِّه ثم انتقل إلى القاهرة فأكمل دراسته في الأزهر ، وكان من أساتذته فيه كبار علماء مصر آنذاك ، كانت له اهتمامات بالشعر والأدب إلى جانب علوم الشريعة توفي بالقاهرة عام ١٩٣٢ م .
- من مصنفاته : تعليقاته على كتاب الموافقات للشاطبي، انظر ترجمته : الفتح المبين ٣/١٧٣ .

داسات في الشأن الإسلامي

- (١٧) حاشية الموافقات ٣ / ٢٤ .
(١٨) معجم مقاييس اللغة ٦/١٢٤
(١٩) انظر : تجديد الوعي لبيكار ص٦
(٢٠) انظر : المعجم الوجيز ص ١٥٧ اعداد مجمع اللغة العربية في القاهرة.
(٢١) مقدمة ابن خلدون ٢/٣٦,
(٢٢) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي لمالك بن نبي ص ٥٠ .
(٢٣) انظر: تجديد الوعي لبيكار ص ١٢٠-١٢٦، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، لبيكار ص ٣٥٣ .
(٢٤) الموافقات ٣ / ٢٣ و ٢٤ .
(٢٥) المقصود بالقواعد هنا : الضروريات والحاجيات والتحسينيات ، انظر : حاشية الموافقات ٢ / ٧٩ .
(٢٦) الموافقات ٢ / ٨٢ .
(٢٧) انظر : مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور ص ٥٠،-٥٢
(٢٨) انظر: المقاصد العامة للشريعة لعز الدين بن زغيبه ص ٧٨،
(٢٩) مقاصد الشريعة لابن عاشور ص ٥٩ ، ٦٠ ،
(٣٠) قواعد الاحكام في مصالح الانام ص ٥٦ .



دراسات في الشأه الإسلامى

بين الرؤية والحساب في إثبات الشهر القمري (عبر القمر الصناعي)

أ.د. علي جمعة محمد

مفتي جمهورية مصر العربية - القاهرة



دراسات في الشأه الإسلامى

دراسات في الشأن الإسلامي

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فقد كتبت أبحاث كثيرة، وانتشرت في قضية «اعتماد الحساب الفلكي من عدمه في إثبات دخول الشهر القمري الذي يسير عليه التقويم الهجري عند المسلمين» بين مؤيد للحساب، ورافض له، ومشكك فيه، وهل هو قطعي أم ظني؟ وهل اتفقت علماء الهيئة على رأي واحد أم اختلفت؟ وعقدت المؤتمرات المتتالية في جدة، والكويت، وتركيا، وماليزيا، وغيرها، وقدمت مقترحات قبل بعضها، ورُفض بعضها، إلا أن مشكلة عملية خارج هذا البحث والنظر تزداد صعوبة كل يوم، وهو أن التلوث بدأ يلف الأرض، ويغيب على الرؤية البصرية سواء أكان ذلك بالعين المجردة، أم باستخدام الآلة في المراصد، بالإضافة إلى قلة خبرة الراصدين من عموم الناس، وبعد الإنسان عن التعامل مع الطبيعة التي خلقها الله وخلقها فيها، وذهاب كثير من الملكات عند البشر من أثر التقنيات الحديثة وثورة الاتصالات والمواصلات. وأصبحت المشكلة هي كيف نخرج من هذا الخلاف النظري مع هذا الواقع العملي؟

ولقد ظهر اقتراح القمر الصناعي الذي يُمكننا من الرؤية بعد أن يتعدى حاجز التلوث الضوئي والبيئي، وفي نفس الوقت يخرجنا من خلاف الاعتماد على الحساب وعدمه، ويخرجنا من مدارس مختلفة لهذا الحساب، وهو الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى وحدة المسلمين، وهي فرض مهم في عصرنا الحاضر بعد أن أصبحت البشرية جمعاء تعيش في قرية واحدة من جراء وسائل الاتصال التي تنقل الخبر أثناء حدوثه.

ولقد عرض مشروع القمر الصناعي على منظمة المؤتمر الإسلامي عدة مرات فوافقت عليه ودعت الدول الإسلامية لتبنيه، وقامت دار الافتاء المصرية بالتعاون مع جامعة القاهرة، مركز دراسات واستشارات علوم

دراسات في الشاهد الإسلامي

الفضاء بعمل الدراسات اللازمة للقمر الصناعي، وشارك في اللجنة العليا لذلك المشروع أطراف عدة من مصر، والمملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية، ومملكة البحرين، ونخص بالذكر رابطة العالم الإسلامي التي كانت أول من تبرع للعمل في هذا المشروع، وكذلك جمهورية إيران الإسلامية التي تبرعت أيضاً بمبلغ من أجل البدء الفعلي لجسم القمر، وبعد دراسات طويلة فنية وعلمية وتطبيقية بُدِيَءَ في تنفيذ المشروع وتمت مرحلته الأولى، وتوقف من أجل التمويل والذي سنذكر تفاصيله في هذا البحث.

إن خروج هذا القمر الصناعي سيمكن الراصد على الأرض من رؤية الهلال بعينه، وذلك الرصد سيكون من مستوى الأرض، وليس من مكان القمر في عليائه، بل من زاوية الراصد وكأنه يقف على الأرض.

لم أرد أن يكون بحثي تكراراً لما قد سبق واستقر، بل يكون دعوة لاستكمال ذلك المشروع المتعثر بعد أن أقر كثير من أهل العلم ومن عوام الناس بفائدته، بل بوجوبه في المرحلة الراهنة.

إن التكلفة لهذا القمر لا تزيد عن ٩ مليون دولار أمريكي نحتاج إلى تدبيرها فوراً ومدة العمل المتبقي في بنائه لا تزيد عن ١٨ شهراً، وندعو الله سبحانه وتعالى للتوفيق والسداد.

ويتحقق الهدف الأساسي لمشروع القمر الصناعي الإسلامي وهو التغلب على مشكلات الرصد فوق سطح الأرض، بنقله إلى خارج الطبقات الكثيفة الملوثة من حولها وذلك باستخدام منظار محمول على قمر صناعي يقوم برصد الهلال لحظة مولده حال دوران القمر في سماء دول عالمنا الإسلامي وإرسال الصور إلى محطات استقبال أرضية تقام لهذا الغرض في مختلف دول عالمنا الإسلامي لترى كل دولة الصورة المأخوذة من الفضاء بواسطة شاشة تليفزيونية أو جهاز فاكس أو كليهما.

بذلك تتحقق رؤية شرعية مشتركة فتوحد مواقيت مواسمنا الدينية

دراسات في الشاه الإسلامي

الكبرى مثل الصوم وعيد الفطر وغيرها مما يوحد مشاعر شعوبنا ويؤلف بينها، ومن الواضح أن القمر بهذا ينوب عن عشرات المناظير التي يمكن أن تنشأ على امتداد عالمنا، إلا أنه أفضلها في اتخفاض التكلفة بدرجة كبيرة، وكذلك تخلصه من قيود الرصد التي تعوق عمل تلك المناظير الأرضية.

١ - بداية الشهر الهجري:

عندما يقع كل من الأرض والقمر والشمس على خط واحد تقريباً يقال إن ثلاثتهم في وضع اقتران، والشهر الهجري هو الفترة الزمنية بين اقترانين متتاليين وطوله حوالي ٢٩٥٣٠ر٥٨٩ يوماً وبسبب عدم انتظام حركة القمر لدرجة كبيرة يصعب عمل تقويم قمري مماثل للتقويم الشمسي خاصة وأنا لا يمكن أن نحدد أطوال الشهور الهجرية مقدماً مثلما يحدث في التقويم الشمسي. ويتعين لبدء الشهر الهجري شرطان:

الأول: أن يولد الهلال الجديد بحدوث الاقتران.

الثاني: أن يمكث الهلال الجديد فوق الأفق بعد غروب الشمس، بحيث يمكن رصده فإذا تحقق الشرطان يكون اليوم التالي هو بداية الشهر الجديد. ومن الناحية النظرية يبدأ الشهر لو مكث الهلال فوق الأفق بعد غروب الشمس لأي فترة مهما صغرت، ولو أمكن رصده خلال فترة مكثه تلك يتحقق الشرط الشرعي لبدء الشهر الجديد، وجمهور الفلكيين على أنه لا يمكن رؤيته إلا بعد ١٥ ساعة من الافتراق إذا بقى قبل هذه المدة بعد غروب الشمس لا يرى عندهم قطعاً، في حين أن الرصد الفعلي هو أن يأتي الشهود ليثبتوا الرؤية ويرى أولئك وجوب رد هذه الشهادة، وهنا يحل القمر الصناعي مثل هذه الاختلافات.

دراسات في الشاه الإسلامي

٢ - مصاعب الرصد من سطح الأرض:

تتأثر إمكانية رصد الهلال بعوامل أهمها:

١- شدة إضاءة الهلال: وتتضح بعمر الهلال الوليد وقت غروب الشمس، أي مساحة الجزء المضيء من سطح القمر، وكذلك بعد القمر عن الأرض حيث يتراوح هذا البعد بين حوالي ٣٦٣ ألف و٤٠٥ ألف كيلو متر.

٢- شدة إضاءة الأفق وقت الرصد: وتزداد باقتراب الشمس من القمر فوق الأفق.

٣ - درجة صفاء الأفق:

العاملان الأولان يمكن تقديرهما ومعرفة قدرة العين أو الجهاز المستخدم لتمييز الهلال من السطح المحيط به، وكان في الماضي يتأثر بوجود السحب أو الضباب أو الأتربة أو بخار الماء العالق في الجو لظروف قليلاً ما تطراً، وقليلاً ما تختفي، أما في الحاضر فقد أدى التلوث الذي يغلف الكرة الأرضية - كما ذكرنا - وخاصة بالقرب من المدن الكبرى أو المناطق الصناعية لإعتام شديد للأفق يجعل عملية رصد الهلال تبدو مستحيلة ما لم يبق فوق الأفق مدة لا تتكرر إلا على فترات بعيدة.

٤ - الرصد الفضائي هو حل أمثل لمشكلة رصد الهلال:

حتى يمكن رصد الهلال الوليد مهما كانت فترة مكثه فوق الأفق بعد غروب الشمس يتعين التخلص من العامل الثالث، والإقلال من تأثير العاملين الأولين، وهذا لا يتحقق إلا بالرصد من خارج الطبقات الكثيفة من جو الأرض باستخدام منظار محمول على ظهر قمر صناعي يدور على ارتفاع مناسب ما بين ٤٠٠ - ٦٠٠ كيلو متر، وعلى هذا الارتفاع يتحقق الآتي:

أ - ينعدم الشرط الجوي والتلوث تماماً فيصفو الأفق صفاء كاملاً.

ب - ينعدم تشتت الضوء أو يكاد بواسطة مكونات الهواء، وبذلك تبدو الأجرام السماوية مضيئة وسط ظلام دامس، فلا تضعف إضاءة الهلال

داسات في الشاه الإسلامي

بالنسبة للأفق وبذلك يمكن رؤية الهلال مهما كانت درجة لمعانه.
ج - من هذه الارتفاعات يكون القمر مرئياً بوضوح من دائرة محيطية
بالنقطة التي تقع تحته مباشرة، يزيد قطرها عن ٢٠٠٠ كيلو متر مما
يتيح له رؤية كل العالم العربي والإسلامي في دوراته المتتالية وهذه
الدائرة تسمى دائرة التغطية، كما يمكن أن ترى كل البلاد الواقعة داخل
دائرة التغطية هذا الهلال في اللحظة.

توضيحات :

- ١ - لن يعاد بث صورة الهلال بواسطة المحطات الأرضية، وإنما المخطط له هو:
 - أ - يرسل القمر لكل بلد به محطة استقبال صورة الهلال موضحاً عليها
مقدار ارتفاعه فوق أفق النقطة الواقعة أسفله مباشرة على سطح
الأرض، وبعده الأفقي، وكذلك الموقع الجغرافي لتلك النقطة.
 - ب - ستخطط البرامج على القمر بحيث يقوم برصد الهلال وإرسال صورته
إلى محطة الاستقبال الأرضية في كل دولة مشاركة وقت مروره فوقها،
علماً بأن القمر سوف يدور حول الأرض حوالي ١٥ مرة خلال اليوم،
ونتيجة لدوران الأرض تحت المدار فإنه يغطي في كل مرة مناطق مختلفة
وكذلك يغطي خلال فترة الرصد كل مناطق العالم الإسلامي تقريباً.
 - ج - البرامج التي سيجملها الحاسب على ظهر القمر الصناعي هي لتحديد
اتجاه الهلال أو الشمس أو لاستقبال البيانات من المحطات الأرضية
منفصلة عن تلك التي تحدد اتجاه الرصد وإرساله للمحطات الأرضية.
 - هـ - بذلك يتاح لكل محطة أرضية متابعة صورة الهلال حال ثبوت رؤيته
فوق كل البلاد التي يمكن رؤيته فوق أفقها بعد غروب الشمس.
- ٢- سوف تستقبل كل محطة مجموعة البيانات من القمر كاملة، وسيقوم
المختصون بها بضبط الهوائيات والترددات بما يطمئنهم لمصدر تلك المعلومات.

دراسات في الشاهد الإسلامي

٣- بالنسبة لتأثير ارتفاع نقطة الرصد، وهو ما يسميه الفلكيون (انخفاض الأفق) فإن الدراسة الموضوعية تضمن التصحيح لهذا الارتفاع، بل وتضمن عدم رصد الهلال إلا وهو يعلو الشمس لحظة اختفاء قرصها تحت أفق النقطة القمرية (التي تقع على سطح الأرض تحت القمر مباشرة) وبذلك تكون الصورة كما لو كنا نرصد من فوق سطح الأرض مباشرة، وهذا بالطبع أفضل من الرصد من فوق جبل مرتفع لا يتم التصحيح لارتفاعه، كما لا يتيح التخلص من التلوث الجوي بصورة كافية.

٤ - استمرارية المشروع: للقمر الصناعي مدة محدودة، والمدة المقدرة للقمر الإسلامي الأول ما بين ٥ - ٧ سنوات، ويستدعي استمرار تحقيق الهدف المنشود إطلاق أقمار أخرى في المستقبل، إلا أن القمر الثاني سوف يتم دعمه من عائد استثمار التطبيقات الاضافية للقمر الأول، كما أن البنية الأساسية والمحطات الأرضية لاستقبال الصور تقام مرة واحدة، والمدة الافتراضية لها ما بين ١٥ - ٢٠ عاماً ومن الممكن أن تزيد المدة الافتراضية اعتماداً على الصيانة الدورية للمحطات الأرضية المزمع إنشاؤها في مصر ومكة المكرمة ودولة الامارات وبقية الدول الإسلامية المساهمة في المشروع.

٣ - الإدارة والتشغيل:

تسير عملية إدارة المشروع وتشغيله على النمط التالي:

١ - يستمر عمل اللجنة العليا للإشراف على المشروع (المكونة من أعضاء يمثلون كل الدول الإسلامية المساهمة في المشروع) بعد إطلاق القمر بحيث تشتمل مهامها على التخطيط والتشغيل وإدارة المشروع ومتابعة أعمال التنسيق اللازمة.

٢- يتولى المركز إدارة أعمال التشغيل والتنسيق بين المحطات المختلفة بناء

دراسات في الشأن الإسلامي

على السياسة الموضوعة التي تقررها اللجنة العليا للمشروع.

- ٣- تدير المحطات الأرضية أطقم وطنية يتولى تدريبها مركز علوم الفضاء بجامعة القاهرة، كما يقوم المركز بإمدادها ببرامج التشغيل وتحديثها.
- ٤- يمكن إيجاز عمل المحطات في استقبال إشارات القمر وتوزيعها طبقاً للخطة الموضوعة على المحطات الأخرى أو الجهات المستفيدة.

٤- الاستخدامات الإضافية للقمر:

يمكن استثمار الكاميرا المحمولة على القمر في استخدامات أخرى مفيدة مثل:

- ١- رصد الملوثات الفضائية الطبيعية منها (مثل الشهب والجسيمات النيزكية) والصناعية (النفايات الفضائية)، وكلاهما يمثل أهمية كبيرة للوكالات الفضائية والشركات العاملة في تصنيع وإدارة الأقمار الصناعية.
 - ٢ - رصد الشمس: والهالة الشمسية مما يساعد على التنبؤ بالتغيرات المناخية ورصد كميات الطاقة الشمسية وتوزيعها في المناطق المختلفة.
 - ٣- رصد أي أجسام خطيرة تقترب من الأرض، ورصد أسراب الحشرات الطائرة مثل الجراد وغيرها وتحديد اتجاهات طيرانها، لتيسير الإنذار المبكر بأخطارها.
 - ٤- رصد تجمعات السحب وتحديد نوعياتها بما يساعد على استمطارها كلما أمكن.
 - ٥ - إجراء بعض الأرصاد الفلكية المختلفة، وهذا يمثل إضافة علمية مؤثرة في تطوير علوم الفلك والفضاء.
 - ٦ - إضافة كاميرا أخرى تستخدم في دراسة ظواهر التصحر ونحر الشواطئ.
- وجود هذه الأنواع من البيانات والتطبيقات والأرصاد لها كثير من الفوائد

دراسات في الشاهد الإسلامي

على الصعيدين العالمي والمحلي.

أولاً: عالمياً: إن هذه التطبيقات من شأنها أن تجعل لغة الحوار بيننا وبين وكالات الفضاء العالمية لغة تفاهم وشراكة، كما أن وجود مثل هذه الشراكة تمكن من إقامة المراكز العلمية المشتركة بيننا وبين الجهات والوكالات الفضائية العالمية، مما يتيح تبادل الخبرات المستمرة وتخرير جيل من الكوادر يتمتع بخبرة عالمية في هذا المجال عالمياً.

ثانياً: محلياً: إيجاد لغة حوار مشتركة مع الجهات والمؤسسات التي يمكن أن تستفيد من هذه التطبيقات كالجهات الزراعية وجهات الرصد الجوي والطيران والجهات الجيولوجية والمساحية بالإضافة للجهات العلمية والفضائية.

٥ - أمثلة لأنواع التعاون:

يمكن وضع أمثلة لأنواع التعاون كما يلي:

١ - التعاون مع وزارات الزراعة في مجال تتبع مسارات الجراد وهجوم بعض الآفات المختلفة، وكذلك رصد توزيعات المياه العذبة ومساحات الأراضي المنزرعة والقابلة للاستصلاح كما يمكن رصد زحف الصحراء (التصحّر) على المساحات الخضراء. ويمكن للقمر التعرف على السحب التي يمكن استمطارها وتتبعها، وهذا تطبيق مهم جداً حيث إن أغلب الأراضي في الوطن العربي مناطق صحراوية شحيحة الماء، وفي نفس الوقت قابلة للزراعة إذا وجد الماء، وهو ما يتيح استمطار السحب في بعض هذه المناطق.

٢- يمكن إمداد وزارات البيئة بالبيانات اللازمة لها عن الملوثات البيئية واتجاه حركتها وتواجدها، مثل حرق قش الأرز، وحرق القمامة.

٣- أما عن التعاون مع هيئات الأرصاد الجوية العالمية، فيمكن أن يكون على نحو يتيح إمدادها بصورة لإرصاد السحب وتوزيعاتها واتجاه تحركها

دراسات في الشأن الإسلامي

والتغير المناخي، حيث إن سعر الصورة الواحدة للأرصاد الجوية في اللون الواحد يتراوح ما بين ٣٠ دولاراً إلى ٥٠ دولاراً بدون أي تحليل للصور والبيانات.

٤- التعاون مع هيئة المساحة الجيولوجية وبعض شركات البترول والتقيب تحتاج إلى صور تحدد نوع الأراضي والطبقات الجيولوجية فيها وكذلك الصور التي تحدد مساحات العمران ومساحات المدن وسعر الصورة الجيولوجية والمساحية تتراوح من ٥ آلاف إلى ٢٠ ألف دولاراً للصورة الواحدة الأصلية حسب قوة الوضوح التي تتيحها الصور.

٥ - التعاون مع بعض شركات الكهرباء وشركات السخانات الشمسية تحتاج إلى رصد كميات الطاقة الشمسية وتوزيعاتها في المناطق المختلفة لمعرفة كمية الطاقة الممكن استثمارها والجدوى الاقتصادية لنشر السخانات الشمسية أو توليد الكهرباء بواسطة الخلايا الشمسية في منطقة ما.

٦ - التعاون مع الهيئات الفلكية والفضائية التي يهملها رصد المذنبات والشهب للتعقب بمكان سقوطها على سطح الأرض.

٧ - يمكن تصوير بعض أماكن المواد الممنوعة كأماكن زراعة الخشخاش وغيرها وأماكن تخزين هذه المواد في مجال وجودها بكميات كبيرة، وإمداد الجهات الأمنية بهذه المعلومات.

٨- يمكن التعاون في مجال تدريب وإعداد الكوادر في مجال علوم وتكنولوجيا الفضاء بين مركز دراسات واستشارات علوم الفضاء بجامعة القاهرة، وعدد من الجامعات والمراكز البحثية في الدول العربية والإسلامية.

تقرير عن المراحل الفنية التي تم تنفيذها

خلال العام ٢٠٠٥

١- وضع تصميم القمر الإسلامى:

أعدت دراسات تفصيلية تتضمن «تصميمات هندسية» لجسم القمر و«مداريه» لوضع وتصميم المدار الذي يحقق المهمة بنجاح كامل وذلك نظراً لعدم سابقة تنفيذ مشروعات مماثلة بذات المهمة في العالم بأسره.

وحيث إن التنفيذ المطلوب غاية في الدقة، وأنه يجب تجنب أية مخاطر عند تنفيذ المهمة، فقد قام بذلك مجموعات مختارة من علماء الفضاء والفلك والاتصالات وهندسة الطيران وغيرهم تشكلت بهم لجان فنية متخصصة لدراسة هذه التصميمات المقدمة من الشركة الإيطالية «كارلو جافيتشي» في عدة لقاءات دورية خلال المدة من فبراير حتى إبريل ٢٠٠٥ وذلك للتأكد من الدقة المطلوبة وتفادي وجود أخطار محتملة.

٢- النموذج الجسم (الماكيت):

عقدت اجتماعات متعددة بين الجانبين المصري والإيطالي لعمل مجسم بالحجم الطبيعي وبذات المواصفات الهندسية للقمر وتم استلامه بعد مراجعة ملاءمته الفنية للتصميمات المقدمة من الشركة من حيث الوزن - الحجم - المكونات - وتم ذلك خلال الفترة من مايو حتى أغسطس ٢٠٠٥.

وفي هذه المرحلة تم عمل محاكاة لرحلة القمر في الفضاء خلال الفترة الافتراضية والتأكد من مطابقة التصميمات المقدمة من الشركة مع نظام المحاكاة الخاص بالمركز والذي تطلب شراء حواسب آلية بمواصفات خاصة وعالية وتراخيص حزم برامج خاصة بمحاكاة تحليل المهمات الفضائية

دراسات في الشأن الإسلامي

وتحليل الصور الفضائية وتحليل المدارات وتحليل التصميمات الهندسية للكاميرات الفضائية.

٣- التطبيقات والتقنيات المضافة إلى الهدف الرئيسي:

تم إضافة العديد من التطبيقات والتقنيات إلى الوظيفة الأساسية للقمر الصناعي وذلك في حدود ميزانية المشروع المعتمدة دون إضافة أدنى تكلفة مالية ومنها:

- أ- جهاز لقياس التلوث البيئي.
- ب - استخدام الكاميرات الأساسية لرصد النفايات الفضائية والأجسام الطائرة للتنبؤ بأي أخطار تهدد سطح الأرض.
- ج - جهاز لقياس التغير المناخي.
- د - جهاز اتصالات لبث الرسائل القصيرة عبر شبكة الاتصالات الدولية.

٤ - الاتفاق على الشكل النهائي للتعاقد:

استقبل المركز المختصين بإبرام العقود بالشركة الإيطالية وتم دراسة تصوراتهم وعقد العديد من اللقاءات مع المختصين بالمركز لوضع أسس التعاقد ومناقشة جميع المسائل الجوهرية والبنود المعبرة عن إرادة الطرفين وتم التوصل إلى الشكل النهائي للتعاقد.

٥ - القمر التجريبي:

حيث إن من ضمن ما تم الاتفاق عليه من واقع العروض الفنية للقمر الصناعي الإسلامي، وكجزء أساسي للتأكد من نجاح المهمة، إطلاق قمر تجريبي وهو قمر صناعي أصغر حجماً وأقصر عمراً من القمر الأساسي له كافة الخواص الفنية ويشمل المكونات الأساسية لرصد الهلال الجديد كاختبار للوظيفة الأساسية للقمر الأساسي. وجاءت التصميمات المبدئية للقمر التجريبي محققة للغرض الأساسي للمهمة وتحليل عناصرها ودراسة

دراسات في الشاه الإسلامي

مستلزمات الإطلاق لمثل هذه النوعية من المهام مطابقة لما سبق ذكره بكراسة الشروط والمواصفات الخاصة بمشروع القمر الصناعي الإسلامي والتي تتفق والعروض الفنية المقدمة من الشركات، حيث من الضروري التأكد من تحقيق القمر الأساسي في مهمته الرئيسية حين إطلاقه باستطلاع الهلال واستلام نتائج دقيقة.

٦ - تكلفته:

كان مقدراً لوضع التصميمات المبدئية للمهمة وتحليل عناصرها ودراسة مستلزمات الإطلاق للقمر الصناعي الإسلامي ومن ضمنها تنفيذ وإطلاق القمر التجريبي مبلغاً وقدره ٢٥٠٠٠٠٠ دولار أمريكي وذلك وفقاً لما تم من دراسات جدوى سابقة على المشروع وما أخذ في الاعتبار عند وضع القيمة التقديرية له.

وقد تم الاتفاق بالفعل مع الشركة المنفذة على أن يتم إطلاق القمر التجريبي في حدود المبلغ المشار إليه دون أدنى تكلفة إضافية كجزء أساسي من هذه المرحلة.

٧- مراحل تنفيذه:

تم البدء بالفعل في تنفيذ القمر التجريبي وتم الانتهاء من حوالي ٥٠% من متطلباته الرئيسية بمشاركة فرق العمل بمركز دراسات واستشارات علوم الفضاء بجامعة القاهرة مع الشركة الإيطالية المصنعة بمقر معامل المركز بجامعة القاهرة، وسيتم إطلاقه بواسطة الشركة المصنعة ومن المقرر الإنتهاء من تنفيذه بعد سنة ونصف من البدء في تنفيذه فعلياً.

٨ - مدته الافتراضية:

يعد هذا القمر من نوع الأقمار الصغيرة جداً وهي أقمار يسهل تصنيعها مع سهولة إطلاقها وهي تحاكي القمر الأساسي من حيث المدار ورصد

دراسات في الشأن الإسلامي

الهلال ولكن باستخدام تقنيات رخيصة نسبياً وفي نفس الوقت مدته الافتراضية تكون قصيرة نسبياً (من عام إلى عام ونصف من وقت الإطلاق).

٩- أهدافه الفنية:

من أهم أهداف تنفيذ هذا القمر:

- محاكاة هذا القمر التجريبي للمهمة الأساسية للقمر الأساسي.
- نقل التكنولوجيا الأساسية لتنفيذ القمر الأساسي.

١٠- الفوائد العملية:

من أهم الفوائد العملية لتنفيذ هذا القمر:

- التثبيت من تحقيق القمر الأساسي لرصد الهلال تحقيقاً تاماً.
- التأكد من الاختيار الأمثل للمدار.
- المشاركة في تنفيذ وتصنيع هذا القمر حيث إن تقنياته والتكنولوجيا المستخدمة فيه تكون أبسط نسبياً من القمر الأساسي.
- نقل الخبرات المطلوبة لتحقيق مشاركة بنسبة كبيرة في القمر الأساسي تنفيذاً وتصنيعاً في مصانع عربية بخبرات عربية.

وأخيراً:

يمكن للجهات والأفراد الراغبين في الاستثمار في هذا المشروع الاتصال بكافة وسائله بمركز دراسات واستشارات علوم الفضاء بجامعة القاهرة للتعرف على أوجه الاستثمار المتاحة في هذا المشروع.



دراسات في الشأه الإسلامى

العمل الخيري في المملكة العربية السعودية

الدكتور / صالح بن سليمان الوهبي

الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي



دراسات في الشأه الإسلامى

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين..

أما بعد: فأشكر لرابطة العالم الإسلامي إصدارها سلسلة من الكتب تتضمن بحوثاً ودراسات عن مختلف القضايا الإسلامية المعاصرة وأسأل الله لها مزيداً من العون والتوفيق، وقد طُلب مني الكتابة في موضوع العمل الإسلامي الخيري فاخترت الكتابة في موضوع العمل الخيري في المملكة العربية السعودية نظراً لارتباطي الوثيق به منذ قرابة ثلاثة عقود.

إنّ العمل الخيري في العالم الإسلامي عامة وفي المملكة العربية السعودية خاصة ذو تاريخ عريق وله منابعه الكثيرة ومصادره المتنوعة مثل الزكوات والصدقات والأوقاف والأحباس وغيرها، وقد قامت عليه ركائز أساسية في حياة المسلمين مثل التعليم والصحة وبناء المساجد وكفالة الأيتام ورعاية المحتاجين، علاوة على أنه من أهم الموارد الدائمة لبيت مال المسلمين. ومن المؤسف أنه قد حصل نوع من الانقطاع في بعض جوانب تلك التجربة المهمة لعدة أسباب ليس الهدف استقصاءها، ولكن من أهمها في حسابنا:

١- الغزو الاستعماري الذي استهدف الأوقاف سعياً لإضعاف المجتمعات المسلمة.

٢- الاعتماد على الإنفاق الحكومي.

٣- قيام السياسات التأميمية التي تأثرت بالتجربة الاشتراكية.

٤- قيام الأنظمة الشمولية التي سعت إلى الاستبدال بكل وضع قائم بوضع جديد يخدمها.

دراسات في الشاه الإسلامي

وقد استأثر بالوقف كثير من المؤسسات الدينية التي دخلت في حقبة ما في صراع مع المستعمر أو مع الحكومات المحلية فكان عقوبتها أن أضعفت مؤسساتها الوقفية أو قُضي عليها كما حصل في مناطق عديدة من العالم الإسلامي، وكانت النتيجة أن استولت الحكومات على الوقف، ومن أعظم ذلك أوقاف كانت مخصصة للحرمين الشريفين في مناطق متعددة من العالم الإسلامي.

ومع كل هذا فإن التجربة لم تنقطع نهائياً، وإنما اكتسبت أشكالاً إدارية جديدة، وعاد العمل الخيري إلى الساحة الإسلامية والدولية عن طريق مؤسسات وأطر جديدة استفادت من التجارب الدولية في هذا المضمار. مع بقاء شيء من الموروث القديم ممثلاً في الأوقاف التي عادت بلدان إسلامية عديدة للاهتمام به مجدداً.

ومنذ عدة أعوام بدأ العمل الخيري الإسلامي في المملكة العربية السعودية خاصة والعالم عامة يمر بمنعطف خطير تبدلت فيه أحوال كثيرة، وربما يؤدي استمرار هذه المنعطف إن لم يُتدارك إلى عودة العمل الخيري الفردي الذي سبق قيام المؤسسات الخيرية.

إنَّ السبب الأكيد في هذا التغير هو ما وجهته بعض القوى الغربية إلى المؤسسات الإسلامية من تهمة بدعم الإرهاب أو القيام بأعمال غير مشروعة من جراء أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. وإننا ندرك أن هذه الادعاءات لا أصل لها، والهدف الرئيس منها إجهاد مسيرة العمل الخيري في أنحاء عديدة من العالم إذ لم تسلم المؤسسات الإسلامية والمساجد والمراكز الإسلامية في البلدان الغربية من الدعاوى نفسها، مع أن كل هذه المؤسسات رخصت لها جهات رسمية، وهي تعمل في وضوح النهار.

لقد صار وصم المؤسسات الإسلامية - أياً كانت - بدعوى مساندة الإرهاب أمراً متوقعاً لكل مؤسسة أو منظمة تريد أن يكون لها موطنٌ قدم في الساحة

أولاً: العمل الخيري ومؤسساته

حين ينظر المرء في وضع العمل الخيري في المملكة ومؤسساته سيجد أن هنالك نوعين من الجمعيات الخيرية:

١- رعاية محلية تعني بالعمل الخيري المحلي.

٢- ومنظمات دولية عالمية تُعنى بالعمل الخيري العالمي.

وإنني أعتقد أن النوعين كليهما يمثلان واجهة مشرقة للمملكة في أعين إخواننا المسلمين والمستفيدين في كل مكان، وهما من الأهمية بالدرجة نفسها لاعتبارات عدة هي:

١- أن المؤسسات الخيرية المحلية تدعم أبناء البلد وتسد ثغرات الفقر والحاجة الداخلية التي لا تستطيع الجهات الحكومية سدها جميعها، والمنظمات الخيرية الدولية توفى بحقوق إخواننا المسلمين علينا. وبذلك يكون البلد قد حقق عن طريق المؤسسات الخيرية بعضاً من أهم أهدافه.

٢- أن المملكة العربية السعودية مهد الإسلام، ومأرزها ومنبع الرسالة وبها بيت الله العتيق الذي جعله الله تعالى مثابة للناس يفدون إليه ويحنون إليه وإلى أهله في كل وقت ويجتمعون به سنوياً اجتماعاً عالمياً لا يوجد مثله في كل أنحاء المعمورة. وبها المدينة المشرفة - زادها الله شرفاً - مهاجر رسول الله ﷺ... كل هذه الفضائل التي أنعم الله تعالى بها على هذه البلاد وأهلها ترتب عليهم حقوقاً عظيمة لإخوانهم المسلمين في كل مكان ولبنى الإنسان كافة ومن أهمها الدعوة والدعم والنصرة.

٣- أن الصلة وثيقة بين الرسالة الخالدة رسالة الإسلام التي تقوم عليها البلاد وبين العمل الخيري الإسلامي بشقيه الدعوي والإغاثي، فكيف يمكن لنا أن ندعو إلى الله تعالى أناساً لا يجدون لقمة العيش؟! ينبغي لنا

داسات في الشأن الإسلامي

أولاً أن نسد جوعهم ونقدم لهم ما يسترهم.

٤- ضرورة وجود خبرات دولية لدى مؤسساتنا الخيرية العالمية نظراً لمطالبة العالم كله بهيئاته الدولية المنتفذة المملكة بتقديم المساعدات في أزمان النكبات والكوارث. وهذا ما حصل جلياً في مناطق عدة من العالم مثل: دارفور والنيجر والبلدان المتضررة من تسونامي وباكستان.. وغيرها وإلا فإن البديل الحتمي المر سيكون تسليم مساعداتنا إلى المنظمات الأممية أو المنظمات الغربية التي ستتحكم بإخواننا وتكون لها السمعة في تقديم الدعم ولقمة العيش والغطاء والدواء بأموالنا!!
وفيما يلي عرض للنوعين (الجمعيات المحلية والمنظمات الدولية)، بشيء من التفصيل في كل نوع.

أولاً: المؤسسات المعنية بالعمل الخيري المحلي

المؤسسات المعنية بالعمل الخيري المحلي هي التي تسمى عادة "الجمعيات الخيرية"، وعدد المسجل منها لدى وزارة الشؤون الاجتماعية حتى إعداد هذه الدراسة (٣٤٨) جمعية خيرية و(٣٤) مؤسسة خيرية. وهناك عشرات سواها كصناديق الأُسَر والأوقاف والمراكز المتخصصة في مجالات معينة. وهي غير مسجلة رسمياً مع أن لها برامج ومناشط كثيرة في نطاقها.

وتتميز الجمعيات الخيرية بعدة ميزات منها:

- (١) أنها تغطي معظم مدن المملكة الكبيرة والصغيرة وبعض قراها
- (٢) أنها تشرف عليها وترعاها وتمنحها الإذن وزارة الشؤون الاجتماعية
- (٣) أن لها أنظمة محددة وجيدة نسبياً وإن مرت بفترة خمول طويلة، لكنها عادت إلى النشاط في السنوات الأخيرة
- (٤) أنها أقدم وجوداً من المؤسسات الخيرية العاملة على المستوى الدولي.

دراسات في الشاه الإسلامي

وإذا نظرنا في تاريخ الجمعيات الخيرية المحلية وجدنا أنها مرت بأطوار عديدة؛ وقد جعلنا الأطوار التي مر بها تأسيس الجمعيات الخيرية المحلية ثلاثة:

(١) فترة التأسيس.

(٢) الفترة الوسيطة.

(٣) فترة التوسع.

وتفصيل ذلك كما يأتي:

(١) فترة التأسيس:

وهي فترة الثمانينات الهجرية من القرن الرابع عشر الهجري (الستينات من القرن العشرين الميلادي). وفيها ظهر عدد محدود من الجمعيات المحلية، المسجل منها فقط (٨) جمعيات هي:

(١) جمعية البر الخيرية بالمدينة - أسست في ١٣٧٩/٧/١هـ (وسجلت لدى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في ١٣٩٤/٦/٤هـ).

(٢) جمعية الصفا الخيرية بصفوى - أسست في ١٣٨١هـ (وسجلت في ١٣٨٨/٣/٢٤هـ).

(٣) جمعية سيهات الخيرية - أسست في ١٣٨٢/١٠/٢٤هـ (وسجلت في ١٤١٦/١١/١٦هـ).

(٤) الجمعية الخيرية النسائية في جدة - أسست في ١٣٨٣/٢/١٢هـ (وسجلت في ١٣٨٣/٢/١٩هـ).

(٥) جمعية اليقظة النسائية في الطائف - أسست في ١٣٨٣/٢/١٧هـ (وسجلت في ١٣٨٤/٢/٢٤هـ).

(٦) جمعية النهضة النسائية بالرياض - أسست في ١٣٨٣/٣/١٢هـ (وسجلت

داسات في الشأن الإسلامي

في ٢/٣/١٣٨٣هـ).

٧) الجمعية الفيصلية الخيرية النسوية بجدة - أسست في ٢٤/٣/١٣٨٣هـ
(وسجلت في ١٧/٣/١٣٩٥هـ).

٨) جمعية القطيف الخيرية للخدمات الاجتماعية - أسست في
١٥/١١/١٣٨٣هـ (وسجلت في ٦/٤/١٣٩٤هـ).

(٢) الفترة الوسيطة:

وهي فترة التسعينات الهجرية التي رخصت وزارة العمل والشؤون
الاجتماعية آنذاك خلالها لـ (٢٢) جمعية خيرية محلية في مناطق متعددة
من البلاد نوردها على النحو الآتي ذاكرين مكانها وتاريخ تأسيسها وتاريخ
تسجيلها لدى الوزارة:

١- جمعية البر في الرياض - أسست في ٢٨/١/١٣٩٢هـ (وسجلت في
١٩/١/١٣٩٢هـ).

٢- جمعية الوفاء الخيرية النسائية في الرياض - أسست في ١٥/٤/١٣٩٥هـ
(وسجلت في ٢٥/١٢/١٣٩٧هـ).

٣- جمعية البر الخيرية بعنيزة - أسست في ٢٣/٢/١٣٩٥هـ (سجلت في
٢٠/٦/١٣٩٦هـ).

٤- جمعية أم القرى الخيرية النسائية في مكة - أسست في ٢٣/٢/١٣٩٥هـ
(وسجلت في ٣/٢/١٣٩٣هـ).

٥- الجمعية الخيرية بمكة المكرمة - أسست في ١٦/٨/١٣٩٨هـ (وسجلت
في ٢٧/٢/١٣٩٩هـ).

٦- جمعية الإيمان للخدمات الخيرية بجدة - أسست في ١٩/٢/١٣٩٩هـ
(وسجلت في ٤/٦/١٤٠٢هـ).

٧- جمعية البر بمكة المكرمة - أسست في ٢٣/٤/١٣٩٩هـ (وسجلت في

دراسات في الشاهد الإسلامي

١١/٨/١٤٠٣هـ).

٨- جمعية طيبة الخيرية النسائية بالمدينة- أسست في ١٧/٥/١٣٩٨هـ (وسجلت في ٢٥/١١/١٣٩٩هـ).

٩- جمعية البر والخدمات الاجتماعية الخيرية في ينبع البحر- أسست في ٢٢/٧/١٣٩٨هـ (وسجلت في ٢٨/١/١٤٠٠هـ).

١٠- الجمعية الخيرية بخميس مشيط - أسست في ١٨/٩/١٣٩٣هـ (وسجلت في ١٩/١١/١٣٩٣هـ).

١١- جمعية البر بمنطقة الجنوب-أبها - أسست في ١/١/١٣٩٤هـ (وسجلت في ١٩/١١/١٣٩٤هـ).

١٢- جمعية قرن ظبي الخيرية للخدمات الاجتماعية - بلاد زهران(منطقة الباحة)- أسست في ٦/٢/١٣٩٨هـ (وسجلت في ٢٦/١٠/١٣٩٩هـ)

١٣- الجمعية الخيرية بجازان-أسست في ١٠/٥/١٣٩٩هـ (وسجلت في ١٦/٤/١٤٠٠هـ).

١٤- الجمعية الخيرية بحائل- أسست في ٢٩/١١/١٣٩٩هـ (وسجلت في ٧/٨/١٤٠٢هـ).

١٥- جمعية البر بالمنطقة الشرقية-الدمام- أسست في ٢٤/٦/١٣٩٧هـ (وسجلت في ٢٤/٦/١٣٩٧هـ).

١٦- جمعية الحليمة الخيرية للخدمات الاجتماعية بالأحساء- أسست في ١/٤/١٣٩٧هـ (وسجلت في ٦/١١/١٣٩٧هـ).

١٧- جمعية البطالية الخيرية للخدمات الاجتماعية بالأحساء- أسست في ١/٧/١٣٩٧هـ (وسجلت في ٢٥/١٢/١٣٩٧هـ).

١٨- الجمعية النسائية الخيرية للخدمات الاجتماعية بالدمام - أسست في ٩/٨/١٣٩٧هـ (وسجلت في ٢٣/١٠/١٣٩٨هـ).

داسات في الشأن الإسلامي

- ١٩- جمعية المواسة الخيرية للخدمات الاجتماعية بالقارة- الأحساء-
أسست في ١٥/٤/١٣٩٩هـ (وسجلت في ٢٢/٢/١٤٠٠هـ).
٢٠- جمعية البر بالأحساء- أسست في ٢٤/٦/١٣٩٩هـ (وسجلت في
١٩/٢/١٤٠٠هـ).
٢١- جمعية الأوجام الخيرية بالقطيف- أسست في ١٢/٤/١٣٩٩هـ
(وسجلت في ١/٣/١٤٠٠هـ).
٢٢- جمعية الجفر الخيرية-الأحساء- أسست في ٩/٦/١٣٩٩هـ (وسجلت
في ٩/٢/١٤٠١هـ).
(٣) فترة التوسع:

بدأت هذه الفترة بدخول القرن الخامس عشر الهجري ممتدة إلى وقتنا
الحالي؛ حيث يعود إنشاء معظم الجمعيات الخيرية إلى سنة ١٤٠٠هـ وما
بعدها (أي ١٩٨٠م وما تلاها)؛ ولا تزال تُفتتح جمعيات جديدة. وبلغ عدد
الجمعيات التي رخص لها في هذه المدة حتى الآن حوالي (٣١٨) جمعية و(٣٤)
مؤسسة؛ هذا عدا الجمعيات المرخص لها سابقا وهي (٣٠) جمعية، وعدا
عشرات الجمعيات غير المرخص لها من صناديق وغيرها. فعدد الجمعيات
والمؤسسات المسجلة لدى وزارة الشؤون الاجتماعية هو (٣٨٢) حتى الآن.

وفي هذه الفترة ظهر نوع من الجمعيات الخيرية المتخصصة منها:

- (١) جمعيات تحفيظ القرآن الكريم، التي كانت تسمى سابقا (جماعة تحفيظ
القرآن) وتشرف عليها وزارة الشؤون الإسلامية.
- (٢) مكاتب دعوة الجاليات والمكاتب التعاونية للدعوة تحت إشراف وزارة
الشؤون الإسلامية.
- (٣) لجان أصدقاء المرضى بإشراف من إمارات المناطق وأحيانا تتبع مجالس
الغرف التجارية.

دراسات في الشاهد الإسلامي

٤) الجمعيات العلمية المعنية بالعمل الأكاديمي والمهني، وهي تتبع وزارة التعليم العالي وتؤوي مقراتها إحدى الجامعات منها جمعيات معنية بالتخصصات الطبية أو الهندسية أو الشرعية . . إلخ.

ثانياً: المؤسسات المعنية بالعمل الخيري العالمي:

المؤسسات المهتمة بالعمل الخيري الدولي جاءت متأخرة عن السابقة بعض الشيء، وهي ما زالت قليلة العدد إذا قيست بنظيراتها في الداخل أو بما لدى الدول الأخرى. وقد شهد القرن الخامس عشر الهجري ظهور عدد منها. ومن الملاحظ أنها تسمى بأسماء مختلفة مثل: جمعيات وهيئات ومنظمات ومؤسسات. وسوف أضعها في النسق التاريخي الآتي:

(١) القرن الرابع عشر الهجري:

شهد هذا القرن نشأة عدد قليل من المؤسسات، لكنه كان بداية العمل المؤسسي الدولي الحديث في المملكة، والمؤسسات المعنية هي:

١. رابطة العالم الإسلامي:

أنشئت الرابطة في عام ١٣٨١هـ بموجب قرار صدر عن المؤتمر الإسلامي العام الذي عقد بمكة المكرمة في ٤ من ذي الحجة ١٣٨١هـ (الموافق ١٨ من مايو ١٩٦٢م). وكان الهدف من إنشائها تعزيز فكرة التضامن الإسلامي التي انطلقت من المملكة آنذاك. ولها أنشطة خيرية تتمثل في دعم الجمعيات الإسلامية وبرامجها الدعوية والتربوية والاجتماعية.

والمجلس التأسيسي هو السلطة العليا في الرابطة، فهو الذي يعتمد الخطط التي تتبناها الأمانة العامة للرابطة. ويتكون المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي من (٦٠) عضواً من الشخصيات الإسلامية

داسات في الشأن الإسلامي

المرموقة، يمثلون الشعوب والأقليات المسلمة ويعينون بقرار من المجلس. ويشترط في المرشح لعضوية المجلس التأسيسي أن يكون من الدعاة إلى الله ممن له نشاط مشهود في العمل الإسلامي.

ويجتمع المجلس دورياً لاتخاذ القرارات فيما يعرض عليه من البحوث والقضايا التي تقدمها الأمانة العامة للرابطة، أو يقدمها ثلاثة من أعضاء المجلس، وذلك فيما يتعلق بمسيرة نشاط الرابطة لتحقيق أهدافها وتقديم النصح والتوصيات والمشورة للدول والجماعات التي تحتاج إليها في خدمة الإسلام والمسلمين. والعمل في المجلس التأسيسي تطوعي، لا يتقاضى أعضاؤه عنه راتباً ولا مكافأة.

والرابطة عضو في عدد من المنظمات الدولية، وهي:

- ١- منظمة المؤتمر الإسلامي بصفة مراقب؛ تحضر مؤتمرات القمة، ووزراء الخارجية، وجميع مؤتمرات المنظمة.
- ٢- هيئة الأمم المتحدة بصفة عضو مراقب بالمجلس الاقتصادي والاجتماعي بين المنظمات الدولية غير الحكومية ذات الوضع الاستشاري.
- ٣- منظمة التربية والتعليم والثقافة (اليونسكو) بصفة عضو.
- ٤- منظمة الطفل العالمية (اليونيسيف) بصفة عضو.

ولرابطة برامج منها ما يلي:

- أ- رعاية مجموعة من المراكز الإسلامية في العالم.
- ب - عقد مؤتمرات لكبار علماء العالم الإسلامي لتبادل الرأي والتنسيق في الجهود المبذولة من أجل انتشار الدعوة الإسلامية.
- ج- إقامة الندوات والمحاضرات واللقاءات إبان موسم الحج للإسهام في مجال التوعية الإسلامية.
- د- إقامة ندوة إسلامية عالمية في مقر الرابطة كل عام تضم اختصاصيين

دراسات في الشَّاه الإسلامي

في مختلف المجالات، بالإضافة إلى تنظيم التعارف بين وفود الحجيج.
هـ- تشجيع الدعاة في كل أنحاء العالم ودعمهم وتجهيزهم بالإمكانات اللازمة.

و- دعم المنظمات الإسلامية والمساهمة في برامجها وأنشطتها.
ز- تنفيذ البرامج التعليمية والتربوية المستمرة والموسمية.
ح- المساهمة في لقاءات الحوار الحضاري مع غير المسلمين.
وقد خفضت الرابطة من نشاطها الإغاثي بإنشاء هيئة الإغاثة الإسلامية التابعة لها التي تمثل الذراع الإغاثي لها. (انظر: موقع الرابطة):
(<http://www.muslimworldleague.org>).

٢- الندوة العالمية للشباب الإسلامي:

أنشئت عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م لخدمة الشباب المسلم وتقديم برامج مناسبة لهم. وقد أسهمت في العقود الأخيرة بنصيب وافر في مجال العمل الدولي.

ويتكون هيكل الندوة الإداري مما يأتي:

(١) الجمعية العمومية: وهي مؤلفة من مندوبي الجمعيات الشبابية والطلابية التي لديها عضوية "عاملة" في الندوة. وهي تتعقد كل أربع سنوات لانتخاب أعضاء مجلس الأمناء وإجازة خطة الدورة القادمة. وللجمعية حق تعديل النظام الأساسي (الدستور) بناء على ما يقترحه مجلس الأمناء.

(٢) مجلس الأمناء: وهو مؤلف من ثلاثة وعشرين عضواً يمثلون القارات الست بنسب متفاوتة. ويعقد المجلس مرتين كل عام لينظر في مسيرة العمل ويقر الخطط التنفيذية والنظم واللوائح التنفيذية التي تتقدم بها الأمانة العامة.

داسات في الشأن الإسلامي

(٣) الأمانة العامة: وهي الجهاز التنفيذي للندوة، ويتألف من الأمين العام والأميناء العاملين المساعدين والموظفين التنفيذيين.

(٤) المكاتب الإقليمية والفرعية: ويشرف على كل مكتب إقليمي عادة أمين عام مساعد أو مشرف مكلف بذلك. وهناك حالياً أربعة مكاتب إقليمية في المملكة وعدد آخر في الخارج. وعدد المكاتب غير ثابت لأنه خاضع لظروف العمل في البلدان المعنية وحاجة المنطقة للنشاط.

(٥) الهيئات: للندوة مجموعة من الهيئات المساندة لها في العمل منها: الهيئة الشرعية والهيئة الاستشارية والهيئة التنفيذية.

وللندوة برامج منها ما يلي:

أ- برامج دعوية وتدريبية للشباب كالدورات العلمية والمهنية والفنية، والمخيمات التربوية والقوافل والملتقيات وتدريب الدعاة، وطباعة الكتب والمجلات والنشرات والمواد الدعوية باللغات المختلفة.

ب- برامج للمشاركة في الملتقيات الدولية ممثلة في برامج الأمم المتحدة ومؤسساتها ومؤتمراتها، والمشاركة في الأنشطة الدولية الإسلامية كالمؤتمر الإسلامي والملتقيات الدولية والإقليمية للمنظمات الإسلامية. وقد حصلت الندوة على العضوية في بعض مجالس الأمم المتحدة وشاركت في مؤتمرات السكان والمرأة بالتنسيق مع المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة في القاهرة. وأهمية هذا المجال تتمثل في أثر الجمعيات غير الحكومية في تشكيل الرأي العالمي حالياً، وأوضح مثال على ذلك هو مؤتمر (ديرين) في جنوب أفريقيا عام ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م إذ اضطرت الجمعيات (وعددها ٣٠٠٠ جمعية) المندوبين الأمريكي والإسرائيلي إلى مغادرة المؤتمر بسبب الانتقادات الموجهة إلى سياستهما.

ج - برامج دعم المؤسسات الإسلامية الشبابية بالذات، ورفع مستوى الأداء

دراسات في الشَّاه الإسلامي

لديها بعدة وسائل منها تصحيح وضعها التنظيمي بحيث يتم تسجيلها مؤسسة خيرية أو وقفاً ٠٠٠ إلخ، ومنها دعمها بالمال عن طريق المحسنين، ومنها تقديم دورات تدريبية لها في مجال الإدارة والعمل الدعوي وذلك عن طريق الأنشطة الصيفية.

د- برامج تعليمية مثل بناء المدارس والمعاهد ودعمها وتقديم المنح الدراسية وكفالة المعلمين. وتقوم الندوة بتقديم منح دراسية للطلاب بالتعاون مع جامعات في السعودية والسودان وماليزيا ومصر وغيرها.

هـ - برامج دعوية واجتماعية مثل بناء المساجد والمراكز الإسلامية وحضر الآبار وكفالة الأيتام والأسر الفقيرة.

ح- برامج إغاثية للمتضررين خاصة منذ الاجتياح الروسي لأفغانستان في عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م والعدوان الصربي على البوسنة والهرسك. وتؤكد ذلك بإنشاء (اللجنة السعودية المشتركة) في عام ١٤١٩هـ حيث صارت الندوة عضواً في مجلسها، ومشاركا في تنفيذ برامجها الإغاثية والدعوية في ألبانيا وكوسوفا ومقدونيا والشيستان. (موقع الندوة): (<http://www.wamy.org>).

٣- مؤسسة الملك فيصل الخيرية:

وهي مؤسسة خيرية أنشأها أبناء الملك فيصل رحمه الله عام ١٣٩٦هـ. ولها ثلاثة أجهزة رئيسية هي إدارة المؤسسة والأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

وتعمل المؤسسة في نطاق معين يتمثل في برنامج منح دراسية، بالإضافة إلى خدمات أكاديمية يقدمها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وجوائز عالمية مشهورة تقدمها الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية في خمسة مجالات هي: خدمة الإسلام، والدراسات الإسلامية، والأدب العربي واللغة، والطب، والعلوم.

دراسات في الشأن الإسلامي

ولدى المؤسسة برنامج منح موجه إلى طلاب الدراسات العليا في مجالات العلوم البحتة والتطبيقية. كما لديها مكتبة تعتبر مرجعاً مهماً لطلاب العلم بشتى مجالاته.

(٢) القرن الخامس عشر الهجري:

كانت الحرب الأفغانية ضد الغزو الروسي فرصة لاطلاع عديد من الناس على العمل الخيري العالمي وإدراك أهميته وأثره، وقد برز في ضوءه أيضاً مدى الحاجة إلى عمل مؤسسي ثابت لدى المسلمين وفقاً للتنظيمات الدولية التي تبذرت في أفغانستان، ومن ثم نشأت مؤسسات جديدة مستفيدة من تجارب الميدان.

وتميزت هذه الفترة بظهور مؤسسات جديدة إضافة إلى نشوء نوع جديد من مؤسسات العمل الخيري، وهو اللجان العامة التي تجمع بين الجانب الحكومي والشعبي، ونشاطها في الغالب إغاثي، مثل:

● الهيئة العليا لجمع التبرعات لمسلمي البوسنة والهرسك عام ١٤١٢هـ.

● اللجنة السعودية المشتركة لإغاثة شعب كوسوفا والشيشان عام ١٤١٩هـ.

● لجنة دعم انتفاضة الأقصى عام ١٤٢١هـ.

وإذا عدنا إلى المؤسسات الخيرية التي ظهرت في هذه الفترة فسوف نجد أن أبرزها في المملكة كان كما يلي:

١- هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية:

انبثقت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية بالمملكة عن رابطة العالم الإسلامي بقرار من مجلسها التأسيسي في دورته العشرين المعقودة في مكة المكرمة خلال المدة من ١٥-٢٧/١١/١٣٩٨هـ الموافق ١٧ - ٢٩/١٠/١٩٧٨م، وبالموافقة السامية رقم ٤٨٣٤ في ٣٠/٢/١٣٩٩هـ الموافق ٢٩/١/١٩٧٩م. وأصدر المجلس التأسيسي في دورته الخامسة والثلاثين المنعقدة في مكة

دراسات في الشاهد الإسلامي

المكرمة في الفترة من ٧ - ١٠/٨/١٤١٨ هـ الموافق ٧ - ١٠/١٢/١٩٩٧ م
النظام الأساسي للهيئة وتم تحديد أهدافها ووسائلها .

وتتكون الهيئة من أجهزة متعددة؛ حيث يعتبر مجلس الإدارة هو السلطة العليا وقراراته ملزمة للجهاز التنفيذي ويرأسه الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ورئيس مجلس إدارة الهيئة. وضم في تشكيله في عام ١٤١٨ هـ خمسة عشر عضواً من المهتمين بالعمل الإغاثي والإنساني من داخل المملكة وخارجها، أما الأمانة العامة فهي الجهاز التنفيذي للهيئة ويرأسه الأمين العام للهيئة. (موقع الهيئة: <http://www.iirosa.org>).

وللهيئة مكاتب كثيرة في داخل المملكة وخارجها تشرف على تنفيذ البرامج والمؤسسات التابعة للهيئة في الدول المعنية.

وأهم برامج الهيئة ما يأتي:

- أ- المساهمة في إغاثة المنكوبين في مختلف بقاع العالم.
- ب- بناء المدارس وتشييد المساجد وكفالة الدعاة.
- ج- بناء دور الأيتام والعمل على كفالتهم.
- د- طباعة الكتب والمنشورات بلغات العالم المختلفة.

٢- مؤسسة الحرمين الخيرية:

هي إحدى المؤسسات الخيرية التي تنطلق من المملكة. وتعني بالدعوة إلى الله وتعليم أبناء المسلمين ومساعدة الفقراء والمعوزين في الداخل والخارج. ويشرف على أعمال المؤسسة وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. بدأت مرحلة تأسيسها الأولي عام ١٤٠٨ هـ بجهود بعض الدعاة إلى الله، أما مرحلة التأسيس الفعلي فكانت في رجب عام ١٤١٢ هـ بمدينة الرياض.

وتهدف المؤسسة لتحقيق جملة من الأهداف منها:

- ١- ترسيخ العقيدة في قلوب المسلمين بالكتاب والسنة.
- ٢- نشر العلم الشرعي في المجتمعات الإسلامية.

داسات في الشأن الإسلامي

- ٣- مساعدة المسلمين بالرفع من مستواهم العلمي بإقامة المعاهد والمراكز والدورات المختلفة في العقيدة والعبادة والسلوك.
- ٤- المسارعة إلى إغاثة المسلمين عند نزول الكوارث والنكبات.
- الإسهام في تنفيذ البرامج الدعوية والاجتماعية داخل المملكة العربية السعودية جنباً إلى جنب مع الجهات المعنية.

وسعت المؤسسة إلى فتح فروع لها في أنحاء المعمورة، وتوسعت في أعمالها ومشاريعها وعينت عشرات المندوبين في كثير من دول العالم. كما توالى افتتاح مكاتب المؤسسة في مدن المملكة، وتم تعيين العديد من المندوبين في المدن والبلدان الصغيرة. كما اتجهت المؤسسة إلى تطوير أنماط الدعوة والعمل الإغاثي واستخدمت شبكة الإنترنت لربط مكاتب المؤسسة بالداخل والخارج بشبكة المكتب الرئيس. (موقع المؤسسة: www.alharamain.org).

وقد أُغلقت هذه المؤسسة بناءً على تهمة وجهت لها من بعض الدول الغربية، إلا أنه قد ظهرت براءتها مؤخراً ولكن بعد فوات الأوان.

٣- وهناك مؤسسات خيرية عالمية أخرى نذكر منها:

- ١- المنتدى الإسلامي (الرياض): أنشئ عام ١٤٠٦ هـ، ومقره لندن حالياً، وله أنشطة دعوية وتربوية وإغاثية في أفريقيا بالذات، كما أنه يصدر دورية مشهورة هي «البيان». بالإضافة إلى إصدار الكتب العلمية والدعوية.
- ٢- مؤسسة مكة المكرمة الخيرية لكفالة الأيتام (الرياض) أنشئت سنة ١٤٠٧ هـ تحت مظلة الرابطة ولها مجلس أمناء يضم عدداً من الشخصيات الإسلامية البارزة برئاسة الأمين العام للرابطة.
- ٣- مؤسسة الوقف الإسلامي (الرياض) سنة ١٤٠٨ هـ
- ٤- مؤسسة آل إبراهيم الخيرية (الرياض) سنة ١٤٠٩ هـ
- ٥- إدارة المساجد والمشاريع الخيرية (الرياض) سنة ١٤١١ هـ
- ٦- مؤسسة الحرمين والمسجد الأقصى (مكة) سنة ١٤١١ هـ

دراسات في الشأه الإسلامى

- ٧- مؤسسه اقرأ الخيرية (جده).
 - ٨- مؤسسه سليمان بن عبد العزيز الراجحى الخيرية سنة ١٤٢١هـ
 - ٩- مؤسسه الإعمار الخيرية.
- وأهم مجالات العمل فى تلك المؤسسات ما يأتى:
- أ- بناء المساجد والمراكز الإسلامية.
 - ب- المشروعات التعليمية من بناء المدارس والمنح الطلابية.
 - ج- كفالة الأيتام والفقراء ودعم المحتاجين.
 - د- بناء المشروعات الطبية من مستشفيات ومراكز طبية.
 - هـ- مشروعات الإغاثة مثل الأكل والسقاية والكسوة.
 - و- المشروعات الدعوية والعلمية ومنها طباعة الكتب والمجلات وتوزيع المواد الدعوية المختلفة.
 - ز- المشروعات الاجتماعية بشتى أنواعها.

ثانياً: ملاحظات على العمل الخيري العالمي

أ- إيجابياته :

- ١- على الرغم من ظهور مؤسسات العمل الخيري العالمي متأخرة عن الجمعيات الخيرية المحلية فإنها استطاعت دخول المعتكف الدولي بحيث شاركت المنظمات العريقة من أمريكا وأوروبا في مناشطها سواء أكان ذلك في كوسوفا أم في الشيشان أم في أفريقيا، وصار لها تأثير في الساحة الدولية.
- ٢- ساندت المنظمات القرار المحلي لبث الوعي الإسلامي واللغة العربية في بعض البلدان كالصومال وجيبوتي وتشاد .
- ٣- أصبح هذا العمل مجالاً لتطوير الكفايات الشبابية في العمل الدولي، والوصول إلى خفايا النظام الدولي والاطلاع عليه، وقد كسب مجموعة من العاملين في اللجنة السعودية المشتركة - مثلاً- من الخبرة إبان مهماتهم في كوسوفا والشيشان ما لم يكن لهم من قبل، وكذا حال العاملين في الندوة وغيرها من المنظمات.
- ٤- وجّه هذا العمل المساعدات والتبرعات وجهة مدروسة بكفاية عالية وكلفة منخفضة، فلم تعد المساعدات تعطى للمنظمات الدولية التي تتفق معظمها على موظفيها، بل صارت تصب في برامج مباشرة لخدمة القضايا الإنسانية.
- ٥- قدم هذا العمل الخدمات لملايين المسلمين وغير المسلمين الذين ما كان لهم أن يحصلوا على ذلك من دونه سواء في مجال الإغاثة أم في مجال المنح الدراسية إلخ.
- ٦- رسّخ سمعة طيبة للمملكة العربية السعودية في العالم الإسلامي، ودعم الجهود الرسمية للدولة في الخارج ومن أمثلة ذلك: المساعدات الإنسانية، والمنح الدراسية، والجهود الدعوية.
- ٧- مكّن هذا العمل آلاف الشباب من الذكور والإناث من رفع مستواهم الفكري

دراسات في الشأه الإسلامى

والمعشى عن طرىق برامج المنح التى يقدمها، وخالل ترشىحه للطلاب للجامعات الإسلامىة فى المملكة والسودان ومالىزىا وغيرها مما رفع من مستوى معىشة أسر ومجتمعات إسلامىة. وبعض المؤسسات الإسلامىة معتمدة لترشىح الطلاب لذى بعض الجهات الرسمىة فى تلك البلدان.

ب : مشكلاته:

- ١- معظم هذه الجمعىات غير مسجل فى المملكة، ولىس له وجود "نظامى" مما يعوق تطوره، وىجعل وجوده مزعزعاً.
- ٢- عدم وجود جهة أو جهات رسمىة ىرتبط بها هذا العمل، ومن ثم نتجت قلة الخبرة لذى الجهات المعنىة بمثل هذا العمل:
 - (١) فلا توجد أنظمة كافىة تنظم هذا العمل.
 - (٢) لا توجد مجالس مشتركة تجمع هذا العمل وتنسق مناشطه.
 - (٣) لا توجد أطر رقابىة منظمة على هذا العمل، بل المسألة فىه قائمة على الثقة بمن فىه.
- ٣- يعانى هذا العمل الخىرى من الضعف الإدارى بشكل عام، إذ لا توجد له أطر تنظىمىة راقىة تحفظ له وجوده، وتبعده عن القرات الفردىة، وتعینه على الامتداد إدارىاً بامتداد العمل الدولى.
- ٤- ولج فى العمل الخىرى أشخاص لم ىكن لدهم خبرة كافىة للتعامل مع المعطىات الدولىة وحسابها، مثال ذلك أن دعم الجهاد الأفغانى الذى كان مكسباً أصبح الیوم مثلباً!! ولذا من الضرورى أن ىقتصر العمل الخىرى على البرامج الإغاثىة والاجتماعىة والتربوىة والدعوىة وأن ىدع ما سوى ذلك.
- ٥- قلة خبرة العمل الخىرى بالبعد الدولى، إذ لا تزال معظم الجمعىات الخىرىة المعنىة بالعمل العالمى غير مسجلة فى المنظمات الدولىة وغير مهتمة بشؤونها.

ثالثاً: آفاق المستقبل

- ١- علاقة هذه الهيئات بجهة إشراف حكومية أو شبه حكومية: من الضروري وجود هيئة مستقلة في جهاز الدولة تشرف على الهيئات الخيرية العالمية مع بقاء استقلالية العمل الخيري. وقد نجحت بعض الدول الغربية في تطبيق هذه الفكرة، وللمفوضية الخيرية (Charity Commission) في بريطانيا تجربة جيدة في هذا المجال عمرها حوالي قرن ونصف.
- ٢- مجلس تنسيقي أهلي: تشترك في هذا المجلس الجمعيات الخيرية، ويكون له جهاز تنفيذي، وينعقد بصفة دورية بغية التنسيق بين الجمعيات في نقاط عدة من أهمها:
 - توجيه استفادة الجمعيات الخيرية من بعضها في مختلف الخبرات الإدارية والتدريبية والإغاثية والدعوية.
 - تحديد المشاركات في المناشط ومناطق العمل.
 - تبادل المعلومات والتقارير في ضوء التعاون بين مراكز المعلومات في المؤسسات الخيرية.
 - التنسيق على أرض العمل والمستوى الميداني في حالة القيام بأعمال مشتركة سواء أكانت إغاثية أم دعوية أم بحثية.
- ٣- هنالك احتمال أن يزداد الضغط الغربي على هذه المؤسسات وعلى الدول باستمرار إثارة اللغط حولها واستغلال ما لديها من ثغرات سابقة أو اختلاق أمور عليها، لأن بعض هؤلاء لن يرضوا بأي تنازل إلا أن يقود إلى إلغاء المؤسسات كما فعلوا بمؤسسة الحرمين ومؤسسة النجدة الإسلامية بأمريكا ومؤسسة الأرض المقدسة للإغاثية والتنمية وفروعها بأمريكا ومؤسسة جمعية

دراسات في الشاه الإسلامي

الأقصى الخيرية بألمانيا، وقد يتعدى الأمر ذلك إلى ملاحقة كل مظاهر التدين الباقية في الدولة وإداراتها!

٤- سوف يتسع نشاط هذه الجمعيات الباقية دولياً في آسيا وأفريقيا بالذات، وقد تصطدم ببعض المنظمات النصرانية في تلك المناطق بعد أن استطاعت المؤسسات الخيرية الإسلامية إحباط خططها للتصير في أفريقيا. وما دعاوى الإرهاب إلا سيف مصلت على رؤوس تلك المؤسسات ورجالها ودولها. وعلينا أن نطالب دائماً بالدليل الحاسم الذي يبت فيه جهة قضائية مهما كان ذلك مضمناً لأن في هذا فضحاً لليهود والصهاينة والنصارى الجدد الذين يسيطرون على دوائر صنع القرار في بعض الدول.

٥- قد تصطدم هذه الجمعيات بالمحتل اليهودي في فلسطين، ولذا ينبغي لها أخذ الحيطة في البرامج المقدمة للإغاثة والدعوة والتربية في فلسطين مع عدم الخضوع للابتزاز الصهيوني والإسرائيلي.

٦- على هذه الجمعيات أن تتنظم مع الجمعيات العربية والإسلامية المماثلة في مجالس عامة للتنسيق والتعاون، وقد ظهر مثل هذا النشاط حديثاً في مثل المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة في القاهرة، والمكتب الدولي للجمعيات الخيرية والإغاثة في جنيف.

٧- على الجمعيات الخيرية أن تتعاون مع الجمعيات غير الإسلامية في المجالات المشتركة مثل برامج الأسرة والمحافظة عليها، وبرامج مكافحة المخدرات بين الشباب، ومجال الرعاية الصحية، والبرامج الإغاثية، بالإضافة إلى ضرورة مشاركة الجمعيات الخيرية في عضوية الهيئات التي تسهل عملها مثل هيئة الأمم والمتحدة بجميع أجهزتها، وهذا يوسع من دائرة عملها وعلاقاتها وأصدقائها.

٨- ضرورة الاهتمام بالبرامج النوعية، وعدم الانخراط كلياً في أنشطة مكررة، ومن تلك البرامج النوعية المحتاج إليها مثلاً: نشر الكتاب الإسلامي

داسات في الشأن الإسلامي

باللغات المختلفة، واستغلال وسائل الدعوة المستجدة، ومتابعة الأنشطة الدولية الموجهة إلى هدم القيم الدينية كبرامج الأسرة والسكان والمرأة التي تبشر بها بعض منظمات الأمم المتحدة.

٩- ضرورة تطوير المؤسسات الخيرية بكامل أجهزتها. وتفرغ منسوبيها ورفع قدراتهم وتعريفهم بالعمل العالمي وطرقه، وفهم عقلية القائمين عليه، ويكون ذلك بواسطة الآليات الآتية:

أ- في مجال العاملين:

أهم مشكلة تواجه الجمعيات الخيرية بالنسبة للعاملين فيها عدم تفرغهم وارتباطهم بمؤسسات أخرى حكومية، إما لصعوبة تأمين المستحقات والرواتب من لدن الهيئات أو لزيادة الأمان الوظيفي، وهذا ما يضعف من عطاء العاملين. ولذلك فإن من الضروري أن يكون هناك تعاون من المؤسسات الحكومية في تفرغ العاملين الذين تحتاجهم الهيئات الخيرية مع تحمل كل النفقات المالية المترتبة على ذلك.

ويتفرغ عن ذلك تطوير العاملين في المؤسسات الخيرية خلال:

- عقد الدورات التدريبية للعاملين كل في تخصصه.
- تبادل الخبرات من الكوادر الوظيفية بين المؤسسات الخيرية فيما بينها والمؤسسات الحكومية.

ب- تطوير الخطط والأهداف:

وهذا لا غنى عنه لأي مؤسسة تريد مسايرة التقدم، وليس المقصود بذلك الأهداف الإسلامية الكبرى، بل الأهداف المرحلية والوسائل التي يُحتاج إليها للوصول إلى الغايات الإسلامية العظمى، ولا بد عند تطوير الخطط والأهداف أن يراعى فيها النظم العلمية المتبعة في ذلك مثل الواقعية، والوضوح، وتحديد أزمنا معينة للتطبيق والتقييم، وقابلية التنفيذ. وهذا ما يعين المؤسسة على

دراسات في الشاهد الإسلامي

العمل وفق خطط معينة لتحقيق أهداف معينة بعيداً عن الفوضوية والسير
كيفما اتفق، أو الجنوح بعيداً عن الأهداف الحقيقية لعمل المؤسسة.

ج- تطوير الأجهزة الإدارية وآليات العمل:

وهذا ما يتيح فرصة أكبر لتحقيق العمل بصورة مرضية، حيث إن هناك مشكلة
تواجه الجمعيات الخيرية في إدارتها وهي محاولة تقليل الإدارات والأقسام
ودمجها مع بعضها البعض حتى لا تحتاج إلى أطر إدارية وكوادر وظيفية، إلا أن
هذا الأمر يكون على حساب الإنتاج وتداخل الأعمال وكثرة الأعباء على العاملين،
وضعف التخصص، ومع الإيمان بالتخصص وأهميته وجدواه الفعلية فلا بد من
تطوير الأجهزة وإعطائها تقسيماتها الإدارية المعتبرة، إضافة إلى توافر كل آليات
العمل المتطورة من مبان مناسبة ووسائل تقنية حديثة.

١٠- ضرورة زيادة الموارد المالية لأن المؤسسات الخيرية تعاني من نقص
الأموال، ولا تستطيع تنفيذ كثير من مشروعاتها الحيوية بسبب نقص المادة،
وقد ازداد الأمر سوءاً عن السابق لأن سبل التبرعات قد حُجِّمَتْ، بالإضافة
إلى أن أكثر التبرعات في الأصل لا يمكن التصرف فيها إلا فيما خصصت
له من زكاة أو بناء مسجد أو كفالة يتيم أو أسرة. ولو نظرنا إلى الهيئات
الخيرية العالمية لوجدنا أرقام دخولها خيالية، فالمنظمات الخيرية في أمريكا
وحدها تنفق سنوياً عشرات المليارات داخلياً وخارجياً في جميع المجالات
الدينية والصحية والإنسانية والبيئية مع تقديم جميع التسهيلات الحكومية
والحصانة الدبلوماسية. وفيما يلي أرقام عن ذلك:

(١) الولايات المتحدة الأمريكية: (٢٠٠٤م) ٢٤٨,٥ مليار دولار (عن موقع

Giving Institute: [www: AAFRC.org](http://www.AAFRC.org))

(٢) بريطانيا (عام ٢٠٠٣م): ٣١,٦ مليار جنيه إسترليني (من موقع

المفوضية الخيرية: <http://www.charitycommission.gov.uk>)

(٣) دول مجلس التعاون الخليجي: أقل من مليار دولار.

داسات في الشأن الإسلامي

- الموارد المالية للمؤسسات الخيرية بحاجة إلى جهود كبيرة لدعمها وتسيير عملها ويمكن تقديم بعض المقترحات التي تعين على ذلك فيما يلي:
- أ. زيادة الدعم المادي الحكومي والشعبي للعمل الخيري بما في ذلك الأموال والمخصصات وتقديم التسهيلات.
- ب. إسناد بعض الأوقاف والاستثمارات الثابتة كالمباني وغيرها إلى المؤسسات الخيرية للاستفادة من ريعها وصرفه في مشروعاتها، خاصة أن الأوقاف كانت هي الداعم الأساس للعمل الخيري على مر العصور الإسلامية.
- ج. سعي المؤسسات الخيرية بنفسها لإيجاد مشروعات موارد ثابتة لتغطية النقص الحاصل ومواجهة الظروف الصعبة.
- د. إيجاد مؤسسات وقفية مانحة للجمعيات الخيرية وداعمة لها، عبارة عن شركات وأسهم وأعمال تجارية وغيرها مثل ما هو موجود في الغرب مثل مؤسسة بيل غيتس، ومؤسسة فورد في أمريكا وغيرها.
- هـ. الاستعانة ببيوت الخبرة والهيئات الاستشارية في مجالات الاستثمار المتعددة لرسم الخطط، واقتراح المشروعات الاستثمارية الناجحة.
- و. تسويق المشروعات الخيرية والسعي للتعريف بنشاطات المؤسسات الخيرية وأهميتها، وتدريب العاملين على أفضل سبل جمع التبرعات.
- ز. فتح مجالات التعاون بين المؤسسات الدعوية والجهات الرسمية عن طريق الدخول في مشروعات تجارية تتولى الجهات الرسمية تمويلها، وتنفيذها المؤسسات الخيرية.
- ح. الاستعانة بمكاتب المحاسبة القانونية لإخراج الموازنات المالية والحسابات بمعايير مهنية رصينة.
- ١٠- السعي إلى توطين العمل الخيري في المجتمعات المستهدفة بواسطة تدريب كوادر من تلك المجتمعات ومساعدتهم على إنشاء مؤسسات خيرية راشدة.

الخاتمة

وبعد فإن حديثنا عن الجمعيات الخيرية وما تمر به من منعطفات خطيرة لا يعني بحال من الأحوال أننا نتوقع زوال العمل الخيري أو خموله، بل إننا على يقين - بإذن الله تعالى - بمستقبل مشرق له، ولكن ما نؤكد دائماً ، هو ضرورة تنشيط الجمعيات الخيرية في عملها وأن تكون جادة في مواجهة المخاطر وأن تكون على مستوى المسؤولية، فإن الحاجة لها ماسة خاصة في هذه الأوقات التي تفاقمت فيها حاجة الناس في كل مكان، وهذا ما يدفعنا - بإذن الله تعالى - إلى مضاعفة الجهود ومواصلة السير الحثيث، والله معز دينه وناصر جنده، والحمد لله رب العالمين.

إصدارات أجنبية

إعداد : أ. منير محمد كمون

مستشار بإدارة الدراسات برابطة العالم الإسلامي



دراسات في الشأه الإسلامى

حروب آل بوش

إيريك لوران

اللغة : الفرنسية

عدد الصفحات : ٢٥٠ صفحة

دار النشر : بوكيت

سنة النشر : ٢٠٠٣ م

في هوليوود ، أفلام الحركة حكاياتها بسيطة؛ إذ هناك أناس طيبون ويقابلهم أناس سيئون، أما في واشنطن ومنذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فيبدو الأمر شبيهاً بذلك ، أي أن هناك ما يسمى " الحرب على الشر " الذي يقف على عتبة بابنا والدول الغربية ترفض رقصة المحتار والمتردد بين التسلط الأمريكي وبين الرغبة في الحفاظ على السلام، ذلك أن الحقائق الجغرافية السياسية ليست بهذه البساطة وهذا ما يثبته إيريك لوران في هذا الكتاب وهو مراسل ومتخصص مشهور في شؤون الشرق الأوسط.

لقد انطلق لوران من اهتمامه بعائلة بوش من مثال بوش الجد وصدقاته مع الألمان والذي كان شعاره : " قبل أن تتطلق في السياسة يجب أن تتجح في الأعمال ، ووقتها فإن ناخبك سيقتعون بأنك كفو وأنه لا مطامع شخصية لديك وأنت تعمل للصالح العام " .

ويصور الكاتب أيضاً محيط بوش الملىّ برجال المال ويعود بنا إلى حرب الخليج الأولى ويدهشنا بالتقارير عن علاقات الأمريكيين الصناعية والسياسية مع صدام حسين في ذلك الوقت، ويثيرنا بأسراره التي يكشفها ومنها أن وكالة المخابرات الأمريكية قد زودت العراقيين بمعلومات لضبط

دراسات في الشأه الإسلامى

دقة الأهداف التى كان يضربها العراقىون أثناء الحرب مع إيران، لقد ساعد جورج بوش العراق وذهب عام ١٩٨٤م إلى حد التدخل من أجل توفير قروض للعراق.

لدى قراءة هذا الكتاب الهام فإنه من الصعب عدم مراجعة قراءتنا للتارىخ فى العشرين السنة الماضىة .

لقد عمد جورج بوش الأب والابن إلى معالجه ملفات سرىة وكان الثمن حربىن على العراق.

التاريخ السري للموساد

من عام ١٩٥١ إلى يومنا هذا

توماس غوردن

اللغة : الفرنسية

عدد الصفحات : ٥٢٥ صفحة

دار النشر : نوفوموند

سنة النشر : ٢٠٠٦ م

إن مهمة الموساد (معهد المعلومات والعمليات الخاصة) هي السهر على حماية أمن دولة إسرائيل ، وقد قام الموساد بعمليات كبيرة في مجال التجسس ومكافحة ما يسمى أعمال " الإرهاب " والقتل المدوية خلال القرن العشرين .

ولكي يكتب غوردن هذا الكتاب الفريد حول هذا الموضوع أمضى وقتاً طويلاً يجمع مادته خلال مقابلات عديدة مع أعضاء في الموساد، من المخبرين والجواسيس والقادة القداماء فيه .

وقد توصل إلى الإطلاع على وثائق ومصادر ومعلومات سرية مكنته في هذا الكتاب من نشر معلومات غير مسبوقة عن الاستخبارات الإسرائيلية .

وقد استغل الكاتب موهبته، ككاتب روايات بوليسية ليصور لنا أنشطة الموساد المختلفة ومنها: اختطاف أدولف أيخمان ، القتل الممنهج لأعضاء أيلول الأسود الذين اشتركوا في قتل الرياضيين خلال الألعاب الأولمبية عام ١٩٧٢م، وأيضاً سرقة الزوارق القاذفة للصواريخ من فرنسا التي فرض

دراسات في الشاه الإسلامي

الجنرال ديجول حظراً على تصديرها لإسرائيل، التسلل إلى أجهزة المخابرات العربية ، الروابط بين الموساد ووكالة المخابرات الأمريكية والفايكان .

وفي فصول الكتاب الأخيرة ، يروي الكاتب كيف أن الموساد خطط لاغتيال الرئيس العراقي السابق صدام حسين ، وما تجمع لديه من معلومات حول الشركات الأمريكية في الصين وعلاقتها بأسامة بن لادن ، نكتشف أيضاً معلومات الموساد حول موت الأميرة ديانا، وحول اختفاء الملايين التي تم تحويلها من بنك الفاتيكان إلى حركة التضامن البولندية، وعمل المخابرات الإسرائيلية السرية في حرب العراق وتعقب صدام حسين وأسامه بن لادن .

أن توماس غوردن كاتب لعدة روايات، ونشر ٣٧ كتاباً تتناول في معظمها موضوع المخابرات وهو يعيش حالياً في إيرلندا .

إسرائيل- فلسطين: حقائق الصراع

ألان غريش

اللغة : الفرنسية

عدد الصفحات : ٢٢٠ صفحة

دار النشر : بلوريل

سنة النشر : ٢٠٠٣ م

يعيد آلان غريش في هذا الكتاب سرد التاريخ الطويل للصراع الإسرائيلي الفلسطيني منذ ولادة الصهيونية حتى عام ١٩٤٨م وإنشاء دولة إسرائيل ومقاومة الفلسطينيين تحويلهم إلى لاجئين، وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية حتى حرب ١٩٦٧م وسلام أوسلو ، وهو تسلسل للأحداث من الضروري فهمه .

لكن آلان غريش لا يكتفي بسرد تسلسلي للأحداث، بل يضعها في إطار تحليلي يعطيها معنى في ظل التحولات العالمية، وهو يؤكد على أهمية آمال السلام في الشرق الأوسط ، التي ولدت عقب المصافحة التي جرت بين ياسر عرفات وإسحاق رابين. وهو أيضاً يحاول أن يقيم في هذا الكتاب الأوضاع بعد اندلاع الانتفاضة الثانية وما بعد الحادي عشر من سبتمبر، وتطورات السياسة الأمريكية. وبرأيه فإن اندلاع أعمال العنف تهيئ الظروف لسلام دائم أي إقامة دولتين، وبحدود دولية مضمونة.

وآلان غريش هو رئيس التحرير في صحيفة " لوموند ديبلوماتيك " وكان قد كتب عدة مؤلفات حول الشرق الأوسط والإسلام.

هل يمكن نقد إسرائيل؟

باسكال بونيفاس

اللغة : الفرنسية

عدد الصفحات : ٢٣٩ صفحة

دار النشر : بروشيه

سنة النشر : ٢٠٠٣ م

" إنني أرى أنه من غير المقبول هذا الإرهاب الفكري، المتمثل في اتهام كل شخص ينتقد الحكومة الإسرائيلية بمعاداة السامية ".

هذا ما قاله كاتب هذا الكتاب باسكال بونيفاس مدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية في صحيفة لوموند الفرنسية صيف عام ٢٠٠١م وأثار بهذا الكلام زوبعة إعلامية ، لأنه أثار قضية هامة وهي أن كل نقد موجه لحكومة إسرائيل يعتبره البعض نوعاً من معاداة السامية ، وهاجمته الصحافة التي حذفت جزءاً من خطابه وعمدت إلى تجاهله وعدم فهمه وأدى الأمر إلى وقوع خلاف مع سفير إسرائيل في فرنسا وكان عرضة لضغوطات معنوية وحتى لتهديدات شخصية .

إن هذا الكتاب يلقي الضوء على تشعب وتعقد التزام المثقفين في مواجهة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وهو يؤكد هنا أن الحوار أصبح أكثر صعوبة وتعقيداً ويلاحظ أن تحولاً راديكالياً في المواقف السياسية وحتى انحرافاً لبعض من يسمون أنفسهم مثقفين ديموقراطيين منفتحين، قد حدث من أمثال الفيلسوف " آلان فينكيلروت " الذي سقط في الفتوية والطائفية بحيث أصبح يدافع عن الطروحات الأكثر راديكالية المساندة لإسرائيل والتي كان يرفضها منذ وقت ليس ببعيد .

داسات في الشأن الإسلامي

وانطلاقاً من المسألة الصعبة المتعلقة بحرية الكلمة فيما يتعلق بموضوع الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ومن مسألة تسميم الأجواء الأيدلوجية فيما يخص هذا الموضوع ومن الشبهات المثارة ما بين نقد سياسة الحكومة الإسرائيلية والتفسير الجاهز لهذا النقد على أنه من قبل المعاداة للسامية أو الموالاتة للفلسطينيين ، يحاول باسكال بونيفاس الخروج من هذه الحلقة المفرغة ليؤكد انتصار الحوار الديمقراطي على التقوقع على الهوية ، ويقول الكاتب أيضاً : " إنني أعلم أن هناك أناساً يكرهونني حتى دون أن يعرفوني والأسوأ من ذلك أن البعض منهم من ذوي النيات الطيبة ، لأن ما يعرفونه عني هو ما قلته من كلام تم تحريفه " .

وهو هنا يشير إلى واقع شاذ ، وهو استحالة نقد حكومة إسرائيل دون التعرض لاتهامات خطيرة وإجراءات قمعية من قبيل الإرهاب الفكري .

إن يهود فرنسا ليس لديهم موقف موحد والكثير منهم ينتقدون حكومة إسرائيل ويساندون الأطراف الداعية للسلام، إلا أن اليمين واليمين المتطرف قد أطلقا حملة عدم تسامح تهدف إلى جعل كل اليهود يساندون دون تحفظ سياسة اليمين الإسرائيلي ، وانطلاقاً من هذا الواقع فإن أي محاولة لتناول الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بالبحث تفهم على أنها رغبة في تدمير إسرائيل وأنها موقف معادٍ للسامية .

ويحلل باسكال بونيفاس هنا هذه الآلية الخطيرة ويدلي بمعلوماته وبآرائه حول هذا الموضوع. وهي آراء من شأنها إقرار نظرة متوازنة بدونها لا يمكن الحديث عن أي تفاوض سلام ممكن .

والكاتب متخصص في المسائل السياسية الجغرافية ومدرس، وكان قد كتب حوالي ثلاثين كتاباً في العلاقات الدولية .

الشياطين/ والله !

فرانسوا بورجا

اللغة : الفرنسية
عدد الصفحات: : ٢٨٥ صفحة
دار النشر : لاديكوفرت
سنة النشر : ٢٠٠٢ م

عقب صدور هذا الكتاب ثار جدل عنيف ولكنه مفيد، فقد عمد فرانسوا بورجا كاتبه إلى عدم التوقف عند أصوات القنابل وحاول تخطي خندق الكراهية وعدم التفاهم الذي يزداد اتساعاً والذي يغرق ضفتي المتوسط كل يوم أكثر ، من أجل أن يصل إلى فك شفرة ما يسميه الخطر الإسلامي المتطرف . فهل يخيف تحول العالم العربي نحو هذا المنحى؟

الكاتب هنا يقترح علينا تمريناً لحل الطلاسم ولقاء من نوع خاص مع الإسلاميين ليس بالطبع مع واضعي القنابل الذين هم أقلية لكن مع المنظرين الذين يؤطرون ويقودون حركة إعادة الأسلمة من الرباط إلى غزة فقد التقى بهم مطولاً ويعيد في كتابه هذا ما قالوه في شكل تقرير .

إن فرانسوا بورجا مستعرب وسياسي وقد عاش سبع سنوات في الجزائر وخمسة في مصر وهو لا يخشى من الحقائق التي تقلب الفكر السائد في الغرب ، فبالنسبة إليه فإن الإسلاميين الآن يواصلون مسيرة التحرر من الاستعمار ويواصلون هذه المسيرة في مرحلتها الثالثة، الثقافية والأيدولوجية بعد التحرر السياسي والاقتصادي، فالإسلاميون إذن بحسب رأي بورجا يواصلون مسيرة طويلة من استعادة الهوية .

داسات في الشأن الإسلامي

والحقيقة الثانية كما يؤكد ذلك بورجا هي أن الإسلاميين تساندهم حركات شعبية قوية ، فليدهم نفس الشرعية التي لأبائهم الذين قاوموا الاستعمار. وكوادر هذه الحركات ليسوا من الناس المهمشين بل منهم الطبيب والمحامي والمدرس والعالم.

ولتبرير عنف هذه الحركات ، يقول بورجا بأنه يجب النظر بتفهم إلى الفساد الذي يمارس في دولهم ولذلك فإن هذه الحركات أصبحت بمثابة آلات تنتج التطرف الايديولوجي والسياسي. حسبما يرى.

والغرب أيضاً يتحمل في ذلك كله جزءاً من المسؤولية بإنكاره لهم وعدم اعترافه بشرعية هذا الجيل السياسي الجديد .

والشيء الأكثر إثارة للجدل في كتاب بورجا هو تأكيده بأن الحداثة السياسية والاجتماعية في العالم العربي يمكن تحقيقها في ضوء الإسلام وعن طريق الشبكات الاجتماعية والتربوية التي طورها الإسلاميون. وهذا ما سبب تشويشاً في أذهان الغربيين وفي الفهم العلماني الغربي للحداثة إن الإسلاميين حسب بورجا بارادتهم ورغبتهم استعادة هويتهم وسيطرة ثقافتهم التي أهانها الاستعمار لا يعني ذلك بالنسبة لهم التخلي عن التقدم نحو مزيد من الديموقراطية والتسامح.

وفي وقت تعود نظرية صراع الحضارات إلى الواجهة بعد أحداث ١١ سبتمبر فإن قراءة هذا الكتاب تبدو ضرورية لفهم الأمور بشكل مغاير.

إفريقيا في مواجهة الظاهرة الإسلامية

جون بول نغوبوندي

اللغة : الفرنسية

عدد الصفحات : ١٨٣ صفحة

دار النشر : آلبان ميشال

سنة النشر : ٢٠٠٣ م

مؤلف هذا الكتاب هو الوزير الأول السابق لجمهورية إفريقيا الوسطى ويعبر في هذا الكتاب عن خشيته المزعومة من انتشار الإسلام الراديكالي في القارة الإفريقية ، ويدعي بأن الإسلام يزداد راديكالية اليوم في إفريقيا بفعل التدخلات السياسية في الدين بهدف الاستيلاء على السلطة وتزايد وجود الشبكات الإسلامية المغاربية والشرق أوسطية في القرن الإفريقي، وتزايد أعداد السود في هذه الشبكات الموجودة في ضواحي العواصم الأوربية ، وكذلك تزايد المواقف المضادة للغرب في إفريقيا نفسها . وقد أدى الفساد الموجود في دول إفريقيا إلى تفاقم ظاهرة الشبكات الإسلامية حسب رأيه .

ويشير الكاتب في المقابل إلى تفاقم ظاهرة الشبكات المسيحية خاصة في نيجيريا والزائير والكاميرون وساحل العاج التي تتخفى وراء ما يسمى مقاومة الإسلام .

مسلمون ومسيحيون : لدينا الكثير من الأشياء نقولها لبعضنا البعض

رشيد بن زين وكريستان دولورم

اللغة : الفرنسية

عدد الصفحات : ٢٥٢ صفحة

دار النشر : أكبان ميشيل

سنة النشر : ١٩٩٨ م

إذا كان رشيد بن زين ، وهو أستاذ مسلم من أصل مغربي والقس كريستان دولورم لديهما الكثير من الأشياء التي يقولها أحدهما للآخر ، فإن ذلك دون شك ممكن بفضل إخلاصهما لدينهما ، وقد ترجماهما عملياً خلال العمل الاجتماعي في قلب الأحياء التي يطلق عليها تسمية " الأحياء الحساسة " التي يسكنها المهاجرون من أصل عربي وشمال إفريقي بالخصوص في فرنسا .

إن كلا الرجلين يسردان في هذا الكتاب ، المراحل الكبرى لمسيرتيهما . وفي الجزء الثالث بعنوان : " عندما يتعانق الإسلام والمسيحية " يسرد كل منهما انطباعاته عن رسول الإسلام ﷺ والمسيح وهما بذلك يدعوان إلى الحوار الذي لا مفر منه .

إن الكاتبين مسلم ومسيحي يلتقيان في هذا الكتاب ليسردا مسار كل منهما وكيف أنهما وصلا إلى معرفة دين الآخر واحترامه وهما يدعوان إلى إقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين في ظل الاعتراف المتبادل والاحترام .

الإسلام والمنطق معركة الأفكار

مالك شبيل

اللغة : الفرنسية

عدد الصفحات : ٢٣٨ صفحة

دار النشر : مكتبة بيران الأكاديمية

سنة النشر : ٢٠٠٦ م

يقول الكاتب : عندما يكون وضع الإسلام في حالة سيئة فإن صوت العقل لا يسمع، وفي وقتنا الحاضر فإن ضغط المتشددین لا يترك مجالاً لسمع صوت المعتدلين.

ويستعرض الكاتب في هذا الكتاب أهم الأزمات في تاريخ الإسلام . ويوضح بأنه إذا كان الإسلام قد مر بفترات رخاء وازدهار كما في العصر العباسي وفي الأندلس وقرطبة وغرناطة أو في مصر الفاطمية ، فإنه قد مر بأزمات كبرى وبحروب أهلية وصراعات بين متمسكين بأفكار جامدة وبين المدافعين عن العقلاء والمنطق مثل ابن رشد والفارابي وابن خلدون.

ويستعرض الكاتب أهم المراحل التي مر بها الإسلام من الناحية الفكرية منذ عهد الرسول ﷺ والمفكرين الأوائل حتى المصلحين في العصر الحالي المنجذبين إلى الحداثة في مواجهة تشدد جامد وعنيف في أغلب الأحيان؟ ويضمن الكاتب ، نص كتابه ، سرداً لأهم الأحداث التي عرفها التاريخ الإسلامي، وسيرة ذاتية لأهم الفلاسفة والرياضيين والعلماء الذين سعوا من أجل انتصار العلم والمنطق والعقل.

تاريخ الإسلام والمسلمين في فرنسا منذ العصور الوسطى وحتى اليوم

إشراف: محمد أركون

أسهم في تأليف هذا الكتاب الضخم ما لا يقل عن خمسة وسبعين باحثاً عربياً وأجنبياً نذكر من بينهم المؤرخ الشهير جاك لوغون والمشرف العام على المشروع محمد أركون وعلى بن مخلوف أستاذ الفلسفة العربية الإسلامية في جامعة نيس بجنوب فرنسا ورشدي راشد أكبر مختص بتاريخ العلوم عند العرب وأستاذ الشرف في جامعة طوكيو. وباك فريمو أستاذ علم التاريخ في جامعة السوربون وصاحب الكتاب المعروف عن العلاقات بين فرنسا والإسلام منذ الثورة الفرنسية وحتى اليوم ، ولا ينبغي أن ننسى المؤرخ الجزائري محمد حربي والروائي اللبناني المعروف أمين معلوف وهنري لورنس أستاذ التاريخ المعاصر للعالم العربي في الكوليج دو فرانس الخ. ويتألف الكتاب من مقدمة وخاتمة وأربعة أجزاء كبرى، وكل جزء يتفرع إلى عدة فصول، فالجزء الأول يتحدث عن العلاقات بين فرنسا والعالم العربي الإسلامي في العصور الوسطى ، وهنا نجد عدة فصول تشرح نوعية هذه العلاقات بكل جوانبها وتفاصيلها وهي.

الفصل الأول: مثلاً ويتحدث بشكل عام عن الحضور الإسلامي في فرنسا ابان تلك الحقبة .

الفصل الثاني: ويتحدث عن المرحلة المضطربة للحروب الصليبية، ولكن لم تكن كلها عداءات وحروباً على عكس ما نظن. وإنما تخللتها فترات سلام وتفاعل وتبادل تجاري وثقافي بل وحتى علاقات شخصية بين كلا الطرفين . فصالح الدين الأيوبي مثلاً كان يتعاطى الهدايا مع ملوك الفرنجة.

دراسات في الشاه الإسلامي

الفصل الثالث: من هذا الجزء الأول يتحدث عن الصورة التي شكلها الفرنسيون عن الإسلام والمسلمين إبان تلك الفترة. وينبغي الاعتراف بأنها كانت صورة سلبية عموماً وقائمة على الجهل بتراث الإسلام العظيم وشخصية نبيه الكريم وهذا الشيء لا يزال مستمراً حتى الآن بشكل أو بآخر.

الفصل الرابع: ويتحدث عن كيفية استقبال الفكر العربي في فرنسا إبان تلك الحقبة القديمة. وهنا نجد عدة بحوث قيمة عن الإسهام الذي لعبه فكر الفارابي وابن سينا وابن رشد في إيقاظ أوروبا المسيحية وتدشين نهضتها المقبلة. فأوروبا كانت تغط آنذاك في ظلمات العصور الوسطى ولولا تتلمذها على العرب والمسلمين لما استطاعت النهوض من كبوتها.

الفصل الخامس: ويتحدث عن إسهام المسلمين والعرب في العلوم المحضنة وما قدموه لأوروبا في مجال علم الفلك، والطب، والبصريات، والرياضيات، والفيزياء، والفلاحة، والكيمياء، الخ.

أما الجزء الثاني من هذا الكتاب الضخم الذي يتجاوز الألف ومائتي صفحة فمكرس لدراسة العلاقات بين الطرفين في الفترة الحديثة أي فترة هيمنة الدولة العثمانية على مقدرات العالم الإسلامي. وهنا يمكن للقارئ أن يطلع لأول مرة على آراء كبار مفكري فرنسا وفلاسفتها بالإسلام والعالم الإسلامي. نذكر من بينهم مونتيني الذي عاش في القرن السادس عشر أي في عصر النهضة.

كما نذكر المفكر الشهير باسكال الذي كان معاصراً لديكارت هذا بالإضافة إلى فلاسفة التنوير الذين تلوهم وينبغي الإشارة إلى البحث الذي قدمه الدكتور علي بن مخلوف عن الموضوع الأول، وبالبحث الذي قدمته السيدة دومينيك كارنو، تورابي تحت العنوان التالي: نظرات حول الإسلام من العصر الكلاسيكي إلى عصر التنوير.

والجزء الثالث من الكتاب مكرس لدراسة الفترة المعاصرة من العلاقات

داسات في الشاه الإسلامي

بين الإسلام وفرنسا : أي الفترة التي تلت الثورة الفرنسية وحتى بدايات القرن العشرين حيث يتم التركيز على القرن التاسع عشر الميلادي والحملات الاستعمارية الفرنسية على الجزائر ودول المغرب العربي عموماً .

وهنا نجد بحثاً مهماً للبروفيسور هنري لورنس عن الإسلام في الفكر الفرنسي، من عصر التنوير إلى الجمهورية الثالثة. كما ويقدم المؤرخ جاك فريمو بحثاً مضيئاً بعنوان: المراحل المتتالية للاستعمار الفرنسي في أرض الإسلام. وأما روبيير سوليه فيقدم بحثاً معمقاً عن: نابليون بونابرت والإسلام. هذا في حين أن بيرنو ايتيان يقدم دراسة قيمة عن الإشعاع الفكري والروحي الذي مارسه الأمير عبد القادر الجزائري على الأوساط المسيحية والماسونية في فرنسا .

أما الجزء الرابع والأخير من الكتاب فخصص لدراسة العلاقة بين الإسلام وفرنسا في الفترة المعاصرة الممتدة منذ بداية القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية وتحقيق الاستقلال الوطني في معظم الدول العربية والإسلامية وطرد الاستعمار الفرنسي من بلادنا . كما ويتحدث هذا الجزء عن ظهور حركة معاكسة للاستعمار: أي هجرة المسلمين إلى فرنسا واستقرارهم فيها كعمال أو كعسكريين وجنود أو حتى كمتقنين وأساتذة الخ وهذا ما أدى بمرور السنوات إلى تشكل جالية عربية إسلامية ضخمة في بلاد فولتير وموليير وقد وصل عدد أفرادها الآن إلى خمسة ملايين وربما أكثر وأصبح الإسلام الدين الثاني في البلاد بعد المسيحية بمذهبها الكاثوليكي .

ويشمل هذا الجزء أيضاً دراسة الموضوع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم . وهنا نجد عدة بحوث مهمة منها الذي كتبه دانييل ريغ عن الاستشراق وهو يندرج ضمن إطار عريض يتخذ العنوان التالي : نظرات

دراسات في الشاه الإسلامي

فكرية وثقافية عن الإسلام ويمكن للقارئ أن يتعرف من خلال هذه البحوث على نظرة كبار المستشرقين إلى التراث العربي الإسلامي أي نظرة لويس ماسينيون ، وشارل بيلا ، وجاك بيرك ، وروجيه ارنالديز ، ومكسيم رودنسون ، واندرين ميكل ، وعشرات غيرهم.

بل ونجد بحثاً عن الإسلام في مرآة الآداب والفنون الفرنسية وحتى السينما الفرنسية أيضاً وبالتالي فالكتاب شامل جامع عن هذا الموضوع الخطير الذي يشغل وسائل الإعلام حالياً أي موضوع العلاقة بين الإسلام والغرب عن طريق فرنسا. ويرى المفكر الجزائري المعروف محمد اركون في المقدمة العامة للكتاب أن هذه هي أول مرة تقدم فيها صورة شاملة عن وضع الإسلام والمسلمين في فرنسا على مدار ألف وثلثمائة سنة.

والهدف من هذا الكتاب هو تهدئة المشاعر الهائجة والنقمة العارمة وتغيير صورة الإسلام والمسلمين في فرنسا وذلك من أجل مساعدة المسلمين على التوصل إلى مرتبة المواطنة الكاملة في كل أنحاء الفضاء الأوروبي وليس فقط في فرنسا. فهذه الصورة السلبية بل والشائنة المشكلة عن الإسلام والمسلمين منذ القرون الوسطى ينبغي أن تتغير لأنها ظالمة جداً وغير مقبولة. وهدف هذا الكتاب تغييرها لكي تحل محلها صورة إيجابية وإنسانية والتعريف بمنجزات الحضارة العربية الإسلامية يساعد على ذلك بدون شك، ومن ثم أن يتجاوز المسلمون والفرنسيون مرحلة الأحقاد المتبادلة إلى مرحلة التفاهم والتضامن الإنساني حول دائرة حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يفصل بينهم فنحن نقف على ضفته الشرقية الجنوبية وهم يقفون على ضفته الغربية الشمالية ولا تفصل بيننا إلا مسافة ساعتين بالطائرة (باريس / تونس / أو باريس / طنجة أو باريس / الجزائر الخ).

وقد آن لنا أن نتفاهم ويكتشف بعضنا الآخر بشكل علمي موضوعي،

داسات في الشأن الإسلامي

بعيداً عن كل ايدولوجيات الكره والنبيذ المتبادل . لقد آن الأوان لتجاوز حزازات الماضي الموروثة عن العصور الوسطى والحروب الصليبية أو عن العصر الكولونيالي الاستعماري في القرن التاسع عشر. ويرى اركون أن الغرب مدعو لتجاوز نظرتة الاستعلانية أو الاحتقارية الموروثة عن عصر الاستعمار وعلى العالم العربي الإسلامي أن يتجاوز نظرتة الأصولية الموروثة عن العصور الوسطى السابقة على تشكل الحداثة، فنحن نستورد أحدث أنواع السلع الاستهلاكية والآلات التكنولوجية الغربية...



دراسات في الشأه الإسلامى



Correction of the Image of Islam in the Minds of Non-Muslims

Dr. Murad Wilfried Hofmann
Deputy director
The German Islamic Institute
Germany



دراسات في الشأه الإسلامى

A. The Issue

Muslims in the West keep running into Islamophobia almost everywhere.

In fact, anti-Muslim feelings seem to be growing in intensity. The situation is about to reach a dimension that threatens peace both nationally and internationally. Clearly, something has to be done.

Against this background it is of the essence to

- * identify the salient features of the stereo-typical bad image of Islam (B);
- * understand the mechanisms responsible for it (C);
- * outline promising courses of action for its correction (D).

B. The Image of Islam

Correction of the bad image of Islam in the Occident presupposes a valid analysis of this image and its causes.

A historical survey will reveal that Islam was given a wrong image from its very beginning and almost without interruption. Indeed, we can distinguish the following four phases:

7th-17th Century CE:

As documented in the Qur'an, the earliest Muslims encountered mainly Jewish and heterodox Christian Arabs. The following Muslim expansion around the Southern shores of the Mediterranean brought Islam into contact not only with Orthodox Byzantine Christianity, but also with various Christians sects (e.g. Arians, Coptes, Donatists, and Nestorians). The very idea that God should choose an Arab for a divine revelation, and that after Jesus, was unimaginable— and even an insult — for most of them. Consequently, they tried to claim Muhammad

دراسات في الشاهد الإسلامي

(peace be upon him) for their own tradition in an inclusivist fashion. Thus some Christians portrayed him as an apostate, even as a magician or idol, and as a fallen cardinal of the Roman Church – someone who had misunderstood the Bible when trying to copy it.

On the other hand, this time in an exclusivist fashion. the Prophet of Islam found himself demonized. Thus Dante in his "Divina Comedia" placed Muhammad (peace be upon him) into the deepest pit of hell.

Summing up both trends Annemarie Schimmel wrote that "Muhammad has generated more fear, hate, and sheer contempt in the Christian world than any other person in history."⁽¹⁾

Of course, as a monotheistic religion Islam did pose an ideological threat to all other montheistic religions since these are necessarily universal in outreach. Therefore it was only too natural that Saint Cyprian (d. 258 CE), the Greek Church Father, formulated the utterly intolerant doctrine of extra- ecclesiam *nulla salus* (no salvation outside the Church). This amounted to a justification for placing "heathens", including Muslims, in front of the alternative of either converting or being executed.

As soon as the Umayyad and Abbasid expansions took place, Muslims were seen as war-like and aggressive, even blaming them wrongly of burning the world famous library of Alexandria.⁽²⁾

Muslims countered their opponents`religious imperialism by claiming that all true Jews and Christians, like Ibrahim before them, are Muslims in the original sense of the term, i.e. to be "submitted to God".⁽³⁾

By pursuing *Da'wah* globally they continued on the road traced by Muhammad (peace be upon him) already in 628 CE with his famous letter campaign, inviting all accessible contemporary overlords to accept Islam.⁽⁴⁾

دراسات في الشاه الإسلامي

No wonder that up to the Renaissance period, Christian-Islamic history was characterized by religious warfare. The Muslims started to divide the entire world into *dar al-Islam* and *dar al-harb*, the latter seen as territories destined to become Muslim, sooner or later. In the process, Muslim armies after overrunning Spain made their way into central France⁽⁵⁾, occupied Sicily, and tried, time and again, to take the imperial capital of Vienna.⁽⁶⁾

In turn, fired up by Pope Urban II in 1095, the Christian world showed its own aggressiveness when conquering, and trying to hold on to, the so-called Holy Land, mounting seven Crusades from 1096-1291, culminating in the "sack" of Al-Quds in 1099 and the savage massacre of its Muslim, Jewish, and Arab Christian populations.

These exploits were followed by the Christian Reconquista of Al-Andalus, ending with the fall of Granada in 1492 and by the subsequent Portuguese attempt to conquer Morocco.⁽⁷⁾

The "Most Catholic Kings" of Spain, most of them as fanatic as the couple Ferdinand and Isabella, proceeded to the first case of massive religious/ethnic "cleansing", organizing the exile from Spain of almost the entire Muslim and Jewish populations.

Even though both sides had shown military prowess and "forward defence", in the Western mind only Islam became tainted as a dangerous religion, supposedly expanding "through fire and sword".

Muslims' religious pluralism⁽⁸⁾ and their respect for figures like Jesus, Mary, or Moses, were not perceived, even after the Qur'an had become available in Western languages.⁽⁹⁾ No wonder that the first German Qur'an-translation by Salomon Schweiger, in 1616, prototypically was called "The Turks' Alcoran, religion and superstition". The Crusaders were even made to believe that Islam taught that "there is no God besides Muhammad".⁽¹⁰⁾

دراسات في الشأه الإسلامى

18th Century:

Thanks to personalities like King Frederic II of Prussia⁽¹¹⁾, Gott-hold E. Lessing, Johann Wolfgang von Goethe, and Voltaire, the Age of Enlightenment⁽¹²⁾ at least for a short time showed an amazing degree of interest for, and tolerance of, Islam. In particular, Lessing with his still performed drama "Nathan the Wise" (1779) for the first time produced a play on stage in which all Muslim characters, and only they, are shining models of good character.

To be sure, none of the people mentioned flirted with the idea of becoming Muslim. Rather, like Immanuel Kant, their leading philosopher, the thinkers of the Enlightenment considered themselves as "deists". i.e. people believing in God without church affiliation. In fact, some of them even (ab)used Islam to be seen as a rational religion, and as a vehicle for criticizing mystical Church dogmas like Trinity, Incarnation, Hereditary Sin, and Salvation on the Cross.

19th Century:

Alas, the Age of Enlightenment ran right into the Era of Colonization, during which the entire Muslim world (except parts of Arabia) was divided among four imperialist powers: Britain, France, the Netherlands, and Czarist Russia. Beginning with Napoleon's occupation of Cairo and his claiming to fulfil a "mission civilisatrice", the Europeans treated their Muslim subjects with contempt, as underdeveloped, primitive and backward– if not barbarian – people. Without any respect for their faith, the Western powers massively promoted the conversion of Muslims to Christianity, e.g. by building cathedrals in or above every city in Algeria, Morocco, and Tunisia.⁽¹³⁾

Now Islam in the West obtained the image of being a Third World religion, a religion for uncivilized, coloured peoples.

True, the 19th century saw enormous Orientalist efforts to map out,

دراسات في الشأن الإسلامي

catalogue, and describe the Muslim world. In Germany, Gustav Flügel (d. 1870) in 1834 published the Arabic text of the Qur'an.⁽¹⁴⁾ Heinrich Fleischer (d. 1888) made of Arabic a specific academic subject. Theodor Noldeke (d. 1930) in 1860 sensationally published his "History of the Qur'an", attempting to date, and thus arrange chronologically, each and every verse.

However, as pointed out by Edward Said, these German Orientalists—like their British and French colleagues— in the end only served the imperialist penetraion of the Muslim world.⁽¹⁶⁾

At any rate, Muslims still suffer under the 19th century perception that they are intellectually inferior. Western people continue to speak more about Muslims than with them, and to interpret their religion for them.

20th/21st Centuries:

At the beginning of the past century Islam was considered in Western academia as a religion on the point of dying out. Nobody then believed any longer in the old truism of "ex oriente lux".⁽¹⁷⁾ In 1901, the German Orientalist August Müller alias Max Henning in the introduction to his Qur'an translation flatly observed that "Islam's political role obviously has run its course".⁽¹⁸⁾ In general, Orientalists now described and defined Islam primarily by how it fell short of European standards.

Typically Gustave von Grunebaum came to the astonishing conclusion that the Muslim civilization simply did not share the "major visions" of the West.⁽¹⁹⁾ Knowledgable political agents like the infamous "Lawrence of Arabia" deep down held the same contemptuous views.⁽²⁰⁾

Thus the breaking up of the Ottoman Empire during World War I was seen as predictable.⁽²¹⁾ The major European powers in 1922 quite

دراسات في الشاهد الإسلامي

naturally supported the Greek king's ill-conceived (and finally disastrous) attempt to win large chunks of Anatolia back for Orthodox Christianity and Hellenism. To bring home the symbolic nature of his adventure, King Constantine I set foot on Turkish soil outside the port of Smyrna/Izmir – precisely at the spot where the English King Richard I ("Lionheart") had alighted as a knight of the first Crusade...

The Serbian attempt in the mid-nineties to eliminate the last traditional Muslim pockets in Europe, in Bosnia and Kosovo, was the last such modern-day Crusade of the 20th century, soon followed up in the current century by the US-British intervention in Iraq – it, too, with religious overtones and undertones.

But the 20th century was also the very century of de-colonization, accompanied by an Islamic revival of entirely unexpected scope and intensity. Not only did Islam refuse to melt away. It came back with a vengeance: young, dynamic, and perky, represented and propelled not by traditional Muslim religious orders (at-turuq) but by the "Islamic Movement"⁽²²⁾ – a novelty whose ancestors and prime propagators almost exclusively were laymen, not trained Ulama but rather natural and social scientists: Activists like Jamaladdin al-Afghani (d. 1897), Muhammad Abduh (d. 1905), Muhammad Iqbal (d. 1938), Hasan al-Banna (d. 1949), Sayyid Qutb (d. 1954), Abul-Ala al-Maududi (d. 1979), Muhammad Asad alias Leopold Weiss (d. 1992), Alija Izetbegovic (d. 2003), Hasan at-Turabi, Rachid al-Ghannouchi and Yusuf al-Qaradawi.

Retrospectively the impact made by each of these, and by others as well, seems clear enough. Books like Abdu's "Risalat at-Tawhid", Iqbal's "The Reconstruction of Religious Thought in Islam", Qutb's "Milestones", at-Turabi's "Islam, Democracy, the State and Islam" or "Women, Islam and Muslim Society", Izetbegovic's "Islamic Declaration" as well as Asad's pristine commentary of the Qur'an reshaped

Muslim thinking globally.

However, now that Islam was revived and, through migration, carried to every corner of the world, it became once more a matter of anxiety and fear. From being seen as anachronistic Islam now is seen again as a threat. After 9/11, 2001, Samuel Huntington is no longer alone in warning of a "clash of civilizations", mainly between the West and Islam with its "bloody borders". Head scarves worn by Muslim women are now interpreted as signals of aggressive missionary attitudes.⁽²³⁾ Muslims peacefully practising Islam now are labelled "Islamists" which amounts to reducing Islam to a mere ideology.

Worse, all Muslims nowadays are likely to be considered "Jihadists", i.e. as fanatics trying to impose their faith by force, espousing violence as a political tool. In fact, the word "Jihad" has entered the vocabulary of most Western languages - but not with the Arabic meaning of the term (moral endeavour) but as meaning "armed attack". The results of this confusion are as dangerous as they are absurd.⁽²⁴⁾

Islam is now seen in the West as a belligerent religion, not only because of (legitimate) Muslim defensive actions in Kashmir, Chechnya, and Palestine, but also because of misinterpretations of the Qur'an. Intellectual havock is created in particular by confusing Qur'anic norms permitting defence as such (*ius ad bellum* in Roman law) with those norms which regulate the conduct of war in detail (*ius in bello* in Roman law). Thus the first sentence of verse 2:291 ("*fight them wherever you find them.*") is wrongly read as a permission to attack, anytime and everywhere, while in reality this verse presupposes a legitimate defensive situation and posture (2:291, fourth sentence; 22:39).

Matters are of course made worse by people who in the name of Islam carry out suicide attacks and attacks against innocent non-combatants, both actions being strictly forbidden by the Qur'an.⁽²⁵⁾

دراسات في الشاهد الإسلامي

The image of Islam in the West has been equally affected by the perception that Muslim women were discriminated, mummified, reduced to household chores and child rearing, and subject to "forced marriages", "honour killings" and female circumcision. Most Muslims know that Islam, well understood, does not justify any of this. But that is of little help. Whether justified or not, whether we like it or not, Islam is generally perceived in the Occident as a religion favouring men, particularly in terms of polygamy, repudiation, child custody, and inheritance.

Finally the image of Islam is quite badly affected by the Western perception of it being legalistic to the point of almost becoming Talmudic.⁽²⁶⁾ People indeed shake their heads in despair over Muslims who seem to take fine points of ritual more seriously than major moral concerns like justice, fraternity, and compassion.

But Europeans also complain about those Muslims who, while being ready to integrate into their guest countries and to be law-abiding, refuse to assimilate. In such cases Muslims by being asked to melt into the local "lead culture" are virtually denied the right to maintain their own identity. In fact, in most of Europe the former ideal of a multicultural society has all but vanished. Muslims are now seen as obstinately (if not subversively) holding on to a counter-culture.

Once again they are seen as posing a threat to the mainstream civilization. It upsets Western people in particular that Muslims refuse to abandon their belief in the literal revelation of the Qur'an, rather than to "de-mystify" their holy script "critically" the way it has been done with the New Testament – with disastrous results. Many see this Muslim conservatism as a stupid literalism. Again, as 1400 years ago, Islam thus evokes contempt.

Summing up the various types of prejudices cumulatively held in

the West against Islam: Islam is seen in the Occident as a:

- * foreign, Third World religion – primitive, backward, underdeveloped;
- * legalistic Talmudic religion – more concerned with form than substance;
- * inferior religion – as compared to Christianity as the "religion of love";
- * man's religion – ideal for Macho type, patriarchal men;
- * violent religion – expansive, aggressive.

This is quite a list ! Instead of eliciting interest and compassion it provokes contempt, hate, and fear.

C. The Mechanics of Prejudice

It is one thing to define a problem and another to solve it. This is particularly true in case of the internationally warped image of Islam because it is constantly reaffirmed by a series of mechanisms, including (1) the workings of collective memory, (2) biased text books, and (3) – above all – Islamophobia and ignorance prevalent in the media. (27).

Because of these mechanisms there is no hope that Western people one day will have forgotten their unpleasant associations with Islam. The problem will not go away by itself. On the contrary, it seems to find nourishment every day.

1. Collective Memory:

Social scientists disagree on whether there is such a thing as "collective memory". But nobody can deny that a collective consciousness does exist at any given time; and it would be strange indeed if this consciousness was not transmitted, at least in part, from generation to generation.

At any rate, one can easily discover at the popular level a subliminal animosity against all things Islamic in countries historically ex-

دراسات في الشاهد الإسلامي

posed to Muslims. This is the case, from west to east, in Portugal, Spain, France, Germany, Croatia, Serbia, Greece and Bulgaria.

In most cases what is remembered is not Islam but military occupation by Arabs, Berbers, and Turks. Thus the transmitted prejudice against Islam basically is a function of the patriotism, nationalism, and chauvinism evoked by past Muslim conquests. In fact, in these countries hostility for Islam has entered the local folklore.⁽²⁸⁾

In as much as it is based on that mechanism correcting the wrong perception of Islam presupposes no less than a reconstruction of history – of a history that seems to be running in people's blood.

2. Textbooks:

No doubt, the bad public image of Islam in the West is also a by-product of the teachings of history, geography, philosophy, and religion in school. Therefore, at least in Germany, the Netherlands, and Finland, schoolbooks were systematically checked for their anti-Islamic contents. Prof. Falaturi even proposed specific language for correcting this situation.⁽²⁹⁾ These efforts may go a long way in the right direction. But they take a very long time before becoming effective, if only because it is easier to correct texts than teachers' minds.

3. Media:

a) Books: From time to time inflammatory books, directly denigrating Islam and Muslims, make the headlines.⁽³⁰⁾ That is harmful enough. More harmful are, however, indirect attacks made rather innocently in travel and adventure literature. They are more damaging because their critique of things Islamic comes "on little cat feet" (Robert Frost), influencing subconsciously.

Prototype of this kind of mass literature are the many still popular stories published in Germany by Karl May (d. 1912). He never visited the Orient. But his fictitious Muslim character, Haji Halef Omar, ser-

vant to his German hero, Kara ben Nemsi, was to shape the German perception of Islam ever since.

To be sure, May never targets Islam directly. But imperialist hubris is right there when he describes Muslims. At best they are naive, superstitious, illiterate and child-like. In May's Near Eastern novels noble characters are Christian, exclusively.⁽³¹⁾ The few not-too-bad Muslims appearing in his novels invariably end up embracing the Christian faith. ⁽³²⁾

The most recent case of books following these mechanics was Salma Rushdie's "Satanic Verses". Yet, bad books on Islam can only be fought by better books on Islam, not by force, nor by going to court either.

b) Print and Electronic Media:

(i) Most of us are living in societies becoming more pluralistic by the hour. This is true for religion as well, thanks to post-modernist benevolence towards any kind of "otherness". In the West one is indeed exposed to a religious supermarket. Thus one runs into Christians who believe in re-incarnation and others who combine their Christian faith with shamanism à la Carlos Castaneda. Disciples of Hare Krishna or Baghwan no longer provoke public reaction, nor does the conversion to Buddhism of film stars like Richard Gere. Without offending anybody individuals can "out" themselves as neo-Thomists or neo-Marxists, as mystics without religion or as practising atheists.

It seems that the maxim of toleration formulated by the Prussian King Frederic II – "Everyone to find happiness his own way"⁽³³⁾ – had finally been implemented.

In particular, orthodox Jewish people enjoy the largest measure of good will, even if in terms of dressing and practices they do not differ much from those Muslim practices which are roundly decried as med-

دراسات في الشاهد الإسلامي

ieval, obscurantist, or even unconstitutional.⁽³⁴⁾

(ii) Once Islam enters into view, however, the picture changes drastically and the threshold of tolerance drops in a heartbeat. A beard, a "pro-gressive" symbol when grown by Ché Guevara, becomes a clear sign of regression when worn by a Muslim. A headscarf is perceived as appropriate in paintings depicting Mary, the mother of Jesus. But the same piece of cloth stirs up negative reactions if worn by a Muslim woman.

These are symptoms of an Islamophobia which "is an ingredient of all sections of the media..."⁽³⁵⁾. The media bear indeed the largest responsibility for the fact that Islam remains the most misunderstood of all religions. According to Akbar Ahmed, professor at Princeton University, "nothing in their entire history has threatened Muslims as much as the Western media."⁽³⁶⁾

Typically, the German weekly *Der SPIEGEL* in 1998 published a special edition entitled "Enigma Islam". Its cover showed a Muslim woman with eyebrows shaped like the swords emblazoned on the Saudi national flag.

In 1997 a public radio station in the German federal State of Bavaria shocked its listeners with the utterly fabricated statement that carrying a weapon was part of Muslim identity. On May 26, 1995, the German weekly *Die ZEIT* went so far as to print an anti-Islamic satire, involving the Prophet of Islam, in words I refuse to repeat.

These are just a few of thousands of examples of intentional, irresponsible misrepresentations of Islam spread by the media almost everywhere in the West, as most recently by those infamous caricatures of Prophet Muhammad (peace be upon him) printed in Denmark.

(iii) We must, however, not assume that all of the media act out of bad will, all of the time. On the contrary:

دراسات في الشأن الإسلامي

* Much of the damage is done by simply following the established rules. For the media good news normally is bad news in as much as it does not sell as well as sensational news items. (In turn one may label bad news as good news in commercial terms.) Consequently, primitive TV programmes tend to push more serious programmes off the air, very much as this had happened in the middle ages with good and bad silver coins.

* Journalists, too, are only human. They are under stress, subject to extreme time pressure, everything being "time sensitive". Who wants to blame someone like that for choosing the easiest way by spending as little time as possible on research? Surely, we cannot expect all journalists to be certified Islamologists.

* On the whole, the media cannot be much better than the societies they serve. In fact, they can only prosper if they fulfil popular expectations rather than trying to change them by forcing unwelcome information down people's throats. In that sense there is a media market following the laws of supply and demand. Thus if a society harbours anti-Islamic sentiments, the media will reflect them almost automatically. In fact, we all filter media reports for what we expect to see or read. This way we shall always find evidence for what we want to be true. Journalists are no different.

* There is, however, a significant gap between religious and moral convictions of the society at large and of journalists. In the US, for instance, it was established that while 50% of all Americans go to church regularly, only 9% of journalists do. Or while 72% of the American public have reservations about abortion, only 3% of journalists feel likewise.⁽³⁷⁾

* The Muslim world keeps furnishing the media with plenty of sensational material likely to reinforce the bad image of Islam (i.e. sui-

دراسات في الشاهد الإسلامي

cide attacks; terrorist attacks as on 9/11, 2001, in the US and on 3/11, 2004 in Spain; cases of forced marriages and honour killings). Muslims cannot deny such events or wish them away. They can only improve the resulting situation by responding to it honestly and constructively.

(iv) In order to counteract media distortions of Islam, it is essential to analyse various tricks habitually used by the media. They include the following:

* Pars pro toto effect: All human beings are conditioned to take part of reality (pars in Latin) for the whole (totum in Latin). The media cannot help showing parts of reality only. Yet, by selecting the concrete parts of reality, the media actively interfere in the perception (and thereby in the formation) of reality as a whole. Consequently, even if the parts of reality shown to us are true, the conclusions drawn for the whole of reality are bound to be wrong.

This mechanism is at work, for instance, when news from the Muslim world is mostly limited to scenes of war and suicide bombers included. This will inevitably create the stereotyped conviction that Islam is related to violence and that Muslims in general are violent.

* Image association: A well-known cynical trick is the schematic association of unrelated images in order to suggest a relationship that in reality does not exist. In newspapers this happens when pictures or texts of criminal activities (like bomb explosions no matter where) are shown right next to Islamic symbols (like mosques; men praying in rows or Hijab-wearing women). Such visual combinations are highly suggestive.

Our media are aware of this potential. Therefore they usually take care not to mention the religion or nationality of culprits – EXCEPT in the case of Muslims. In the media, Northern Irish terrorists usually

are not marked as Catholics or Protestants nor are Basque terrorists or those from Corsica.

But if a Palestinian or Chechen boy dares throwing a stone against his torturers, he is immediately labelled an "Islamic" terrorist.

Of course, certain Muslims – like those associated with al-Qa'ida - resort to what might be called self-marking when publicly claiming to act in the name of Islam.

* Trigger happiness: After 9/11 many Muslim mosques were raided in Western countries; some still are. The police usually comes in the early morning hours, accompanied by the local press. After doors have been smashed unnecessarily and tons of material confiscated, one hears no more. 99% of these razzias produce no result. But one can hardly find that out. If at all, failure is admitted in a few lines, in small print, on page 16, even though the sensational and illustrated report about the mosque storming had been splashed on page 1.⁽³⁸⁾

This approach resembles the one of trigger happy cowboy heroes. They, too, were prone to shoot first and excuse themselves later, if at all.

As a result, it has come to a point where mosques, in Western perception, are no longer seen as houses of prayer but as houses of conspiracy. Indeed, the terms like Muslim, Islamist, and terrorist are now used like synonyms.

* Dehumanization: In preparation of the Holocaust, German propaganda had labelled Jews as parasites and vermin, as infested insects. These evil metaphores suggested that to exterminate Jews would be as meritorious as extinguishing cockroaches.

Against this background it is alarming when "Islamism" is characterized as a malignant ulcer, as it already happened.⁽⁴⁰⁾ The same is true when a Dutch minister, as in 2007, maintains that intolerant Mus-

دراسات في الشاهد الإسلامي

lms simply lacked a gene, i.e. were made defectively.

* Selective Reporting: It is quite obvious that the media can only report a tiny fraction of all the crimes committed every day, world-wide. It is far less obvious that illegal acts committed by Muslims must be reported out of proportion. The excuse for that habit usually is that Islam poses a massive threat. But that assessment does not hold water because it is precisely based on uneven and disproportionate reporting that is criticized here.

* No Win Strategy: Suspicion against Muslims is so deeply entrenched in Western media that Muslims virtually cannot do anything right:

If a Muslima wears a Hijab, she is suspected of peddling Islam. If she takes her headscarf off, she is suspected of starting her "march through the institutions", clandestinely and subversively.

If Muslims are seen as unwilling to integrate, they are suspected of having problems with the constitution or legal system of their host country. If, they assimilate, they are suspected of infiltrating mainstream society.

If Muslims speak out against atrocities committed in Israel, Kashmir or Chechnya, they are seen as prospective terrorists. If they do not comment on political affairs, stay away from mosques, and make a point of being law - abiding, they are suspected of being "sleepers", i.e. disguised terrorists waiting for the order to strike.

Likewise, when the Central Council of Muslims in Germany (ZMD) in 2002 published an "Islamic Charta", pronouncing itself for integration (not assimilation) into German society, most commentators complained that this was a mere "step in the right direction". Some even suspected that the Central Council was practising Taqiyyah, i.e. did not really mean what they wrote.

D. Suggestions for Corrective Action.

We now know how the bad image of Islam in the West looks, how it came about (B), and which mechanisms keep it alive (C). These analyses are the basis for the following suggestions for concrete and corrective action. for what the Muslim world ought to do and not to do.

I. Recommended Action

1. Condemning Terrorism: Muslim governments and organizations must draw a clear line between Islam and unjustifiable violence. They must distance themselves from clearly illegal, indefensible actions, even if committed in the name of Islam, like suicide attacks and killing of innocent non-combatants. This can be done without passing a moral judgement on the Muslims involved since such judgement belongs to Allah) alone.⁽⁴¹⁾

At the same time, it must be pointed out that Islam has no greater affinity to violence than any other religion, but that Islam – like all religions – can be abused as a justification for criminal acts.

To claim that a true Muslim cannot be a terrorist is true but cannot be taken as a line of defence since this argument qualifies as escapism.

2. Improving Cooperation: Muslims are proud of belonging to one and the same universal Ummah. But Muslim countries are notoriously bad cooperators, be it bilaterally or multilaterally, as for instance within the OIC and the United Nations, be it on Kashmir, Chechnya or even Palestine, Muslim countries must no longer fail in bringing to bear internationally the weight of 1.5 billion Muslims. Otherwise they will eliminate themselves from the world politics.

3. Accepting Human Rights and Democracy: Muslim countries must stop dragging their feet when it goes to discuss democracy and

دراسات في الشاهد الإسلامي

human rights, as if they had something to hide, or as if Islam was incompatible with both.

Rather than being defensive about it, Muslims should discuss these matters proactively, without stumbling over linguistic hurdles.⁽⁴²⁾

If Democratiyyah is an unacceptable term, why not discuss political participation under the title of Shuracратиyyah? ⁽⁴³⁾

4. Educational Offensive: It is a scandal that Muslims, of all people, suffer from the highest rate of illiteracy – as if the Qur'anic revelation had not begun with the command *Iqra* !

This scandal is highlighted by the fact that Muslims so far have only produced one Nobel-prize winner in natural sciences. Obviously, this situation will not change unless natural science will be given greater prominence within Islamic schools and, in addition, curiosity and scepticism will be promoted there rather than being discouraged for pseudo-religious reasons.

5. Fighting Corruption: Corruption is not limited to Muslims. But it is intolerable that this vice should exist to the extent it does within Muslim societies. Just as drinking alcohol and smoking are seen much less within the Muslim world than in the Occident, corruption, too, should become a rarity.

As long as the Muslim world lacks behind in technology and production, it ought to be a more shining example at least in morality.

6. Respecting Women's Rights: If Muslim women were given their Qur'anic rights, the Muslim world as a whole would benefit a lot.. Because next to the presumption of an affinity to violence (wrongly identified as "Jihad") the perception of widespread discrimination against women is the worst obstacle for Islam in the West. Muslim women must no longer be seen as second class citizens. Their emancipation in full dignity is of course not to follow the Western example slavishly.

دراسات في الشاه الإسلامي

7. Islamic Banking: The Occident knows that in Islam the taking of interest on capital (Riba) is forbidden. Therefore Western people wonder why there is so little truly Islamic banking, even in Pakistan. Islamic economic thinking will not be taken seriously unless this failure is overcome.

8. Reducing Luxuries: Given that justice and compassion are among the highest moral values of Islam, it is disturbing to see to which extent the availability of oil and gas has seduced Muslims to display riches and to engage in a luxurious style of living.⁽⁴⁴⁾ The impression of "filthy rich Arabs" is enhanced by the large number of poor non-Muslim and Muslim "expatriate" workers who seem to do much of the real, and all of the dirty, work.

9. Media Offensive: The Muslim world is swamped with foreign media. Only recently has it begun – with Al-Jazeera TV from Qatar – to present its own views with the Western methods and technologies, and even, from London, in English. This is the road to be followed. Even then will it be nearly impossible to beat the Occident at its own media game.

10. Speaking with One Voice: Muslims living in the Occident must overcome their divisions on linguistic, ethnic, and sectarian lines. In other words: Arabs and Turks, Sunni and Shi'i Muslims, Wahhabis and Malikis ought to organize in such a way that Islam in each Western country has a representative who can speak for all of them. Otherwise the Western governments will continue to play off one fraction against the other.

11. Speaking Local Languages: Muslims should not only speak with one voice but in the languages of the countries concerned: English in Britain, Canada and the US; French in France and Belgium; German in Germany, Austria, and Switzerland. Only then Islam will

دراسات في الشَّاه الإسلامي

no longer be (mis)treated as a foreign and imported religion.

12. Practising Islam: There is no better way of promoting Islam than to practise it. Indeed, living with Islam in such a way that the non-Muslim neighbours gain respect may be the only way to spread Islam in the Occident, at and from the grass roots level. This implies that Muslims are seen to be honest, clean, diligent, reliable, peaceful, charitable, friendly with children and animals, and respectful of family values. If Muslims do not practise what they preach, their *Da'wah* efforts will be in vain.

13. Political Participation: Muslims in the West should enter all democratic parties – centre, to the left and to the right – regardless of the full compatibility of their programmes with Islam. This way Muslims may at least bring their views to bear during the process of policy formation and formulation. At the same time they can show their willingness to integrate into the political system of their guest countries.

14. Producing Muslim Lawyers and Journalists: At this juncture, the two professions Muslims need most are lawyers and journalists. Muslims in legal employment will help to assure that the local Ummah is given its rights. And Muslims in the media may help to overcome the ignorance and Islamophobia so prevalent there.

Muslim students in both fields should be supported with scholarships.

15. Developing Media Skills: Media skills should of course be acquired by all Muslim leaders, at every level. They should learn how to produce well-formatted press releases and when and how eventually to demand counter-statements from the media. In particular, Muslims must interfere whenever the local media violate the agreed rules of fairness.⁽⁴⁶⁾

To go for Islamic mass media in the West is another question. A

Muslim newspaper like *Islamische Zeitung* published in Berlin (Germany) while serving the Ummah is unlikely to achieve large circulation among non-Muslims.

Even a Muslim TV station is unlikely to attract many non-Muslim viewers, because it will not show semi-pornographic material or engage in speculative games.

16. Explain Islam in Public: The Western Muslims must seize upon every opportunity to explain Islam in the public sphere, assuring that Islam is present in the eyes of the public. This happens of course wherever Muslim women are wearing Hijab, wherever Islamic religion is taught in schools, and whenever the public is periodically invited to visit the local mosques.⁽⁴⁷⁾

17. Revise Schoolbooks: In all Western countries, the German model should be followed to cleanse school books on religion, history, and geography from incorrect material offensive to Muslims.

As far as textbooks on philosophy are concerned, no cleansing is needed since Muslim philosophy is usually entirely absent or not attributed to Islamic culture⁽⁴⁹⁾. In this respect, Muslims ought to insist that material be added to the books concerned, i.e. by chapters of the contribution of Muslim intellectuals and artists to the development of the Western philosophy, mathematics, natural sciences, medicine, agriculture, as well as the arts and crafts.

II. Actions to be Avoided

1. No Restoration of a Caliph: While achieving their unity is essential, it would be counter-productive for Muslims to seek re-establishing the office of Caliph. Not only would the very attempt become divisive. Even though ineffective in terms of power projection, a Caliph would scare the rest of the world.

2. No Muslim Parties: It would be ineffective and even counter-

دراسات في الشأه الإسلامى

productive to found Islamic political parties. This attempt would simply lead to a massive waste of Muslim votes. (45) Indeed, such parties – even if entirely constitutional – would turn out to be a scary phenomenon for most of the Western people, already afraid of a Muslim take-over.

3. No Ghettoization: Muslims in the West must guard themselves against falling into the rejectionist trap because in the long run that would lead to self-ghettoization. A certain amount of segregation is necessary for the preservation of their Islamic identity. But it is possible to integrate without assimilation.

4. No Orientalization: Muslims like to introduce Arabic phrases into their speech – from *As-salamu 'alaikum* and *Bismillah* to *In sha'allah* and *Ma sha'allah*.

If this happens among the Western people, Muslims inadvertently encourage the notion that they are Orientals and that Islam is a foreign and Arab religion.

This impression becomes even more misleading when the Western Muslims start wearing Oriental dress, even though that is practical for praying. Muslims, must avoid to be seen as total strangers.

5. No Impatience: In spite of setbacks like 9/11, Islam continues to spread in the Occident at a pace that frightens many people there. In Germany, in 2006, the usual annual number of converts to Islam quadrupled to 4000.

No wonder that many Western people are now frightened. Thus, their resistance against further growth of Islam grows as well, exponentially.

Surely, this is a time where Muslims are well advised not to proceed too fast – to take it easy, to consolidate. Patience, a key Muslim virtue, is now of the essence, and impatience sheer poison.

* * * * *

The Muslims are not alone in this world. Therefore the fate of Islam does not depend on their actions or inactions alone. But by following the recommendations set out above, they can prepare the ground— Good willing – for a further blossoming of His religion. If the 21st century, as seen by many, will become more religious and spiritual than the previous centuries, overall conditions might be set favourably for a century marked by Islam.

Notes

- (1) Schimmel, p. 7 (my translation)
- (2) At the time of the Muslim conquest the library had already ceased to exist.
- (3) See Qur'an 3:67;2:140.
- (4) Invited were, e.g., the ruler of Byzantium, Heracles I.; the Sassanid Shah, Chosrau II; and Mauqaqis, archbishop of Alexandria.
- (5) A battle with the Franks under Karl Martell took place as far north as Tours and Poitiers in 732 CE.
- (6) The Ottomans laid siege to the German Emperor's capital in 1529 and 1683.
- (7) In 1578, this adventure ended at Ksar el-Kebir with the death of King Sebastian.
- (8) In particular Qur'an 5: 48.
- (9) First translated into Latin, in 1143, by Robertus Kettenensis and Hermanus Dalmata in Toldeo (Spain) it became widely available only after 1543 when printed in Basle (Switzerland). Translation into English, French, Italian, and German first surfaced in the 17th century CE.
- (10) "Non est Deus nisi Mochametus".
- (11) He tolerated all religions in Prussia, employed Muslim cavalry, and even provided a mosque and a cemetery for them near Berlin, saying that everybody should seek his own salvation the way he saw fit (: "jeder nach seiner Façon").
- (12) Called "les Lumières" in French.
- (13) They are still functioning in places like Casablanca, Rabat, Tanger, Oran, Alger, Annaba and Tunis.
- (14) He was arrogant enough to use his own verse numbering.
- (15) Like Neal Robinson.
- (16) Like Jacques Berque.
- (17) "The Light comes from the East".
- (18) Max Henning, *Der Koran*, Stuttgart 1901 (my translation).
- (19) Quoted by Armando Salvatore, *Islam and the Political Discourse of Modernity*, Reading: Garnet 1997, p. 121.
- (20) Nobody should be fooled by the human sentiments displayed in his Seven Pillars of Wisdom, New York: Doubleday 1935.
- (21) Alas, the restorer of Turkish independence, Mustafa Kemal "Atatürk" also blamed Islam for the downfall of his country.

دراسات في الشأن الإسلامي

- (22) It is justified to speak in the singular of this Movement, first represented by the Egyptian Muslim Brotherhood and the Indian Jama'at-e-Islami, even though it took various shapes in different countries and periods, e.g. Hamas, M.T.I. /Al-Nahda (Tunisia), FIS (Algeria), ABIM (Malaysia), Jamaat Tabligh, etc.
- (23) Fully in contradiction with this interpretation "veiled" Muslim women are also treated as victims of male suppression.
- (24) Thus an Egyptian Imam was expelled from Germany in February 2005 for having called for Jihad. All he had done was asking for contributions for tsunami victims in South-East Asia, calling this charitable effort "Jihad".
- (25) Qur'an 4:29; 2:191, sentence 3; 2: 192; 22: 40.
- (26) This refers to the strict observance of Jewish law by ultra-orthodox Hassidic Jews.
- (27) For this chapter see the section on "Targetting the Media" in: Murad Hofmann, *Religion on the Rise*, pp. 61-70, and Sabine Schiffer's excellent analysis "Islam in the Media" (in German).
- (28) Thus, in Iceland, if an approaching boat cannot be readily identified, people use to say: "I hope it is no Arab!". This harks back to Muslim "pirates" operating from the Moroccan port of Salé from the 15th to the 17th centuries.
- (29) During the last decade of the 20th century, the late Iranian Professor Abdoljavad Falaturi (Cologne) pioneered the international comparative study of what textbooks have to say on Islam.
- (30) They may be called "Not without my daughter" or "Mullahs on the Rhine".
- (31) This is in contrast to his novels playing among Red Indians, several of whom are portrayed by May as highly ethical and noble.
- (32) In his doctor's thesis on Karl May for Bonn University, the Egyptian Shaker El-Rifai demonstrated that the author even wrote at the behest of the Catholic Church.
- (33) Verbally: "Jeder soll nach seiner Façon selig werden."
- (34) This is true. e.g., of the Jewish way of dressing, the separation of sexes, the strict observance of dietary rules, and ritual slaughter.
- (35) Quote from the 1997 Islamophobia study of the British Runnymede Trust, p. 2.
- (36) Akbar Ahmed (1994), p. 223. He believes that Muslims cannot win the "media game".
- (37) cf. Peter Kreef, *Ecumenical Jihad*, San Francisco: Ignatius Press 1996. pp. 62, 67.
- (38) Such disclaimers are usually placed on the left newspaper side where they attract less attention.
- (39) p. 78.
- (40) Der SPIEGEL, Hamburg, 25 February, 2002, p. 172 f.

دراسات في الشأء الإسلامي

- (41) I am not proposing to practise Takfir.
- (42) That democracy literally means "rule of the people" does not imply that the Shari'ah could not be the constitution of an Islamic country. Likewise "human" rights do not imply that the rights concerned are self-made rather than conferred to man by Almighty Allah .
- (43) This term was first proposed by Sheikh Mahfoudh Nahnah of Algeria.
- (44) Now even skiing on artificial snow is made available in the UAE.
- (45) Be it that the Muslim parties would not overcome the usual 5% hurdle (as in Germany) or fail to win a single candidate where a majority vote is required (as in Britain).
- (46) In most European countries the media engaged themselves not to "mark" presumed criminals by indicating their nationality or their religion. This rule is frequently violated when Muslims are involved.
- (47) Published from Berlin by German born Muslims.
- (48) The ZMD each year on 3 October, a public holiday, invites people into hundreds of mosques all over the country; 3 October by now is known as Day of the Open Mosque.
- (49) Thus Ibn Rushd is presented as Averroes and Ibn Sina as Avicenna, i.e. as Western authors.

BIBLIOGRAPHY

- Abu-Rabi, Ibrahim, ed. *Islamic Resurgence*, Islamabad: Institute. of Policy Studies 1995.
- Ahmed, Akbar, *Post Modernism and Islam*, London. Routledge 1992.
- Ahmed, Akbar, and Donna Hastings, *Islam, Globalization and Postmodernism*, London: Routledge 1994.
- Armstrong, Karen, *Holy War - The Crusades and their Impact on Today' s World*, New York, N.Y.; Papermac 1992.
- Asad, Muhammad, *Islam at the Crossroads*, Lahore: Ashraf Press 1934.
- Asad, Muhammad, *The Principles of State and Government in Islam*, Gibraltar: Dar al-Andalus 1980.
- Ashmawy, Muhammad Said, *L' Islamisme contre l' Islam*, Paris: Edition la Découverte 1989.
- Azzi, Abderrahmane, Islam in Cyberspace, in: *Islamic Studies* (Islamabad) Vol. 38, No. 1, 1999, pp.103 ff.
- Barboza, Steven, *American Jihad*, New York, N.Y. : Doubleday 1994. Bell, Daniel, *The Cultural Contradictions of Capitalism*, London: Heinemann 1976.
- Bennis, Phyllis, *Before & After - US Foreign Policy and the War on Terrorism*, Moreton-in-Marsh GL, UK: Arris Books 2003.
- Berque, Jacques, *Le Coran*, Paris: Sindbad 1990.
- Buaben, Jabal M., *Image of the Prophet Muhammad in the West*, Markfield, Le, UK: The Islamic Foundation 1996.
- Chapra, Umer, *Islam and the Economic Challenge*, Herndon, VA, USA: I.I.I.T. 1992.
- Daniel, Norman, *Islam and the West - The Making of an Image*, Oxford: One World Publications, 2nd ed. 1993.
- Davidson, Lawrence, *Islamic Fundamentalism*, Westport, CA, USA: Greenwood Press 1998.
- Emirates Center for Strategic Studies and Research, *Islamic Movements – Impact on Political Stability in the Arab World*, Abu Dhabi: ECSSR 2003.
- Esposito, John L., *The Islamic Threat: Myth of Reality?*, Oxford, UK: Oxford Univ. Press 1992.
- Esposito, John L., *Unholy War - Terror in the Name of Islam*, Oxford, UK: Oxford Univ. Press 2002.

دراسات في الشأن الإسلامي

- Esposito, John L., and François Burgat, *Modernizing Islam*, London: C. Hurst 2003.
- Guazzone, Laura, ed., *The Islamist Dilemma*, Reading, UK: Garnet 1995.
- Gunny, Ahmad, *Perceptions of Islam in European Writings*, Markfield, LE, UK: The Islamic Foundation 2004.
- Hayden, Patrick et al., ed., *America's War on Terror*, Burlington, VT: Ashgate 2003.
- Hillenbrand, Carole, *The Crusades - Islamic Perspectives*, Edinburgh: Edinburgh Univ. Press 1999.
- Hofmann, Murad, *Islam 2000*, Beltsville, MD: Amana Publications 1996.
- Hofmann, Murad, *Religion on the Rise - Islam in the Third Millenium*, Beltsville, MD: Amana Publications, 2001.
- Izetbegovic, Alija, *Islam between East and West*, Indianapolis, IN: American Trust, 2nd ed. 1989.
- Huntington, Samuel, The Clash of Civilizations, in: *Foreign Affairs*, Vol. 72, No. 3, 1993, pp. 17-33.
- Jayyusi, Salma Khadra, ed., *The Legacy of Muslim Spain*, Leiden: Brill 1992.
- Keppel, Gilles, *Jihad - The Trail of Political Islam*, london: Tauris 2002.
- Maalouf, Amin, *Les croisades vues par les Arabes*, Paris: Edition J'ai lu 1991.
- Mayer, Ann Elizabeth, *Islam and Human Rights*, Boulder, Colorado: Westview Press, 2nd ed. 1995.
- Mazrui, Ali, Human Rights between Rwanda and Reparations: Global Power and the Racial Experience, in: *Encounters* (Markfield, LE, UK), Vol. 2, No.1, pp. 3 ff.
- Mousalli, Ahmad, *Radical Islamic Fundamentalism: The Ideology and Political Discourse of Sayyid Qutb*, Beirut: American Univ. of Beirut Press 1992.
- Ophuls, William, *Requiem for Modern Politics - The Tragedy of the Enlightenment and the Challenge of the New Millenium*, Boulder, Colorado: Westview Press 1997.
- Qaradawi, Yusuf Al-, *Priorities of the Islamic Movement in the Coming Phase*, Swansea, UK: Awakeniung Publications 2000.
- Qutb, Sayyid, *Milestones (Ma'alim fi-t-Tariq)*. Indianapolis, IN: American Trust Publications 1990.
- Ramadan, Tariq, *Western Muslims and the Future of Islam*, Oxford, UK: Oxford Univ. Press 2004.
- Robinson, Neal, *Discovering the Qur'an*, London: SCM Press 1996. Rockmore, Tom, et al., ed., *The Philosophical Challenmges of September 11*, Oxford, UK: Blackwell 2005.
- Runnymede Trust, "Islamophobia" in Britain, in. *The Muslim Politics Report*, Vol 15, 1997, pp. 2 f.

دراسات في الشأن الإسلامي

- Safi, Louay, *Islam and the Global Challenge: Dealing with Distortions of the Image of Islam by Global Media*, in: *Islamic Studies* (Islamabad), Vol. 35, No. 2, 1996, pp. 191 ff.
- Said, Edward, *Orientalism.*, New York, N.Y.: Random House 1978.
- Said, Edward, *Covering Islam*, New York, N.Y.; Pantheon 1981.
- Schiffer, Sabine, *Islam in den Medien [Islam in the Media]*, in: *Islam in der deutschen Gesellschaft*, Berlin: IBMus 2005, pp. 72-81.
- Schimmel, Annemarie, *Und Mohamed ist Sein Prophet*, Munich: Diederichs 1981.
- Siddiqi, Mazheruddin, *Modern Reformist Thought in the Muslim World*, Islamabad: Islamic Research Inst. 1982.
- Tamimi, Azzam, "Fundamentalist" Islam and the Media, in: *Al-Mizan* (Markfield, LE, UK): The Islamic Foundation, Vol. 2, No. 1, 1996.
- Woods, John, *Imagining and Stereotyping Islam*, in: *Muslims in America - Opportunities and Challenges*, Chicago: Intern. Strategy and Policy Inst., 1996, pp. 45-77.
- Woodward, Bob, *Plan of Attack*, New York, N.Y.: Simon and Schuster 2004.

CURRICULUM VITAE

Dr. Murad Wilfried Hofmann, born in 1931 in Aschaffenburg, Germany, began his university education in 1950 at Union College, Schenectady, N.Y., USA. In 1957 he graduated from Munich University Law School (bar exam; doctorate in jurisprudence). Following an assistant professorship in German civil procedure at Munich, he studied American law at Harvard Law School in Cambridge, Massachusetts (LL.M., 1960).

From 1961-1994 Mr. Hofmann served in the German Foreign Service, e.g. as Head of the NATO and Defence Desk in the German Foreign Office in Bonn (1979-1983), as Director of Information for NATO in Brussels (1983-1987), as German Ambassador to Algeria (1987-1990) and to Morocco (1990-1994). In 1980 Mr. Hofmann embraced (Sunni) Islam, performing the first of seven Umrahs in 1982 as well as Hajj in 1992 and 2003.

Among his publications, most of them in German, Arabic and English, are Diary of a German Muslim (now: Journey to Islam), Islam: the Alternative, Journey to Macca, Religion on the Rise - Islam in the 3rd Millennium, Islam, and Qur`an.

He is a regular contributor to The Muslim World Book Review, Islamic Studies (Islamabad), The Oxford Journal of Islamic Studies, Encounters (Markfield, LE) and The American Journal of Islamic Social Studies.

Mr. Hofmann is a member of the Royal Academy for Islamic Thought in 'Amman (Jordan) and serves on the Board of the Central Council of Muslims (ZMD) in Cologne (Germany).

The prospect of an Islamic Common Market

M. Kabir Hassan, Ph.D.

Department of Economics and Finance

University of New Orleans



دراسات في الشأه الإسلامى

Introduction

The Islamic countries are known to be a diverse group in terms of their economic structures and levels of development, political systems, ethnic backgrounds, as well as a diversified social and cultural milieu, although most of them draws on a common source, the Islam. This heterogeneity has often been taken as the major argument against the feasibility of an Islamic Common Market (ICM), where there is supposed to be free flow of products, capital, entrepreneurship, labor and technology among the members, as well as a common tariff wall against third parties. However, we believe that although this heterogeneity creates a lot of problems, it is also a source of strength if it is positively thought of in terms of diversity and is carefully manipulated. However, desires and hopes often turn to illusions if they are not based on realities, supported with objective factors, a strong political will and a commitment to translate these objectives into a reality.

Like the EC, NAFTA and APEC countries, the Organisation of Islamic Conference (OIC) countries share a lot of similarity in culture and socio-economic condition, but as opposed to EC countries they are a mix of low income, middle-income and high income countries. Liberalization of trade in OIC countries offers significant gains for all the economies in the region. A very close look at the existing structure of trade reveals that, in the context of trade liberalization among countries, the interaction between policy-determined barriers (e.g. tariffs, quotas and other non-tariff barriers) and natural barriers (e.g. transport costs, linguistic and institutional differences) is important. Integrating all these issues together will provide a comprehensive analysis of feasibility and prospects of economic cooperation in terms of enhanced trade within OIC countries.

دراسات في الشأن الإسلامي

The share of intra-OIC trade in the overall trade of member countries revealed that trade globalization and the assimilation of member states into the world market have not been beneficial to the intra-OIC trade in the same proportion as they were to trade with the rest of the world. The low level of trade related services, the lack of trade information, the tariff and non-tariff barriers and the existing trade structures were obviously not helpful in promoting regional cooperation. Countries with unstable and narrow export bases offer little encouragement to potential regional partners for any long-term economic relations. Similarly, their dependence on non-member countries, both for exports and imports, tends to marginalize their relationship with the OIC member countries.

There are a number of impediments to trade among the OIC countries. First, most of the OIC countries are poor. Second, there is lack of reliable and updated trade information among these countries. A database at the commodity level must be created so that it can be ascertained, where excess demand exists in certain commodities and the member countries can trade that commodity among themselves. Third, there are limited Facilities for business contacts among the private bodies of the OIC countries. Exhibitions are not organized on a regular basis so that such contacts can be established. Fourth, there exists lack of marketing and distribution skills among the business people of the OIC countries. Products do not always meet buyer specification or international standard concerning packaging, color, style and environmental standard. Finally, the exportable of many OIC countries are not diversified. For many OIC countries, a small number of products account for significant amount of their exports.

Economic Cooperation and Regionalism

The classical literature on the subject of preferential trading arrangements as developed by Viner (1950) concludes that a regional arrangement is more likely to be welfare-improving if: (1) there is a broad scope for production specialization among countries within a bloc; (2) tariffs and non-tariff barriers to intra-trade are substantially reduced; (3) tariffs and non-tariff barriers with third countries are lower after the formation of trade agreements; (4) in order to expand the scope of net welfare gains, trading agreements should allow accession by any interested country, regardless of geographical location; (5) trading agreements should support member countries to introduce and expand unilateral liberalization measures; and finally (6) trading agreements should restrict the use of unfair trade policies, and minimize the protectionist effects of rules of origin, and whatever policies undermine trade competition

In Preferential Trade Agreements (PTAs), both Trade Creation (TC) and Trade Diversion (TD) occurs. TC occurs when preferential tariff cuts cause a partner nation to start importing from its other partners rather than producing the goods itself, due to the fall in relative price of the imported good through tariff removal, regardless of its preferential nature. TD occurs when a partner country starts importing a good from its other partners rather than from non-partner countries, due to the fall in the price of the partner-sourced import good relative to the non-partner-sourced import good, caused by the preferential nature of the tariff cut. Since the PTA involves some trade liberalization, there is a potential welfare gain to the member country in the standard economic model (due to TC), but because the PTA involves a new distortion in the market due to the preferential or discriminatory na-

دراسات في الشأه الإسلامى

ture of the tariff cut. There is also a potential welfare loss (due to TD). The potential overall welfare effect is ambiguous and must be decided empirically, rather than theoretically, case by case.

Depending upon the level of integration, regional economic groupings may be classified into six major groups as follows: 1. Preferential trade areas; 2. Free trade areas; 3. Customs unions; 4. Common markets; 5. Monetary unions; and 6. Economic unions.

A preferential trade area is the weakest form of economic grouping. The member countries reduce customs tariffs in some product categories. They apply a preferential treatment to some groups of goods from the member countries as compared to the rest of the world. Higher tariffs would remain in place for all remaining product categories.

In free trade areas, participants aim mainly to expand trade activities among themselves. For this purpose, they eliminate customs tariffs on the products they produce themselves. However, they maintain their own external tariff on imports from third parties. For this reason, free trade areas are criticised on the ground that import products from third countries may penetrate into the grouping through the customs of the Member State with the lowest tariff and may then be re-exported to the other participants. In order to prevent such trade, free trade areas generally develop very elaborate rules of origin.

On the other hand, a customs union, is a higher form of free trade area, and eliminates the deficiency mentioned above. In a customs union, the participants not only agree to abolish or reduce tariffs between themselves, they also set a common external tariff policy against third parties. In this way, the member countries, on the one hand, secure the free or privileged flow of tradable goods amongst themselves, and on the other hand, they form a discriminatory trade bloc against the non-

member countries. In this case, the main concern becomes the co-ordination of the trade policies amongst the member countries instead of developing elaborate rules of origin.

A common market allows a free flow of not only the goods but also the services and the factors of production such as capital, labour, entrepreneurship, etc., across countries. It also establishes a common external tariff policy against third parties. However, such a scheme necessitates the co-ordination of commercial and industrial policies. Citizens of a common market Countries can work and invest in any member country without any restriction.

A monetary union establishes a central monetary authority, which will determine monetary policy for all the participating countries. That authority issues a common currency to be circulated among the member countries. The EU has become a monetary union with the introduction of EURO as a common currency since July 1, 2002.

In an economic union, the participants will maintain free trade in goods and services, set common external tariffs among members, allow the free mobility of capital and labour. Additionally, they also agree to harmonise their national economic policies, and act as a single economic unit. The European Union (EU) is also a very good example of such an integration scheme. In the EU, the integration efforts extended even to the harmonisation of social policies.

The Economic Rationale for the ICM

The economic rationale for the establishment of the ICM is provided by the empirical evidence about the extremely poor development performance of the majority of the disintegrated Islamic world's 52 na-

دراسات في الشأه الإسلامى

tional economies over quite a long time period in spite of the fact that the contemporary Islamic world as a whole possesses all the material prerequisites of the economic development. The negative or extremely poor growth performance of the Islamic countries is because of the failure of international trade to work as the engine of growth for the Islamic countries because of the following factors:

(i) inconsistent economic policies of the Islamic countries' governments; (ii) contemporary Islamic countries' reliance only on exports of few primary products (eg. agricultural products, raw materials, fuels etc.) for earning foreign exchange to finance their development projects; (iii) low income elasticities of demand in case of primary products; (iv) continuously deteriorating prices of primary products as compared to the prices of manufactured goods in the international markets; (v) exports of the Islamic countries being effectively discouraged by the secular developed countries through the imposition of discriminatory policies of quite high tariffs, quotas and other non-tariff barriers on their imports of manufacturing goods especially from the Islamic countries thereby making the Islamic countries highly vulnerable in the field of international trade and hence damaging their industrialization process; (vi) the Islamic countries' negative capital flows due to the excess of their imports over exports; (vii) inelastic exports; (viii) exponentially rising debts of the Islamic countries; (ix) overvalued exchange rates; (x) too small domestic markets and external outlets for the output of the Islamic countries' to realize the economies of scale; (xi) quite a snail volume of intra-Islamic trade.

In this background it can be logically concluded that the Islamic countries can never completely realize all the potential gains from their trade in the international market which is overwhelmingly domi-

دراسات في الشأن الإسلامي

nated by the non-Islamic countries which are inherently extremely hostile towards the Islamic countries and that the establishment as well as promotion of the ICM is the uniquely comprehensive solution of all the above-mentioned problems of the contemporary Islamic countries from the point of view of their most honourable survival on the global level. The ICM has the potential of being the largest diversified market of the contemporary world. It is capable of providing adequate opportunities for its constituents to fully develop as well as exploit their Islamic cultural links in order to achieve socio-economic solidarity and to generate massive aggregate demand. The resulting immense aggregate demand can in turn trigger the Islamic world's producers to avail the economies of the large-scale production and match their massive production with the massive aggregate demand thereby leading to the self-sufficiency of the Islamic world, reduced economic dependence on the non-Islamic countries for financial resources along with imports and exports from the point of view of achieving economies of scale, significantly high positive flow of capital, tremendously improved foreign currency reserves and immensely enhanced bargaining power of the Islamic countries in the international trade and financial markets. Hence the ICM can activate and promote the trade creation-oriented intra-Islamic trade, based on the Islamic doctrines of honesty and economic justice, as the real engine of sustainable economic growth and development for all the Islamic countries by providing them access to the largest global ICM.

The polarisation among the EU, Japan and the US poses the question of whether regionalism leads to trade wars and regional protectionism, or whether these trade blocs would facilitate the world trading system under the auspices of the WTO. In either case, the basic fact is that competition in such areas as trade of goods and services

دراسات في الشأه الإسلامى

will be on a much higher scale.

Additionally, the major economic blocs, the EU, NAFTA and APEC, started to concentrate on not only the issues of trade facilitation and liberalisation but also on comparatively new issues such as trade in services, investment opportunities, intellectual property rights, labour standards, protection of environment, technological standards, co-ordination of monetary, financial, fiscal and economic policies, etc. These resemble the major discussion topics of the multilateral negotiations within the framework of the WTO. However, these blocs are increasingly providing opportunities far beyond the liberalisation process within the context of the WTO. Private-sector interest in enhancing market access and in strengthening investment opportunities has provided a further impetus to the search for new trading arrangements and the enlargement of the old ones.

The growth of regionalisation and especially the EU raise a number of issues and problems for the OIC countries. The OIC community, no doubt, is and will be affected by the developments relating to the growth of these regional economic blocs. The OIC countries cannot be indifferent to these schemes which cover virtually all their major export markets, including Europe and North America. The main impact of the growth of these schemes will be on the trade of goods and services, investment and technology transfer. The creation of regional schemes implies, by definition, that members receive preferential access to one another's markets. Hence, non-members must suffer a relative erosion in market access. How important such an erosion would be for specific non-members depends upon a number of complex factors. All of these developments necessitate closer co-operation and collaboration among the OIC countries, especially, that the majority of

them strive for greater access to the newly polarised markets as their traditional links. One important modality in this direction has been the establishment (or reactivating) of regional integration schemes.

Policy Suggestions

A striking feature of the OIC economies is that the volume of intra-regional trade is very low and the dependence on the industrialized countries considerable. To the extent that regional trade is limited by the absence of complementarity in production and resource base and financing difficulties, immediate benefits from trade creation within OIC may be limited. Removal of tariff and non-tariff barriers under the OIC block countries can open up some profitable intra-regional trade channels. In the long run, structural change through regional planning can create new vertical and horizontal linkages through regional planning can create new vertical and horizontal linkages to generate dynamic benefits from integration.

Ariff (1998) argues that globalization and regionalism often conflict with each other. Powerful economic blocks may impede trade rather than to promote it. He argues in favour of outward looking, cost-effective, low-profile, informal arrangement among the OIC member countries. He contends that D-8 formation is a move in the right direction with no adverse implications for any of the existing regional, bilateral and multilateral commitments of the member countries. For economic cooperation to take on a meaningful form, it is necessary for the D-8 to solicit active private sector participation right from the beginning, and the private sector participation will be forthcoming only if the business environment in the member countries is conducive. It is, therefore, essential that the member states of D-8 play

دراسات في الشأن الإسلامي

no more than a facilitating role by minimizing or removing existing disincentives such as bureaucratic controls and offering at the same time additional fiscal and other incentives for intra-OIC investments.

Ariff (1998) also argues that much intra-OIC trade can be created, not through preferential trading arrangements which will cause trade distortions and which will also be costly to manage, but through intra-OIC private sector investment activities. There is enough empirical evidence to show that trade and investment are intimately interrelated. It is not by coincidence that the major trading partners are also the main sources of foreign direct investment for most countries. Investments open up new corridors for two-way trade for the importation of raw materials and intermediate inputs and the exporting of final products, not to mention the positive externalities which would accrue to other firms that are not directly involved in the investment projects.

Naqvi (1998) contends that the OIC members should strengthen the backward and forward linkages in production and investment to reap the economies of scale, to increase the size of the domestic and regional markets, and to deal effectively with EC, NAFTA, and APEC. ECO arrangements could be strengthened further. The trade within the OIC is highly concentrated in about 6 countries (Saudi Arabia, Malaysia, Indonesia, UAE, Iran and Turkey), while the rich countries of the region (Brunei, Gabon, Libya, Kuwait and Qatar) take any part in promoting intra-OIC trade, production and investment relationships: they export goods and capital mainly to OECD countries and import from them mostly wasteful luxury goods. By reversing this trend, the OIC countries belonging to the high-income and high-middle income, and low-middle income groups should bring their intra-OIC trade to the level already achieved by Saudi Arabia, Malaysia,

Indonesia, Turkey, UAE and Iran at least in the short run. There should be a freer and much bigger flow of goods, capital and labour within the region.

Naqvi (1998) also opines that many public-good type projects should be undertaken within the region, financed by the richer OIC countries, to strengthen the weak infrastructure linkages by the construction of roads, railways and other means of communication. This will widen the regional market for goods, capital and labour. It will also permit the type of coordinated development strategies pursued in East Asia- capital and labour moving in opposing directions to equalize the wage rate and the rental on capital, and facilitating the location and relocation of industries to take advantage of the availability of cheaper capital, labour and technology within the region.

Naqvi (1998) further argues that the rate of economic growth in the OIC countries should be accelerated as a strategy to promote regional economic integration. The access to the markets of developed countries cannot be taken for granted, it will be to these countries' advantage to free themselves from their respective stagnating growth locations by entering more fully in the OIC markets. The individual OIC members and the OIC region as a whole, can then engage in a virtuous circle of greater economic integration which would promote a faster rate of economic growth through the extension of the regional market, the fragmentation of production process in the region and product specialization according to each countries' comparative advantage.

Naqvi (1998) explains that the Sub-Saharan African members of OIC, where economic scarcity, famines and tribal wars threaten to undermine the social, political and economic fabrics, should be brought under an elaborate regional development plan sponsored by the OIC.

دراسات في الشاهد الإسلامي

Resources from the rich members of the OIC must flow there, in the form of grants, equity capital, low-interest loans, to beef up their economies. This investment flow will also increase the size of the regional market by enlarging the per capita incomes of these countries and by creating, a greater demand for regional exports. The oil-exporting countries should diversify the exportables by instituting a balanced production and export structures, where agriculture, manufacturing and service sectors should play a greater role. The share of manufacturing sectors must steadily rise to about 40% of their GDPs within a decade. They should also produce high value added goods, such as biotechnology and computer softwares, where there is a strong world demand.

Naqvi (1998) recommends that the OIC countries should more fully use the mechanism of the WTO to explore areas, where greater export expansion to the world market is possible. Also, legal battles will have to be fought within the WTO to meet the threats of anti-dumping actions, countervailing duties, an arbitrary use of safeguard clauses etc. by the developing countries. However, the real challenge to survive and prosper in the post-UR world trading order is for the region to work through and around the major trading blocks (EU, NAFTA, APEC), which together account for 87% of the world trade. Working through these trading blocks would require participating in as many trading blocs as is feasible.

One way is to make use of the links that already exist with one or the other of these trading blocks. For example, Turkey, Egypt, Morocco have important relationships with EU, and Indonesia and Malaysia are linked with ASEAN and APEC. These countries could then apply the MFN clause in dealing with their OIC members. These routes would also facilitate the flow of the FDI and the transfer of technolo-

gy to those OIC members who are not part of these groupings.

Although it appears that the scope of economic cooperation among Muslim countries is limited at present, it still offers an opportunity to initiate this cooperation even in a restricted sense. The historical experiences of EEC and ASEAN can serve as good examples. EEC was started in 1951 with the establishment of the European Coal and Steel Community and had only six founding members (Belgium, Luxembourg, France, W. Germany, Italy and the Netherlands). The association covered only two items- coal and steel. Now, EEC not only includes all Western European countries, but also Southern European Countries and plans are under way to integrate three Eastern European countries as well.

Forming an economic community based on cultural and religious grounds may not necessarily be unique to Islamic countries. Samuel Huntington (1993) contends that civilization identity will be increasingly important in the future and one consequence is that economic regionalism is increasing along civilization lines. He cites the example of the European Community, which he claims, rests on the shared foundation of European Culture and Western Christianity. He also cites other examples such as the rapid expansion of economic relations between the Chinese/Confucian oriented culture countries such as China, Hong Kong, Taiwan, Singapore and the overseas Chinese communities in other Asian countries. He further mentions the formation of Economic Cooperation Organization, consisting of ten non-Arab Muslim countries, based on their common culture and religion, namely Iran, Pakistan, Turkey, Azerbaijan, Kazakhstan, Kyrgystan, Tadjikstan, Uzbekistan and Afganistan.

The OIC member countries should participate more fully in the

دراسات في الشأه الإسلامى

world trading regime, which consists of WTO, APEC, ASEAN, EU, NAFTA, and maximize the intra-OIC linkages through a freer movement of goods, capital, labour and technology transfer. The OIC members should strengthen the backward and forward linkages in production and investment to gain economies of scale, to increase the size of domestic and regional markets. This kind of policy would be consistent with the globalization of world trade on a non-discriminatory basis and at the same time building geographically discriminatory trading arrangements on the pretext of helping the cause of a freer world trading system. (Ariff, 1998; Naqvi, 1998)

The OIC countries should make efforts to diversify their exports, enhance their potentials for trade in non-traditional and manufactured goods, expand trade complementarities and take supportive measures to increase trade at regional and sub-regional levels. In order to improve intra-trade among the OIC countries, the richer capital-surplus OIC countries need to invest their surplus funds in member countries either in the form of direct investment (long term) to help economic growth or portfolio investment (short term) to help develop their capital markets.

The OIC countries can increase financial cooperation among themselves via clearing union arrangements, export credits and payments unions. The lack of internally generated foreign exchange in many of the OIC countries mean that most of the funds needed to finance imports must be obtained abroad. Often the financing is in the terms of development assistance or export credits made available by the developed countries. While this type of concessionary financing increases north-south trade, it does not provide any assistance in intra-OIC trade. Increased financial assistance among OIC countries may be able

دراسات في الشأن الإسلامي

the participation of Islamic Development Bank in providing access to convertible currencies. An alternative route could be a willingness on the part of the trade surplus countries to accept non-convertible currencies as payment.

The turmoil in the world financial market causes more harms to developing countries than to developed countries as the latter countries are well-equipped to deal with an increasingly volatile world financial market. Globalization has great potential as a mechanism of development and growth and has yielded considerable benefits in the decade of the 1990s. While there are benefits of globalization, it is important to recognize its accompanying risks of destabilization and increased inequality between developed and developing countries, particularly the least developed ones, and within countries. There is need to address all aspects of globalization, including financial liberalization, and to establish appropriate safeguards to minimize the risks and to ensure that benefits of globalization are shared by all.

The global financial crisis, in particular the severity of the crisis in Asia, has highlighted weaknesses in the global economic and financial system. It also provided a clear message that for the effective functioning of the market economy, governments must play a positive role in the development and management of the international financial institutions, systems and infrastructure. There is a compelling need for reforms to guard against possible recurrence of such crisis as well as new threats of instability and protectionism. Such reforms should be a global effort with the participation of developing countries, so that the diverse experiences, problems and circumstances of countries at different stages of development are taken into account. There should be greater transparency and disclosure in international financial market.

دراسات في الشاه الإسلامي

This should also apply to all those in the public sector as well as the private sector, particularly large market players, such as hedge funds.

In order to make the OIC capital markets more effective, the OIC member countries should take a number of specific measures to improve the liquidity of these markets, reduce transaction costs and improve pricing efficiency. The regulatory regime should focus on three main areas: the new issues market and related disclosure, accounting and listing standards; secondary market trading activities, including market surveillance and enforcement; and supervision of market practitioners through registration and prudential standards. These measures include legal provisions to prohibit insider trading, the means to enforce them, improving accounting and reporting standards, and simplifying procedures for listing new firms. OIC members should diversify their portfolio liabilities, encourage the use of several ways and means of investment notably acquisitions and promote joint ventures.

An equitable global trading regime, while benefiting both developed and developing countries should take fully into account the conditions of the developing countries through appropriate measures. The emergence of a rule-based trading regime, as institutionalized in the WTO, is a welcome step towards the effective and beneficial integration of countries into the global economy. There ought to be concrete measures in the WTO system designed to help countries that are particularly disadvantaged in the global marketplace. The special concerns of countries that are constrained by structural weaknesses and also have to contend with tariff and non-tariff barriers when seeking access to markets in developed countries should be meaningfully addressed. Developed countries should provide adequate resources to the developing countries for investment and institutional capacity building

دراسات في الشأن الإسلامي

to enable them to better deal with the challenges of a globalized economy and open trading system.

Investment policies of the OIC countries should be determined based on the specific country situations. Each country should determine, which type of FDI is consistent with its environmental, industrial and sectoral needs. The quality rather than quantity should be encouraged. Investment incentives should be evolved within the overall industrial and development policy of the country. In chasing FDI, the tendency towards locational competitiveness should be avoided. An environment conducive to private sector development should be promoted. This will simultaneously attract FDI, which will supplement domestic finance for development and help developing countries integrate with the global economy.

The roles of the government and the private sector are complementary, and that there can be synergy from close cooperation between the two. A vigorous dynamic private sector is indispensable for sustained growth. The governments have a vital role to play in improving social conditions and expanding social opportunities by appropriate measures in key-sectors. Access to world markets, greater inflows of foreign investments and larger external assistance and alleviation of foreign debt are essential to the developmental efforts of developing countries.

The formation of a Business Forum will bring businessmen of the OIC countries together. The D-8 will not be successful without effective support of the business community and called for creating an environment in which the private sectors of the respective countries can interact and cooperate. In order to increase the trade volume among the member countries, the issue of free movement of member states'

businessmen within the D-8 countries for more interaction and cooperation. A Business Forum, involving entrepreneurs of the member states, should be convened soon so that simultaneous meeting of proposed Business Forum with the D-8 Summit could promote partnership for development and progress between the private sectors and the governments. The OIC countries can develop a investment information network among OIC member states, and setup investment promotion agencies to welcome and guide potential investors.

The D-8 would take an important place among other international cooperation schemes by forming another channel of dialogue between developed and developing countries. The D-8 should focus energies together for building the common future by making best use of vast geography and potentials of the member countries, to diversify and facilitate trade and to upgrade social and economic conditions of the people. The active involvement of private enterprise in trade and investment among the member countries of the D-8 should be strengthened.

Market instability and volatile financial flows had shown the fragility of the global economy and dangers of unchecked and unmanaged globalization. The developing countries face problem arising not only out of global economic slowdown but also a deepening socio-economic crisis due to evident iniquities of the international economic system. There is a need to monitor, regulate and manage globalization to attain the objective of growth coupled with equality. International financial institutions must not tag unnecessary conditionalities to credits. Barriers that have been raised to exports from developing societies on unreasonable and flimsy social pretexts have to be pulled down.

دراسات في الشأن الإسلامي

D-8 is a smaller club with the intention of harnessing indigenous resources of the member states. The wealth and potential of the Islamic and developing nations have not contributed to the welfare or the progress of people. Muslim countries can unite on a common platform. They should provide each other with their list of areas of support that cooperation can be enhanced. The developing countries are heavily dependent on the western media for dissemination of information, which is heavily tilted, and give distorted news about the developing countries. The Muslim world can make efforts to make a news agency, which will reflect the point of view and angle of its own people. The Developing-8 member states have common bond of Islamic culture and heritage and unity of the Muslim Ummah could promote economic emancipation of their peoples and enable them to face the emerging challenges of the next millennium. (Hassan, 2002; Hassan and Islam, 2001)

A higher degree of international cooperation coupled with a higher degree of transparency and prudence in the markets could have well prevented the outbreak and expansion of recent financial crisis. Although the degree of damage varies from one country to another following the effect of the global financial and economic crisis, consultations and cooperation within the framework of D-8 would facilitate individual contributions towards shaping institutional and financial reforms in the global economy.

A number of concrete policy can be implemented to further the cause of Islamic common market. We argue that it is better to follow a gradual approach than one shot approach. First, it is better to create subgroups of OIC based on regions with geographical proximity so as to achieve more active cooperation which is practicable only in small-

دراسات في الشأن الإسلامي

er groups comprising countries who share common geography with similar historical, cultural, and political experiences. Second, it is imperative to expand the scope of OIC effectiveness by involving participation by the communities through NGOs and private business sector organizations. Third, it is imperative to increase the number of ministerial level conferences so as to cover all important fields of statecraft. These conferences should be attended by respective ministers dealing with each subject.

Fourth, accelerate the process of economic cooperation and interdependence so as to achieve better interaction and understanding. Economic system being the pivotal issue, efforts should be made to develop a consensus on Islamic economic system relevant to the present times. Fifth, establish a multi-disciplinary research organization within OIC secretariat to provide deliberate planning and policy making. This organization should maintain very close collaboration with similar governmental and non-governmental organizations in OIC member countries. Exchange of research work and open dialogue on all important issues should be encouraged and recommended options should be evolved with a futuristic outlook. "Initiatives" should be taken by the Muslim world preempting malicious designs of the anti-Islam groups. Sixth, immediate steps be undertaken to establish an OIC information broadcast to project OIC views on contemporary ideological, political, and economic issues. Contribution of the Muslim world in promoting global peace, progress and prosperity for the humanity at large should be consolidated and projected internationally through the electronic media.

The new initiatives amongst the OIC countries may, first of all, emphasise cooperation more in terms of project-oriented arrangements rather than focusing on more structured and multi-faceted integration

دراسات في الشأه الإسلامى

schemes like free trade areas, customs unions, and common markets. Secondly, the partners in these new arrangements will be given more freedom in taking liberalisation measures at their own pace. Thirdly, the arrangements may also allow more opportunities to be negotiated at bilateral levels with the interested partners in line with common interests. Fourthly, these cooperation agreements may assign priority to physical infrastructure, such as transport and communications, as well as support areas like training, research, and technology. Fifthly, the private sector must be encouraged and supported by the necessary measures to facilitate and to promote trade exchanges amongst the OIC member countries. Furthermore, all the barriers to trade may be eliminated gradually on a step-by-step approach.

Selected References:

- _ Ahmed, A. Zeinelabdin and Ilhan Ugurel. "*The Islamic Common Market: Is it Economically and Politically Justifiable?*" Paper Presented at the Second International Conference on Islamic Political Economy, held on December 10-11, 1996 at Penang, Malaysia.
- _ Ali, Yusuf. *The Holy Quran: Translation and Commentary*, Islamabad (Pakistan): Dawah Academy.
- _ Anjum, Muhammad Iqbal. "*The Challenge of Establishing an Islamic Common Market: Ideals, Realities and Tasks Ahead*", Paper Presented at the Second International Conference on Islamic Political Economy, held on December 10-11, 1996 at Penang, Malaysia.
- _ Ariff, Mohamed. "Proliferation of Regional Groupings: Policy Options for the OIC", *Journal of Economic Cooperation*, Vol. 19, Numbers 1-2, January-April, 1998: 15-30.
- _ Chapra, M. U. (1993). *Islam and Economic Development*. The International Institute of Islamic Thought: Islamabad, Pakistan.
- _ Choudhury, M.A. (1989). *Islamic Economic Cooperation*. London, England: Macmillan Press and New York, NY: St. Martin's Press.
- _ The Declaration of the Dhaka Summit of the D-8 Countries, March, 1999.
- _ Gurler, Oker. "Role and Function of Regional Blocs and Arrangements in the Formation of the Islamic Common Market" *Journal of Economic Cooperation*, Volume 21, 4 (2000), 1-28.
- _ Hassan, M. Kabir. "Trade Relations with SAARC Countries and Trade Policies of Bangladesh", *Journal of Economic Cooperation* 21, 3(2000): 99-152.
- _ Hassan, M. Kabir. "The Success and Failure of Various Regional Groupings Among the OIC Member Countries", Monograph, *Islamic Economics Research Bureau*, Dhaka, Bangladesh, December, 1999.

دراسات في الشأن الإسلامي

- _ Hassan, M. Kabir. "Portfolio Investment of the OIC Countries and Their Implications on Trade", Paper Presented at a Seminar on "Intra-OIC Trade and Investment and Economic Stabilization and Structural Reforms in OIC Member States," held in Casablanca, Morocco on September 30-October 2, 1998.
- _ Hassan, M. Kabir. "The Impact of Globalization on the Financial Market of the Developing Countries", *Journal of Economic Cooperation Among Islamic Countries*," Vol. 19, Numbers 1-2, January-April , 1998: 71-136.
- _ Hassan, M. Kabir. "An Empirical Investigation of Economic Cooperation among the OIC Member Countries," *Journal of Economic Cooperation, Economic Research Forum Working Paper 0212*. (2002).
- _ Hassan, M. Kabir and Faridul Islam. "Prospect and Problems of a Common Market: An Empirical Examination of the OIC Countries," *American Journal of Islamic Social Sciences*, Volume 18, Number 4, Fall, 2001: 19-46.
- _ Hassna, M. Kabir. "Is SAARC a Viable Economic Block? Evidence from Gravity Model" *Journal of Asian Economics*, Volume 12(2001): 263-290.
- _ Huang, Deng-Shing and Jenn-Hwa Tu (1994). "On the Feasibility of Economic Cooperation in East Asia: Perspectives from Trade Creation and Trade Diversion", *Journal of Economic Integration*, 9(3): 291-311.
- _ Huntington, Samuel P. (1993). "The Clash of Civilization", *Foreign Affairs*, 72: 22-49.
- _ Jafri, S. Hussain Ali. "Muslim Economic Community: Is it Feasible?" Paper Presented at 1997 SWFAD Meetings held in New Orleans.
- _ Mehanna, Rock-Antoine. "Is the Gulf Cooperation (GCC) a Successful Trading Bloc?: A Middle Eastern Framework," (with R. Mehanna) *The Middle East Business and Economic Review*, Volume 14, No. 1, July 2002: 18-28.
- _ Naqvi, Syed Nawab Haider. "Globalization, Regionalism and the OIC", *Journal of Economic Cooperation Among Islamic Countries*," Vol. 19, Numbers 1-2, January-April , 1998: 257-284.

دراسات في الشأن الإسلامي

-
- _ SESRTCIC. "Regional Economic Groupings of the OIC Countries, Volume 21, Number 2 (2000): 67-114
 - _ SESRTCIC. "*Practical Steps and Possible Consequences of Establishing an Islamic Common Market*, Volume 24, Number 1 (2003): 111-152
 - _ Viner, J. (1950). *The Customs Issue*, New York: Carnegie Endowment for International Peace.

قواعد النشر

أولاً: تعريفات:

- ١ - كتاب رابطة العالم الإسلامي الدوري هدفه: إتاحة الفرصة لعموم الباحثين لنشر دراساتهم في شؤون العالم الإسلامي، وقضايا المعاصرة، والدراسات المقارنة التاريخية لتراث الشعوب الإسلامية.
- ٢ - يصدر الكتاب مرتين في العام.
- ٣- المواد التي يمكن نشرها في الكتاب هي:
 - ١ - البحوث والدراسات العلمية الأصيلة.
 - ٢ - ترجمات البحوث العلمية الجادة.
 - ٣ - دراسة وتحقيق مخطوطات التراث الإسلامي.
 - ٤ - أعمال الفهرسة البيليوجرافية .
 - ٥ - مراجعات وعروض الكتب والبحوث المنشورة.
 - ٦ - تقارير الندوات والمؤتمرات العلمية.
 - ٧ - ملخصات الرسائل الجامعية المتميزة.
 - ٨ - مع اشتراط كون العمل لم ينشر من قبل ولم يقدم لدى جهة أخرى للنشر.
- ٤ - إذا كان العمل مما ذكر في (١، ٢، ٣، ٤) فيستحسن ألا يزيد عن خمسين صفحة، وإذا كان مما ذكر في (٥، ٦، ٧) فيستحسن ألا يجاوز عشر صفحات.
- ٥ - ترتيب الموضوعات يخضع لاعتبارات فنية.
- ٦ - تعذر الرابطة عن نشر ما لا يتفق وتوجهاتها.

ثانياً: التزامات الباحث وحقوقه: يستحسن أن :-

- ١ - يقدم الباحث عمله منسوخاً على أنظمة الحاسب الآلي المتوافقة مع (IBM) مع ثلاث نسخ ورقية منه، ويحسن أن يكون وفق المواصفات الآتية:
 - الكتلة الطباعية «١٢×١٩» سم، البنت للمتن «١٦» وللهامش والمراجع «١٣» والعناوين بنت «١٨ - ٢٤» والمسافة بين السطور مسافتان.
 - ٢ - يرفق ملخصاً كافياً «باللغتين العربية والإنجليزية في حدود (٢٠٠) كلمة.
 - ٣ - ملخص السيرة العلمية للباحث بورقة مستقلة.
 - ٤ - أصول الأشكال والصور.
 - ٥ - تقدم الإحالات المرجعية بطريقة واحدة من الطرق المعتبرة وبرقم تسلسلي واحد.
 - ٦ - توضع المصادر والمراجع في نهاية البحث مرتبة حسب الترتيب الهجائي وحسب اسم العائلة للباحث ثم الأسماء الأولى أو اختصاراتها، متبوعة بالعنوان مع تمييزه وإيراد معلومات الطبع.
 - ٧ - يمنح الباحث أو المترجم أو المحقق أو كاتب المناقشة أو التقرير أو المراجعة، أو ملخص الرسالة مكافأة مناسبة رمزية وخمس نسخ من العدد الذي ينشر فيه.